الدولة العثمانية

دَوْلَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ مُفْتَرَى عَلَيْهَا

تأليف

أستاذ دكتور

عبد العزيز محمد الشناوى

الجزء الثانى



مكتبة الأنجلو المصرية

الدَّولة العُثمانيَة

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر
فرع البنات بالقاهرة

الجزء الثانى

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم الكتـــاب: الدولة العثمانية (الجزء الثاني)
اسم المولف: د/ عبد العزيز الشناوي
اسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
اسم الطــابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقـــم الايـــداع: 9326 لسنة 2004
الترقيم الدولي: I-S-B-N 977-05-2046-2

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل رب زدنى علماً »

مقدمة الجزء الثانى

استكمل المؤلف فى هذا الجزء ، الرسالة التى حددها لنفسه منذ الصفحات الأولى من الجزء الأول من هذه الموسوعة الثرية المعنونة بـ «الدولة العثمانية – دولة إسلامية مفترى عليها» ، حيث يعاود رفع ماحاق بتاريخ هذه الدولة من غبن وظلم..

يقع هذا الجزء فى عشرة فصول ، تحكمها منظومة ثلاثية الأبعاد ، يرتكز بعدها الأول فى مناقشة تلك الإدعاءات والصور التى صاحبتها من حملات التشهير فى الفصول من الأول إلى الرابع ، بينما يتناول البعد الثانى خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة فى الفصول من الخامس إلى السابع .. ويناقش البعد الثالث الآراء المحايدة التى قيلت فى حكم السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى فى الفصول من الثامن إلى العاشر .

يناقش المؤلف فى البعد الأول بتحليل ثاقب حقيقة ماقيل من حملات التشهير ، وكيف أنها تركزت على ادعاءات تركز على أن الدولة العثمانية قد حرصت على حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها الفنيين المهرة ، وأنها لم تحقق إلا نجاحاً محدوداً فى الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا ، وقد ركز المؤلف على مناقشة جوهر الأسباب فيما ذهب إليه المتحاملون من باحثين ودارسين ومستشرقين ؛ إذ تناول مختلف العوائق الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؛ مدحضاً كل هذه الدعاوى بما حققته الولايات العربية كمصر وبلاد الشام والعراق من صلات مكثفة بالعالم الخارجى ، وكيف أنه كانت هناك عوامل انفتاح متعددة على العالم الخارجى ، أسهمت التجارة والسياحة إلى حد كبير فى ازدهارها . كما يبين المؤلف فى هذا البعد حقيقة نشأة قصة «المريض المشرف على الموت» باعتباره وصفاً لزم الدولة العثمانية ، وكيف جانبت حملات التشهير الصواب ، حين انطلقت فى سياق خاطئ ، غير معبر بصدق عن حقيقة ماتقوم به هذ الدولة.

وركز المؤلف فى البعد الثانى على ماقامت به الدولة العثمانية من خدمات جليلة للإسلام والعروبة ، تركزت أول ماتركزت فى حماية الأماكن الإسلامية المقدسة من مخططات الصليبية البرتغالية ، والمحافظة على إسلام وعروبة شمالى إفريقية ، وكيف أنها أعادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية من بين براثن إسبانيا ، وأنقذت

طرابلس من فرسان القديس يوُحنا . كما يذكر المؤلف نجاح الدولة العثمانية فى إيجاد وحدة على الطبيعة بين الولايات العربية ، وأنها أبعدت الزحف الاستعمارى عن الوطن العربى، طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون . ويتمثل أعظم إنجاز لهذه الدولة – فى هذا الصدد – فى منع هذه الدولة لليهود من استيطان سيناء ، وإحباط محاولتهم فى إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين ، ومنعها عقد مؤتمرات صيهونية فى فلسطين ، رغم ما مورس عليها من ضغوط من الدول الأجنبية .

وفيما يتعلق بالجانب المحايد والموضوعى فى تناول حكم السلطان عبدالحميد الثانى ، فقد عمد المؤلف إلى ذكر حقيقة الأسباب والدوافع وراء حمالات التشهير المتعددة التى تعرض لها السلطان عبدالحميد الثانى ، مستنتجاً من خلال ذلك طبيعة الدوافع والأسباب التى سبقت اعتلاء السلطان العرش ، ومدى ماكان يتمتع به من دبلوماسية شديدة وثاقب نظر فى معالجة المتاعب والمعوقات التى لاقاها فى بداية توليه الحكم ، وكيف أن ذلك أسهم إلى حد كبير فى قدرته على تحقيق ماورد فى البعد الثانى من إنجازات للإسلام والعروبة ..

إن الكتاب الذى بين يديك – باعتباره الجزء الثانى من سلسلة الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها – ليحلل بعمق وموضوعية ومثابرة ، تحسب للمؤلف ، تجعلنا أمام محاولة جادة لاستخلاص مافى تاريخ هذه الدولة من مغالطات وخلط للحقائق .. لكى نرى تاريخ هذه الدولة بعين حيادية ، لاتهول الأخطاء ولاتستهين بالإنجازات .

الناشـــر

الفهـــرست

الفصل الأول

نزول ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار (٢٩٠) أولاً : الاستعمار الألمانى(٢٩٠) ثانياً : الاستعمار الإيطالى (٢٩١) مكافحة الإجرام من أسباب الاستعمار الإيطالى (٢٩١) عوامل أخرى دفعت إيطاليا إلى الاستعمار (٢٩٢) ثالثاً : الاستعمار البلجيكى : مؤتمر برلين الإفريقى (١٨٨٤-١٨٨٥)(٢٩٤) التنافس الاستعمارى على منطقة الخليج العربى (٢٩٦)بوادر تسلل استعمارى أمريكى (٢٩٩) اضمحلال الدولة العثمانية قبل ارتقاء عبدالحميد الثانى العرش (٣٠١) تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية (٣٠٣) لم تكن الدول الاستعمارية قد بلغت حد التشبع إبان حكم عبدالحميد (٣٠٤) وسائل الدول الاستعمارية فى بسط سيطرتها (٣٠٥) .

الفصل العاشر

آراء محايدة فى

حكم السلطان عبدالحميد الثانى (٣) ٣٠٧ - ٣٥١

الحقيقة الثانية(٣٠٧) دبلوماسية عبدالحميد لإحباط مؤتمر الآستانة (١٨٧٦-١٨٧٧)(٣٠٩) عبدالحميد يتلقى إنذاراً من الدول (٣١٢) الروسيا تعلن الحرب رسمياً على الدولة (٣١٣) الأحداث السياسية والدينية فى أثناء الحرب (٣١٤) من أخطاء السلطان عبدالحميد (٣١٥) نجاح الدبلوماسية الروسية فى أثناء الحرب (٣١٦) أمجاد عسكرية حققتها القوات العثمانية (٣١٧) عبدالحميد يطلب وساطة الدول لدى قيصر الروسيا لوقف إطلاق النار (٣١٨) ظهور مشكلتين لم تكونا فى حسبان عبدالحميد(٣١٩) .

(١) رغبة اليونان فى دخول الحرب ضد الدولة (٣١٩) الروسيا تعرض على اليونان الاشتراك فى الحرب (٣٢١) .

(٢) ثورة كريت (٣٢٢) .

وصول القوات الروسية إلى ضواحى إستانبول (٣٢٤) شروط جائرة فرضتها الروسيا لعقد هدنة (٣٢٤) بريطانيا ترسل أسطولها إلى البوسفور (٣٢٤) الروسيا تطلب إرسال أسطولها إلى

* * *

الفصل الأول

صور من حملات التشهير بالدولة(١)

الفكرة وراء حملات التشهير :

أشرنا فى مستهل الفصل الأول من هذه الدراسة إلى بعض الملامح العامة لحملات التشهير التى تعرضت لها الدولة العثمانية فى مسيرتها الطويلة عبر العصور والأدهار والأحقاب من كبريات الدول الأوروبية الاستعمارية والبابوية فى روما والصهيونية العالمية وغيرها من القوى الضالعة معها . واستهدفت هذه الحملات التشهيرية النيل من الدولة : سلطاناً مسلماً ، وحكومة إسلامية ورعايا مسلمين . وأسهم فى هذه الحملات رجال الحكم والسياسة والدين والمؤرخون والباحثون وغيرهم فى أوروبا . وردد عدد من أقرانهم العرب فى العصور المتأخرة جوانب كثيرة من هذه الحملات بحيث استقرت فى أذهان الكثيرين مفاهيم خاطئة عن الدولة .

وكان مرد هذه الحملات إلى أن الدولة العثمانية كانت أول دولة إسلامية فى التاريخ استطاعت أن تفتح الجزء الجنوبى الشرقى فى أوروبا . وكانت تحارب فى أول الأمر فى جبهتين فى وقت واحد : جبهة أناضولية للقضاء على الدول المسيحية والكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك فى شبه جزيرة الأناضول ، وجبهة أوروبية بعد أن عبرت جيوشها البحر إلى أوروبا وانتقلت من نصر إلى نصر تكتسح الأقاليم الأوروبية وتنساب غرباً فى سهول المجر وتدخل عاصمتها بودابست وتقترب من مشارف ڤيينا عاصمة النمسا . وإذا كانت قد طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس بعقد معاهدة غرناطة عام ١٤٩١ ، فإن الدولة العثمانية قد استبدلت بهذه الهزيمة انتصارات إسلامية مؤزرة على أرض القارة الأوروبية وحوض البحر المتوسط وشمالى إفريقية حيث نشب صراع صليبى عنيف حمل لواءه البرتغاليون والإسبانيون ، وابتغوا من ورائه الاستيلاء على أقاليم شمالى إفريقية وتحويل سكانها إلى المسيحية . ونظر الأوروبيون إلى الدولة على أنها دولة إسلامية حربية من الطراز الأول تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام(١) . ومن هنا نبتت حملات التشهير بالدولة سواء وهى فى أوج مجدها أو فى

(١) يقسم الفقه الإسلامى العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب . وتشمل الأولى البلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليها . وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم «الذميون والمستأمنون» وسنشرح مدلولهما عند الكلام على معاهدات الامتيازات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . أما دار الحرب فتشمل البلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولاتقام فيها أكثر شعائر الإسلام .

عصر اضمحلالها أو بعد زوالها . وقد امتدت هذه الحملات إلى ممتلكات الدولة فى أوروبا وإلى ولاياتها العربية . وسنعرض نماذج لهذه الحملات من كلا النوعين .

نماذج لحملات التشهير :

أولاً: حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها المهرة الفنيين

كانت من أولى الحملات التى وجهت ضد الدولة العثمانية أن السلطان سليم الأول بعد أن فتح مصر عام ١٥١٧ أمر بترحيل أفواج كثيفة العدد من صفوة علماء الفقه الإسلامى وأصوله ومذاهبه وعلوم القرآن الكريم والتفسير والحديث والتوحيد والأحكام والإفتاء ، وغيرهم من كبار الموظفين والتجار والصناع من حى خان الخليلى وموظفى الحسابات الحكومية ورجال الأعمال . وكانوا يضمون عدداً من المسيحيين من ذوى المهارات الخاصة . وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنزلتهم السلطات العثمانية تباعاً فى سفن نيلية شقت طريقها إلى الإسكندرية ، ومنها استقلوا السفن العثمانية إلى إستانبول .

وترحيل هذه الثروة البشرية إلى إستانبول واقعة صحيحة لامراء فيها ، ذكرها المؤرخ المصرى العملاق محمد بن أحمد بن إياس ، وكان معاصراً لأحداث الفتح العثمانى لمصر، وكان لايكن تقديراً للعثمانيين بعامة والسلطان سليم الأول بخاصة . ونظر إليهم على أنهم كانوا السبب المباشر فى انقضاء حكم دولة المماليك الشراكسة ، وكان يتبوأ فيها مكاناً علياً ، وقد أضاف ابن إياس إلى واقعة ترحيل المصريين إلى استانبول نتيجة مهمة هى «تعطل فى مصر نحو خمسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ، ولم تعمل فى أيامه بمصر» (١) .

وتلقف فريق من المؤرخين والباحثين الأوروبيين هذه الحقيقة التاريخية دون تمحيص أو متابعة لما كتبه ابن إياس بعد ذلك فى هذا الموضوع بالذات . والواقع أن هذه الحقيقة كانت قصيرة الأمد لم تطل أكثر من ثلاث سنوات . والجملة الأخيرة التى اختتم بها ابن إياس عبارة تفيد هذا المعنى كما سنوضح بعد قليل . ولكن أقام المتحاملون صروحاً من الخيال الواسع ، فقالوا إن حرمان البلاد العربية من ذلك الرصيد البشرى المتميز والمتمايز قد أضر بالحياة الفكرية فى مصر وبر الشام ، وأعاق النشاط المهنى والحرفى فيهما ، وأنه عاد بالنفع الجزيل على عاصمة الدولة . وذهب بعضهم إلى القول بأنه كان نوعاً من النفى L'exil ، وأن العرب الذين فرضت عليهم الإقامة الجبرية فى إستانبول كانوا فى عداد المنفيين(٢) Les Exiles ، وهى حقيقة

---

(١)ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج٥ ، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، ص٢٠٧ ، حوادث شهر شعبان ٩٢٣ .

(٢) لعل منشأ هذه التسمية أنه كان يوجد فى إستانبول معتقل أو سجن يسمى «يدى قوله» أى قلعة الأبراج السبعة (انظر ماسبق عن هذا المعتقل) وكان يعتقل فيه بعض الشخصيات العثمانية والأجنبية . وكان =

تتهاوى حين نعلم أن معظمهم رفضوا العودة إلى مصر بعد ذلك (١) . ويلاحظ أيضاً أن إستانبول كانت وقتذاك أجمل وأكبر مدن العالم الإسلامى ومن أكبر مدن أوروبا . إن مايمكن أن يذكره باحث محايد أن مصر قد قامت كرهاً فى أثناء إقامة سليم الأول فى مصر بدور دولة رائدة فى تصدير بشرى حضارى إلى إستنابول . وهو الدور ذاته الذى تقوم به مصر طوعاً فى القرن العشرين بشكل أكثر وضوحاً وبروزاً وقوة وشمولاً بتصدير العقول المصرية والعمالة المصرية والخبرات المصرية إلى شتى أنحاء العالم الإسلامى والعربى .

نشير بعد هذه الوقفة القصيرة إلى عدة حقائق ، منها :

أولاً: السلطان سليم صاحب نظرية ترحيل العناصر البشرية العلمية والعملية من البلاد العربية إلى إستانبول قد غادر القاهرة يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٩٢٣ الموافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧ إلى بلاد الشام فى طريق عودته إلى عاصمة دولته - ولكن لم يطل به العمر إذ قضى نحبه فى التاسع من شهر شوال عام ٩٢٦ الموافق الثانى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ . والمعنى المستفاد من هذا التسلسل التاريخى أنه لم يظل على قيد الحياة إلا زهاء ثلاثة أعوام ، وخلفه على العرش ابنه السلطان سليمان المشرع . وكان من أولى تصرفاته أنه أصدر فرماناً بأن يعود إلى مصر جميع العلماء والعمال الذين كان والده قد أمر بترحيلهم من مصر (٢) .

ثانياً : على الرغم من صدور هذا الفرمان السلطانى ، رفض المصريون العودة إلى بلادهم وفضلوا البقاء فى إستانبول ، ومعنى هذا الرفض أن الحياة طابت للمصريين فى

= السلطان سليم قد أمر بإيداع المتوكل ، الخليفة العباسى فى القاهرة ، فى هذا المعتقل حين علم أنه مستغرق فى النسائيات وأنه يرتكب أموراً لاتتفق مع مركزه الدينى ، ولما توفى سليم رأى ابنه السلطان سليمان أن خليفة على هذا الخلق لايستحق أن يودع فى المعتقل ، فأمر بإعادته إلى مصر حيث عاش على هامش الحياة إلى أن أدركته الوفاة . وكذلك أمر السلطان سليم بأن يودع فى هذا المعتقل الأمراء والمماليك والشراكسة الذين أظهروا لدداً فى عدائهم للعثمانيين . ولما تولى سليمان العرش ظل على رأى والده ولم يقبل فيهم شفاعة .

انظر :

ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج٥ ، ص٤٠٢ من حوادث شهر رمضان عام ٩٢٧ (الخامس من شهر أغسطس - آب - حتى الثالث من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢١) .

(١) انظر ص٦٩٣ .

(٢) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج٥ ، ص٣٩٤ ، من حوادث شهر جمادى الأولى عام ٩٢٧ حيث يقول «وفى هذا الشهر حضر جماعة كبيرة من إستانبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخرجهم من مصر . فلما مات سليم شاه بن عثمان واستقر ولده سليمان بعده رسم بعود الأسراء قاطبة إلى بلادهم . ورأف عليهم ، وأظهر العدل فيهم ..» .

إستانبول . ويبدو أن فرص العمل كانت أمامهم كثيرة وميسرة وأن رزقهم كان يأتيهم رغداً من كل مكان ، أو لعلهم تزوجوا شركسيات واقتنوا الجوارى الفاتنات ، أو لسبب أو آخر .

ثالثاً : لما أدرك السلطان سليمان المشرع أن المصريين يرفضون مغادرة إستانبول ويؤثرون الإقامة فيها على العودة إلى مصر ، أصدر فرماناً لاحقاً فى شهر رجب عام ٩٢٧ (٧ من يونيو - حزيران - إلى ٦ من يوليو - تموز - عام ١٥٢١) أمر فيه بشنق كل مصرى يرفض العودة إلى مصر أو يتباطأ فى العودة إليها (١) .

رابعاً : نجم عن هذا الفرمان أن تعاقب وصول المصريين أفواجاً إلى مصر ، حتى اتخذت عودتهم شكل ظاهرة طرأت على المجتمع فى مصر فى ذلك الوقت . وكان ابن إياس لايزال مقيماً فى القاهرة . وأشار إلى هذه الظاهرة فى أكثر من موطن فى يومياته(٢) ، بل إنه كان يذكر بصفة كادت تكون رتيبة أسماء المصريين العائدين إلى مصر . وكان بعضهم يحضر براً والبعض الآخر بحراً . وقد نظر ابن إياس إلى تصرف سليمان المشرع بإعادة المصريين إلى بلدهم على أنه مأثرة من مآثر هذا السلطان . وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يؤتيه من لدنه نصراً مبيناً لأنه سمح للمصريين بالعودة إلى بلدهم (٣) .

خامساً : إن حرمان مصر من بعض عناصرها البشرية المنتجة لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات على أكثر تقدير . وقد تكون هذه الفترة الزمنية ذات بال على حياة فرد ، ولكنها لاتكون بأى حال من الأحوال ذات أثر يعرقل مسيرة شعب ، لأن شعوب الأمة العربية لم تبدأ من فراغ ، وإنما هى ذات ماض حضارى يطاول الزمان وجوداً . وقد عاد أهل الفكر والصناعة إلى مصر بعد غيبة ثلاث سنوات، وباشروا نشاطهم العلمي والمهنى والحرفى فى ربوع البلاد . ولما جاء بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨ على رأس الحملة الفرنسية بعد قرابة ثلاثة قرون (١٥١٧-١٧٩٨) كان الأزهر يموج بنشاط علمى . ونظر بونابرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ، استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصفوة الممتازة من الطبقة المستنيرة فى البلاد المتعمقون فى الدراسات الدينية واللغوية أو السربونيون Les Sorbonistes ، وأما الصفة الثانية فهى أنهم زعماء الشعب فى مصر(٤) . ومارس فى الوقت ذاته أيضاً الصناع

(١) المصدر السابق ، ج٥ ، ص٣٩٧ .
(٢) انظر على سبيل المثال : المصدر السابق ، ص٣٩٦ ، ٣٩٨ ل٤٠٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ ، ٤٥٧ .
(٣) المصدر السابق : ص٤٠٣ .
(٤) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : صور من دور الأزهر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٥-٦ .

والعمال المهرة المصريون نشاطهم المهنى والحرفى فى خان الخليلى وأسواق العقادين والنحاسين والصاغة والسروجية وغزل ونسج الأقمشة الكتانية والقطنية وتطريز الحرير والجوخ والجلود بأسلاك الذهب والفضة ، والأخشاب المخروطة فى عمل المشربيات والنوافذ وصناعة العاج وغيرها .

سادساً: استخدم ابن إياس الدقة فى الصياغة اللفظية ، حين ذكر الإجراء الذى اتخذه السلطان سليم بتصدير الخبرات المصرية إلى إستانبول ، وقال إنه نجم عن هذا التصرف تعطل نحو خمسين صنعة فى مصر «لم تعمل فى أيامه فى مصر» . وهو أسلوب بارع فى التعبير يوضح أن التعطل العلمى والمهنى قد حدث إبان حكم هذا السلطان ثم استأنف أصحاب الخبرات نشاطهم بعد انقضاء حكمه . وقد فات هذا التعبير وهذا المعنى معظم المؤرخين والباحثين العرب فى القرن العشرين . ومع ذلك يعيب البعض على أسلوب ابن إياس أنه ملئ بالألفاظ العامية ، ولكن اتضح أن النسخة المختصرة لكتابه هى التى كتبت باللغة الدارجة – أما النسخ المطولة التى كتبت بخط المؤلف أو طبق الأصل منها – فهى بأسلوب مصقول جيد وإن كانت مليئة بكثير من الألفاظ والأساليب غير العربية؛ لانتشار اللسان التركى فى مصر بين طبقات الخاصة فى العصر المملوكى ولأسباب أخرى [1] .

واستكمالاً لبحث جميع جوانب هذا الموضوع ، تبقى نقطة أخيرة هى مناقشة رأى فريق من أساتذة التاريخ فى بعض الجامعات العربية ، لأن كثيرين منهم يذكرون جانباً واحداً من الحقيقة ، وهو أن السلطان سليم الأول أصدر الخبرات العلمية والفنية إلى إستانبول ، ويغفلون ذكر الجانب الثانى ، وهو أن هذه الخبرات عادت إلى مواقعها واستأنفت نشاطها بعد ثلاثة أعوام ، وهذا الإغفال يتنافى مع مناهج البحث العلمى . ويرجع التفسير المحايد والموضوعى لرأيهم إلى أن هؤلاء الزملاء اكتفوا بما كتبه المؤرخون والباحثون الأوروبيون أو المتحاملون ، ولم يتابعوا ماكتبه ابن إياس فى الجزء الخامس من كتابه عن السنوات الأولى من الحكم العثمانى فى مصر عقب وفاة السلطان سليم؛ أى فى خلال السنتين الأوليين من حكم ابنه السلطان سليمان المشرع، وهى فترة امتدت عامين وبعض عام ، وعلى وجه التحديد من ٩ من شوال ٩٢٦ (٢٢ من سبتمبر – أيلول – عام ١٥٢٠) حتى نهاية عام ٩٢٨هـ فى العشرين من شهر نوفمبر – تشرين ثان – ١٥٢٢ . وقد كتب ابن إياس تاريخ هاتين السنتين فى حوالى مائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير المطبوع [2]. ومن المستبعد جداً – إن لم يكن فى حكم الاستحالة – أن يعلم

(١) دكتورة سيدة إسماعيل كاشف : مكانة ابن إياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى ، من بحوث ندوة إبن إياس ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ص ص٤٧-٦٢ .

(٢) ابن إياس : ج٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٦٠-٤٩٤ .

أساتذة جامعيون عرب أجلاء الحقيقة بعنصريها ، ويكتمون العنصر الثانى ويكتفون بالعنصر الأول ، لأن فى هذا الإغفال تشويهاً للحقائق التاريخية وإساءة للدولة العثمانية من غير مقتض . أما المتحاملون فلا حيلة لنا معهم إلا كشف زيفهم . إن مثلهم فى موقفهم كمثل الذى يذكر قول الله سبحانه وتعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة» ثم لايستكمل بقية الآية الكريمة التى هى جزء منها ولايستقيم المعنى دونها ، وهى «وأنتم سكارى . حتى تعلموا ماتقولون» (١) ، أو كالذى يذكر الآية القرآنية الكريمة «فويل للمصلين»(٢) ثم لايردفها بالآية التالية ، وهى : «الذين هم عن صلاتهم ساهون»(٣) .

ثانياً : عزلة الولايات العربية عن العالم

أما عن العزلة التى قيل إن الدولة العثمانية قد فرضتها على الأقاليم العربية التى دانت لحكمها .. فإن الأحداث الدولية التى سبقت ثم صبحت ثم لحقت الفتح العثمانى لهذه الأقاليم كفيلة بالرد على هذا الافتراء . فالعثمانيون فتحوا بلاد الشام عام ١٥١٦ ، ثم مصر عام ١٥١٧ ، وفى ذات هذه السنة دخل الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين كانوا يحتلون وقتذاك بعض مناطق فى اليمن . وهكذا دخلت فى خلال عام وبعض عام أربعة أقاليم عربية تحت السيادة العثمانية . وظهرت الدولة العثمانية لأول مرة فى تاريخها دولة من دول البحر الأحمر تطل مصر والحجاز واليمن على ساحليه الغربى والشرقى .

ولكن حدث قبل أن تدخل هذه الأقاليم الإسلامية العربية تحت الحكم العثمانى ، وقبل أن تصبح الدولة العثمانية من دول البحر الأحمر ، أن بدأ الغزو البرتغالى للبحار الشرقية ومنطقة الخليج العربى بوصول طلائع الغزاة البرتغاليين تحت ستار الكشوف الجغرافية . وكانت تحملهم سفن مسلحة بقيادة ڤاسكو دى جاما Vasco de Gama وألقت مراسيها فى ثغر كاليكوت Calicut على الساحل الغربى للهند فى اليوم الثامن عشر من شهر مايو – آيار – ١٤٩٨ ؛ أى قبل وصول العثمانيين لتلك الأقاليم العربية التى دخلت تحت سيادتها بتسعة عشر عاماً (١٤٩٨–١٥١٧) . وكان هذا الغزو البرتغالى هو أول غزو عسكرى أوروبى مسيحى فى التاريخ الحديث لأجزاء من العالم الإسلامى والعالم العربى فى الشرق ، واستهدف تحقيق أغراض صليبية واستعمارية واقتصادية . وكان شعار هذا الغزو الطارئ «الصليب أو المدفع» ، أى كان على المسلمين أن يعتنقوا المسيحية ، أو يتعرضوا لقصف مدافع الأسطول تدك المدن والمساجد والمنشآت والسكان .

---

(١) سورة النساء . مطلع الآية رقم ٤٣ .
(٢) سورة الماعون . الآية رقم ٤ .
(٣) سورة الماعون الآية رقم٥ .

كما كان من أهداف البرتغاليين الاستيلاء على أقاليم شاسعة فى الهند وشرقى الجزيرة العربية وجنوبيها وأقاليم مطلة على البحر الأحمر والساحل الشرقى لإفريقية المطل على المحيط الهندى وجنوبى شرق آسيا وغيرها ، ثم تطور هذا الهدف إلى إنشاء مراكز تجارية مسلحة فى هذه الأقاليم ؛ نظراً لأن إنشاء هذه «الإمبراطورية» الشاسعة كان يتطلب قوات عسكرية كبيرة وكانت البرتغال تعانى من عدم كثافة سكانها . وكان من أهم أهداف البرتغاليين أيضاً احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم بالحصول عليها من مصادر إنتاجها أو مواطن صنعها . وكان من هذه السلع العقاقير الطبية والأقمشة الحريرية والتوابل والبخور والعطور وغيرها ، ثم يتولى البرتغاليون نقل هذه السلع بمعرفتهم عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى لشبونة حيث يتم توزيعها وتسويقها فى دول أوروبا . وقد نجحوا إلى حد بعيد فى تحقيق هذا الهدف الأخير وطاردوا السفن الإسلامية والعربية فى مياه المحيط الهندى مما أدى إلى إغلاق الطريقين التجاريين القديمين التقليديين وهما : طريق الخليج العربى والعراق ثم إلى الشام حيث كانت السفن الأوروبية تتردد على أساكلها [1] ، تشحن منها شتى سلع التجارة العالمية وتنقلها إلى الدول الأوروبية . أما الطريق الآخر فكانت السفن العربية الإسلامية تمر منه فى البحر الأحمر إلى السويس ، ثم تنقل السلع على ظهور الإبل إلى القاهرة ومنها فى النيل إلى أساكل مصر مثل الإسكندرية ودمياط ورشيد .

البرتغاليون يستهدفون تخريب مكة المكرمة والمدينة المنورة :

وضع البرتغاليون أيضاً مخططاً صليبياً خطراً للغاية تمثل فى دخولهم البحر الأحمر وفى استيلائهم على جدة، ثم الزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومواصلة الزحف بعد ذلك إلى تبوك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وكان الشريف بركات أمير مكة المكرمة قد ارتاب فى ثلاثة أشخاص تسللوا إلى مكة المكرمة . وكانوا يحومون حول المسجد الحرام متظاهرين بأنهم مسلمون ، ويرتدون زى العثمانيين ، ويتكلمون العربية والتركية . فأمر بالقبض عليهم . وبالكشف على أجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان . وباستجوابهم اتضح أنهم جواسيس برتغاليون بعثت بهم سلطات لشبونة ليعملوا أدلاء للجيش البرتغالى الصليبى عند دخوله مكة «وقد وضعهم فى الحديد وبعث بهم إلى السلطان الغورى»[2] . وقد وقع هذا الحادث فى عام ١٥١٠ ، أى قبل امتداد النفوذ العثمانى إلى البحر الأحمر بحوالى سبعة أعوام . وكان السلطان الغورى قبل زوال دولة

---

(١) أساكل كلمة تركية مفردها أسكلة بمعنى الميناء ، أو رصيف السفن ، أو مرسى السفن .
أنظر مشتقات هذه الكلمة وأصلها الإيطالى فى ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

(٢) ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج٤ ، ص١٩١ .

المماليك الشراكسة قد خاض صراعاً حربياً عنيفاً ضد البرتغاليين ، وخرج أسطول المماليك من البحر الأحمر إلى الهند لضرب البرتغاليين . ولكن باءت محاولاته بالفشل ، لأن المعارك كانت تدور فوق سطح الماء . وكان الأسطول البرتغالى أكثر قوة وتسليحاً وتدريباً ؛ وبحارته أكثر خبرة وكفاية فى الفنون البحرية الحربية من بحارة الأسطول المملوكى . وكان البرتغاليون بعد وصولهم إلى الهند قد نقلوا جزءاً من نشاطهم الحربى إلى منطقة الخليج العربى وبحر العرب واستولوا على مسقط وهرمز والبحرين وقلهات على ساحل عمان ، وقريات ، وصحار ، وحور وغيرها وجزيرة سقطرى Socotora أو Socotra وضربوا ساحل عمان . وعلى الرغم من أنهم فشلوا فى احتلال عدن ، نجحوا فى دخول البحر الأحمر . وبعد أن ضربوا بعض الجزر القريبة من مدخله الجنوبى وبعض ثغوره اتجهوا عام ١٥١٧ لاحتلال جدة . وكانت دولة المماليك الشراكسة قد لفظت أنفاسها الأخيرة . وباءت بالفشل محاولة البرتغاليين . ثم قاموا بهجوم ثان عليها عام ١٥٢٠ ولكنهم فشلوا أيضاً . وحاول السلطان سليمان المشرع ضرب البرتغاليين بإرسال حملة كبرى عام ١٥٣٨ ، وقد نجحت الحملة فى الاستيلاء على عدن ، وفشلت فى ضرب البرتغاليين فى الهند . ورد البرتغاليون على الدولة العثمانية بحملة بحرية كبرى دخلت البحر الأحمر واتجهت إلى ميناء السويس ، وهى مقر القاعدة العثمانية البحرية . ولكنها ولت مدبرة على أعقابها بعد أن تبين لها أن الأسطول العثمانى فى حالة تأهب . وقررت الدولة العثمانية وضع خطة جديدة لحماية الولايات العربية الخاضعة لها ، وتتمثل هذه الخطة فى اتخاذ عدن – وهى البوابة الكبرى للبحر الأحمر – خط دفاع وقاعدة عسكرية لضرب المراكز البرتغالية فى شرقى الجزيرة العربية وللسيطرة على البحر الأحمر ، وزيادة نشاط الترسانة البحرية فى السويس فى بناء سفن حربية جديدة وعديدة . وتنفيذاً لهذا المخطط العسكرى قررت الدولة ، كإجراء أمن داخلى وخارجى ، إغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن البرتغالية ، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية ؛ فكان لايسمح لها بالإبحار فى البحر الأحمر فيما وراء ثغر المخا جنوبى ثغر الحديدة فى اليمن ، فتفرغ شحناتها ويعاد شحن حمولاتها على سفن إسلامية تجوب أنحاء البحر الأحمر ، وتتردد على ثغوره وموانئه . وكانت ذريعة الدولة العثمانية فى هذا المنع هى أن أهم الأماكن المقدسة الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز . ويطل ساحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . وتأسيساً على هذه الحقيقة يجب ألا تبحر فيه إلا السفن الإسلامية ، وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر .

السلطان سليم يعقد معاهدة مع جمهورية البندقية لتشجيع البنادقة على ممارسة نشاطهم في مصر :

ولكن قبل اتخاذ هذا الإجراء ، وفى أثناء إقامة السلطان سليم الأول فى مصر ، وقد

امتدت ثمانية أشهر (١)، عقد هذا السلطان في اليوم الثاني والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٥١٧ معاهدة بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية لتشجيع رعايا هذه الجمهورية على القدوم إلى الإسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنينة والعدالة والأمن . وقد نشر الأستاذ إتين كومب Etienne Combe أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقاً اثنتين وثلاثين مادة من هذه المعاهدة(٢) . وقد جاء فى ديباجتها أو مقدمتها أن هذه المعاهدة موجهة بصفة خاصة إلى حاكم الإسكندرية وموظفيها العموميين وضباط الشرطة ومن إليهم كى يحاطوا علماً بأن الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الشراكسة لرعايا جمهورية البندقية تستمر نافذة ، بعد أن وافق عليها السلطان سليم الأول.

وقد نصت المادة الأولى على أن رعايا جمهورية البندقية يقابلون من الجميع بترحاب وعدالة وسلوك اجتماعى ممتاز . ولايجوز لأحد أن يوجه إليهم إهانة أو يظهر استعلاء عليهم فى جميع الموانىء المصرية . ومن حقهم البيع والشراء ، والأخذ والعطاء . ولاتجوز مساءلتهم عن خطأ ارتكبه غيرهم من رعايا الدول الأخرى فى المدن المصرية أو شخص آخر من البنادقة . ويجب إعلان هذا المبدأ القانونى بين جميع القضاة وأعضاء الهيئات المسئولة ، كما يجب معاملتهم طبقاً للأصول والتقاليد والعادات المتبعة دون أى تعديل .

ونصت المادة الثانية على تجنب إلحاق أى ضرر أو أذى أو مضايقة للبنادقة أو الاستيلاء بالقوة على ممتلكاتهم أو متاجرهم أو سفنهم أو ماتحويه مخازنهم ، ولايحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع إذا لم يوافقوا على هذا البيع ، كما لايجبرون على دفع عوائد غير عادية وتعسفية .

Ne pas molester les Vénitens, ni rien saisir de leurs biens, ni de leurs marchandises, par violence, ni sur leurs bateaux, dans leurs magasins, ne pas les obliger de vendre, s'ils n'y consentent pas; ne pas leur faire.. payer des taxes extraordinaries et abusives.

ونصت المادة الثالثة على أنه فى استطاعة القنصل أن يبيع السلع نقداً .

أما المادة الخامسة فقررت أن القنصل دون سواه هو الذى يتولى السلطة القضائية بين

(١) دخل السلطان سليم القاهرة فى الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣ وكان يوافق اليوم السادس والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١٧ وغادرها عائداً إلى بلاده فى الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٩٢٣ وكان يوافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧ .

(2) Combe Etienne, Précis etc, op. cit, t. III, PP. 96-101.

مواطنيه ويبت فى الأمور المتصلة بمصالحهم . فإذا رفض أحدهم الانصياع إلى حكم أصدره القنصل ولجأ إلى القاضى المسلم للطعن فى هذا الحكم أو لكى يستشكل فى تنفيذه فإن القاضى المسلم لايستمع إلى دعواه ، وعليه أن يحيل الموضوع إلى القنصل . وإذا أراد القنصل إبعاد أى بندقى فعلى القاضى أن يقدم له مساعدة قوية . وليس فى استطاعة أى فرد من رعايا جمهورية البندقية مغادرة الإسكندرية فى سفينة للذهاب إلى بلاده أو إلى أى مكان آخر ، إلا إذا حصل من القنصل على إذن – جواز سفر .

ونصت المادة السادسة على أنه إذا وصلت سفينة تابعة لجمهورية البندقية إلى ميناء الإسكندرية .. فليس من حق أى موظف مصرى أن يصعد إليها أو يحصل منها على مايريد ، ولا أن يحتك بأى فرد فيها ، ولايسمح له بالتواجد عليها إلا فى حالة الشراء فقط . وهذا الحق مقصور بوجه خاص على السفن التى تحمل الفواكه والعسل .

وقررت المادة السابعة منع أى فرد ، سواء كان محافظ المدينة – الإسكندرية – أو أحد أعيانها ، أو أحد عامة الشعب ، أو أحد قباطنة الميناء أو السفن ، أن يستولى على سفن جمهورية البندقية القادمة (إلى الميناء) أو – على ملاحيها – طاقمها – أو أدواتها أو مجاديفها سواء عن طريق السلفة أو الشراء .

Personne, ni gouverneur de la ville, ni notables, ni gens du peuple, ni capitaines du port ou de navires, n'ont â s'occuper des bateaux vénitiens arrivant, ni de l'èquipage, ni du grèement, ni des avirons, ni de quoi que ce soit, ni pour les emprunter, ni pour les acheter.

وقررت المادة التاسعة أنه إذا رغب القنصل فى مقابلة أى موظف حكومى فى مقر منصبه وامتطى صهوة جواده ، أو إذا رغب فى الخروج إلى الحدائق أو إلى أى مكان بعيد ، فله أن يفعل ذلك دون أن يمنعه أحد أو يعترضه أحد . وكان هذا الامتياز قد جدد على عهد السلطان طومان باى .

ونصت المادة العاشرة على أن السلع التى تحملها سفينة تتعرض للغرق يتم إنقاذ سلعها ومراقبتها وتسلم لأصحابها . أما عتاد السفينة وأخشابها وأدواتها يكون ملكاً لصاحب الجلالة (السلطان) فترد إليه أو إلى المحافظ . أما السلع التى تقذفها الأمواج إلى الساحل نتيجة غرق إحدى السفن فإنها ترد إلى أصحابها إذا عرفوا أو أثبتوا ملكيتهم لها . فإذا لم يستطيعوا فإنها ترد إلى القنصل . والسفن التى تصل إلى الساحل سليمة بعد إنقاذها يجب المحافظة عليها .

أما المادة الحادية عشرة فقد قررت أن السفينة التى تلجأ ضد رغبتها إلى ميناء الإسكندرية لسوء الأحوال الجوية ، ولاترغب فى أن تفرغ أى جزء من حمولتها ، لها أن تتم

رحلتها إذا لم تكن تحمل أى سلع برسم الإسكندرية . أما إذا كان عليها سلع خاصة بالإسكندرية، وإذا قامت بهذه الرحلة بطريقة عادية فليس لها الحق فى أن تتجه إلى أى ميناء آخر على الساحل لتفريغ شحناتها . وعلى العكس إذا كانت شحنة السفينة من السلع التى لم يرد ذكرها فى المعاهدات ولايتاجر بها عادة فى الإسكندرية .. فإنها تستطيع أن تتجه إلى أى ميناء آخر ، ولكنها تمنع من التعامل أو الملاحة على مقربة من جميع السواحل المصرية .

Le bateau qui, vu le mauvais temps, entre dans le port d'Alexandrie, contre son gré, mais n'y décharge aucuné marchandise, pourra continuer sa course, s'il n'a à bord aucune marchandise detinée à Alexandrie. Mais s'ila ä bord des marchandises spéciales à Alexandrie, et s'il fait ordinairement ce trajet, il ne pourra pas se diriger vers un autre port de la côte. Par contre. si les marchandises ne sont pas de celles qu'on traite ordinairement à Aldexandrie, il peut le faire - (interdiction - de cabotage).

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه إذا وقع حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو فى إحدى الجزر التابعة لها أو إذا وقع نزاع ، فلا يسأل القنصل ولا أحد من أتباعه عن هذا الذى حدث ، كما أنهم لايتحملون النتائج المترتبة على الحادث . وإذا كان شخص مديناً لأحد رعايا السلطان فإنه يحجز حتى يسدد الدين . ويسرى هذا الحكم على الضامن أو الكفيل . ولكن لايقبض على برىء من أجل مذنب . ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان سواء فى موانىء البندقية أو مدنها الساحلية .

ونصت المادة الثالثة عشرة على أن القنصل معفى من دفع الضرائب والرسوم إلا فى الحالات التى يصدر فيها أمر من السلطان أو حكم قضائى .

وذكرت المادة الرابعة عشرة أنه إذا أسر أحد القراصنة [1]سفينة تابعة للبندقية وجاء لبيعها فى أحد الموانىء ، فممنوع على أى شخص أن يتقدم لشرائها .

ويجب إطلاق سراح السفينة ، إذا كان ذلك ممكناً ، كما يجب تحرير طاقمها وإعادة

---

(١) يحيط الغموض بكلمة قرصان un pirate فى هذه المعاهدة ، لأن الثابت تاريخياً أن فرسانا القديس يوحنا بعد انسحاب الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١م اتخذوا من جزيرة رودس معقلاً لهم يهاجمون السفن الإسلامية فى أعالى البحار ، ويأسرون فريقاً من ركابها ، ويغرقون فريقاً آخر ، ويستولون على شحنة السفينة ، ويقودونها إلى أحد موانئهم . وكانت هذه العمليات فى شتى مراحلها تندرج تحت وصف القرصنة . ومن الثابت تاريخياً أيضاً أن سكان شمالى إفريقية كانوا يتصدون لهم .. وكانت عملياتهم جهاداً دينياً إسلامياً بحرياً ضد السفن الصليبية . ولكن قلب المؤرخون والباحثون الحقائق وأطلقوا على سكان شمالى إفريقية قراصنة وعلى جهادهم الدينى الإسلامى البحرى قرصنة .

السلع إلى التجار .

Si un pirate a capturé un navire vénitien, et vient le vendre dans un port, aucun acheteur ne doit se présenter. Il faut libérer le bateau, si c'est possible, ainsi que l'équipage, et rendre les marchandises aux négociants."

ونصت المادة الخامسة عشرة على أنه إذا حدث نزاع بين عربى وإفرنجى ليس من رعايا البندقية ، فيجب عدم إهانة القنصل أو إلحاق الضرر به أو بالتجار أو بأحد من مواطنيهم أو بأحد ممن ينتمون إلى وكالتهم التجارية .

وذكرت المادة السادسة عشرة أنه يجب أن تحاط جميع السلطات علماً بهذه الأحكام . ويجب أن تدون فى سجل خاص .

أما المادة السابعة عشرة فقد خولت القنصل ، حسب المعتاد ، الحق فى أن يعين له نائباً عنه – نائب قنصل Vice-Consul فى البرلس .

وقررت المادة العشرون منع موظفى الجمارك أو الحمالين أو المفتشين – الكشافين – من مضايقة البنادق فى حالة إعادة تسليمهم الفواكه ، أو أى سلع أخرى تجلبها سفنهم .

ونصت المادة الثانية والعشرون على تخفيض الرسوم التى تدفع عند وفاة أى إفرنجى .

وقالت المادة الثالثة والعشرون إن الإفرنجى الذى يذهب من الإسكندرية إلى القاهرة أو إلى رشيد أو إلى دمياط لايحصل منه ضرائب إطلاقاً ، سواء عند وصوله إلى هذه الأماكن أو عند مغادرته لها .

وذكرت المادة الخامسة والعشرون أنه فى حالة نقل السلع المصدرة أو المستوردة من باب الجمرك إلى السفن وبالعكس لايطالب القنصل أو تجاره بشىء ما ، كما أنه لايجوز منع التجار من توزيع وبيع الأطعمة والفواكه المحفوظة والمسكرة للمسافرين .

وقررت المادة السابعة والعشرون أن من حق التجار البنادقة ممارسة كافة العمليات التجارية مع جميع الذين يتفقون معهم أو يتعاملون معهم ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً وذلك دون أى قيود . ولاتتم أى عملية تجارية فى المكان المخصص لوزن البضائع إلا بعد التحقق من صحة الوزن . ولايجوز منع أى ترجمان – مترجم – من تسجيل أى عقد أمام القاضى . ويتمتع القنصل وتجاره ووكالته التجارية وكل من يأوى إلى فندقه بواجب الحماية من لدن السلطان .

Ils (Les marchands vénitiens) peuvent faire toutes les opérations commerciales avec qui ils l'entendent, musulamns, chrétiens ou juifs, sans

aucune restriction. Aucune opération ne se fera dans le local de la pasée des marchandises, mais après que cette vérification aura eu lieu. Achère qui veut, sans restriction. Personne ne peut empêcher un drogman de dresser un contrat devant le juge. Le Consul, ses négociants, sa colonie et ceux qui se joignent à son fondique (les protégés jouiront de la protection de la sécurité".

وخولت المادة الثامنة والعشرون الحق للبنادقة فى شحن وتفريغ سلعتهم فى سفنهم وقواربهم الخاصة .

وقررت المادة الثلاثون ألا يتصدى أى فرد للقنصل أو للتجار البنادقة إلا عن طريق القضاء . ولايؤخذ الابن بجريرة الأب ، ولا الأب بجريرة الابن ، ولا الأخ بجريرة الأخ إلا إذا كان أحدهما ضامناً للآخر شخصياً ومالياً . أما الديون فيكون سدادها أو استعادتها طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية ولايجوز إكراه مستأجر سفينة على تسيير سفينته .

ونصت المادة الحادية والثلاثون على أن التجار البنادقة ومرافقيهم الذين يصلون إلى موانئنا ، يجب أن يعاملوا بكل احترام وتقدير من الجميع .

وجاء فى المادة الثانية والثلاثين أن قنصل البندقية قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالإعفاء من ضريبة البهار . ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغورى رسوماً جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنوياً ، ويطالب القنصل بإعادة تقرير هذا الإعفاء الضريبى ، وتقرر الاستجابة لهذا الطلب .

معاهدة البندقية رد علمى وعملى على المتحاملين على الدولة العثمانية :

إن الهدف من عرض ترجمتنا لأهم مواد هذه المعاهدة إنما هو الرد العلمى والعملى على الفرية ، التى يرددها المؤرخون والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية بأنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا . فعلى الرغم من أن الحكم العثمانى لم يكن قد استقر تماماً فى مصر ، أقدم السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى مصر وسط مشاغله المتزاحمات على إبرام معاهدة تجارية مع جمهورية البندقية ، وكانت الغالبية العظمى من موادها تنصب على مصر وعلى ميناء الإسكندرية وغيرها من الموانىء المصرية المطلة على البحر المتوسط ، وتستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية .

ويقول الأستاذ كومب تعليقاً على هذه المعاهدة «وفى أثناء إقامة السلطان سليم فى مصر حضر اجتماعاً خاصاً مع مبعوثين أرسلتهم إليه جمهورية البندقية . وقد ثارت شكوك حول التاريخ الدقيق الذى تم فيه هذا الاجتماع . ولكننا اهتممنا اهتماماً زائداً بالوقوف على المعاهدة ،

وهى مؤرخة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق اليوم الرابع عشر من شهر فبراير – شباط – عام ١٥١٧ وقد وقعت المعاهدة عقب ذلك الاجتماع . إن هذه المعاهدة هى أول وثيقة رسمية أعلنها السلطان العثمانى الذى خلف أعداءه الشراكسة على أرض مصر عقب الانتصار الذى أحرزه عليهم . إن هذه المعاهدة من ناحية الشكل والمحتوى تقرر بوضوح الامتيازات ، التى سبق أن منحها السلاطين المماليك للجمهوريات الإيطالية» .

C'est le premier document officiel promulgué par le sultan ottoman, silccesseur des Circassiens sur le sol de l'Egypte, après sa victoire sur es ennemis. La forme et le contenu de ce diplôme rappellent nettement les privelèges accordés antérieurement par les sultans Mamlouks aux républiques italiennes.(1)

وفضلاً عن هذه الأهمية التى أشار إليها الأستاذ كومب .. فإن لمعاهدة البندقية أهميتين : أولاهما وجود فارق بين هذه المعاهدة والمعاهدات التى عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تباعاً مع الدول الأوروبية فى هذا الصدد . فبينما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع رعايا الدول الأوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية(٢) ، كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى فى مصر ؛ خاصة فى الإسكندرية . أما الأهمية الثانية لمعاهدة البندقية فترجع إلى أن كثيراً من نصوصها ، أو نصوصاً على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك فى المعاهدات اللاحقة التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ، إذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياها ؛ فكانت كل دولة أوروبية تحرص على أن تجىء المعاهدة التى تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة شاملة لكل الامتيازات ، التى سبق تقريرها لغيرها استناداً إلى مايعرف فى القانون الدولى العام باسم «قانون العادة» (٣) .

معاهدة عام ١٥٢٨ :

وجاء بعد السلطان سليم الأول ابنه السلطان سليمان المشرع ، فخطا خطوات هامة فى سياسة انفتاح الدولة العثمانية تجارياً مع عدد من الدول الأوروبية . فعقد مع فرنسوا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين

---

(1) Combe Etienne; op. cit., p. 14.

(٢) يستثنى من هذه المجموعة من المعاهدات معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٢٨ . انظر مايلى .

(٣) على ماهر باشا أحد رؤساء الوزارات المصرية السابقين : القانون الدولى العام . مطبعة الاعتماد شارع حسن الأكبر ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م ، ص ص٣٣٧-٣٣٨ .

دولة المماليك الشراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا Les Catalans ، وكانت المعاهدة الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم فى أثناء تواجدهم فى ممتلكات الدولة ، وتكفل لهم حرية المتاجرة والتنقل براً وبحراً دون أن يمسسهم سوء ، ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية ، وتنظم إقامتهم فى أحياء أو خانات خاصة بهم وعدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها ، ومنع السفن العثمانية التى تقوم برحلات بحرية بين إستانبول وموانئ الشام ومصر من عرقلة نشاط السفن الفرنسية التى تعمل على هذه الخطوط الملاحية . ويمكن إلحاق معاهدة ١٥٢٨ بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ من حيث الهدف ؛ إذ كانت موادها مقصورة فى الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ومصر بخاصة .

وكان إبرام هذه المعاهدة مشجعاً لملك فرنسا فرنسوا الأول والسلطان سليمان المشرع ، نظراً للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم «معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا» . وقد عقدت فى شهر فبراير – شباط – عام ١٩٣٥ وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلى أقاليم الدولة العثمانية شتى الامتيازات فى مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً .

عرض وتحليل لمعاهدة ١٥٣٥ :

وتقع معاهدة ١٥٣٥ فى ست عشرة مادة . قررت المادة الأولى منها السماح لرعايا الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول فى جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والثغور والجزر والبحار وسائر الأقاليم التى تدخل فى حوزة كل من السلطان وملك فرنسا فى قابل الأيام. ويكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة إلى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم .

ونصت المادة الثانية على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبادلة فى كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ونقلها بّراً وبحراً بعد سداد الرسوم المقررة بحيث يدفع الفرنسيون فى أقاليم الدولة العثمانية مايدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون فى فرنسا ما يدفعه الفرنسيون دون أن يدفع أى من الطرفين ضرائب أو مكوساً جديدة أخرى .

وقررت المادة الثالثة أنه «فضلاً عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا فى إستانبول [1] أو بيرا أو غيرهما من مدن الدولة العثمانية أحد رجال القانون[2] كالقنصل المعين حالياً فى الإسكندرية .. فيجب أن يقابل هذا القانونى والقنصل بطريقة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما

(١) وردت فى النصين الفرنسى والإنجليزى القسنطينية .

(٢) وردت هذه اللفظة فى النص Bailiff ومن معانيها محضر أو أحد رجال القانون .

بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق فى الفصل فى جميع القضايا والخلافات المدنية والجنائية التى تقع فى دائرته طبقاً لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الآخرين، دون أن يمنعه من ذلك أى قاض أو صوباشى[1] أو أى موظف آخر . ولكن إذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا إطاعة الأوامر الصادرة من القانونى أو القنصل فلهما فى هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشى أو أحد ضباط السلطان فى تنفيذ الأحكام . وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الآخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية ، والتى تكفل إجبار الآخرين على تنفيذ أحكامهم . ولكن ليس للقاضى أو أى ضباط تابعين لحكومة السلطان أن يحكموا فى المنازعات التى تنشأ بين التجار ورعايا ملك فرنسا حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك ، وإذا نظر القضاة بمجرد المصادفة فى قضية .. فإن حكمهم يكون لاغياً وباطلاً .

Likewise, whenever the King shall send to Constantinople or Pera or other places of this Empire a bailiff - just as at present he has a consul at Alexandria - the said bailiff and consul shall be received and maintained in proper authority so that each one of them may in his locality, and without being hindered by any judge, cadi, soubashi, or other, according to his faith and law, hear, judge and detetmine all causes, suits and differences, both civil and criminal, which might arise between merchants and other subjects of the King. Only in case the orders of the said bailiffs and consuls should not be obeyed and that in order to have them executed they should appeal to the soubashi or other officer of the Grand Signior, the said soubashis or other officers shall lend them the necessary aid and compulsory power. But the cadi or other officers of the Grand Signior may not try to any difference between the merchants and subjects of the King, even if the said merchants should request it, and if perchance the said cadis should hear a case their judgment shall be null and void.

ومنعت المادة الرابعة استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا أو محاكمتهم فى الدعاوى المدنية ، التى يقيمها عليهم العثمانيون أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة

(١) الصوباشى ونكتب أيضاً الشوباشى ، وترد هذه اللفظة فى المراجع التاريخية بعدة معان ، منها ضابط فى الجيش العثمانى كانت رتبته تعادل حالياً رتبة نقيب . ومنها ضابط مرموق يعينه الصدر الأعظم أو الباشا فى إحدى الولايات «متسلماً» على مدينة ، أو توفده الدولة فى مهمة خاصة إلى إحدى الولايات . وكان يطلق هذا اللفظ احياناً على أحد أعيان تقسيم إدارى صغير أو متوسط .

السلطان ، مالم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضى الشرعى أو رجل القانون الفرنسى أو القنصل . وفى حالة وجود هذه المستندات والحجج لايجوز للقضاة الشرعيين أو الصوباشية أو أى موظفين آخرين سماع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين ، إلا فى حضور ترجمان قنصل فرنسا .

ونصت المادة السادسة على أنه لاتجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الآخرين ، فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والصناجق البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى . ولايمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر إليهم على أنهم مسلمون ، إلا إذا رغبوا فى ذلك واعترفوا صراحة ودون إكراه يقع عليهم ، ولهم الحق فى ممارسة دينهم .

Likewise, as regards religion, it has been expressly promised, concluded, and agreed that the said merchants, their agants, and servants, and all other subjects of the King shall never be molested nor tried by the cadis, sandjak-beys or soubashis, or any person but the Sublime Porte only, and they can not be made or regarded as Turks (Mohammedans) unless they themselves desire it and profess it openly and without violence. They shall have the right to practise their own religion.

وقررت المادة السابعة أنه إذا تعاقد شخص أو أكثر من شخص من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو إذا استولى على سلع منه ، أو اقترض مبالغ ثم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه فلا يسأل رجل القانون الفرنسى أو القنصل أو أقارب المدين أو أى شخص فرنسى آخر عن ذلك مطلقاً ولايتعرض له أحد بالإيذاء . ولايكون ملك فرنسا ملزماً بشىء . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ومن أملاكه ، لو وجدت له أملاك فى الأراضى الفرنسية .

ونصت المادة الثامنة على أنه لايجوز إلقاء القبض على تجار فرنسا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، وإكراههم على العمل فى خدمة السلطان العثمانى أو أى شخص آخر فى البر والبحر مالم يكن باختيارهم وطوعهم . وكذلك لايجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو مايوجد بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع إلا بموافقتهم ورضائهم .

Likewise, the said merchants, their agents, and servants, and other subjects of the King, their ships, boats or other equipments, artillery, ammunition, and mariners shall not be seized, coerced, or used by the Grand

Signior or other person against their pleasure and desire for any service or duty either on sea oi land.

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على هذه المعاهدة ، فإن جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على سفنهما أو فى أى مكان تابع لسلطتهما ، فى حالة الرق ، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم فى الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم ، يطلق سراحهم فوراً بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا العرض . وإذا كان أحد الأسرى قد تحول عن دينه فلايكون تغيير عقيدته الدينية مانعاً من إطلاق سراحه .

«ومن الآن فصاعداً لايجوز للسلطان ، ولا لملك فرنسا ، ولا لقادة الأساطيل البحرية ، ولا لقواد الجيش ، ولا لأى أشخاص آخرين تابعين لأحد العاهلين أو لمن يستأجرانهم لذلك ، سواء فى البر أو فى البحر ، أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسرى الحرب بصفة أرقاء . وإذا حاول أحد القراصنة أو غيره من رعايا العاهلين أسر أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله ، فيجب إحاطة حاكم الجهة علماً بذلك ، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتهمة تعكير السلام بين الدولتين وليكون عقابه عبرة لغيره ، ورد مايكون عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه . وإذا لم يضبط الجانى فوراً واستطاع الهرب دون محاكمة ، فيجب نفيه من بلاده مع جميع شركائه . وتقوم الحكومة التابع لها هؤلاء الجناة بمصادرة ممتلكاتهم ودفع التعويضات عن الأضرار التى أصابت المجنى عليه ، من ممتلكات الجناة ، وهذا لايمنع من مجازاتهم إذا تم القبض عليهم فيما بعد . وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضامن هذا الصلح ، وهما السر عسكّر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا» .

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه إذا وصلت إلى أحد موانئ أو سواحل الدولة العثمانية إحدى السفن التابعة لرعايا ملك فرنسا ، سواء كان وصولها بطريق الصدفة أو غير ذلك ، فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من الضروريات فى مقابل دفع الثمن المناسب دون إلزامها بتفريغ شحناتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها السفر إلى حيث تريد . وإذا وصلت إلى إستانبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسوم المقررة وتفتيشها بمعرفة أمين الجمرك المشار إليه فلايجوز زيارتها أو تفتيشها فى أى مكان آخر إلا عند الحصون المقامة عند مدخل بوغاز غاليبولى ، دون أن تدفع شيئاً مطلقاً لرحيلها سواء عند هذا البوغاز أو فى أى مكان آخر عند خروجها سوى ماسبق دفعه سواء كان الطلب باسم السلطان أو أحد ضباطه .

وذكرت المادة الثالثة عشرة أنه إذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك إحدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين فى البلاد التابعة لهما ولقضائهما .. فإن جميع الأفراد الناجين من هذا الخطر يظلون متمتعين بحريتهم ، ولايحال بينهم وبين أخذ أو جمع مايكون لهم من الأمتعة وغيرها . أما إذا غرق جميع من بها فإن البضائع التى يمكن إنقاذها تسلم إلى القنصل أو أحد رجال القانون فى القنصلية أو من يمثلهما ليسلمها إلى من تتعلق بورثتهم دون أن يستولى القبودان باشا أو الصنجق بك أو الصوباشى أو القاضى أو أى ضابط أو أحد رعايا السلطان على شيء منها ، وألا توقع عليهم العقوبات ، وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدات لمن يعهد إليهم باستعادة البضائع .

ونصت المادة الرابعة عشرة على أنه إذا هرب أحد العبيد التابعين لأحد رعايا السلطان وادعى هذا العثمانى أن عبده قد لاذ بأحد رعايا ملك فرنسا وخدم فى سفينته أو فى منزله ، فإن هذا العثمانى لايستطيع أن يجبر الفرنسى على عمل شيء ، سوى السماح له بالبحث عن العبد فى سفينته أو فى داره . وإذا أسفر البحث عن العثور على العبد فإن الفرنسى يعاقب بمعرفة قنصله ويرد العبد لسيده . وإذا لم يوجد العبد فى سفينة أو دار الفرنسى ، فيجب ألا يتعرض الفرنسى للإيذاء مطلقاً وعلى أى نحو من الأنحاء بسبب هذا الحادث .

أما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا – لم يكن قد أقام بأراضى الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة ، دون انقطاع – لايلزم بدفع الخراج أو أى ضريبة أياً كان اسمها ، ولايلزم بحراسة الأراضى المجاورة أو مخازن السلطان ولا بالعمل فى ترسانة أو أى عمل آخر بطريق الإكراه . ويمنح رعايا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة فى بلاد فرنسا . وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك انجلترا ، أخيه وحليفه الأبدى ، وملك أسكتلندا للانضمام إلى هذه المعاهدة بشروط ، سنتكلم عنها فى موطن قادم فى هذا الفصل .

وأخيراً قررت المادة السادسة عشرة أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين ، فى خلال ستة أشهر من تاريخ التوقيع عليها مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع أحكامها بكل دقة . وحتى لايدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نصه منها بعد التصديق عليها فى إستانبول وإسكندرية ومارسيليا وناربونه Narbonne ، وفى جميع المدن والموانئ المشهورة التابعة لكل من الطرفين(١) .

وكانت هذه المعاهدة هى آخر أعمال إبراهيم باشا الصدر الأعظم ؛ لأن السلطان سليمان

(1) Hurewtz J.C.; op. cit. vol. I, pp. 1-5.

المشرع استجاب لرغبة الباش قادين روكسلانه وأمر بقتله .

وقد حددت هذه المعاهدة بعد ذلك عدة مرات ، وأضيفت إليها أحكام جديدة (١) . ثم أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائياً كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد . وقد أرسى هذا التقليد في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو – آيار – عام ١٧٤٠ السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) ، اعترافاً منه بفضل فرنسا حين تدخل في صيف ١٧٣٩ الماركيز دى ڤيلنيڤ Marquis de Villeneuve السفير الفرنسى فى بلغراد لإنهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا ، وكان من نتائج مساعيه الحميدة إبرام معاهدة بلغراد فى اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٧٣٩ (٢) .

الدولة العثمانية تستجيب لمساعى إنجلترا لعقد معاهدات تجارية معها :

كانت المعاهدة التى عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٣٥ قد نصت فى مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك إنجلترا وغيره إلى الانضمام إليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك إنجلترا بإبلاغ السلطان العثمانى ، فى خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة ، بصدور تصديق الحكومة الإنجليزية على المعاهدة ويطلب اعتماد هذا التصدى؛ أى أراد السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الأول ، تحويلها من معاهدة ثنائية إلى معاهدة جماعية. ولكن لم تجد هذه الدعوة استجابة من ملك إنجلترا ، وظلت السفن الإنجليزية التى تتردد على الموانئ العثمانية تبحر فى الموانئ والمياه العثمانية تحت الأعلام الفرنسية طبقاً لأوامر الحكومة العثمانية ، ثم ازداد عدد السفن الإنجليزية التى تشق طريقها إلى موانئ الدولة العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر. وتطلعت إلى منافسة البنادقة والفرنسيين فى هذه المنطقة (٣) . وكان أحد التجار الإنجليز واسمه أنطونى چنكنسن Anthony Jenkinson قد استطاع مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ فى حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس . ونجح فى الحصول على موافقة السلطان لهذا الإنجليزى على الاتجار داخل ممتلكات الدولة ، على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة (٤) . على أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لإنجلترا عهداً تجارياً مهماً ، على الرغم من الامتيازات الواسعة التى منحها سليمان لذلك التاجر

---

(١) حدث هذا التجديد وتلك الإضافات فى ١٨ من أكتوبر – تشرين أول – عام ١٥٦٩ وفى شهر يوليو – تموز – عام ١٥٨١ ، وفى شهر فبراير – شباط – عام ١٥٩٧ ، وفى ٢٠ من شهر مايو – أيار – عام ١٦٠٤ ، وفى ٥ من شهر يونيو – حزيران – عام ١٧٣٩ .

(٢) انظر فى هذه الدراسة ، الجزء الأول ، ص ص١٩٥-١٩٦ .

(3) Hoskins Halford Lancaster; British Routes to India, New York, 1928, PP. 2-4.

(٤) انظر نص هذا الاتفاق فى

Hurewitz J.C; op. cit., vol. I, pp 5-6.

الإنجليزي (١) .

غير أن الحكومة العثمانية استقبلت بعثة إنجليزية عام ١٥٧٨ ، أي بعد خمس وعشرين سنة ، واستطاعت البعثة أن تحقق نجاحاً كبيراً في وضع الحجر الأساسي للتجارة الإنجليزية في الدولة العثمانية . وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) أرسل رسالة مؤرخة في ١٥ من شهر مارس - آذار - عام ١٥٧٩ إلى الملكة إليزابيث الأولى . وكان مما جاء فيها «إن البلاد العثمانية ستبقى دائماً مفتوحة للتجار الإنجليزي ... ولن نتقاعس عن تقديم المساعدة والمعونة لأي فرد منهم يبتغي تقدير صداقتنا وإحساننا ومساعدتنا، بل سنعد إرضاءهم جزءاً من واجبنا» (٢) .

ولم تكن هذه الرسالة السلطانية مقنعة في نظر ملكة إنجلترا ؛ لأنها لم تشتمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعايا الإنجليز نشاطهم التجاري ، وتطلعت إلى عقد اتفاق يكون أوفى بالغرض تخصيصاً وشمولاً . ومهدت له بمنح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون مماثلة لما يحصل عليه التجار الإنجليز من امتيازات في بلاد الدولة العثمانية . وما أن تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر في شهر يونيو - حزيران - ١٥٨٠ «براءة» تضمن للتجار الإنجليز امتيازات واسعة النطاق . وكان مما جاء فيها على لسان السلطان «وعلى هذا فإننا نمنح جميع أفراد شعبها ورعاياها حرية المجيء إلى إمبراطوريتنا بأمن وسلام، مع كل مالديهم من متاجر وسلع بحراً في سفن كبيرة وصغيرة ، وبراً في عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم (الانجليزية)» .

"Our Imperial commandement and pleasure is, that the people and subjects of the same Queen, may safely and securely come to our princely dominions, with their goods and marchandise, and ladings, and other commodities by sea, in great and small vessels, and by land with their carriages and cattels, and that no man shall hurt them, but they may buy and sell without any hinderance, and observe the customes Sie and orders of their owne Sie country".(٣)

---

(١) دكتور زكي صالح : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٤ .

(٣) النص الكامل لهذه البراءة أو المعاهدة منشور في

=Hurewitz J.C.; op. cit., pp. 7-9.

وقد لقيت هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب السفير الفرنسى فى إستانبول وسعى لدى السلطان لوقف تنفيذها . ونجحت مساعيه ، ولكن إلى أمد قصير ، ففى العام التالى (الحادى عشر من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٥٨١) صدر العقد التأسيسى الأول لإنشاء شركة الليڤانت [١] The Levant Company وهى شركة إنجليزية [٢] مارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة : فهى التى كانت ترشح سفراء إنجلترا فى إستانبول ، وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصل إنجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين فى ممتلكات الدولة العثمانية يعدون مستخدمين فى الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد سارياً أكثر من قرنين حتى سنة ١٨٠٣ . أما الاختصاصات التجارية لهذه الشركة .. فقد حصلت من اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا على حق احتكار المتاجرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكان نشاطها كثيفاً فى الأناضول وحلب والإسكندرونة والإسكندرية وغيرها من أساكل الشام ومصر والساحل الغربى لشبه جزيرة الأناضول . ولم يمتد نشاط الشركة بوضوح إلى العراق ، الذى كان أكثر تأثراً بنشاط شركة الهند الشرقية البريطانية . وفى سنة ١٨٥٣ عينت الحكومة الإنجليزية وليم هاربورن William Harborne سفيراً لها فى إستانبول ، ومنحته سلطات متشعبة على جميع التجارة الإنجليزية فى ولايات الدولة العثمانية ، وخولته اختصاصات واسعة فى تعيين القناصل . وغدا هاربورن سفيراً إلى جانب صفته كممثل لشركة الليڤانت . واستغل هاتين الصفتين فى حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة سنة ١٥٨٠ ، وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة . وسرعان ما أثمرت جهوده . وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الإنجليز فى أملاك الدولة والتجار العثمانيين فى إنجلترا . وفى سنة ١٦٠٤ حصلت الحكومة الإنجليزية على موافقة السلطان أحمد الأول على أن تبحر السفن الإنجليزية داخل المياه والموانئ العثمانية تحت الأعلام الإنجليزية ، بينما كانت السفن الأجنبية – باستثناء سفن البنادقة – مضطرة إلى رفع العلم

= وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى اليوم الثالث من شهر مايو – أيار – عام ١٥٨٣ . وتقع هذه المعاهدة فى اثنتين وعشرين مادة .

(١) نشر هذا العقد التأسيسى تحت عنوان :

The First Charter of the (English) Levant Company.

فى :

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. 1, pp. 9-15.

(٢) يرد ذكر اسم شركة *الليڤانت فى بعض المراجع العربية على هذا النحو* : «*شركة الشرق الأدنى*» تأسيساً على أن منطقة الليڤانت كانت تغطى منطقة الشرق الأدنى The Near East وقد استخدم المؤرخون الغربيون المصطلح الأخير فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ثم رأت الولايات المتحدة الأمريكية إدماج *مصطلح الشرق الأدنى مع مصطلح الشرق الأوسط* The Middle East فأصبح المصطلح الأخير يشمل حالياً تركيا وسوريا ولبنان وإسرائيل والأردن ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج وإيران وأفغانستان .

الفرنسي . وفى عام ١٦٤١ عقد شارل الأول معاهدة مع السلطان إبراهيم الأول كفلت لشركة الليفانت حرية التجارة فى جميع أنحاء الدولة العثمانية . ثم عقد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) معاهدة مع إنجلترا فى شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٧٥ جددت فيها الامتيازات التجارية ، التى سبق منحها فى معاهدات سابقة وأضيف إليها مواد جديدة . وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم «المعاهدة النهائية للامتيازات بين الإمبراطورية العثمانية وإنجلترا : Final Treaty of Capitulations The Ottoman Empire and England.[١] ، وهى تقع فى خمس وسبعين مادة، وتمثل هذه المعاهدة المرحلة الثانية المهمة فى تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية فى الدولة العثمانية . وقد أوجز الدكتور زكى صالح الهدف من هذه الامتيازات قائلاً «إنه يتلخص فى نيل التاجر الإنجليزى حرية التجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه منها على سبيل الترانسيت ، والتمتع بما يكفى حماية نفسه وماله . وقد ضمنت الامتيازات اسمياً مثل ذلك للتجار العثمانى فى البلاد الإنجليزية ، غير أن الجانب العثمانى لم يستفد فى الواقع سوى ما يأخذه السلطان أو الباشوات من رسوم على البضائع الإنجليزية تبلغ عادة ثلاثة فى المائة من ثمن البضاعة» [٢] .

ولم يحدث بعد معاهدة ١٦٧٥ شىء يذكر حتى عام ١٨٠٩ ، حين نجحت بريطانيا فى استمالة الدولة العثمانية إليها بعد فترة حروب وجفاء بينهما ، واستطاعت فى اليوم الخامس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٩ أن تعقد مع الدولة العثمانية معاهدة الدردنيل : معاهدة السلام والتجارة والتحالف السرى[٣] . وقد جاء فى مادتها الرابعة أن جميع الامتيازات التى سبق تقريرها فى معاهدة ١٦٧٥ ومعاهدات سابقة أخرى «تظل ملحوظة ومرعية كأن لم يطرأ عليها تعطيل» .

shall be observed and maintained as if they had suffered no interruption.

وقد عقدت الدولة العثمانية تباعاً معاهدات أخرى على شاكلتها مع عدد من الدول الأوروبية الأخرى .

التعريف بمصطلح معاهدات الامتيازات الأجنبية :

اشتهرت هذه المجموعة من المعاهدات باسم Les Capitulations باللغة الفرنسية «معاهدات الامتيازات الأجنبية» باللغة العربية . وبعد أن عرضنا هذه النماذج من المعاهدات التى عقدتها الدولة العثمانية مع فرنسا وبريطانيا ، وإذا تركنا جانباً الترجمة العربية التى أطلقت

---

(1) Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. I, 25-32.

(٢) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦ .

(٣) انظر فى هذه الدراسة ص ص ٢١٧-٢١٨ .

عليها وهى «معاهدات الامتيازات الأجنبية» ، ولجأنا إلى ترجمة متحررة Une traduction, libre بدلاً من الترجمة المتحررة المفصلة والشاملة هى «المعاهدات المتضمنة المبادئ القانونية لإقامة المستأمنين من رعايا الدول الأجنبية فى ممتلكات الدولة العثمانية ولممارسة نشاطهم التجارى المشروع فيها وتقرير حق رعايا الدولة العثمانية المقيمين فى أراضى تلك الدول فى سريان هذه المبادىء عليهم» . والمستأمنون مصطلح فقهى إسلامى . وقد سبق أن ذكرنا أن علماء الفقه يقسمون العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب . وقلنا إن دار الإسلام تشمل البلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليها ، وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم «الذميون والمستأمنون» . والذميون هم الذين يقيمون فى دار الإسلام بأمان مؤبد . أما المستأمنون فيجيئون إلى دار الإسلام بأمان محدد المدة . وعلى خلاف المستأمنين لايعتبر الذميون أجانب عن الجماعة الإسلامية [١] . أما دار الحرب فتشمل البلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليها ولاتقام فيها أكثر شعائر الإسلام .

وقد قرر بعض المؤرخين الأوروبيين أن معاهدات الامتيازات الأجنبية تستمد جذورها التاريخية من أصول بيزنطية ، تأسيساً على أن الدولة البيزنطية كانت تمنح رعايا جمهورية البندقية وغيرها من الكيانات السياسية فى شبه جزيرة إيطاليا مثل هذه الامتيازات فى أثناء إقامتهم فى الأراضى البيزنطية . ويخلص هذا الفريق من المؤرخين إلى أن الدولة العثمانية قد نهجت نهج الدولة البيزنطية فى عقد معاهدات الامتيازات الأجنبية . وهذا رأى اجتهادى لايمثل الحقيقة ؛ لأن أصحاب هذا الرأى يجهلون أصول الفقه الإسلامى ويغفلون عن حقيقة هامة هى أن الدولة العثمانية كانت حريصة على الالتزام بقواعد الشريعة الإسلامية . ولايعد قيام الدولة العثمانية بعقد معاهدات الامتيازات الأجنبية دليلاً على أنها قلدت الدولة البيزنطية تقليداً أعمى فى هذا الصدد .

سريان معاهدات الامتيازات الأجنبية على الولايات العربية :

أصبحت البلاد العربية التى دخلت تحت السيادة العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر دولاً تابعة ، يطلق على كل منها دولة تابعة Un Etat Vassal تربطها رابطة الخضوع والولاء للدولة العثمانية ، التى يطلق عليها فى القانون الدولى العام الدولة المتبوعة L'Etat Suzerain ، وترتب على هذا الوضع القانونى للولايات العربية حرمانها من ممارسة سيادتها فى الخارج؛ بمعنى أنها لم تعد تشغل مركزها فى الجماعة الدولية إلا عن طريق الدولة العثمانية التى تتولى تمثيلها وتقوم عنها بتصريف الشئون الخارجية . وتلتزم الولايات العربية ، كل فيما يخصها ، بتنفيذ المعاهدات التى تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية . وكانت بيرا - وهى إحدى

---

(١) دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولى العام ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤١-٤٦ .

ضواحى إستانبول - مقراً للبعثات الدبلوماسية للدول الأجنبية منذ أن أخذت الدولة العثمانية بنظام التمثيل الدبلوماسى [1] . ولم يمنع قصر التمثيل الدبلوماسى على الدولة العثمانية والدول الأجنبية عن تعيين قناصل للدول الأخيرة فى المدن الهامة فى الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية ، فكان لبعضها قنصل عام أو قنصل أو نائب قنصل [2] . وكانوا لايتبعون فى العادة وزارة الخارجية البريطانية أو الفرنسية أو النمساوية أو غيرها ، وإنما يتبعون رؤساء بعثات دولهم فى إستانبول . وكان عملهم أول الأمر فى بلاد الدولة العثمانية مقصوراً على الشئون التجارية وتعهد مصالح رعايا دولهم والتأشير على جوازات السفر وغير ذلك . ولكن لم يكن لهم أى اختصاص سياسى ، ثم أصبحوا بمضى الزمن وبإيعاز من رؤساء البعثات الدبلوماسية فى إستانبول يمارسون أنواعاً من النشاط السياسى أو الضغط السياسى على الولاة العثمانيين .

نجاح محدود لسياسة الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا :

كان من المنتظر أن تكون معاهدات الامتيازات التى عقدتها الدولة العثمانية فى هذا الصدد مع الدول الأوروبية تباعاً بمثابة نوافذ تطل منها الولايات العربية على أوروبا ، أو بمثابة القنوات the channels يتم عن طريقها الاتصال المنشود . ولكن لم تكن هذه المعاهدات هى

---

(١) كانت ولاتزال درجات المبعوثين الدبلوماسيين تتفاوت . وقد عنى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ثم مؤتمر إكس لاشابل عام ١٨١٨ بترتيبهم فى أربع مراتب تعلو كل منها الأخرى : فتشمل المرتبة الأولى السفراء ومبعوثى البابا ، وتشمل المرتبة الثالثة الوزراء المفوضين والمندوبين فوق العادة ، وتشمل المرتبة الثالثة الوزراء المقيمين ، وتشمل المرتبة الرابعة القائمين بالأعمال . ثم استحدثت مرتبة جديدة يتقدم أصحابها فى الحفلات الرسمية على المبعوثين الدائمين . ويطلق على أصحاب المرتبة الجديدة «المبعوثون فى مهمة غير عادية Envoyés ea mission extraotdiniaire كالمفاوضة فى أمر ما أو حضور حفل رسمى كزواج أو تتويج أو الاشتراك فى تشييع جنازة أو حضور جنازة . انظر :

دكتور على صادق أبو هيف : القانون الدولى العام ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٣٦-٤٣٨ .

(٢) القناصل نوعان : قناصل مبعوثون *Missi* وقناصل مختارون Electi فالقناصل المبعوثون هم الذين تبعث بهم ومن رعاياهم ويتقاضون مرتبات عن عملهم القنصلى ، ولذا فليس لهم أن يشتغلوا بأى مهمة أخرى أو بأى عمل تجارى خاص شأنهم فى ذلك شأن بقية الموظفين ، ولذا يطلق عليهم أيضاً Consuls de Carriére للدلالة على تخصصهم وانقطاعهم للأعمال القنصلية .

وأما القناصل المختارون فتعينهم الدولة من بين الأشخاص المقيمين فى الجهة التى ترغب أن يكون لها فيها تمثيل قنصلى . وهم كما كانوا من رعايا الدولة التى تختارهم ، كان يجوز أن تختارهم من رعايا الدولة التى يؤدون فيها مهمتهم أو من رعايا دولة ثالثة . ولايعتبر القناصل المختارون موظفين فى الدولة التى يمثلون مصالحها ، وإنما هم مجرد وكلاء عنها فى الشئون التى تعهد بها إليهم . ولذلك فلهم الحق - على خلاف القناصل المبعوثين - فى الاشتغال بالأعمال الخاصة من تجارة ومهن حرة وخلافها ، إلى جانب عملهم القنصلى . وهم لايتقاضون عادة مرتبات من الدولة التى تختارهم . ويطلق عليهم فى الوقت الحاضر اسم «القناصل الفخريين» Consuls Honotaites .

انظر المرجع السابق ، ص ص٤٤٩-٤٥٠ .

التى حددت حجم ونوعية هذا الاتصال . ولكن كانت هناك أسباب عامة وأسباب خاصة بكل ولاية عربية حددت حجم ونوعية هذا الاتصال ، وكان من بين هذه الأسباب ماهو دينى واجتماعى وثقافى واقتصادى وسياسى .

عوائق دينية :

كان الرأى العام الإسلامى فى الولايات العربية يشكل مجتمعات دينية إسلامية مغلقة ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد لدى سكان الولايات العربية (١) . وجـاءت الدولة العثمانية فوجدت هذه المفاهيم مستقرة فى أذهان الجماهير العربية . وكانت الدولة العثمانية نفسها قد أخذت بهذا النظام الذى عرف باسم «نظام الملل» ، وكان المسلمون لايعرفون وقتذاك عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذى كان يتمثل فى الحروب الصليبية التى تعرضت لها أقاليم الشرق الإسلامى منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر ، وماتخلل هذه الحملات الصليبية المتعاقبة من حملة قام بها لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس عام ١٢٧٠م ابتغاء الاستيلاء عليها وتحويل أهلها إلى المسيحية ليغطى فشله الذريع فى دمياط والمنصورة حيث وقع فى ذل الأسر . وكانت رواسب هذه الحروب لاتزال ماثلة فى أذهان سكان العالم العربى ، ويتناقلون أنباءها جيلاً بعد جيل ثم تسامعوا بأنباء حركة انتقال الحروب الصليبية إلى أوروبا حيث واجهت الدولة العثمانية تكتلات دولية صليبية ، تنادت إليها البابوية فى روما ونعتها المؤرخون المحايدون بأنها كانت حروباً صليبية ، ثم عاصروا سقوط الحكم الإسلامى فى الأندلس وما سبق هذا السقوط ثم لحقه من اضطهاد دينى عنيف تعرض له المسلمون فى شبه جزيرة أيبريا والذين اثاروا الاحتفاظ بدينهم ، ثم رأوا صراعاً صليبيّاً ضارياً فى الحوض الأوسط والحوض الغربى للبحر المتوسط وفى أقاليم شمالى إفريقية ، حين اندفعت إسبانيا والبرتغال فى حروب بحرية وبرية تروم احتلال شمالى إفريقية وتحويل سكانها إلى المسيحية . وأقاموا لهم قواعد عسكرية أو جيوباً صليبية تناثرت على الساحل الشمالى لإفريقية . وقد تصدى لهم سكان شمالى إفريقية بمفردهم أول الأمر ، ثم وجهوا الاستغاثات للدولة العثمانية يطلبون تدخلها عسكرياً لإنقاذهم وللحفاظ على إسلامهم وعروبتهم .

عوائق اجتماعية :

أما عن العلاقات الاجتماعية بين سكان الولايات العربية والأوروبيين فقد وقفت فى وجهها عدة عوامل ، ولعل من أهمها أزمة عدم ثقة بين الجانبين . وقد سبق أن أشرنا إلى

---

(١) انظر ماكتبه عن هذا الموضوع :

دكتور فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . جزءان ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج٢ ، ترجمة د. كمال اليازجي ومراجعة د. جبرائيل جبور ، ص ص٣١٢-٣١٣ .

أسباب هذه الأزمة . وكان العرب ينظرون إلى الأوروبيين نظرة ملؤها الشك والحذر معاً . وكانت أماكن إقامة الأوروبيين وتجارتهم ومعابدهم تحدد فى حى أو خان خاص بهم . ويتكون الخان من عدة مبان تشمل مستودعات فسيحة للسلع ، تودع فى الدور الأرضى وفوقه مساكنهم. وفى داخل الخان كنيسة خاصة بهم . وبعيداً عن مبانى الخان كانت ترابط خيولهم وبغالهم وحميرهم . ويلحق بالخان أرض لدفن موتاهم . فكانوا يقيمون فى مستعمرة خاصة بهم . وزيادة فى الحذر كان يقفل عليهم الباب الحديدى الضخم للخان ، كلما سجا الليل ويسلم مفتاحه إلى القنصل أو نائب القنصل الذى يرده فى صبيحة اليوم التالى . وكان لايسمح لهم بالخروج من الخان أيام الجمعة إلى أن تنقضى شعائر صلاة الجمعة كإجراء وقائى ، يلجأ إليه المسلمون خوفاً على حريمهم ومتاجرهم فى أثناء انصرافهم إلى المساجد . فإذا قضيت الصلاة سمح للأوروبيين بمغادرة مساكنهم .. وهكذا عاشوا فى معظم الولايات العربية ، على هامش المجتمعات الإسلامية . فإذا كانت العلاقات الاجتماعية بين الجانبين ضعيفة داخل تلك الولايات العربية فإنها كانت معدومة تماماً فى خارجها ؛ بمعنى أنه لم يكن من المتوقع قط فى تلك العصور أن يقوم الشيخ جمعة من القاهرة أو الأسطى شحاته من جرجا أو الشيخ متولى من دمشق أو الشيخ خليل من بغداد برحلة إلى أوروبا يقضى فيها شطراً من فصل الصيف مصطحباً معه حريمه وسائر عياله ، ويذهب بهم إلى سويسرا للتزحلق على ثلوج جبالها ثم يستأنف رحلته إلى مصيف دوڤيل Dauville فى شمالى فرنسا ، ويعرج فى طريق عودته إلى موطنه على الريڤيرا الفرنسية وجزيرة كابرى Capri ليستمتع بالاستحمام فى مياه البحر المتوسط . وليس فى هذا القول تهكم على العرب أو سخرية بهم ، ولكن كانت ظروفهم الاجتماعية لاتسمح لهم بالقيام برحلات خارج نطاق العالم العربى وبخاصة إلى أوروبا لأنهم كانوا يخضعون لتقاليد راسخة لايستطيعون منها فكاكاً ، وإن كانت قلة من صدورهم تذهب لماماً إلى إستانبول فى مهمات رسمية أو شبه رسمية ، يعهد بها إليهم ولاة الأقاليم العربية أو لتقديم شكايات إلى السلطان أو الصدر الأعظم عن تصرفات ظالمة ، تعرضت لها الجماهير العربية الكادحة .

عوائق ثقافية :

أما عن العلاقات الثقافية .. فلم يكن يدور بخلد أحد من سكان الولايات العربية أن يوفد أبناءه إلى جامعات أوروبا للالتحاق بها واستكمال دراستهم فيها . فالبلاد العربية كانت حافلة بمراكز مرموقة للدراسات الإسلامية العربية العليا . نذكر منها على سبيل المثال الأزهر الشريف فى القاهرة ، والقيروان فى شمالى إفريقية ، ودمشق فى الشام ، والكوفة والبصرة فى العراق ، فضلاً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة . وأطلق المستشرقون على هذه المراكز العلمية الإسلامية العربية اسم College Mosques أى الكليات الملتحقة بالمساجد . وكانت هذه المراكز مركز جذب للراغبين فى العلم كافة أنحاء العالم العربى والإسلامى . كما كان يتردد عليها

صدور العلماء المسلمين يتصدرون الحلقات الدراسية فيها ويلقون دروسهم فى موضوعات شتى تتصل بالعلوم الدينية واللغوية والعلمية وغيرها . وكانت هذه الحلق دراسات جامعية ، وكانت الصلات الوثيقة تربط بين علماء الإسلام بعضهم ببعض . واعتقد سكان الولايات العربية أنه ليست بهم حاجة إلى تعلم أبنائهم فى جامعات انجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو غيرها . فهذه البلاد كانت فى نظرهم منذ القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر مهد الكفر والكفرة . ولم تكن الدولة العثمانية مسئولة عن هذه العزلة الثقافية التى فرضها العرب على أنفسهم كما فرضوا على أنفسهم العزلة الاجتماعية متأثرين بمفاهيم تلك العصور . وكانوا من أوروبا حذرين وفى شك مريب ، يخشون أن تفعل بهم مافعلته من قبل مع أسلافهم العرب المسلمين .

عوائق اقتصادية :

أما عن العلاقات الاقتصادية بين الولايات العربية وأوروبا فكانت فى نطاق ضيق ، لأن الاقتصاد فى الولايات العربية كان يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى : يأكل السكان مما تغله أراضيهم الزراعية من حاصلات مثل الأرز والقمح والذرة والشعير والفول والبصل والعدس وما إلى ذلك ، ويرتدون ملابس من الأقمشة الرخيصة من الإنتاج المحلى . وكانت قلة الإنتاج من السمات البارزة فى الحياة الاقتصادية فى معظم الولايات العربية .

وكانت عمليات التصدير والاستيراد يتم داخل نطاق الولايات العربية فيما بينها مثل مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وأقاليم شمالى إفريقية وغيرها . أما عمليات الاستيراد من أوروبا.. فكان معظمها مقصوراً على السلع الكمالية مثل الأثاث الفاخر والسجاجيد الوثيرة والثريات التى تتدلى منها قطع البللور والأقمشة الحريرية والصوفية والجوخ والقطيفة والرخام والزجاج الملون المزدان بالرسوم البديعة ، ويستوردها التجار الأثرياء ، وكان يطلق على التاجر العربى المسلم الثرى «الخواجة المكرم» . وكانوا يستخدمون بعض هذه السلع فى تزيين قصورهم وارتداء الملابس الفاخرة سواء فى الصيف أو فى الشتاء ، أو لبيعها للأعيان من ذوى البيوت والعصبيات القديمة والوجاقلية – أى ضباط وضباط الصف من الفرق العسكرية – والمماليك وغيرهم من كبار الحكام وصدور علماء الأزهر ، الذين تعددت مواردهم المالية من التنظر على الأوقاف وإصدار الفتاوى والاشتغال بالتدريس فى الأزهر الشريف وشغل المناصب القضائية ومن نظام الالتزام . فكان رزقهم يأتيهم رغداً من كل مكان ، وجنحوا إلى محاكاة كبار التجار والحكام فى معيشتهم فابتنوا القصور وزينوها بأروع أنواع الأثاث المستورد من أوروبا . ويعطى الجبرتى صوراً رائعة عن هذه القصور وزخارفها ، وماحوت من سلع مستورة من أوروبا [١] .

وكان السفر إلى أوروبا محفوفاً بالأخطار التى تصل إلى حد المغامرة بأرواح المسافرين؛ إذ كانت السفن التى تقوم برحلات فى حوض البحر المتوسط – وهو بحر لجى – مصنوعة من

(١) انظر الأجزاء الثلاثة الأولى من الجبرتى .

الأخشاب وتسيير بالقلوع . ومما هو جدير بالذكر أنه لما أنشىء الخط الحديدى بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٦ كان المصريون يخشون ركوب القطارات خوفاً على حياتهم ؛ لأنها كانت فى زعمهم تجرى بسرعة ، مع أن القطار كان يستغرق فى مثل هذه الرحلة زهاء اثنتى عشرة ساعة يقطع فيها مائتين وثمانية كيلو متراً . ولذلك كان معظم ركاب السكك الحديدية فى مصر فى السنوات الأولى من الأجانب . وكانت معظم السفن التى تتردد من أوروبا سفناً أوروبية ، تتبع جمهورية البندقية أو جمهورية جنوة أو غيرهما من الكيانات السياسية فى شبه جزيرة إيطاليا أو سفناً فرنسية أو يونانية أو عثمانية . أما السفن المصرية فكانت تسير فى النيل لنقل المسافرين أو للتجارة الداخلية ، ولذلك تضاءلت أهمية أساكل [1] الإسكندرية ورشيد ودمياط وبعض أسكلة الشام فى العصر العثمانى نتيجة الانقلاب التجارى The Commercial Revolution عقب تحول طرق التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان سكان الولايات العربية يجهلون اللغات الأوروبية ؛ مما أقام حاجزاً لغوياً منيعاً، كان من الصعب اجتيازه ، حتى لو أراد سكان الولايات العربية السفر إلى أوروبا ، وهى فكرة كانت مستبعدة تماماً من أذهانهم .

وكانت العملة السائلة المتداولة قليلة ؛ إذ كان نظام النقد يقوم فى كثير من الحالات على قاعدة المبادلة أو المقايضة Barter ويذكر أحد الباحثين أن قطاعات كثيرة من سكان أقاليم الوجه القبلى فى مصر كانت لاتعرف النقود المعدنية ، بل كانت تتعامل بنظام المبادلة [2] . واتجه أصحاب الثروات إلى استغلال مدخراتهم فى شراء العقارات المبنية أو الأراضى الزراعية وأوقفوها وقفاً خيرياً أو أهلياً خشية مصادرة السلطات الحاكمة لها ولأن أراضى الأوقاف كانت تتمتع بالإعفاء الضريبى .

نخلص من هذا العوض إلى أن الدولة العثمانية لم تكن مسئولة عن هذا النظام الاقتصادى ، الذى فرض نوعاً من العزلة على الولايات العربية ؛إذ لم يكن فى مكنة الدولة القيام بدور الوسيط لإكراه الجماهير العربية على استيراد السلع من أوروبا بسبب «العقد النفسية»، التى كانت تتحكم فى هذه الجماهير إلى جانب «الموانع» التى أشرنا إلى طرف منها . يضاف إلى تلك العقد النفسية والموانع أن الدولة تركت ميدانى الصناعة والتجارة لرعاياها غير المسلمين ، وانصرفت إلى الاهتمام بالقطاع الزراعى فى الأناضول والمناطق القريبة من إستانبول وأهملت النهوض بالزراعة فى ولاياتها العربية . وهذا ما نأخذه عليها وسنعرض له فى فصل قادم عن المآخذ عليها .

---

(١) سبق شرح هذا المصطلح . انظر فى هذه الدراسة ص١١ .

(٢) دكتور على الجريتلى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦ .

عوائق سياسية :

أما عن الأسباب السياسية فكان بعضها يرجع إلى الدولة العثمانية حيناً ، والبعض الآخر إلى الدول الأوروبية أحياناً أخرى . أخذ نفوذ الدولة العثمانية فى الولايات العربية يتضاءل رويداً رويداً منذ أواخر القرن السابع عشر ؛ بسبب ضعف الباشوات حكام الولايات العربية واستئثار العناصر المسلحة ذات العصبية بالحكم مثل الأمراء المماليك فى مصر ومماليك العراق ورؤساء الطوائف في باشويات الشام ، وكان تنفيذ معاهدات الامتيازات يخضع لأهوائهم . وكانت الحكومات الأوروبية وسفراؤها وقناصلها وتجارها يقدمون الهدايا والرشاوى إلى كبار رجال الدولة ، سواء فى إستانبول أو فى الولايات العربية لتنفيذ نصوص المعاهدات . ومن جانب آخر استشرى نفوذ الدول الأوروبية وازداد تدخلها فى الشئون الخارجية والداخلية على السواء للدولة العثمانية . واتخذت هذه الدول من معاهدات الامتيازات سنداً لها فى هذا التغلغل ، وكانت الدولة تتعرض لهزائم عسكرية أليمة من الجيوش الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ووجدت الدول فى هذه الهزائم مشجعاً لها على مزيد من التدخل ، أكثر مما نصت عليه معاهدات الامتيازات ، التى قامت أصلاً على أساس تبادل الحقوق والواجبات بين المستأمنين الأوروبيين فى الدولة والرعايا العثمانيين فى الدول الأوروبية بحيث أصبحت هذه المعاهدات غرماً على الدولة وغنماً للمستأمنين الأوروبيين ، الذين لم يقنعوا بالإعفاء الضريبى، بل كانت لهم حصانة منعية تجاه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى أقاليم الدولة . وتطلعوا إلى مزيد من الامتيازات وأصبحت الدولة عاجزة عن التدخل لحفظ حقوق رعايا المقيمن فى الدولة أمام جشع الأجانب ؛ مما أدى إلى سيادة الفوضى البالغة فى الولايات العربية ، وابتعاد قطاعات من سكانها العرب عن الأوروبيين خوفاً من بطشهم وجبروتهم واستعلائهم(١).

أولاً : مصر

صلات عربية وإفريقية وآسيوية مكثفة بدلاً من العزلة النسبية عن أوروبا :

ولكن هذه العزلة بين أوروبا والولايات العربية كانت تقابلها علاقات تجارية مكثفة مع إفريقية وآسيا . كانت القوافل والسفن الإسلامية وسيلة الاتصال ، وكانت ترد من دارفور وسنار وكردفان فى السودان وغيره من أقاليم جوف إفريقية حاملة العاج وريش النعام والصمغ والتمر هندى والجلود والتمر والكحل وقرن الخرتيت والشب والرقيق الأسود . وكانت محطات وصول

(١) عن هذا الموضوع ، انظر كلا من :
على ماهر باشا ، مرجع سبق ذكره ص ص ٣٣٦-٣٤٠ .
دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤١٣-٤٢٠ .

تلك القوافل إلى مصر تقع فى إسنا وأبى تيج وأسيوط والقاهرة . وكانت هناك قوافل أخرى تأتى من شمالى إفريقية : مراكش والجزائر وتونس وطرابلس حاملة الأصواف والشيلان والطرابيش والأحذية والزيت والشمع والعسل (١) . وكانت حركة وصول قوافل شمالى إفريقية إلى مصر تشتد إبان موسم الحج ؛ إذ يجتمع حجيج شمالى إفريقية فى القاهرة ؛ حيث ينضمون إلى قافلة الحج المصرى فى رحلتها إلى الحجاز . وكانوا يحرصون على الوصول إلى العاصمة المصرية فى وقت مبكر قبل تحرك قافلة الحج المصرى فى السبت الثالث من شهر شوال من كل عام ، وكانوا يحرصون على قضاء شهر رمضان المعظم فى القاهرة يزاولون ألواناً من النشاط التجارى ، ويقضون بقية النهار وزلفاً من الليل فى تلاوة القرآن وزيارة المساجد وأضرحة أولياء الله . وكانت ترد إلى مصر أيضاً حاصلات بلاد التكرور – وهى الإقليم الغربى لجنوبى السودان على جانبى نهر السنغال ، ويسمى بالفرنسية Toucouleur وبالإنجليزية Tuculor . وإقليم تكرور لايعدو أن يكون إقليماً من الأقاليم المكونة لمملكة مالى وحدودها من المحيط الأطلسى غرباً إلى بلاد البرنو شرقاً فى قلب إفريقية ، اعتنق سكانه الإسلام فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وكانوا أسبق طوائف غربى إفريقية اتصالاً بمصر . ووجدت علاقات اقتصادية وثقافية بين الشعب الإسلامى فى مصر وبين التكروريين(٢) . وكانت القوافل تحمل حاصلات بلادهم إلى مدينة قوص ، ثم تنقلها السفن النيلية إلى القاهرة . وكان أهل تكرور يمرون بمصر وهم فى طريقهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وفى عودتهم منها(٣) ، وابتنى تجار تكرور فى القاهرة مدرسة لتعليم أبنائهم قبل إلحاقهم بالأزهر وعرفت باسم مدرسة ابن رشيق(٤) . وكان لطلبة تكرور رواق خاص بهم فى الأزهر الشريف . واستطاب التكروريون الإقامة فى قرية ساحلية بالجيزة – قبالة القاهرة – كانت تسمى منية بولاق ، ثم عرفت باسم

---

(١) دكتور محمد فهمى لهيطه : تاريخ مصر الاقتصادى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٦ .

(٢) يرى بعض الباحثين أن كلمة تكرور اشتقت من لفظة تكرر ، لأن أهالى هذا الإقليم كانوا يحرصون على تكرار أداء فريضة الحج ، بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة أخذت من كلمة تكرير أى تنقية وتطهير وتزكية إيمانهم وعقيدتهم عن طريق تأدية فريضة الحج عدة مرات . ويرى البعض الثالث أنه تكرار اسم مدينة ، وأنه يطلق أيضاً على القبائل التى تقطن السودان فى أقصى الجنوب من المغرب . وإن هذه القبائل تشبه الزنج إلى حد كبير .

انظر كلا من :

Burckhardt J.L., Travels in Nubia. London, 1819. P. 404.

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ، ١٩٠٦ ، ج٢ ، ص٣٩٩ .

(٣) ابن فودى : الإمام محمد بلو بن عثمان بن فودى : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور . تحقيق ونشر دكتور شوقى عطا الله الجمل . وكلمة بلو بلغة قبائل الفولانى تعنى المساعد أو المعين . وقد أطلق عليه هذا اللقب لمعاونته لأبيه عثمان فودى فى حروبه وفى شئون الحكم والإدارة .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٨٥٣ ، ج٢ ، ص٣٢٦ .

بولاق التكرور[(١)] . فكان لأهل تكرور نشاط تجارى مع مصر طوال السنة بحكم جاليتهم الكبيرة فى القاهرة ، وكانوا يتبادلون المحاصيل والمنتجات . ويشتد هذا النشاط التجارى إبان موسم الحج على غرار قوافل شمالى إفريقية .

وبجانب القوافل التجارية كانت السفن الإسلامية التى تمخر عباب البحر الأحمر تقوم برحلاتها من ثغر المخا فى اليمن إلى موانئ سواكن وجدة والقصير والسويس تحمل البن من اليمن وبعض السلع من أقاليم آسيا ، كما كانت ترفأ إلى دمياط ورشيد والإسكندرية السفن العثمانية واليونانية من فلسطين وسوريا وأزمير وإستانبول وغيرها ، تحمل الصابون والتبغ والزيوت والحرير والأخشاب .

بريطانيا وفرنسا تعقدان معاهدات تجارية مع الأمراء المماليك فى مصر :

يلاحظ أن بريطانيا وفرنسا لم تقنعا بإبرام معاهدات امتيازات مع الحكومة العثمانية فى إستانبول فقط ، بل اتجهت كل منهما إلى مصر لعقد معاهدات على غرارها ، بعد أن ضعف نفوذ الحكومة العثمانية ضعفاً شديداً فى مصر واستبد الأمراء المماليك بالحكم ؛ خاصة منذ حركة على بك الكبير عام ١٧٦٩ ، وكان قد قام تنافس شديد بين تلكما الدولتين على إيجاد طريق قصير وسريع وسهل بين أوروبا وممتلكاتهما فيما وراء البحار . وكانت بريطانيا تفضل إحياء الطريق البرى القديم The Overland Route من السويس عبر الصحراء القاهرة ثم الإسكندرية بينما كانت فرنسا تؤثر شق قناة بحرية بين البحرين

---

(١) أقام فى هذه القرية رئيس التكروريين فى القاهرة ، واسمه الشيخ أبو محمد يوسف ابن عبدالله التكرورى. وقد نقل الضريح والجامع إلى داخل البلدة خوفاً من تصدع البناء ، إذا جاء الفيضان عالياً خطيراً .

بجانب المصادر والمراجع التى سبق ذكرها عن هذا الموضوع ، انظر كلاً من :

المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . نشره دكتور رنك ومحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت أرقام ١٤٥٧-١٤٥٨ ، ١٤٦٤-١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ٢٢٩٥ ، وتوجد مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٥٠٠ تاريخ .

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ج٦ ، ص ص٤١٣-٤١٥ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ١٨٨٢ ، ج٢ ، ص١٤ .

على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج١٠ ، ص١٦ .

دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر المماليكى ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٩٠ ، حاشية رقم٤ .

دكتور إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٤٩-١٥٠ .

Levtzion N.; The Thirteenth and Fourteenth Century Kings of Mali (J. Afr. Hist. iv. No. 3, 1763.

دى لافوس De lafosse . دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تكرور ، الطبعة الثانية .

المتوسط والأحمر (١) ، ونجحت كلتاهما فى عقد معاهدات مع الأمراء المماليك فى مصر .

أبرمت بريطانيا سلسلة من الاتفاقيات ، كان من بينها اتفاقية مع على بك الكبير بعد أن فتح الحجاز ، وأراد أن يستأثر بتجارة البحر الأحمر الحرة وسواحل الهند . وقد عين بالتار Balthar - أخ كارلو دى روستى Carlo de Rosetti - قنصل النمسا العام فى مصر وصديق على بك الحميم - أميناً لجمرك جدة . ووصلت سفينة إنجليزية إلى هذا الميناء ، ثم تطلع إلى إنشاء طريق بحرى للتجارة بين الهند وميناء السويس ؛ كى يستفيد من الرسوم الجمركية على السفن وعلى ماتحمله من بضائع . وازدادت تطلعاته فأراد تحويل التجارة الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى الطريق البرى القديم عبر مصر . ووصلت سفينة إنجليزية من البنغال إلى السويس ، غير أن نهاية على بك جاءت سريعة فى عام ١٧٧٣ فتوقف مشروعه . وعلى عهد خلفه الأمير المملوكى محمد بك أبى الذهب ، استطاع الرحالة الإنجليزى جيمس بروس James Bruce أن يستصدر فرماناً محلياً من أبى الذهب عام ١٧٧٣ إلى شركة الهند الشرقية التجارية ، جاء فيه أنه لما كان التجار الإنجليز يشكون من المظالم التى أنزلها بهم شريف مكة وعماله فى جدة ، وكان التجار الإنجليز يودون المجىء بسفنهم إلى السويس فى أمن وسلام ، فقد سمح أبو الذهب بحضور السفن الإنجليزية إلى السويس ، وتعهد بعدم التعرض للتجار بالأذى، من جانبه أو جانب ضباطه وخدمه ورعاياه . ثم حدد الضريبة بثمانية فى المائة من المتاجر المجلوبة إلى السويس أو من قيمتها ، بالإضافة إلى خمسين ريالاً إسبانيّاً (أبو طاقة) كرسم يدفع عن كل سفينة . وأجاز أبو الذهب للتجار الإنجليز إحضار متاجرهم إلى القاهرة ذاتها والتجارة فيها إذا رغبوا فى ذلك ، أو التجارة فى السويس(٢) وكانت مينرڤا Minerva أولى السفن الإنجليزية التى وصلت إلى السويس بعد هذا الإتفاق فى يناير - كانون ثان - ١٧٧٥ وكانت تحمل مندوبين من قبل وارن هيستنجز Warien Hastings حاكم البنغال إلى أبى الذهب. ونجح هؤلاء فى ٧ من مارس - آذار - ١٧٧٥ ، فى عقد معاهدة للتجارة والملاحة بين أبى الذهب وهيستنجز حاكم البنغال من قبل الدولة البريطانية . وقد خولت هذه المعاهدة حق التجارة فى الهند وفى مصر لمواطنى المتعاقدين على السواء ، وخفضت الرسوم الجمركية على البضائع المجلوبة من الهند إلى السويس ، وأجازت للإنجليز شراء وتصدير المنتجات المصرية دون فرض ضرائب عليها . وتعهد أبو الذهب عن نفسه وعن خلفائه فى حكومة مصر، بالمحافظة على المتاجر المنقولة من الطور أو السويس إلى القاهرة فى طريق تصديرها إلى الخارج . وقد اعترض الباب العالى على مجىء السفن الإنجليزية إلى السويس . وكانت

---

(١) انظر عرضاً لهذا التنافس ومظاهره فى :
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : قناة السويس والتيارات السياسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١-٦٧ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٩-٤٢ .

حجته فى هذا الاعتراض هى أن الاحترام الواجب للحرمين الشريفين لايجيز للسفن الإنجليزية الملاحة فى البحر الأحمر شمالى جدة . وجاءت وفاة أبى الذهب الفجائية فى ٨ من شهر يونيو – حزيران – عام ١٧٧٥ فجعلت تنفيذ هذه المعاهدة أمراً متعذراً . فقد استأثر بحكم مصر الأميران المملوكيان إبراهيم بك الكبير ومراد بك وشاعت الفوضى فى البلاد . غير أن أحد كبار التجار الإنجليز ، واسمه جورج بولدوين George Baldwin ، ممن كانوا يمارسون نشاطاً تجارياً واسعاً فى منطقة الشرق الأدنى منذ سنة ١٧٦٠ ، كان يعتقد أن استخدام الطريق البرى عبر مصر يعود بفوائد كثيرة على التجارة بين الشرق والغرب ، وأن نقل البريد بوجه خاص بين إنجلترا ومستعمراتها فى الهند لايقل أهمية عن نقل البضائع . ولما لم يكن هناك من يشرف على مصالح الإنجليز فى مصر فى تلك الآونة ، عزم على أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة ، واستطاع أن يظفر من شركة الليڤانت الإنجليزية ومن شركة الهند الشرقية للتجارة بما يخوله الإشراف على مصالح هاتين الشركتين فى الشرق الأدنى بما فيها مصر . وبذل بولدوين منذ عام ١٧٧٥ جهوداً مكثفة فى مصر لتنظيم خط مواصلات منتظم من الهند إلى السويس – القاهرة – الإسكندرية – إنجلترا وبالعكس ، وأثمرت جهوده إلى حد أن السلطات الهندية والإنجليزية فى عام ١٧٧٧ أصبحت تعتمد اعتماداً كلياً على الطريق البرى عبر مصر فى نقل بريدها . وعاد الباب العالى يعارض هذا المشروع واتخذ من الناحية الدينية الإسلامية سبباً لاعتراضه . فأصدر السلطان عبدالحميد الأول (١٧٧٤–١٧٨٩) فرماناً فى عام ١٧٧٩ بمنع أى سفينة من سفن الإفرنج من الاقتراب سراً أو علانية من ميناء السويس ، وجاء فى هذا الفرمان «.. إن بحر السويس هو الطريق المميز للحج المقدس إلى مكة المكرمة . وإن السماح لهذه السفن بالملاحة ومساعدتها ، وعدم منعها ، خيانة للدين وللسلطان والإسلام قاطبة» (١) .

والواقع أن الدولة العثمانية كانت تخشى أن تتخذ إنجلترا من السماح للسفن الإنجليزية بالملاحة فى البحر الأحمر إلى السويس وسيلة لاحتلال مصر وغيرها من الممتلكات العثمانية المطلة على هذا البحر . وأصرت على سياستها التقليدية كإجراء أمن لها . ولذلك لم يؤذن إلا للسفن العثمانية بنقل البريد من جدة إلى السويس . ودلت الأحداث على أن مشروع نقل البريد عبر طريق السويس البرى كان سابقاً لأوانه ، لأن فوضى الحكم كانت تتفاقم يوماً بعد يوم على عهد إبراهيم بك الكبير ومراد بك ، واختل الأمن عبر الطريق الصحراوى . ولم يقدر لهذا المشروع أن ينفذ تنفيذاً سليماً إلا فى القرن التاسع عشر على عهد محمد على بمعرفة توماس واحـــورن Thomas Waghein أحد الضباط الإنجليز فى شركة الهند ، ونظم قوافل من الإبل للخدمة بانتظام بين السويس والقاهرة . وكان الأمن مستتباً فى مصر ، واشتدت قبضة الحكومة على العربان والأهلين .

---

(1) Charles Roux J.; L,Itshme et le Czanol de Suez. Historique. Etat actuel. 2 vol. Paris, 1901. Vol. I, Annexe No5, pp. 419-420.

فرنسا تعقد ثلاث اتفاقيات تجارية مع مصر :

أما فرنسا .. فقد هالتها المحاولات المكرورة التى بذلها الإنجليز فى مصر لإنشاء مركز تجارى متميز لهم فيها ، وإحياء طريق السويس البرى ، وهالتها أيضاً مساعى سفير النمسا فى إستانبول لإحياء مرور التجارة الشرقية بين تريستا والهند عن طريق مصر والبحر الأحمر ، واحتمال تداعى الدولة العثمانية ، فأوفدت فرنسا الضابط البحرى ترجويه Truguet إلى مصر فى أواخر عام ١٧٨٤ ، ونجح فى عقد ثلاث إتفاقيات سنة ١٧٨٥ : كانت الأولى فى ٩ من شهر يناير - كانون ثان - مع مراد بك ، تعهد فيها الأخير بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها من السويس إلى القاهرة . وحدد الضريبة على تجارة الهند باثنين فى المائة للباشا العثمانى وأربعة فى المائة للبك الحاكم وتخفض إلى ثلاثة فى المائة فقط إذا كانت السلع مصدرة إلى فرنسا . وقد وقع على هذه الاتفاقية بعد ذلك الأمير إبراهيم بك الكبير ، وكانت الاتفاقية الثانية فى ٢٣ من شهر يناير - كانون ثان - مع يوسف كساب الملتزم العام للجمارك فى مصر ، تعهد فيها بعدم زيادة الرسوم الجمركية على السلع الفرنسية وتحصيل نصف فى المائة من قيمة السلع المفرغة من السفن فى السويس . وعقدت الاتفاقية الثالثة فى الشهر ذاته أيضاً مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ العربان ، تعهد فيها بنقل البضائع الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء من السويس إلى القاهرة، فى مقابل أجر عن كل جمل (١) . غير أن هذه الإتفاقيات الثلاث لم تسفر عن النتيجة المرتجاة لأن إبراهيم بك الكبير ومراد بك دأبا على الإمعان فى مظالمهما وإرهاق التجار الأجانب وابتزاز الأموال منهم . وكان إبرام هذه الإتفاقيات سواء مع إنجلترا أو فرنسا فى مقدمة الأسباب ، التى حملت السلطان عبدالحميد الأول على إرسال حملة عسكرية بقيادة حسن باشا الجزائرلى إلى مصر لكسر شوكة الأمراء المماليك. وهذه الحملة من الحملات الفريدة فى تاريخ مصر ؛ فالدولة العثمانية ترسل حملة عثمانية إلى مصر العثمانية لدعم السيادة العثمانية وتقليم أظافر المماليك . وقد دخلت الحملة القاهرة فى شهر أغسطس - آب - عام ١٧٨٦ ولم تحقق نجاحاً يذكر ، إذ اعتصم إبراهيم بك الكبير ومراد بك فى الصعيد ، واستدعت الحكومة العثمانية الحملة فى السنة التالية بسبب نشوب الحرب مع الروسيا فى شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٨٧ ، وعاد هذان الأميران المملوكيان إلى القاهرة وظلا يحكمانها حكماً ثنائياً استبدادياً ، تكدست فيه المظالم من يمين ويسار على سكان البلاد - مصريين وأجانب- فتعذر أو استحال تنفيذ الاتفاقيات التجارية ، سواء التى عقدتها بريطانيا أو فرنسا مع الأمراء المماليك . وظل الموقف على هذا المنوال حتى مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ .

وإذا كان اتصال مصر إبان الحكم العثمانى بأوروبا ظل ضعيفاً باهتاً ، شاحباً لأسباب

(1) Charles Roux F.; Autour d'une Route L'Angleterre., L'Istlme de Suez et L'Egypte au XVIII siéde. Paris, 1922, P. 172.

كانت كلها أو غالبيتها خارجة عن إرادة الدولة العثمانية .. فإن بعض الولايات العربية الأخرى كان على اتصال وثيق ومستمر مع أوروبا بل والولايات المتحدة الأمريكية ، وكان من بين هذه الولايات : باشويات الشام وولايات العراق ونيابات شمالى إفريقية .

ثانياً : بلاد الشام

أسباب اتصال بلاد الشام بأوروبا إبان الحكم العثمانى :

كانت لبلاد الشام أوضاع خاصة بها ، اختلفت اختلافاً جذرياً عن الأوضاع فى مصر وغيرها من الولايات العربية فيما عدا نيابات شمالى إفريقية . وقد أسهمت هذه الأوضاع فى قيام اتصال وثيق ومستمر بين باشويات الشام وأوروبا طوال الحكم العثمانى من أوائل القرن السادس عشر (١٥١٦) حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) ؛ بحيث كانت العزلة مع أوروبا شبه منعدمة فيها . ويمكن القول بأن اتصال بلاد الشام بأوروبا كان أكثر وأوثق من اتصال أى ولاية عثمانية أخرى فى الشرق العربى مع أوروبا ، فى خلال تلك القرون الأربعة . وحسبنا أن نذكر ثلاثة عوامل أدت إلى هذه النتيجة .

كان العامل الأول هو أن بلاد الشام لم تخضع لحكومة مركزية واحدة كما حدث فى مصر ، بل قسمت إلى عدد من الوحدات الإدارية ، عرفت باسم الباشويات أو الإيالات – جمع إيالة – وكانت هى باشوية حلب ، باشوية دمشق ، ويطلق عليها باشوية الشام حيناً ، وباشوية سوريا حيناً آخر ، ثم باشوية طرابلس . وكانت كل باشوية مستقلة عن الأخرى . وكان يطلق عليها حاكم كل منها أول الأمر أمير الأمراء – ميرميران – وكان رئيساً للسلطة فى إيالته مسئولاً عن ضمان استمرار ولائها للسلطان وتوفير العدالة والأمن للسكان . ومارس اختصاصات واسعة فى الشئون الإدارية والعسكرية والقضائية والإقطاعية . وكثيراً ماتضاربت اختصاصاته مع القضاة ، وكان يتدخل فى تحديد الأسعار ومراقبة النقد وتوفير المواد الغذائية ، ولكنه لم يكن يتدخل فى تنفيذ مشروعات اقتصادية أو اجتماعية . ولكن هدفه الأول كان المحافظة على الأمر الواقع ومحاربة البدع وتطبيق قوانين الدولة وإقامة مساجد أو تكايا أو خانات أو مدارس(١). وكانت له حاشية تشبه حاشية الصدر الأعظم . ولم يظل التقسيم الإدارى لبلاد الشام ثابتاً ، بل أدخلت عليه تعديلات كثيرة تبعاً للأحداث السياسية التى واجهتها الدولة فى بلاد الشام . ونلاحظ أن الدولة العثمانية لم تأت بجديد فى هذا التقسيم ، فقد درجت دولة المماليك الشراكسة على مثله فى بر الشام وكانت تطلق على التقسيمات الإدارية الرئيسية «نيابات» الشام.

---

(١) دكتور عبدالكريم غريبة ، مراجع سبق ذكره ، ص ص٤٠-٤٤ .

أما العامل الثانى فإن التجارة كانت ولاتزال تستهوى أفئدة أهل الشام ، يرون فيها أفضل وسيلة لاستثمار أموالهم واستغلال نشاطهم نظراً لما تدره عليهم من أرباح وفيرة . ولذلك امتازت الأساكل والمدن الداخلية فى إيالات الشام بنشاط تجارى كثيف ومستمر ووجود جاليات أوروبية متعددة الجنسيات ، قام أفرادها بدور الوسطاء فى عمليات التصدير والاستيراد وتعايشوا مع سكان البلاد .

أما العامل الثالث فكان العامل الحاسم ، وبالتالى الأكثر أهمية . كانت بلاد الشام مليئة بتنوع بشرى ولغوى ودينى ندر ، أو قل أن وجد له مثيل فى أى بقعة فى أنحاء العالم .

التنوع البشرى :

كانت تقطن بلاد الشام العناصر السامية العربية ، وجاليات قديمة من اليهود والسريان والتركمان والأكراد والكريتيون والأرمن والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس وجاليات طارئة من البشناق [١] والألبانيين ومن رعايا الكيانات السياسية فى شبه جزيرة إيطاليا ومن رعايا فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية . وكانت تفد أعداد وفيرة من اليهود والمسيحيين من كافة أرجاء العالم إلى الجزء الجنوبى من بلاد الشام وهو فلسطين ؛ لزيارة الأماكن المقدسة اليهودية والمسيحية ، وكانوا يأتون إلى فلسطين إما براً وإما بحراً من يافا إلى بيت المقدس . وكانت قبائل البدو تقطن جهات متعددة من بلاد الشام ، وتحول كثير من أفرادها إلى أعمال السلب والنهب .

التنوع اللغوى :

كان التنوع اللغوى على أشده ؛ إذ كانت هذه العناصر البشرية المتعددة تتكلم لغات شتى من اللغات الميتة والحية . ومن اللغات الأولى كانت العبرية [٢] والسريانية والآرامية واللاتينية. ولم يكن استخدام هذه اللغات الميتة مقصوراً على الطقوس الدينية والكتب الدينية فحسب ، ولكن

---

(١) البشناق نسبة إلى البوسنة وهى إقليم يقع حالياً فى يوغوسلافيا كان قد امتد إليه الحكم العثمانى .

(٢) كانت اللغة العبرية من اللغات الميتة إبان الحكم العثمانى . ولكن بدأ إحياؤها منذ المؤتمر الذى دعا إلى عقده الصحفى النمساوى اليهودى تيودور هوتزل فى مدينة بال فى سويسرا . وقد انعقد المؤتمر فى ٢٩ من شهر أغسطس – أب – ١٨٧٩ . وكان من قرارات هذا المؤتمر تقوية المشاعر اليهودية والوعى القومى وتعزيزهما . ثم اتخذ هذا الإحياء طابعاً رسمياً حين فرضت بريطانيا نفسها دولة منتدبة على فلسطين، وصدر صك الانتداب ، وصدقت عليه عصبة الأمم فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو – تموز – عام ١٩٢٢ . وجاءت صياغة المادة الثانية والعشرين على النحو التالى «تكون الإنجليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل فى فلسطين يجب أن تكرر بالعبرية . وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية» ، ولما أنشئت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كانت العبرية اللغة الرسمية لها .

انظر :

الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين . المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦ نشر الأمانة العامة لجامعة =

كان استخدامها يمتد إلى الحياة اليومية المدنية العادية . أما عن اللغات الحية فقد تكلمت طوائف أخرى من السكان العربية والتركية والكردية والشركسية وكذلك اللغات الأوروبية الحديثة .

التنوع الدينى :

كان التنوع الدينى أكثر وضوحاً وأقوى بروزاً وأشد تعقيداً . كان المسلمون فى بلاد الشام طرائق قددا . كان من بينهم قطاعات هامة من أهل السنة ، وكان من بينهم العرب والعثمانيون والتركمان . وكان لهم ثقل سياسى فى حياة البلاد . واتبع العثمانيون والتركمان والأكراد المذهب الحنفى ونهج تهجم بعض الأعيان العرب من سكان المدن المذهب الحنفى تقرباً إلى السلطان العثمانى لأن المذهب الحنفى كان المذهب الرسمى للدولة . وانتمى عدد قليل من السنيين للمذهب الحنبلى ، بينما كان المذهب الشافعى هو السائد فى فلسطين والأردن وغيرهما من المناطق المتأثرة بمصر . وفى ذات الوقت وجدت إلى جانبهم قطاعات أخرى من أهل الشيعة . وكان الأخيرون ذوى عصبيات قوية ويشكلون عشائر كثيرة وكبيرة . نذكر منهم على سبيل المثال الدروز . ويقول عنهم الأستاذ محمد عبدالله عنان إنهم يعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى (٣٨٦-٤١١هـ - ٩٩٦-١٠٢٠م) . فهذا الخليفة ليس فى اعتقاد الدروز إنساناً كباقى البشر ، ولكن الروح الإلهية انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم إلى الحاكم بأمر الله وحلت به ، وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدى . وهذا هو فى الواقع أساس عقيدة الدروز وعمادها الجوهرى . وهم يعتقدون فى التناسخ أى ينسخ مذهبهم أو عقيدتهم ، على وجه الدقة ، جميع الأديان والشرائع السابقة . وفى زعمهم تعد عقيدتهم خاتمة الديانات . وهم ينكرون الأنبياء والرسل جميعاً . وينكرون أصول الإسلام والنصرانية واليهودية (١) ولايأخذون بشىء من أصول الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج. ولايتبعون علم الفرائض أو المواريث لأنهم ينكرون أحكام الشريعة (٢). وكان معظم الدروز يسكنون جبل لبنان وحوران ووادى التيم، وقاموا بدور الرئيسى بارز فى تاريخ جبل لبنان وتزعموا المنطقة وغدوا حكامها الفعليين لعدة قرون. وبلغ عددهم زهاء مائة ألف، واشتهروا

=الدول العربية . إدارة فلسطين . (الشعبة السياسية) ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص١٢٨-١٣٧ .

دكتور أحمد طربين : فلسطين فى خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧-١٩٢٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٦٢ .

(١) ينتسب الدروز ظاهراً إلى الإسلام ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمون ، وأمام النصارى بأنهم نصارى ، ويحرصون أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية وينكرون مايؤخذ عليهم منها ، بل يذمونها زمام المعترضين رياء ونفاقا .

(٢) إن المؤسس الحقيقى والإمام الحقيقى لعقيدة الدروز رجل يدعى حضرة بن على بن أحمد الزوزنى ، ويعرف باللباد. ظهر فى القاهرة عام ١٠١٧ (٤٠٨هـ) ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله . وإن كانت هذه العقيدة تنسب إلى محمد بن إسماعيل الدرزى ، الذى قيل إنه أول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم بأمر الله .=

بالبسالة فى الحروب وبطاعتهم لرؤسائهم واشتركوا فى معظم الانتفاضات التى قامت ضد الحكم العثمانى . وظلت منطقة جبل لبنان المركز الرئيسى لتجمعاتهم إلى أوائل القرن الثامن عشر ، حينما بدأت هجرتهم إلى حوران .

وكان من العصبيات الدرزية التنوخيون ، والقيسيون ، والمعنيون أو بنو معن ، وأصبحوا أقوى قوة فى جنوبى لبنان إبان الحكم العثمانى . وبلغ نفوذهم الأوج على عهد الأمير فخر الدين المعنى الثانى (١٥٧٢-١٦٣٥) ، الذى تحالف مع أمراء توسكانا فى شبه جزيرة إيطاليا، وكون قوة عسكرية ذات بأس شديد من الدروز والسكمان [١] والنصارى ، وشجع التجار الأجانب. وكان هناك أيضاً آل علم الدين وكانوا يمنيين ، والأمراء الأرسلانيون ، والمتاولة وهم من غلاوة الشيعة سكنوا فى جنوبى لبنان فيما يعرف بجبل عامل ، وامتدوا إلى البقاع وسيطروا على بعلبك ووجدت جالية منهم فى دمشق . ووثقوا علاقاتهم الدينية بفارس واتصلوا بحكامها وأمدوا فارس بعدد من العلماء الشيعة السوريى الأصل ، وتلقى عدد منهم العلم فى معاهد النجف الأشرف . وتفاوت عددهم بين خمسة وعشرين ألفاً وضعف هذا العدد ، وقد تعرضوا لضغط شديد من جيرانهم الدروز . والنصيرية أو العلويون وهم طائفة شيعية باطنية يجيزون الزواج من الحرمات مثل الأم ، والأخت ، والابنة . وتسببوا فى خلق متاعب كثيرة للدولة ولجيرانهم ؛ إذ كانوا يعتدون على المسلمين السنيين وعلى المسيحيين . والاسماعيلية أو الإسماعيليون وهم من أقدم الطوائف الشيعية فى بلاد الشام ، ومركزهم الرئيسى فى السلمية شمالى شرق حمص . واعترف اسماعيليو الشام بزعامة الأغاخان . وبنو شهاب ، وكانت الأسرة الشهابية أقوى الأسر القيسية أنشأت إمارة على جبل لبنان ، واختير الأمير بشير الشهابى سنة ١٦٩٧ أميراً للجبل ، وبنو حرفوش وكانوا من غلاة الشيعة ، ونشب صراع عنيف بينهم وبين الطوائف الدرزية مثل المعنيين والشهابيين . وكان هناك الأكراد وأشهر عشائرهم بنو جانبولاد ، وعرفوا أيضاً باسم الجنبلاطية واعتنقوا فى لبنان العقيدة الدرزية وارتفعت مكانتهم ،حتى كان يطلق على الزعيم

= انظر :

محمد عبدالله عنان : الحاكم بأمر الله الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٩٧-١٩٨ ص٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٩٦ ، ص ص٣١٦-٣١٨ .

دكتور محمد كامل حسين : طائفة الدروز . تاريخها وعقائدها ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٩٦٨ ، ص ص٣١-٧٢ ، ٨٣-٨٨ ، ١١٧-١٢٠ .

(١) السكمان وترد هذه اللفظة فى بعض المراجع السكبان وتعنى كلاب الصيد ، وكانت تطلق على طوائف من الجنود غير النظاميين . بدأ ظهورهم منذ أواخر القرن السادس عشر . جمعهم عبدالحليم اليازجى أحد أصحاب العصبيات الذين خرجوا على الدولة العثمانية . ولما أخفقت حركته تفرق جنوده والتقوا بخدمة فخر الدين المعنى وغيره من أصحاب العشائر .

انظر :

المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . ج١ ، ص٢٨٦ ، ص٨٤ ، ص٣٢٢ .

منهم شيخ الشيوخ . وكان هناك أيضاً السيفيون أو بنو سيفا، وهم من الأكراد وعظم مركزهم حين علا نفوذهم على نفوذ الباشا العثمانى فى طرابلس ، ودان لهم شمالى لبنان وامتد نفوذهم إلى حماة وحمص .

وعلى هذا النحو كانت بلاد الشام مسرحاً تزاحمت عليه طوائف إسلامية ، كان منهم أهل السنة وكان منهم أهل الشيعة . وانقسم الأخيرون إلى جماعات عديدة من أصحاب العصبيات والعقائد والمذاهب ، تنابذ أفرادها جرياً وراء تحقيق مصالح شخصية ، وكان نفوذ زعماء بعض هذه الطوائف يعلو نفوذ الباشوات العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن فريقاً من المسلمين ارتدوا عن دينهم وتحولوا إلى المسيحية . وكان يحدث أن الأسرة المسلمة الواحدة تنقسم إلى فرعين : فرع يبقى على إسلامه ، وفريق يرتد إلى المسيحية . ونذكر على سبيل المثال الشهابيين ، فقد تحول فريق منهم إلى النصرانية. وكان منهم الأمير بشير الشهابى الكبير حليف محمد على باشا وإلى مصر ، وأصبح الشهابيون فى لبنان مسيحيين بينما كان الشهابيون فى سوريا من المسلمين . وكذلك تحول بنو حرفوش وهم أمراء بعلبك والبقاع إلى المسيحية بعد أن كانوا من غلاة الشيعة . وتحولت أيضاً إلى المسيحية عقب معركة عين دارا (عنداره) سنة ١٧١١ أسرة أبى اللمع أو بللمع . وكان هذا التحول يحدث عادة دون ضجة(١) .

وقد وصف قساطلى فى أحد مؤلفاته هذا التعدد فى الأديان والطوائف فى بلاد الشام وصفاً معبراً بقوله : «ويمتاز أهل الشام عن بقية أهل الأرض بكثرة أديانهم . فليس فى المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد من الأديان والطوائف . وفيها أديان خاصة بها لاوجود لها فى سواها من البلدان ... وليس فى الأرض كلها أناس من طائفة الروم الكاثوليك والموازنة إلا فى بلاد الشام والبلدان التى يتردد عليها أهل الشام . ومن غريب أمر الطوائف أن بينها أربعة هى طوائف الدروز والإسماعيلية والسمرة والنصيرية ، التى لاوجود لها فى غير بلاد الشام»(٢) .

الطوائف المسيحية :

وكانت الطوائف المسيحية فى بلاد الشام على شاكلة الطوائف الإسلامية من حيث تعددها وتنابذها وتصارعها على النفوذ ابتغاء تحقيق مطامع أو مصالح خاصة بها . واتخذت كل طائفة مسيحية لنفسها شرعة ومنهاجاً . وكان من بين هذه الطوائف : الروم الأرثوذكس ، والروم الكاثوليك ، والسريان اليعاقبة ، والسريان الكاثوليك ، والأرمن الأرثوذكس ، والأرمن

---

(١) انظر ماكتبه عن هذا الموضوع دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ص٣٢١ ، ٣٤٣ .

(٢) قساطل (نعمان بن عبده بن يوسف الدمشقى) : حسر اللثام عن نكبات الشام . القاهرة ١٨٩٥ ، ص٥-٦.

الكاثوليك والأقباط ، والأحباش ، والموارنة ، واللاتين ، والبروتستانت .

كان الروم الأرثوذكس يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - اليونانية - في إستانبول . وكان أتباع هذه الكنيسة أكبر الطوائف المسيحية في بلاد الشام أهمية وعدداً . وعانت هذه الكنيسة من انقسامين خطيرين : فقد أبدى أتباعها العرب سخطهم على الأوضاع السائدة فيها؛ إذ كان اليونانيون يتمتعون بالنفوذ الأكبر في الكنيسة ، ويحتلون مناصبها الدينية العليا ويفرضون اللغة اليونانية في إقامة الطقوس الدينية ، وكان العرب الأرثوذكس لايفقهون من هذه اللغة شيئاً . وتطور النزاع حين طالب هؤلاء العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بتعريب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . ومما زاد في حدة تعدد الهيئات المسيحية في بلاد الشام الانقسام الذي حدث بها بإنشاء بطريركيتين هما : بطريركية القدس ومركزها بيت المقدس ، وبطريركية أنطاكية ومركزها دمشق ، وقام تنافس حاد بينهما ، وأنشأ بطريرك القدس داراً جديدة للبطريركية واستورد مطبعة وأوعز بتعريب الكتب الدينية وشيد مدرسة . وارتبطت بكرسي بطريركية القدس أسقفيات الناصرة وعكا وطبريا والكرك والسلط وعجلون وسبسطية وطور سيناء وشريعة نمرين . وارتبطت بكرسي بطريركية أنطاكية أسقيفات باشوية الشام وبعلبك وحلب . وكان للأرثوذكس في دمشق سبع عشرة كنيسة ، وبنوا كنيسة جديدة بعد أحداث فتنة سنة ١٨٦٠ ، وقاموا بترميم الكنائس التي تصدعت في أثناء هذه الفتنة ، ومضوا في القرن التاسع عشر ينشئون كنائس عديدة في بلاد الشام . وقاموا بدور بارز في نشر التعليم بإنشاء المدارس ، وكانوا يشكلون أقليات كبيرة في دمشق وحمص وحماه وحلب واللاذقية وطرابلس وعكا والناصرة وبيت لحم ، وكانوا في جميع هذه المدن أكبر الجاليات المسيحية (١) .

أما الروم الكاثوليك .. فكانوا يتبعون الكنيسة البابوية في روما ، وتعرضوا أول الأمر لاضطهاد شديد من جانب الروم الأرثوذكس ، وانتخب الروم الكاثوليك بطريركاً خاصاً بهم واعترفوا برياسة البابا ، وأنشأوا ثلاثاً وأربعين كنيسة في باشوية دمشق وغيرها .

أما السريان فكانت لهم أول الأمر كنيسة واحدة ، أطلق عليها الكنيسة السريانية اليعقوبية وعرف أتباعها باسم السريان اليعاقبة . ولكن تعرضت كنيستهم لانقسامات دينية . انتخب أحد رجالها عام ١٧٨١ بطريركاً يعقوبياً ولكنه آثر الارتباط بروما ، فثار عليه أتباعه وأجبروه على الهرب وانتخبوا بطريركاً جديداً . وأسس البطريرك الأول وأنصاره كنيسة سريانية كاثوليكية جديدة تابعة لروما . ورفضت السلطات العثمانية الاعتراف بها ، وحاولت حمل أتباعها على العودة إلى حظيرة الكنيسة الأولى ، ثم وافق السلطان العثماني على الانفصال وأنشئت كنيسة جديدة باسم بطريركية أنطاكية للسريان الكاثوليك وكان مركزها حلب . وكان لها كنيستان في

(١) دكتور عبدالكريم غرايبة ، سورية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١١٥-١١٧ .

باشوية دمشق وللسريان اليعاقبة كنيستان ، واستخدم السريان فى كنائسهم اللغة السريانية وأصبحت لغة الكنيسة ولغة الخاصة . أما العامة فقد تكلموا العربية وكتبوها أحياناً بحروف عربية .

وانقسم الأرمن إلى أرثوذكس وكاثوليك . وكان الأرمن حتى أوائل القرن السابع عشر من أتباع الكنيسة اليعقوبية ، ثم انشق بعضهم ونصبوا بعد عام ١٧٣٩ بطريركاً كاثوليكياً . وكان لكل من طائفتى الأرمن كنيسة صغيرة فى دمشق ، وألحقت بالكنيسة الأرثوذكسية مدرسة ابتدائية تدرس الأرمنية ، وكانت القدس مقر بطريرك الأرمن اليعاقبة بينما كانت بيروت مقراً لبطريرك الأرمن الكاثوليك[١] .

وكان عدد من الأقباط والأحباش يقيمون فى القدس ، وينتمون إلى الكنيسة اليعقوبية القبطية فى بلاد الشام ، وقام نزاع بينهم بصورة مستمرة على ملكية بعض الأديرة . واستعان ملك الحبشة عام ١٨٥٢ بالقنصل البريطانى فى القدس ، وعهد إليه برعاية مصالح الأحباش . ولكن الحكومة العثمانية حسمت الموقف لصالح الأقباط سنة ١٨٦٨ .

أما الموارنة فيقول عنهم الدكتور عبدالكريم غرايبة إنهم كانوا «أهم طائفة مسيحية فى بر الشام لابسبب عددهم وتكتلهم فى منطقة جبلية ، بل بسبب الدور السياسى الذى لعبوه فى تاريخ البلاد والدور القيادى فى تقرير مصير لبنان وتوجيه سياسته» . كانوا أول الأمر يتبعون الكنيسة الشرقية ويشبهون فى هذه التبعية الروم الأرثوذكس . ولكن دب شقاق بين الجانبين أسفر عن اعتراف الموارنة برياسة البابا فى روما لكنيستهم ، غير أنهم احتفظوا باستقلال كنيستهم بطقوسها الشرقية ولغتها السريانية . وبقيت هذه اللغة أمداً طويلاً لغة الكنيسة والخاصة ثم حلت محلها اللغة العربية . وبطاركة الكنيسة المارونية من خريجى مدرسة دينية مارونية تعدهم لشغل المناصب الإكليريكية ، وللموارنة عدد هائل من الكنائس والأديرة والمدارس .

وازداد فى العهد العثمانى عدد اللاتين وهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية وفقاً لطقوسها . ولكنهم لم يأخذوا طابع الطائفة الوطنية المستقلة . وبالتالى لم يكن لهم بطريرك خاص بهم إلا بعد عام ١٨٤٧ ، حين قرر بابا روما إحياء بطريركية القدس اللاتينية ، التى اندثرت بعد أن أخفقت الحركة الصليبية فى الشرق العربى وتم جلاء الصليبيين عن عكا سنة ١٢٩١ . وعين البابا أحد رجال الدين الكاثوليك بطريركاً ، وذهب

---

(١) المرجع السابق ، ص ص١١٩-١٢٠ وانظر أيضاً .
أنطونيوس جورج ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٩٧-١٠٩ وقد تكلم عن النشاط التنصيرى الأوروبى والأمريكى فى بلاد الشام ؛ خاصة فى القرن التاسع عشر ، وأثبت أن نشاط اليسوعيين التنصيرى أدى إلى زيادة حدة العداوة المذهبية بين الأهلين .

إلى القدس وشغل منصبه كقاصد رسولى وبطريرك للقدس وفلسطين والأردن وقبرص، وكان عدد أتباعه لايتجاوز الأربعة آلاف ، وكانت لهم ثمان كنائس .

تعدد البعثات التنصيرية والديرية وأهدافها :

ووفدت إلى بلاد الشام بعثات تنصيرية وديرية ، قامت بدور بارز فى حياة البلاد الدينية والثقافية . وكان أهم هذه البعثات اليسوعيون . وقد وصلوا إلى حلب عام ١٦٢٥ ، ثم أسسوا أديرة فى دمشق عام ١٦٤٣ ، وصيدا عام ١٦٤٤ ، وطرابلس عام ١٦٦٤ ثم أغلقت مؤسساتهم وعهد بها إلى الرهبان العازاريين عام ١٧٧٣ ، ولكن عاد اليسوعيون مرة أخرى عام ١٨٢١ إلى بلاد الشام ؛ حيث استأنفوا نشاطهم مكثفاً وفى نطاق واسع . ووفد أيضاً الفرنسسكان الإيطاليون ، والفرير ، والكرمل ، كما كانت هناك راهبات الناصرة ، وراهبات القديس يوسف ، والراهبات الكرمليات ، وراهبات قلب يسوع ، ومريم .

وتعاقب وصول البعثات البروتستانتية إلى بر الشام فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأنشأ أعضاؤها أول مركز لهم عام ١٨٢٠ فى بيروت . وأوجس منهم المسلمون والسلطات العثمانية خيفة إذ نظروا إليهم نظرة الريبة ، إذ رأوا فيهم بوادر تسلل استعمارى غربى ، وأنهم يتسترون وراء وظيفتهم التنصيرية ، كما رأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك تهديداً خطيراً لكيانهم الدينى . وعلى الرغم من المقاومة التى صادفها البروتستانت .. فإنهم مضوا فى ممارسة نشاطهم ، ومدوا هذا النشاط إلى دمشق وحلب وحمص وحماه وجبال النصيرية ، معتمدين على حماية قناصل بريطانيا والولايات المتحدة ، وأسسوا أسقفية فى القدس وفى عدد من المدن . واتفقت ڤيكتوريا ملكة بريطانيا وفردريك الرابع ملك بروسيا عام ١٨٤١ على إنشاء كنيسة متحدة فى القدس تعترف لأسقف كانتربرى بالسلطة العليا ، ويسهم العاهلان فى دفع نفقاتها ، وتناوب الإنجليز والبروسيون أعمال مطرانها . وقد بلغت حدة العداء بين البروتستانت واللاتين أن أحرق الأخيرون ، فى احتفال كبير أقيم فى ٢٨ من فبراير – شباط – ١٨٥٥ ، الكتب الدينية البروتستانتية .

والواقع أن الهدف الأسمى لأعضاء هذه البعثات التنصيرية لم يكن تنصير السكان ، بل كان لأعضائها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الأوروبية التى بعثت بهم إلى بر الشام . وكان المنصرون يضمرون العداوة والبغضاء نحو العرب المسلمين، وعدواة أخرى نحو المسيحيين المختلفين عنهم مذهبيًا ، وكان اليسوعيون أشد المنصرين تعصباً تأججت فى نفوسهم الروح الصليبية العنيفة . كما كانت للمنصرين أهداف شخصية شوهت اسم المسيحية فى الشرق . ولم تكن تصرفات بعضهم فوق مستوى الشبهات ؛ إذ اتشح سلوكهم بقاذورات بلغت حد اغتصاب السيدات والآنسات والاعتداء عليهن وحبسهن فى

بيوتهم ، مستغلين شتى الحصانات التى منحتها إياهم معاهدات الامتيازات الأجنبية(١) .

اليهود :

وقام اليهود بدور متزايد الأهمية فى حياة البلاد لم يتناسب مع قلة عددهم ؛ فلم يزد عددهم فى فلسطين خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثمانى عن عشرة آلاف نسمة وكانوا ثلاثة أمثال هذا العدد فى بر الشام كله . وتزايد هذا العدد فى أواخر القرن التاسع عشر حتى بلغ حوالى المائة ألف بسبب تزايد الحملة لتهجير اليهود إلى فلسطين وأسسوا مدارس لتعليم العبرية ، وأقاموا مستوطنات فى قضاء حيفا واشتروا أراضى زراعية من الإقطاعيين . وكان لهم نشاط تجارى كبير ؛ إذ سيطروا على تجارة صفد ودمشق ، وقاموا بدور بارز فى الحياة الاقتصادية فى حلب وبيروت وعكا وحيفا . وكان لهم فى دمشق وحدها أكثر من أربع وعشرين مؤسسة تجارية بلغ رأسمالها خمسة ملايين فرنك . وسيطروا أيضاً على تجارة دمشق مع بريطانيا (٢) .

وقد أوجدت هذه الكثرة العددية الرهيبة فى عدد الطوائف الدينية المسيحية والبعثات التنصيرية فضلاً عن اليهود والحجاج المسيحيين واليهود عديد المسارب بين بلاد الشام وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .. وهكذا فتحت الأبواب فى وجه المؤثرات الحديثة ، وهى ظاهرة من أخصب الظواهر فى تاريخ بلاد الشام(٣) . وكانت البابوية فى روما والحكومات الأوروبية والأمريكية توثق صلاتها بالطوائف الدينية غير الإسلامية وبزعمائها ومؤسساتهم الدينية والتعليمية وغيرها ، تمدهم بالأموال ورجال التعليم وبعض رجال الدين والعملاء . وانتهى الأمر بأن بسطت بريطانيا حمايتها على الدروز ، وبسطت الروسيا حمايتها على الروم الأرثوذكس ، وبسطت فرنسا حمايتها على الموارنة ؛ مما أدى إلى تعميق هذه المسارب بين بلاد الشام وأوروبا.

وبفضل تلك المسارب ازدهرت الحياة الاقتصادية فى باشويات الشام بصفة عامة واتسع نطاق عمليات التصدير والاستيراد بينها وبين أوروبا ؛ إذ كانت إسبانيا قد نجحت فى ضم البرتغال إليها سنة ١٥٨٠ ، وكان من نتائج هذا الضم اضطراب خطوط الملاحة البرتغالية فى طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية ، وانكماش حجم التجارة الشرقية التى كانت تحتكرها البرتغال من ناحية أخرى ؛ مما ساعد على بعث مزيد من النشاط فى الطريق البرى تسير فيه

---

(١) دكتور مصطفى خالد ودكتور عمر فروخ : التبشير والاستعمار فى البلاد العربى . عرض لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربى . بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٠-١٩٧٠م . انظر فيه عرضاً لبواعث التبشير ص ص٣٤-٥٧ .

(٢) دكتور عبدالكريم غرايبة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٢٤-١٢٩ .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٣٢٠ .

القوافل الوافدة من فارس والخليج العربى والبصرة عبر العراق والجزيرة إلى حلب حاملة منتجات الهند والشرق الأقصى ، مثل : التوابل والعقاقير والأصبغة والسجاد والأقمشة الهندية والفارسية . وكان التجار الأوروبيون فى حلب يشترون هذه السلع لتصديرها إلى أوروبا الغربية، وقامت منافسة شديدة بين أسكلة إسكندرونة وأسكلة طرابلس أيهما تكون منفذاً بحرياً لحلب . وكانت الإسكندرونة تمتاز بقربها من حلب وأمن الطريق بينهما ، وأسفرت هذه المنافسة عن اتخاذ الإسكندرونة ميناء لحلب ، تشحن منها بضائع الشرق الأقصى والهند وفارس والخليج العربى والعراق إلى أوروبا . وكانت عمليات شراء هذه البضائع تتم غالباً عن طريق المقايضة بالأقمشة الأوروبية مع دفع الفروق بالنقد الفضى الأوروبى ، وكانت تصدر الأصواف الأوروبية إلى فارس . واستفاد تجار الشام من هذه الحركة كوسطاء ، كما استفاد منها عربان بادية الشام عن طريق حمايتهم للقوافل وتزويدهم إياها بالجمال والأدلاء .

وقد بلغ دخل العربان أكثر من نصف مليون قطعة ذهبية سنوياً (١) ، وكانت الشام تصدر إلى أوروبا فائض إنتاجها من القطن والحرير والحبوب والمنسوجات الحريرية والقطنية والتبغ . وفى حلب نشأت مستعمرة من أهل البندقية كانت تصلهم قوافل محملة بالتوابل لحسابهم الخاص ، كما كان يقيم بها تجار فرنسيون وإنجلزى ومن أهل جنوة ، وقامت بها قنصليات لدول أوروبية . وأصبحت حلب حتى منتصف القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الأدنى ، بينما ظلت دمشق حتى أوائل القرن الثامن عشر مركزاً فكرياً ، ثم أخذت الأخيرة تتفوق على حلب كمنافس تجارى قوى وانتزعت منها الزعامة التجارية والاقتصادية ، كما نمت عكا ثم بيروت لينافسا إسكندرونة وطرابلس ، وكانت سفن دوقية فلورنسا ، فى شبه جزيرة إيطاليا ، تنقل منتجات لبنان من الحرير والصابون وزيت الزيتون والقمح إلى أوروبا .

وبجانب الازدهار الاقتصادى الذى شهده بر الشام إبان الحكم العثمانى ، كانت الحياة

---

(١) دكتور عبدالكريم غرايبة ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٠ ، وقد أتاح هذا الوضع للبدو فى بلاد الشام أهمية كبيرة فى البناء الاقتصادى فيها ؛ إذ كانت القوافل هى الوسيلة الوحيدة للنقل والسفر حتى أواخر القرن التاسع عشر . وكان البدو يتعهدون الجمال بالتربية والإكثار منها . وأوجدوا لهم فى المدن الرئيسية وكلاء يتعاقد معهم الراغبون فى السفر أو فى نقل بضائعهم . وكانت القافلة تضم دليلاً بدوياً وعدداً من الحراس المسلحين يمثلون القبائل التى تمر القافلة فى مناطقها . واعتبرت جميع هذه القبائل مسئولة عن حماية القافلة عن طريق تمثيل رمزى فى حرس القافلة وفى مقابل أجر . وكانت القوافل التى تقطع الصحراء أهم وأكبر من غيرها ؛ إذ كان يصل تعداد جمالها أحياناً إلى ثلاثة آلاف جمل . وكانت كل قافلة تمتاز بتنظيم دقيق جعلها شبه مدينة متحركة ، وكان لكل قافلة شيخ مسئول عنها تمتع باختصاصات واسعة وسلطات مطلقة لتمكينه من تنفيذ مهمته . واستمرت القوافل وسيلة السفر والنقل الرئيسية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، إذ تأخر مد الخطوط الحديدية فى بلاد الشام إلى عام ١٨٩٢ ؛ حين أنشىء خط حديدى بين القدس ويافا .

انظر دكتور عبدالكريم غرايبة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٥٤-١٥٥ .

الثقافية حية حفلت بعديد من المؤلفات فى التاريخ والجغرافية والرحلات واللغة والأدب والعلوم والرياضة ، وكثر عدد الجمعيات الأدبية والعلمية ، وبذلت محاولات لإنهاض اللغة العربية ، ودخلت فى البلاد المطابع بحروف عربية وسريانية قبل أن تدخل المطبعة العربية مصر مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . وانتشرت المدارس والمؤسسات التعليمية الإسلامية والمسيحية واليهودية . وكان أعضاء البعثات التنصيرية هم الذين قاموا بإنشاء المدارس والمعاهد المسيحية[(١)] كما حفل العصر العثمانى بوجود آثار معمارية رائعة ، حسبنا أن نذكر منها القصر الذى بناه أسعد بن إسماعيل بك العظم والى دمشق عام ١٧٤٩ فى هذه العاصمة ، وهو أروع أثر عربى ظهر فى القرن الثامن عشر ، فطرازه الهندسى ، وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر على الخشب يمثل أروع مابلغه الفن الإسلامى . وقد استورد من إيطاليا كل مافيه من رخام [(٢)] ، وكذلك القصر الذى بناه الأمير بشير الثانى فى قرية بيت الدين «وليس فى لبنان دار أخرى تضاهيه روعة وفخامة .. فقد جلب الأمير إلى القصر المياه فى قناة طولها تسعة أميال من منابع عين رحلة ، التى تغذيها الثلوج والأمطار من التلال الحافلة بأشجار الأرز» [(٣)] .

ويذكر دكتور فيليب حتى ، وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة العثمانية ، ثلاث فقرات قصيرة ، تعطى فكرة عن بر الشام فى أواخر الحكم العثمانى فيقول «تسرب إلى شمالى سوريا وشرقى الأردن بضعة آلاف من الشراكسة المسلمين ، على أثر الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٧ ، وقصد لبنان بضعة ألوف أخرى من اللاجئين الأرمن بعد الحرب العالمية الأولى، فألفوه جنة من جنات الله . وقد بقيت العربية لغة الشعب ، ولم تستمد من التركية إلا ألفاظاً قليلة جلها يتصل بالسياسة أو الجيش أو الطعام» [(٤)]. وتدل الفقرة الأولى على أن الولايات العربية بصفة عامة فى الدولة العثمانية كانت ملاذاً يلجأ إليه رعايا الدولة المسلمون ، إذا تعرضت بلادهم لغزو أوروبى مسيحى . وتدل الفقرة الثانية على أن لبنان لم يكن بقعة تسرب إليها الخراب ، أما الفقرة الثالثة والأخيرة فتدل على أن بلاد الشام احتفظت باللغة العربية إبان الحكم العثمانى ، ولم تستبدل اللغة التركية بها . والواقع أنها ظاهرة عامة اشتركت فيها الولايات العربية ، وكان من بين أسباب هذه الظاهرة عدم محاولة الدولة العثمانية عثمنة الشعوب

---

(١) انظر عرضاً وافياً لمظاهر الحياة الثقافية على اختلاف صورها ومظاهرها فى :
دكتور عبدالكريم غرايبة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٦٢-٢٢٧ .

(٢) اتخذ هذا القصر مقراً للمعهد الفرنسى فى دمشق .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ص٣١٦-٣١٧ ، ٣٤٢-٣٤٣ .

(٤) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ص٣١٦-٣١٧ ، ويذكر أن من بين الألفاظ التركية التى دخلت فى اللغة العربية : باشا ، وبيرق ، وبلطه ، وجاويش ، وبرغل ، وقاورمة ، وقال إن بعض الألفاظ التركية المقتبسة ترجع إلى أصل يونانى أو فارسى أو محرفة . وتناسى دكتور فيليب أن كثيراً من الكلمات العربية دخلت فى اللغة التركية .

العربية ، وقد سبق أن تعرضنا فى هذه الدراسة لهذا الموضوع (١) .

جهود الدولة العثمانية لإلغاء معاهدات الامتيازات الأجنبية :

لما ظهرت النذر الأولى لاضمحلال الدولة العثمانية ، أخذت الدول الأوروبية تباعاً تتدخل فى شئونها . وكانت معاهدات الامتيازات الأجنبية الباب الى ولجت منه هذه الدول ولوجاً لتحقيق أغراضها ، وفسرت هذه المعاهدات تفسيراً تعسفياً . فبدلاً من أن تنظر إليها على أنها امتيازات منحها سلطان يحكم دولة مستقلة ، فسرتها بأنها حقوق انتزعت من سلطان ضعيف أو من دولة منهزمة (٢) ، مع أن الدولة منحتها وهى فى أوج قوتها، وأصبح الرعايا الأوروبيون فى الدولة العثمانية يتمتعون بحصانة أعفتهم من الخضوع للسلطات العثمانية ، وأصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية *imperio in imperium* وكانت هذه الامتيازات عقبة كؤود أمام الدولة ، حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم . ولذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين حتى سقوط دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى ، وكانت الدولة قد بذلت جهوداً كبيرة عقب حرب القرم وقبل انعقاد مؤتمر باريس فى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير – شباط – عام ١٨٥٦ لإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية كوسيلة ، تساعدها على تنفيذ الإصلاحات التى جاءت فى «خطى همايونى» ، الذى أصدره فى اليوم الثامن عشر من شهر فبراير – شباط – عام ١٨٥٦(٣)– أى قبل انعقاد مؤتمر باريس بأسبوع – السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩–١٨٦١) ، ولكن لم تجد الدولة العثمانية استجابة من الدول الأعضاء فى المؤتمر والتى كانت متحالفة معها فى حرب القرم . وجاء هذا الرفض متعارضاً أشد التعارض مع رأى جمهرة المؤرخين بأن الدول الأوروبية الكبرى ممثلة فى المؤتمر قد أعطت الدولة العثمانية فرصة لانظير لها لتنظيم شئونها فأضاعت هذه الفرصة .. ولو حسنت النيات لوجدت الدولة استجابة لإلغاء الامتيازات الأجنبية أو على الأقل للحد من مساوئها المتزايدة ، وعقب انقلاب عام ١٩٠٨ حاول أعضاء «اتحاد وترقى جمعيتى» أى جمعية الاتحاد والترقى (٤) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، ولكنهم أخفقوا فى محاولتهم . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى قامت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس – آب – ١٩١٤ ، وأرسلت الحكومة العثمانية منشوراً فى التاسع من شهر سبتمبر – أيلول – ١٩١٤ إلى سفراء الدول فى

---

(١) انظر فى هذه الدراسة الفصل الحادى عشر الجزء الأول .

(٢) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٣١٣ .

(٣) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ودكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٤–١٦ .

(٤) كان اسم هذه الجمعية أول الأمر «عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى» أى جمعية الاتحاد والترقى العثمانية . ثم استبعدت منها لفظة عثمانلى ، واشتهرت بالاسم الجديد المختصر .

إستانبول ، تبلغهم أنها قررت إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية اعتباراً من أول أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩١٤ ، ورد السفراء بمذكرة فى اليوم التالى يحتجون فيها على قرار الحكومة ، ويعلنون تمسك حكوماتهم ببقاء ذلك النظام سارياً . ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى فى الخامس من نوفمبر – تشرين ثان – ١٩١٤ منضمة إلى دولتى الوسط ضد بريطانيا وحليفاتها أعلنت دولتا الوسط – ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية – قبولها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية . ولما انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية ودولتى الوسط ، قررت بريطانيا وحليفاتها فى معاهدة سيڤر التى فرضتها فى اليوم العاشر من شهر أغسطس – آب – عام ١٩٢٠ على الدولة العثمانية الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية (المادة ٢٦١) عقاباً لها وإذلالاً لها . وبفضل نجاح الحركة الكمالية ، استبدلت بمعاهدة سيفر معاهدة جديدة هى معاهدة لوزان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو – تموز – عام ١٩٢٣ ، تقرر فيها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية (المادة ٢٨) ، وبذلك تخلصت تركيا من هذا النظام الوبيل .

إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى ولايات الشرق العربى الآسيوى :

أما سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، فقد ألغى فيها نظام الامتيازات الأجنبية عقب انفصال هذه الأقاليم العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، ووضعها تحت نظام الانتداب الفرنسى والبريطانى وفقاً للمادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم ، والموقع عليه فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو – حزيران – ١٩١٩ .

إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر بعد أكثر من ثلاثين عاماً :

بقى نظام الامتيازات الأجنبية نافذاً فى مصر أكثر من ثلاثين عاماً بعد إلغائه فى الولايات العربية فى غربى آسيا . وفى اليوم السادس عشر من شهر يناير – كانون ثان – عام ١٩٣٧ دعت مصر إلى عقد مؤتمر دولى فى مدينة مونتريه بسويسرا فى الثانى عشر من شهر أبريل – نيسان – عام ١٩٣٧ ، حضره مندوبون عن الدول صاحبة الامتيازات فيها . وتوصل هذا المؤتمر إلى عقد اتفاقية مونتريه ، ونصت على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر بعد فترة انتقالية حددت باثنى عشر عاماً تنتهى فى اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩٤٩ ، بزوال المحاكم المختلطة ، بوصفها آخر أثر أساسى لنظام الامتيازات الأجنبية .

* * *

الفصل الثانى

صور من حملات التشهير بالدولة (٢)

مناقشة عزلة العراق

عوامل انفتاح العراق علي العالم الخارجي :

لم يعش العراق (١) فى عزلة عن العالم الخارجى إبان القرون الأربعة التى خضع فيها للحكم العثمانى منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر الميلادى حتى أوائل القرن العشرين كما يذكر فريق من المؤرخين والباحثين . فقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى انفتاح العراق على العالم الخارجى . وكان من بينها إعادة مرور شطر لايستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق، ومانجم عنها من نشاط اقتصادى مكثف ومتعدد الصور ، والمشروعات البريطانية لتنظيم خطوط ملاحة نهرية بخارية فى النهرين التوأمين The Twin Rivers وهما دجلة والفرات ، وحرص بريطانيا على أن تتصل خطوط الملاحة البخارية فى العراق بالخارج مباشرة أو إيصال شحناتها إلى منافذ العراق ، ثم النشاط العثمانى المضاد فى هذا الصدد ، والسياحة الدينية ، والتنوع البشرى والدينى فى العراق ومانجم عنه من نشاط تنصيرى اشتد ساعده اعتماداً على معاهدات الامتيازات الأجنبية ، والصراع الحربى الذى كان يتفجر من وقت لآخر بين الدولة العثمانية وفارس على العراق .

التنظيم العثماني للعراق عقب فتحه :

كان العراق فى حالة انهيار فى الفترة التى مرت به منذ الغزو المغولى التخريبى بقيادة هولاكو فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى والاحتلال الفارسى على عهد الشاه إسماعيل الصفوى فى أوائل القرن السادس عشر . وكان هذا الشاه قد نجح فى نشر المذهب الشيعى فى ربوعه . وذبح أئمة السنة وهدم مقابر آبائهم . وأصبح ولايزال أهل الشيعة وأهل السنة فى العراق قوتين متوازيتين تقريباً . ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق فى أواخر عام ١٥٣٤

---

(١) لم يكن العراق يعرف بهذا الاسم إبان الحكم العثمانى . وإنما كان معروفاً باسم إيالة بغداد ، وإيالة الموصل ، وإيالة البصرة . وفى الميدان الدولى كان يطلق على العراق مصطلح Mesopatomia أى بلاد مابين النهرين . وكان يراد به حوض دجلة والفرات ، أو مايعرف بوادى الرافدين من حيث شموله معظم وادى الرافدين ومناطق هذه المدن الثلاث .

انتهج سياسة مثلى فى المحافظة على مشاعر أهل هاتين الطائفتين[١] . وأرسى السياسة التقليدية للدولة العثمانية فى حكم العراق . واعترف أيضاً بالعصبيات الكردية فى شمالى العراق . فأبقى حكم كردستان للعصبيات الكردية وجعل الموصل إيالة قائمة بذاتها ، وكانت تتوغل قليلاً فى كردستان شرقاً وفى تكريت جنوباً . ولم تكن حدود إيالة الموصل واضحة تماماً نظراً لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التى أصبحت إيالة باسم «شهر زور» [٢] . وكذلك اعترف السلطان سليمان بحكم العصبيات العربية ؛ إذ ترك الشيوخ العرب حكاماً على عشائرهم ، وأنشأ إيالة بغداد وكانت منذ الفتح العثمانى أهم وأكبر إيالات العراق ، وكان باشا بغداد أكبر باشوات العراق رتبة . وكان الباب العالى يعهد إلى ولاة بغداد بحماية ولايات العراق الأخرى من الأخطار التى تتعرض لها . ولم يكن نفوذ باشوات بغداد قوياً على امتداد فترات الحكم العثمانى لأسباب ليست هذه الدراسة موطناً لبسطها [٣] . ولم يتوغل السلطان سليمان المشرع صوب البصرة لأن شيخها راشد بن مغامس أعلن ولاءه له . فألحقت البصرة على هذا النحو بالممتلكات العثمانية وعين السلطان شيخها راشد ، حاكماً عليها على أن تكون تابعة لباشوية بغداد. ثم ارتاب العثمانيون فى نيات الشيخ راشد فوجهوا حملة استولت عليها عام ١٥٤٦ ، وتقدموا بعد ذلك على الساحل الغربى للخليج العربى ، واستولوا على الأحساء عام ١٥٥٠ .

أولاً : إعادة مرور شطر لايستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق:

سبق أن ذكرنا أن البرتغاليين حققوا نجاحاً فى تحويل مرور التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح وصولاً إلى أوروبا بدلاً من مرورها فى الطريقين التقليديين القديمين ، وهما : الخليج العربى والعراق وبادية الشام إلى حلب ثم الإسكندرونة وغيرها من أساكل الشام ، وطريق البحر الأحمر إلى السويس ثم القاهرة فالإسكندرية . وفقد العراق ، كما فقدت مصر ، معظم المكاسب المادية الهائلة التى كان يجنيها الإقليمان من تجارة المرور والوساطة . وتمت ،

---

(١) انظر فى هذه الدراسة الفصل الأول - الجزء الأول .

(٢) لم تعمر هذه الإيالة طويلاً لأن الدولة العثمانية اتبعت سياسة الاعتراف بحكم العصبيات المحلية . وكان إقليم كردستان مليئاً بإمارات وعشائر كردية سنية ، وقفت فى وجه محاولات الغزو الفارسى وشدت أزر العثمانيين خلال حروبهم ضد فارس . فأبقت الدولة هؤلاء الأمراء على إماراتهم ، ولكنهم مالبثوا أن استبدوا بالسلطة حتى لم يعد للولاة أى نفوذ عليهم فتركت الدولة أمر إيالة شهر زور لأمرائه تحت إشراف ولاة بغداد . وكانت «كركوك» مقر هذه الإيالة .

انظر دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٧-٨ . .

(3) Longrigg S.H.; Four Centuries of Modern Iraq. London. (Oxford University), 1925, P. 31.

دكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة . مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص٤٤-٤٥ .

نتيجة الغزو البرتغالى للبحار الشرقية ، مايسمى عملية أسر نقلى (١) Transport Capture ولكن الحصار الذى فرضه البرتغاليون على منافذ الطريقين القديمين وهما الخليج العربى ومدخل البحر الأحمر لم يكن محكماً . فكان جانب من التجارة الشرقية يتسرب إلى أيدى التجار العرب فيحملونه فى سفنهم الخفيفة إلى البصرة من ناحية وإلى السويس من ناحية أخرى . وبذلك عمرت بالنشاط التجارى أسواق العواصم والمدن العربية : البصرة ، بغداد ، حلب ، دمشق ، السويس ، القاهرة ، الإسكندرية . وفى فترات السلام التى كانت تتخلل حالات الحرب بين الدولة العثمانية وفارس كانت القوافل تجتاز وسط آسيا عبر فارس تحمل إلى بغداد منتجات الشرق ، فكانت بغداد بمثابة مركز لتوزيعها . وعلى هذا النحو فإن موقع بغداد فى تلك المنطقة المتوسطة بين وسط آسيا وغربيها ، وفى تلك الشقة من الأرض التى تصل إلى مياه الخليج العربى ، كان موقعاً جغرافياً ممتازاً جذب إلى العراق جانباً لايستهان به من التجارة الشرقية . وبفضل هذا القدر من التجارة الخارجية لم يعش العراق فى عزلة عن العالم (٢) .

على أن ذلك النجاح الذى أحرزه البرتغاليون بتحويل طريقى التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح كان قصير الأمد ، فقد انضمت بلادهم إلى التاج الإسبانى (١٥٨٠-١٦٤٠) . وعادت هذه الوحدة التى فرضت على البرتغاليين بعواقب سيئة ، فالحكومة الإسبانية التى كانت قائمة فى تلك الفترة ، والتى كانت تسيطر على السياسة البرتغالية الخارجية ، كانت حكومة مركزية ومتحيزة وغير رشيدة(٣) .

وعجز البرتغاليون فى ظل حكومة الوحدة عن إرسال تعزيزات لمراكزهم التجارية فى البحار الشرقية ، وتعرضت خطوط الملاحة البرتغالية للاضطراب فتراخت سيطرتهم على منطقة الخليج العربى . واشتدت عداوة الشعوب الشرقية للبرتغاليين بسبب سياستهم الجائرة(٤) .

---

(١) دكتور جمال حمدان : التحدى الذى يواجه قناة السويس ، الأهرام ، العدد ٣٢٢٦٤ ، الصادر فى يوم السبت ١٢ من شهر أبريل - نيسان - ١٩٧٥ ص٧ مجموعة السنة الأولى بعد المائة .

(٢) دكتور محمد بديع شريف ، ودكتور زكى المحاسنى ، ودكتور أحمد عزت عبدالكريم ، مراجعة الأستاذ محمد شفيق غربال . دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . د.ت ، ص ص٢٢٧-٢٢٨ .

(٣) لوريمر ج.ج : دليل الخليج ١٤ جزءاً ، القسم التاريخى سبعة أجزاء ومثلها للقسم الجغرافى . ترجم من الإنجليزية إلى العربية بمعرفة قسم الترجمة بمكتب حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر وعلى نفقة سموه . طبعة جديدة معدلة ومنقحة . د.ت ، ج١ ، القسم التاريخى ، ص٢٢ ، ص ص٢٨-٢٩ .

(٤) فى رأى لوريمر أن وراء انهيار نفوذ البرتغاليين فى البحار الشرقية أربعة أسباب ، هى العنف وسوء النية فى التعامل مع جيرانهم من أهل الشرق ، ومشاعر الحسد والشقاق التى كانت فاشية بين البرتغاليين دوماً ، وعدم تأسيسهم شركة تجارية كما فعل منافسوهم الإنجليز والهولنديون ، بل كانت تجارتهم احتكاراً ملكياً سيء التنظيم والإدارة ، تخلخل الأساس العسكرى الذى استندوا إليه ، فأصبح فى النهاية يفتقر إلى النظام والحصافة المهنية .

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص ص٦٧-٦٨ .

وأسهمت سياسة عباس الكبير شاه فارس (١٥٨٧-١٦٢٩) فى إضعاف مركز البرتغاليين فى الخليج العربى . وجمعت بينه وبين إنجلترا مصلحة مشتركة هى تصفية الوجود البرتغالى فى منطقة الخليج ، ومن ثم أخذت السفن الإنجليزية ترفأ إلى موانئه . وانتهى الأمر بأن تغلب الفرس والهولنديون والإنجليز والعرب (١) حربياً على البرتغاليين الذين فقدوا جزيرة هرمز عام ١٦٢٢ ، وكان سقوطها مقدمة لسقوط مسقط عام ١٦٥٠ ، وسرعان ما اختفى الاستعمار البرتغالى من منطقة الخليج العربى . ولكن لايعنى هذا زوال الوجود البرتغالى التجارى أيضاً ، لأن سفن البرتغاليين ظلت تؤم موانىء الخليج بعد ذلك للتجارة (٢) . وكان لهم أسطول تجارى يذهب كل سنة إلى البصرة ويغمرون أسواقها ببضائعهم وينافسون البضائع الإنجليزية . وقد شهدت منطقة الخليج تباعاً صراعاً عنيفاً بين الدول الاستعمارية الكبرى : هولندا وفرنسا ، وإنجلترا والروسيا على دعم نفوذها فيها . وكانت هولندا قد ظهرت كقوة استعمارية فى بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر ؛ إذ أسسوا عام ١٦٠٢ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وسيطروا على حوض الخليج وأسواق فارس ، وغزا أسطول هولندى مؤلف من ثمانى سفن البصرة عام ١٦٤٥ ، ولكن ضعف مركز هولندا فى منطقة الخليج العربى بسبب الحروب التى خاضتها فى أوروبا ضد إنجلترا فى سنة ١٦٥٢ ، ثم فى ١٦٦٥ - ١٦٦٧ ، وانسحب الهولنديون من البصرة حوالى ١٧٥٢ ومن بوشهر (١٧٥٣) وبندر عباس (١٧٥٨) . وفى سنة ١٧٦٦ اختفى النفوذ الهولندى والتجارة الهولندية من مياه وشواطىء الخليج العربى أسوة بما حصل للبرتغاليين من قبل . وبقيت قوتان أوروبيتان تصارعتا على النفوذ والتجارة والقواعد العسكرية وهما فرنسا وإنجلترا . وأسست الأولى سنة ١٦٦٤ الشركة الفرنسية للهند الشرقية ، بناء على مرسوم أصدره الملك لويس الرابع عشر استجابة لنصائح كولبير Colbert وزير مالية فرنسا .

ازدهار البصرة :

وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب الذى ينتهى إلى الخليج العربى أكثر مدن العراق اتصالاً بالصراع الدولى الدائر على النفوذ فى الخليج . فإن البرتغاليين بعد ضياع هرمز من أيديهم سنة ١٦٢٢ ، وجهوا نشاطهم التجارى وحماسهم للتنصير إلى البصرة ، فأقاموا فيها وكالة تجارية ومركزاً للتنصير ومؤسسة تعليمية (٣) . وظلوا هناك حتى عام ١٦٤٠ على الأقل

(١) من بين انتصارات العرب الحربية على البرتغاليين أن الأخيرين اضطروا إلى الجلاء عن الشحر لقوة عمانية فى عام ١٦٤٣، وكان البرتغاليون قد تركزوا فى الشحر ومسقط منذ طردهم من هرمز .
انظر لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص ص٤١-٤٩ .
(٢) دكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣١-٣٢ .
(٣) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٢ ، ص٦٦ .

يشكلون منافساً نشطاً للتجارة الإنجليزية ، كما كانت مركز جذب قوى للأطماع الأوروبية الاستعمارية فى العراق . خرجت إنجلترا من حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) منتصرة على فرنسا ووضعت يدها على أكثر المستعمرات الفرنسية فى الهند . وقد كشفت هذه الحرب لإنجلترا عن أهمية الطريق بين الهند وأوروبا عبر العراق وبادية الشام وحلب ، فقد استخدم الإنجليز طريق العراق إلى الهند خلال هذه الحرب ، كما كان أسرع طريق وقتذاك لنقل البريد والأنباء . وكان اتجاه البصرة بحرياً وبرّياً فى الوقت ذاته . فكان قربها هى ومنطقة الخليج العربى إلى الهند سبباً فى جعلها مركزاً لتطلعات شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، التى حرصت على أن يكون لإنجلترا المركز الأول فى المنطقة . وكانت هذه الشركة تنظر إلى وكالتها التى أنشأتها فى البصرة عام ١٦٤٣ على أنها مركز تجارتها الرئيسى [1] ، ثم حول الإنجليز عام ١٧٦٤ الوكالة الإنجليزية فى البصرة إلى قنصلية ، فلم تعد مهمة القنصل البريطانى مقصورة على رعاية الشئون التجارية فحسب ، بل كان عليه أيضاً رعاية المصالح السياسية الإنجليزية . ولم تلبث أن أسست الشركات الأوروبية وكالات لها فى البصرة (*).

وكان الحكم العثمانى مهتزاً فى البصرة يتعرض لضغط القبائل العربية والعشائر البدوية ومحاولات فارس للاستيلاء عليها . وفى أوائل القرن السابع عشر تولى الحكم فيها أحد المغتصبين من بينها ويدعى أفراسياب . وظفرت البصرة بالأمن والاستقرار إبان حكم أسرة أفراسياب الذى انتهى سنة ١٦٦٨ ، وتمتعت الطوائف الدينية المسيحية بالتسامح . وكان حكام هذه الأسرة يرحبون بالأجانب جميعاً من هولنديين وإنجليز وفرنسيين وهنود وغيرهم فضلاً عن الأتراك العثمانيين والعرب الوافدين من إستانبول وأزمير وحلب والموصل وديار بكر وبغداد والقاهرة وسائر أنحاء العالم العربى والإسلامى . وكانت تعقد فى البصرة صفقات تجارية فى السلع الواردة من الهند وفارس ، وكانت السلع تحمل فى نهر دجلة إلى بغداد ومنها كانت القوافل تحملها إلى حلب . وفى أحيان أخرى كانت القوافل تعبر البادية رأساً من البصرة إلى حلب مارة بالنجف . ويلاحظ أن أساكل بر الشام كانت مفتوحة دون قيد أو شرط أمام العراق للتصدير والاستيراد ، فكانت السفن العثمانية والأوروبية تقوم بتفريغ شحناتها فى هذه الأساكل مثل إسكندرونة وطرابلس وبيروت واللاذقية وعكا وغيرها لتنقل إلى حلب أو دمشق إلى العراق، كما كانت تلك السفن تقوم بشحن السلع الواردة من العراق إلى أوروبا وبلاد الدولة العثمانية[2] . وكانت البصرة تزدحم بالبدو[3] ، الذين يقصدونها لبيع الإبل للتجار واستخدامها فى نقل

(1) Longrigg R.H; Loc. cit., p. 108.

(*) Wilson Thomas Arnold; The Persian Gulf, London. 1964, p. 161.

(٢) دكتور محمد بديع شريف وزميلاه ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٢٨-٣٠٠ .

(٣) استولى الفرس على البصرة أولاً فى سنة ١٦٩٧ ، ثم تركوها بعد عامين . وأغار عليها نادر شاه ، ثم=

البضائع . ولم تفقد البصرة مكانتها التجارية الممتازة فى الفترات التى حكمها فيها الفرس ؛ إذ عملوا على اجتذاب التجار الأجانب إليها ، فظلت العلاقات التجارية مزدهرة بين البصرة والهند .

وزاد عدد السفن التى ترفأ إلى البصرة قادمة من البنغال وبمباى حاملة الأقمشة الهندية الحريرية والتوابل والأرز والسكر الأمريكى والشيلان زيادة مطردة فى القرن الثامن عشر .

وكان يرد إلى البصرة سنوياً ٣٠ ألف أقة من خيوط القطن ، وتصدرها البصرة إلى بغداد والموصل ودمشق وحلب ، وكانت تتردد على البصرة السفن القادمة من مسقط والبحرين وشرقى إفريقية ، تحمل العبيد والبن والعنبر .

أما سفن البحرين فكانت تحمل اللؤلؤ . وكانت التجارة الهندية عصب الحياة الاقتصادية فى البصرة ، تستقبل معظم سلع الهند وتصدر إليها شتى أنواع السلع الواردة من الشام والأناضول وغيرها .

تصدير الخيول العربية من البصرة إلى الهند :

وعن طريق البصرة كان العراق يصدر إلى بمباى الخيول العربية . والخيول فى العراق ذات سمعة طيبة وأعدادها لابأس بها ، غير أنها لاتفوق خيول نجد فى جودتها . وتربى بعض الخيول الجيدة فى المنطقة المجاورة لمدينتى الحلة والديوانية بالعراق .

احصائية عن تصدير الخيول :

ونورد هنا إحصائية عن تصدير الخيول من البصرة إلى بمباى خلال عشرين عاماً ، فيما بين سنتى ١٨٨٧ و١٩٠٦ وأسعارها فى البصرة بالجنيهات الإسترلينية .

= خضعت مرة أخرى للفرس وعادت للعثمانيين سنة ١٧٧٩ بعد حكم دام ثلاث سنوات . وأصبحت البصرة متسلمية تابعة لوالى بغداد حتى سنة ١٨٧١ ، بعد عزل مدحت باشا من ولاية بغداد ، فانفصلت البصرة عن بغداد ، وأصبحت تابعة رأساً لإستانبول . وكان السلطان يرسل لحكمها «متصرفاً» إلى عام ١٨٨٢ ثم رقعت البصرة إلى مرتبة ولاية ، بعد أن اقتطعت الدولة بعض أقاليم ولاية بغداد وضم إقليم الأحساء إليها . وأصبح ناصر باشا شيخ المنتفق أول حاكم لهذه الولاية الجديدة ، على الرغم من أنه عربى المولد والقبيلة .

انظر :

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٤٢٧ .

السنة	عدد الخيول	أسعارها في البصرة بالجنيهات الاسترلينية
١٨٨٧	٢,٥٠٠	٦٢,٥٠٠
٨٨	٢,٢٠٦	٥١,١٥٠
٨٩	٢,٨١٥	٦١,٩٣٠
٩٠	٣,١٩٣	٦٣,٨٦٠
٩١	٣,١٤٩	٧٣,٢٣٠
٩٢	٢,٢٦٨	٣٧,٥٠٤
٩٣	٣,٤٣٢	٥٠,٤٠٨
٩٤	٣,٢١٨	٤٨,٢٧٠
٩٥	٤,٥٨١	٦٨,٧١٥
٩٦	١,٧٠٤	٢٥,٥٦٠
٩٧	١,٣١١	١٩,٦٦٥
٩٨	١,٩٣٦	٢٩,٠٠٤
٩٩	١,٥٢٨	٢٧,٥٠٤
١٩٠٠	٢,٢٧٩	٤٥,٥٨٠
٩٠١	٢,٤٥٥	٤٩,١٠٠
٩٠٢	٩٤٥	٥٦,٠٧٠
٩٠٣	٣,٨٤٥	٤٦,١٤٠
٩٠٤	٢,٦٨٢	٥٣,٦٤٠
٩٠٥	٢,٢٦٢	٤٩,٧٦٤
٥٠٦	١,٧٤١	٤٣,٥٢٢(١)

دراسة تحليلية لإحصائية الخيول :

نخرج من هذه الإحصائية بعدة نتائج تماشياً مع القاعدة الاقتصادية القائلة إن الأرقام تتكلم . ومن هذه النتائج أو الملاحظات نذكر :

أولاً : كانت البصرة هى المكان الطبيعى لتصدير الخيول التى تربى فى العراق ، وبصفة رئيسية فى ولاية بغداد ، وكذلك لتصدير معظم خيول نجد وبعض مناطق الخليج العربى .

ثانياً : كان يحدث أن تصدر السلطات العثمانية فى العراق أوامر بمنع تصدير الخيول ؛ مما أدى إلى نشاط عمليات تهريب الخيول من العراق إلى فارس حيث تباع فى أسواقها ويتم

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٣٣٤٢ .

تسويقها فى المحمرة ، بدلاً من البصرة ؛ مما أدى إلى ضآلة حجم صادرات الخيول من البصرة فى بعض السنوات .

ثالثاً : ازداد فى سنة ١٨٩٥ طلب الخيول العربية زيادة ملحوظة فارتفع حجم صادرات الخيول من البصرة ارتفاعاً لم يسبق له مثيل ، ومن أجل ذلك تمت عمليات الشحن قبل ابتداء الموسم المعتاد .

رابعاً : فى سنة ١٨٩٦ كان عدد الخيول التى صدرت من البصرة إلى بمباى أقل من المعدل بسبب غلاء العلف فى الهند من ناحية ، وانتشار الطاعون الدملى فى بمباى من ناحية أخرى .

خامساً : ازداد فى سنة ١٨٩٧ تناقص حجم التصدير لانتشار الطاعون وغلاء العلف ، وقيام الحكومة العثمانية بشراء الخيول للأغراض الحربية .

سادساً : فرضت السلطات العثمانية فى سنة ١٨٩٩ رسماً لتصدير الخيول بلغ أربعة جنيهات إسترلينية وعشرة شلنات عن كل حصان . وقد أدى هذا الرسم إلى الحد من عمليات تصدير الخيول من البصرة وتهريب أعداد كبيرة من الخيل إلى فارس ؛ حيث كانت تصدر من المحمرة إلى الهند . ومع ذلك بلغ عدد الخيل المصدرة من البصرة فى تلك السنة ألفاً وخمسمائة وثمانية وعشرين حصاناً ؛ مما يدل على احتفاظ البصرة بقدر كبير من نشاطها فى تصدير الخيول . واستمرت الزيادة فى السنوات التالية ، على الرغم من أن السلطات العثمانية رفعت سنة ١٩٠٢ رسم التصدير ، فجعلته ستة جنيهات إسترلينية عن كل حصان؛ مما أدى إلى هبوط عدد الخيول المصدرة فى تلك السنة إلى ٩٤٥ حصاناً .

سابعاً : وجدت الخيول العربية فى الهند منافسة شديدة فى سنة ١٩٠٦ من الخيول الأسترالية . ولكن مما خفف من أثر هذه المنافسة الزيارة التى قام بها ولى عهد بريطانيا للهند فى تلك السنة ، فبلغ عدد الخيول العربية التى شحنت فى البصرة فى ذلك العام ١,٧٤١ بعد أن كانت فى السنة السابقة ٢,٢٦٢ حصاناً .

تصدير معظم محصول التمور من البصرة إلى الخارج :

أما التمور فهى أهم حاصلات وصادرات العراق ، وهى تزرع غالباً على ضفاف شط العرب أعلى وأسفل البصرة ، وفى منطقة تمتد من الفرات إلى أسفل بلدة الحلة بمسافة ثلاثين ميلاً ، وفى جوار كربلاء والنجف وحول بغداد . أما أحزمة النخيل على ضفتى شط العرب فذات عمق يتراوح بين نصف ميل وميلين . ويقدر عدد نخليها بمليون وتسعمائة ألف نخلة على كلتا الضفتين . وتصدر البصرة الجزء الأكبر من محصول تمور العراق . وأجودها

المعروف باسم «حلاوى» و «خضراوى» ويبلغ عدد بقية الأصناف الأخرى حوالى أربعين تدخل تحت اسم «ساير» . أما التمور التى تصدر من منطقة بغداد فأغلبها من نوعى «زهدى» و«كرسى»[١] . وتصدر التمور من البصرة داخل صناديق إلى إنجلترا وأمريكا . وكان محصول تمور البصرة سنة ١٨٨٧ يقدر بحوالى ٦٠,٠٠٠ طن صدر منها حوالى ٤٤,٠٠٠ طن ، منها ٢٠,٠٠٠ بالبواخر إلى لندن وأمريكا . وكانت التمور من نوع حلاوى هى المفضلة فى أوروبا وأمريكا فى ذلك الوقت . وصدر ٢٤,٠٠٠ طن بالسفن المحلية إلى شبه الجزيرة العربية وفارس والهند . وكان التمر الزهدى يلقى رواجاً فى الهند . ونظراً لزيادة الطلب على تمور العراق توسع العراقيون فى تخصيص مساحات جديدة من الأراضى لزراعة النخيل . فازداد محصول التمر فى منطقة البصرة فى سنة ١٨٩٢ خمسة أضعاف خلال الاثنتى عشرة سنة السابقة ، وأخذ مكان الصدارة فى الهند وإفريقية والأقاليم المطلة على البحر الأحمر . ومما يبرز المركز القيادى للبصرة فى تصدير التمور أن حجم صادرات هذا المحصول من البصرة فى سنة ١٨٩٦ قد بلغ ٦٠٠,٠٠٠ صندوق منها ٤٩٠,٠٠٠ شحنت إلى لندن ، ٥٣,٠٠٠ شحنت إلى نيويورك رأساً ، ٥٧,٤٠٠ إلى بمبادى ويافا وبيروت وأزمير وإستانبول .

إحصائية عن قيمة التمور المصدرة من البصرة :

ونورد هنا بياناً عن قيمة التمور التى صدرت من البصرة إلى الخارج فى خلال سبع سنوات فيما بين سنتى ١٨٩٩-١٩٠٠ و ١٩٠٥-١٩٠٦ مقدرة قيمتها بالجنيهات الإسترلينية ، والمعدل فى هذه السنوت .

دراسة تحليلية لإحصائية التمور :

نخلص من هذه الإحصائية إلى ملاحظتين ، هما :

أولاً : ارتفع ثمن التمور المصدرة من البصرة وزاد حجمها فى سنة ١٩٠٠-١٩٠١ نظراً ؛ لأن الإقبال عليها فى الهند كان شديداً بسبب المجاعة التى تعرضت لها معظم أقاليم الهند فى تلك السنة .

ثانياً : إن اختلاف القيمة النقدية للتمور المصدرة من البصرة كان يختلف من سنة إلى أخرى هبوطاً وصعوداً . ويرجع هذا الاختلاف فى الأعم الأغلب إلى عوامل طبيعية ، سببت أضراراً بالغة بالمحصول ، مثل فيضانات شط العرب وموجات حر شديدة وهبوب رياح حارة ، وكانت كل هذه العوامل مجتمعة أو منفردة تؤدى إلى ذبول كميات هائلة من الثمار غير الناضجة ونقص وزنها .

---

(١) تنطق زهدى فتح الزاى وسكون الهاء وكسر الدال . أما كرسى فتنطق بضم الكاف وسكون الراء وكسر السين .

السنة	أسعارها في البصرة بالجنيهات الإسترلينية
١٨٩٩-١٩٠٠	٢٩٥. ٢٣٣
١٩٠٠-١٩٠١	٣٨٠, ٩٧٣
١٩٠١-١٩٠٢	٣٢٧, ٤٥١
١٩٠٢-١٩٠٣	٢٨٩, ٢١٥
١٩٠٣-١٩٠٤	٣٥٩, ٢٢٨
١٩٠٤-١٩٠٥	٣١٢, ٧٦٧
١٩٠٥-١٩٠٦	٣٤٥, ١٨٤
المعدل فى هذه السنوات	٣٣٠, ٠٠٧ (١)

انتعاش بغداد :

وكانت بغداد[٢] هى الأخرى إبان الحكم العثمانى مركزاً يعج بنشاط تجارى كثيف ، تأتى إليها القوافل محملة بالبضائع من الأناضول وإستانبول وحلب ودمشق وكركوك وديار بكر وماردين وفارس . وكانت القوافل الفارسية أغنى القوافل الشرقية ؛ إذ كانت تحمل التبغ والشيلان والفواكه . وكان التبغ أهم السلع التجارية ، فقد كان يعاد تصديره إلى دمشق وحلب وإستانبول نظراً لجودته وتفوقه على التبغ العراقى الذى كان يزرع فى ضواحى بغداد . وكانت القوافل القادمة من حلب تحمل بضائع واردة من أوروبا ومن أهمها الحلوى والمنسوجات . وكانت بغداد محط قوافل تقدم من سنه ، وزهاب ، والسليمانية وغيرها . ثم كانت الهند مصدراً هاماً للتجارة الشرقية التى تتدفق على بغداد . وعن حجم التجارة الهندية ، يقول أحد الرحالة الهولنديين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر «اتفق أنه فى يوم واحد رست خمس وعشرون سفينة مشحونة بالتوابل والعقاقير الثمينة أرسلت بحراً من الهند بطريق هرمز إلى البصرة حيث أفرغت فى سفن صغيرة صعدت النهر إلى بغداد حيث كان ينتظرها التجار الذين ضربوا خيامهم خارج المدينة ليبعثوا بها فى القوافل» [٣] . وإذا كانت البصرة قد نمت نمواً سريعاً للغاية فى المجالات التجارية ، إلا أن بغداد كانت هى العاصمة الحقيقية للعراق . وكان حكم بغداد المدنى إبان الحكم العثمانى يتمتع بهيبة أكثر مما هو فى البصرة . وكان اعتماد الممثلين

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٦ ، ص٣٣١٢ .

(٢) يذكر البعض أن الاسم بغداد هو اسم فارسى قديم معناه المكان الموهوب من الله ، وتسمى بغداد أيضاً دار السلام وتعنى المكان الآمن ، ومدينة الخلفاء ومدينة الخلافة نظراً لأنها بقيت زهاء ثلاثة قرون العاصمة السياسية للعالم الإسلامى تحت حكم الخلفاء العباسيين فيما عدا الفترة من سنة ٨٣٦م إلى سنة ٨٩٢م أى نحو ٥٦ عاماً حين حلت مدينة سامراء محلها . وفى بعض الأحيان تذكر بغداد بالاسم القديم «الزوراء» ، ويلاحظ أن الجريدة المحلية شبه الرسمية فى بغداد تسمى «الزوراء» .

(٣) دكتور محمد بديع شريف وزميلاه ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣١ .

القنصليين من الرتب العالية يتم لدى والى بغداد . وفضلاً عن ذلك كانت بغداد هى مقر القيادة العليا للقوات العثمانية فى العراق . وفى بغداد كان يعين الموظفون الذين يشرفون على العمل فى العراق بالنسبة للدوائر المختلفة مثل الدائرة السنية ودائرة الجمارك ودائرة الأوقاف ودائرة الصحة العامة ودائرة المواصلات ودائرة التعليم . وكانت بغداد تزخر بعدد وافر من المبانى الفخمة للقنصليات الأجنبية مثل البريطانية والروسية والفرنسية والنمساوية والألمانية والأمريكية والبلجيكية والنرويجية والفارسية . وتقع معظم مبانى هذه القنصليات على الشاطىء الأيسر لنهر دجلة أو بالقرب منه .

العراق "بؤرة" لطرق القوافل :

والحق أن العراق كان بمثابة «بؤرة» لطرق القوافل . وكانت هذه القوافل تختلف من حيث حجمها ، مقاساً بعدد الجمال ، فهى تتراوح بين قوافل صغيرة تتكون من ثمانين جملاً إلى مائتى جمل ، وأخرى كبيرة تضم من خمسة آلاف إلى عشرين ألف جمل . والأخيرة تتعلق بالنقل الخارجى . كما كانت على نوعين : تجارية لنقل البضائع ، وأخرى لنقل المسافرين . وكانت هذه القوافل ، سواء ماكان يستعمل منها فى الداخل أو الخارج ، تحتاج إلى الأدلاء وأصحاب التجارة والحمولة أو من ينوب عنهم وعدد كبير جداً من الحراس . وكان هذا «التنظيم» يتطلب توفير الماء والطعام وتبديل الإبل أو بيعها أو شراءها . ونشأت بعض القرى والمدن كمحطات على امتداد طرق القوافل لتقديم هذه الخدمات والمتطلبات [١] .

المغامرون والسائحون الأجانب فى العراق :

تعددت سبل الاتصال بين المغامرين الأجانب الذين وفدوا على العراق فى القرن الثامن عشر والجماهير العراقية . وزاد عدد هؤلاء المغامرين فى القرن التاسع عشر تحت ستار التنقيب عن الآثار أو ممارسة النشاط التجارى . وكان من بينهم عملاء الحكومات الأجنبية ووطدوا صلاتهم مع العشائر والقبائل وأصحاب العصبيات العربية والكردية . وكانوا يقدمون لهم الأموال والهدايا . وكان بعض هؤلاء المغامرين يطالبون حكوماتهم بضرورة اتخاذ الإجراءات لجلب رءوس الأموال الأجنبية وجذب المهاجرين الأجانب لاستعمار العراق اقتصادياً باستغلال موارده الاقتصادية وموقعه الجغرافى الهام فى طريق المواصلات العالمية . وبعد أن أنشئت خطوط الملاحة البخارية فى أنهار العراق – كما سنرى فى موطن قادم فى هذا الفصل – كان هؤلاء المغامرون يستخدمون رحلات السفن البخارية فى مسح العراق جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً .

وفى القرن الثامن عشر، اتسع نطاق علاقات العراق الخارجية بدول غربى أوروبا وزاد

---

(١) دكتور عبدالرازق عباس حسين : نشأة مدن العراق وتطورها . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٥٦ .

عدد السائحين الأوروبيين . وخصوصاً الإنجليز والفرنسيين ، الذين يزورون العراق ويتجولون فى ربوعه وهم فى طريقهم إلى فارس أو إلى الهند . وكانت هذه السياحة الأوروبية بدورها عاملاً فى فتح أبواب العراق أمام العالم الأوروبى الغربى . واستقرت فى المدن الكبرى فى العراق جاليات أوروبية . وكان وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية يترددون على البصرة وبغداد وتستضيفهم السلطات العثمانية . وكان لهذه الشركة بريد منتظم تحمله الإبل من البصرة إلى حلب ويشرف عليه التتر . كما كان هؤلاء التتر يحملون إلى إستانبول بريد والى بغداد إلى الباب العالى وبريد القناصل الأوروبيين فى الشرق الأوسط إلى سفراء دولهم .

على هذا النحو ظل العراق طريقاً بين الشرق والغرب ومركزاً هاماً لمرور أو توزيع أو استهلاك المتاجر الشرقية الواردة من الهند وغيرها من أنحاء آسيا وكذلك بعض أقاليم شرقى إفريقية المطلة على المحيط الهندى ، والتجارة الأوروبية أيضاً . ولذلك كانت إنجلترا حريصة الحرص كله على ألا تستأثر بالنفوذ فى العراق دولة أجنبية غيرها ، سواء كانت شرقية مثل فارس أو أوروبية مثل فرنسا ، واهتمت اهتماماً بالغاً بأن يكون لها النفوذ الأول فى هذا الإقليم . وكثيراً ماتحدثت الدوائر السياسية فى لندن والهند والقناصل البريطانيون فى العراق عن وجوب قيام إنجلترا باحتلال العراق . ولكن حالت دون تحقيق هذا الأمل المرتجى السياسة التقليدية التى سارت عليها إنجلترا تجاه الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨ وهى المحافظة على استقلالها وسلامة ممتلكاتها . فالجزء الجنوبى من العراق يطل على الخليج العربى . والاثنان معاً يعتبران البوابة الرئيسية الكبرى للهند . وأرادت إنجلترا أن تتخذ العراق قاعدة عسكرية لحماية الهند ولمناوئة الأطماع الروسية . والجزء الشمالى الشرقى من العراق مجاور لبلاد الشام وفيها فلسطين ، وهى مدخل إلى مصر وإلى قناة السويس بعد إتمام حفرها عام ١٨٦٩ ، وهى تريد أن تتخذ من شمالى العراق مركزاً لمراقبة أى نشاط معاد لها فى بلاد الشام بعد أزمة التوسع المصرى فى الشام ونجد أيام محمد على والى مصر . فضلاً عن أن العراق إقليم غنى ذو موارد اقتصادية هامة ، إذا أحسن استغلالها جنت إنجلترا منه أعظم الفوائد . فهو ملئ بالمعادن والخامات مثل النحاس والرصاص والكبريت والمنجنيز والفوسفات والبيتومين وغيره من المواد اللازمة للصناعة [١]. وتربته خصبة تجود بزراعة وفيرة . وكان العراق فى الأزمنة القديمة يعد من أخصب بلاد العالم حتى إن المؤرخ اليونانى هيرودوت كان يضرب به المثل فى الخصب

---

(١) دكتور نور خليل الرازى : الصناعة ومشاريع التصنيع فى العراق ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦-١٩٦٧ ، ص ص٥-٢٢ ، ١٣٥ .

دكتور خطاب العانى : جغرافية العراق الزراعية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص١١-٩٦ .

ووفرة الإنتاج [١] . وإذا كانت مصر هى هبة النيل ، فإن العراق هو هبة الرافدين[٢] .

ثانياً : إنشاء خطوط ملاحة بخارية فى أنهار العراق تتصل بخارجه :

ونشطت بريطانيا فى تنفيذ مشروع إنشاء خطوط ملاحة بخارية فى أنهار العراق تسير عليها البواخر البريطانية كمرحلة من مراحل الطريق البرى القديم الذى يمر بالخليج العربى والبصرة ووادى الرافدين ثم بادية الشام إلى حلب ومنها إلى أساكل الشام . وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد فكرت فى أواخر العقد الثالث ، من القرن التاسع عشر ، فى إنشاء طريق قصير وسريع وسهل بين الهند وبريطانيا يمر بمصر أو العراق ليكون متمماً لطريق رأس الرجاء الصالح . وكان لبدء استعمال البخار فى المواصلات العالمية وقتذاك أثره فيما أرادت الشركة تحقيقه . فالسفن البخارية الأولى كانت لصغر حجمها وضعف آلاتها أصلح للمواصلات النهرية والساحلية ، منها للقيام بما كانت تقوم به السفن الشراعية الكبرى من الرحلات الطويلة فى طريق رأس الرجاء الصالح . وكان الاعتقاد أن طريق مصر أو طريق العراق يؤدى إلى نقص كبير فى تكاليف النقل ومدة السفر على الرغم مما كان يتطلبه كل منهما من نقل برى عبر مصر فى الحالة الأولى ، وعبر بلاد الشام فى الحالة الثانية . غير أن السلطات البريطانية اعتقدت فى الوقت ذاته ضرورة القيام بدراسات تمهيدية واسعة النطاق لمعرفة أفضل الطريقين وللتثبت من الخطوات التالية [٣] .

ولكن الدبلوماسية البريطانية أرادت أن تنفذ مشروع طريق العراق مرحلياً ، فتبدأ أولاً بنهر الفرات وحصرت مساعيها أول الأمر مع السلطان العثمانى من أجل الحصول على فرمان يخول لها الحق فى تشغيل باخرتين فى نهر الفرات . فلما فازت ببغيتها – كما سنرى بعد قليل – تطلعت إلى مد هذا الحق أو «الامتياز» إلى أنهار العراق الأخرى مثل دجلة وكارون ، ونجحت فى تحقيق أهدافها ، دون أن تنال من السلطان فرماناً يخول لها الحق فى تجاوز حدودها الأولى.

أهداف بريطانيا من إنشاء خطوط ملاحة بخارية فى أنهار العراق :

واستهدفت بريطانيا من إنشاء خطوط ملاحة بخارية للسفن البريطانية فى أنهار العراق تسهيل المواصلات بينها وبين الهند ، وزيادة حجم التجارة ، ودعم نفوذها فى العراق ومقاومة الخطر الروسى فى منطقة الخليج العربى ، واحتمال امتداد هذا الخطر إلى العراق من ناحية وإلى الهند من ناحية أخرى . وكان الإنجليز يعتقدون أن نفوذهم فى العراق ومصالحهم فى منطقة

---

(١) دكتور محمد محمود الصياد : جغرافية الوطن العربى ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العليا ، القاهرة ، ج٢ ، الزراعة ، القاهرة ، ١٩٦٧–١٩٦٨ ، ص٤٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٣ .

(٣) دكتور زكى صالح : مجمل تاريخ العراق الدولى فى العهد العثمانى . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص٤٥–٤٦ .

الخليج العربى وممتلكاتهم فى الهند .. كل أولئك يتعرض لخطر داهم ، إذا غدا المجال مفتوحاً لتسلل النفوذ الروسى إلى العراق واستقراره على ضفاف دجلة والفرات ، وهذه الفكرة هى التى استقرت فى أذهان الإنجليز منذ سنة ١٨٣٠ .

وكان من مزايا مشرع إنشاء ملاحة بخارية بريطانية فى أنهار العراق تجنب خطورة الملاحة فى البحر الأحمر فيما لو استخدم طريق مصر البرى أو قناة السويس فيما بعد ؛ بسبب الأعاصير المدمرة التى تهب على البحر الأحمر ووجود الصخور المرجانية فوق مياهه وتحتها. أما تعرض البواخر النهرية البخارية فى نهر الفرات لهجوم القبائل والعشائر العربية والكردية ، فمن الممكن التغلب على هذا الهجوم بتسليح البواخر .

وكانت الدوائر البريطانية –سواء فى إنجلترا أو فى الهند – تنظر إلى العراق على أنه الإقليم الذى سيصبح فى قابل الأيام سوقاً لتصريف البضائع الإنجليزية ؛ فالمصالح التجارية لبريطانيا فى العراق لاتقل أهمية عن مصالحها فى مصر . ورأى الباب العالى مقاومة هذا التسلل البريطانى الملاحى البخارى فى أنهار العراق ، على أن تكون هذه المقاومة بالأسلوب نفسه ، وهو إنشاء خطوط ملاحة بخارية عثمانية فى أنهار العراق ، وأن تسير على هذه الخطوط بواخر حكومية وغير حكومية ، وأن يتصل بعضها بالعالم العربى والإسلامى . واستهدف الباب العالى من إنشاء هذه الخطوط العثمانية تنشيط التجارة الداخلية والخارجية للعراق وربطه بالعالم الخارجى إلى جانب مقاومة خطوط الملاحة البخارية البريطانية فى أنهار العراق . ونبدأ بعرض سريع لجهود بريطانيا فى هذا المجال ثم نتبعها بجهود الباب العالى ؛ لأن بريطانيا كانت أسبق من الدولة العثمانية فى إنشاء الملاحة البخارية فى أنهار العراق .

جهود بريطانيا لإنشاء خطوط ملاحة بخارية فى أنهار العراق :

رحلة شيزنى الأولى :

قام الميجور – الجنرال فيما بعد – فرانسيس رودسن شيزنى Major Francis Rawdson Chesney فى أواخر عام ١٨٣٠ برحلة دراسية استطلاعية فى وادى الرافدين (١)

(١) كانت الحكومة البريطانية قد أوفدته عام ١٨٢٩ للاشتراك فى الحرب العثمانية الروسية إلى جانب القوات العثمانية . وقد بلغ إستانبول عقب انتهاء الحرب ؛ فوجهه السفير البريطانى لدراسة مشروع استخدام البواخر فى نهر الفرات ومشروع استخدام طريق مصر . وسافر إلى مصر مبتهجاً بهذه المهمة التى نيطت به . والتقى فى مصر بزملاء بريطانيين ، وقف منهم على المعلومات التى أرادها ، وترك مصر ورحل إلى الشام فى أواخر عام ١٨٣٠ وطريقه إلى العراق .
دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٦ .

من دمشق إلى عانة ، ومن هناك استقل طوفاً يسمى أيضاً «كلك»(١) فى نهر الفرات حتى وصل إلى الفالوجة (٢) ومنها انتقل إلى بغداد ثم إلى البصرة . وكان يسبر عمق النهر ويدرس تياراته المائية ويسجل أسماء القرى التى يمر بها . وبعد أن وصل إلى البصرة ، درس نهر كارون مثلما درس نهر الفرات ثم عاد إلى لندن بعد أن استغرقت رحلته فى العراق سنة واحدة (١٨٣٠-١٨٣١) ووضع خطة مشروع للاتصال بالهند عن طريق العراق . وفى سنة ١٨٣٣ أذن له وليم الرابع ملك إنجلترا بمقابلته ، وشجعه الملك الذى كان مهتماً بالمشروع على الاستمرار ، ونصحه بأن يعمل على إعداد أسطول بخارى صغير يكون جزءاً من البحرية الهندية ، ويكون مرساه فيما بين النهرين ليساعد على تقوية الدولة العثمانية وفارس ضد الروسيا. ونجح فى إقناع الحكومة البريطانية بما كان يراه من أهمية نهر الفرات من ناحية المواصلات بين بريطانيا والهند وكذلك من الناحية العسكرية . وبعد ذلك بقليل جاءت الأحداث الدولية مؤيدة لآراء شيزني .. ففى سنة ١٨٣٢ كان الجيش المصرى قد اجتاح الشام وأجزاء من جنوب شرقى الأناضول على عهد محمد على ، وفزعت الحكومة البريطانية من انتشار النفوذ المصرى فى تلك المناطق اعتقاداً منها أن النفوذ الفرنسي يجيء فى أعقابه ، ومما أدى إلى تأزم الموقف أن السلطان محمود الثانى عقد مع الروسيا معاهدة هنكار إسكلسى (٨ من يوليو – تموز – ١٨٣٣) ، وهى معاهدة دفاعية أتاحت للقوات المسلحة الروسية البرية والبحرية أن ترابط فى بعض المواقع العثمانية بحجة حماية السلطان من واليه الثائر محمد على(٣) . وكانت السياسة البريطانية حريصة على منع وقوع خط المواصلات العالمية عبر الشام والعراق فى يد مصر أو غيرها من الدول . ولهذا رأت أنه لامندوحة لها عن تخاذ إجراءات فعالة ، تكفل لها السيطرة على هذا الطريق باستخدام نهر الفرات للملاحة البخارى البريطانية . وفى ٣ من يونيو

(١) الكلك عبارة عن ألواح من الخشب يشد بعضها إلى بعض ؛ بحيث تشكل منصة مربعة أو مستطيلة ، يصل سمكها إلى قدم أو قدمين . ومقاس الكلك هو ١٤ × ١٥ قدماً إلى ١٦ × ١٨ قدماً ، ويبلغ طول بعضها ٣٠ قدماً . ويثبت إلى الجزء المغمور فى الماء ٣٠ أو ٥٠ جراباً من جلود الماعز عادة ، وتكون هذه الأجربة منفوخة حتى يزداد تعويم الكلك . وهو لايسير إلا مع التيار ويسير فى منتصف مجرى الماء بمساعدة مجدافين .. وكان شائع الاستخدام فى العراق إبان الحكم العثمانى ويحملون عليه الفخار والخشب والفاكهة وعلب الزيت الفارغة لبيعها على الطريق إلى القرويين والبدو . وتتراوح حمولة الكلك بين خمسة أطنان وثلاثين طناً . وعندما يصل الكلك إلى وجهته يفكك وتباع أخشابه لبناء المنازل . أما الأجربة الجلدية فتنقل على ظهور الإبل إلى المكان الأصلى الذى جيئت منه .

انظر :

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافى ، ج٣ ، ص١٠٣٣ .

(٢) الفالوجة وتكتب أحياناً الفلوجة قرية فى العراق على الضفة اليسرى لنهر الفرات على بعد ٧٠ ميلاً من مدينة المسيب . وكان يوجد بها ، إبان الحكم العثمانى ، مسحة وخانان أو ثلاثة وسوف يحتوى على حوالى ثلاثين حانوتاً ومبنى أو سراى للحكومة .

لوريمر ج.ج : مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافى ، ج٢ ، ص ص٦٩١-٦٩٢ .

(٣) انظر فى هذه الدراسة الفصل الثامن – الجزء الأول .

– حزيران – ١٨٣٤ تشكلت لجنة خاصة هى لجنة الملاحة البخارية فى مجلس العموم البريطانى لمعرفة أفضل الطريقين المصرى والفراتى . وعقدت عدة جلسات استمعت فيها إلى آراء المختصين بطريق الفرات . وكانت شهادة شيزنى بطبيعة الحال هى التى عولت عليها اللجنة فى وضع تقرير برلمانى ضخم ، ناهز المائة صفحة من القطع الكبير عن الموضوع . وقد وافق مجلس العموم البريطانى فى شهر أغسطس – آب – عام ١٨٣٤ على فتح اعتماد بمبلغ عشرين ألف جنيه استرلينى لتمويل نفقات بعثة رسمية ، تقوم بدراسة الإمكانات المتاحة لتيسير سفن نهرية بخارية فى نهر الفرات . وأضافت إليه شركة الهند الشرقية مبلغ خمسة آلاف جنيه أخرى . وقام شيزنى بتنظيم البعثة وصدر مرسوم ملكى ، مؤرخ فى ٢٨ من نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٨٣٤ بتعيينه لقيادة البعثة وتوجيهها (١) .

مشكلة استصدار فرمان من السلطان :

وطلب لورد پونسونبى Lord Ponsonby السفير البريطانى فى إستانبول من الباب العالى استصدار فرمان من السلطان بالترخيص لباخرتين بريطانيتين بالملاحة فى نهر الفرات. وتردد الباب العالى متعللاً بأن العشائر التى تمر بها الباخرتان فى العراق مبعث خطر على حياة ركابهما ، وأنه تبعاً لذلك ليس فى مكنته تحمل مسئولية سلامتهم . وصرح ريس أفندى – وهو لقب كان يحمله وزير الخارجية العثمانية فى القرن التاسع عشر(٢)– أن الباب العالى مستعد لإصدار الفرمان ، إذا تحملت بريطانيا مسئولية الدفاع عنهم . ووافقت الحكومة البريطانية على هذا الشرط فى مقابل أن تكون الباخرتان مسلحتين . واعترضت الروسيا على إصدار هذا الفرمان ؛ لأنها رأت أن مثل هذا الفرمان سيلقى بالعراق غنيمة باردة فى يد الإنجليز ، الذين سيجعلون من العراق قاعدة عسكرية لمقاومة النفوذ الروسى فى منطقة الخليج العربى من جنوب غربى آسيا . وكان لدى الروس حجة قوية وهى أن الباب العالى ظل ممتنعاً امتناعاً تاماً لفترات طويلة عن منح النمسا حرية الملاحة فى نهر الدانوب . وهو ، بالفرمان المرتجى ، يمنح امتيازاً للإنجليز لايشاركهم فيه أحد (٣). وأخيراً استجاب الباب العالى للضغط البريطانى؛ إذ كان فى حاجة إلى استرضاء بريطانيا لتقف إلى جانبه ضد مصر . فصدر الفرمان فى ٢٩ من ديسمبر – كانون أول – عام ١٨٣٤ بالسماح لباخرتين بريطانيتين بالتجول فى نهر الفرات لتسهيل التجارة (٤). وقد أخطر الباب العالى كلا من على رضا باشا وإلى بغداد ، ومتصرف البصرة بهذا الفرمان (٥) .

(١) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٦–٤٧ .
(٢) انظر فى هذه الدراسة الفصل التاسع ، الجزء الأول .
(٣) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٧ .
(٤) تجد نص الفرمان مترجماً إلى الإنجليزى فى :
Hurewitz J.C., op. cit.; Vol. 1. p. 109.
(5) Loc. cit.

مشكلة أخرى تواجهها البعثة :

أطلت برأسها مشكلة أخرى واجهتها البعثة . فقد كان هناك رأى فى الدوائر الرسمية البريطانية يقول بوجوب تحرك الباخرتين من البصرة فى اتجاه الشمال ، بينما كان هناك رأى معارض يقول العكس . وكان شيزنى من أنصار الرأى الأخير استناداً إلى عدم قدرة الباخرتين على الصمود فى وجه التيارات الشديدة فى الفرات والمتجهة جنوباً ، فضلاً عن أن صعود الباخرتين فى الفرات من البصرة يوحى للأهلين بأن هناك خطة مبيتة لغزو العراق(١) ، لأن تفوق الإنجليز فى منطقة الخليج العربى وسمعتهم الاستعمارية السيئة تؤكدان فكرة الغزو فى أذهان الأهالى . واستقر الرأى على أن تبدأ الباخرتان عملهما فى الفرات نازلتين ، بدلاً من صاعدتين فيه ، وعلى أن تشحن الباخرتان مفككتين فى سفينة شراعية من إنجلترا إلى بلاد الشام عن طريق جبل طارق وجزيرة مالطة .

وصول البعثة إلى ساحل الشام :

وأخيراً صدرت التعليمات النهائية بإبحار البعثة فى أبريل – نيسان – ١٨٣٥ ، وحدد رئيس الوزارة مهمة البعثة ، على النحو التالى ، فى رسالة بعث بها إلى شيزنى :

أولاً : أن تقوم البعثة بدراسة نهر الفرات لتحديد مدى صلاحيته للملاحة البخارية لإنشاء طريق سريع إلى الهند وتنمية التبادل التجارى .

ثانياً : مدى سرعة نقل البريد بواسطة البواخر بطريق الفرات بين الهند وبريطانيا .

ثالثاً : التعاون مع السلطات العثمانية فى سبيل إنجاح البعثة .

رابعاً : تجنب الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات وعدم استخدام العنف ، إلا إذا تطلب الأمر المحافظة على أرواح أعضاء البعثة (٢) .

ولما وصلت البعثة إلى مالطة تعاقدت مع اثنى عشر مالطياً للانضمام إليها بغية تسهيل عملية اتصالها بالعرب . وواصلت السفينة رحلتها حتى بلغت فى ٣ من أبريل – نيسان – ١٨٣٥ السويدية . وقد فضلتها البعثة على الإسكندرونة ، لأن مواصلاتها أسهل مع أنطاكية ، وسارع شيزنى إلى إنزال الباخرتين للصعود فى نهر العاصى .

(1) Hoskins H.L.; op. cit., pp. 163-164.

(٢) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث – إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٩ .

اعتراض مصر :

اعترضت السلطات المصرية فى الشام على تفريغ أجزاء الباخرتين من السفينة التى جاءت بهما من ميناء ليفربول ، لأن محمد على لم يبلغ بفرمان السلطان ، وتمسك بضرورة صدور فرمان من الباب العالى يوجه إليه ويطلب منه فيه مساعدة البعثة . وكان موقف محمد على سليماً ، لأنه وال من قبل السلطان . وسواء كان محمد على يحكم مصر فقط أو مصر والشام ، فإن هذين الإقليمين خاضعان للسيادة العثمانية . ولايغير حكمه لهذين الإقليمين من صفته ومن مركزه القانونى كوالٍ . وكان محمد على يهدف من اعتراضه إلى تحميل الباب العالى مسئولية مايترتب على وصول البعثة إلى نهر الفرات ؛ خشية أن يؤدى وجود البعثة بأسلحتها وذخائرها ورجالها إلى احتلال العراق ، وبذلك تصبح البلاد الواقعة تحت حكمه يهددها الإنجليز من العراق شرقاً ومن البحر المتوسط غرباً . وعبر عن رأيه بقوله فى رسالة بعث بها إلى ابنه إبراهيم باشا ومؤرخة فى ١٤ من مارس - آذار - ١٨٣٥ «إن بعثة العراق أعظم مصيبة على الأمة الإسلامية . وإذا قبلناها حلت علينا الملامة واللعنة إلى يوم الدين . ولذلك لايمكن أن نوافق عليها حتى لو بلغت الروح الحلقوم» (١) . وبذلت السفارة الروسية فى إستانبول مساعيها لدى الباب العالى لتجميد الفرمان السلطانى الصادر عام ١٨٣٤ . وفسرت بريطانيا موقف محمد على بأنه نوع من الانتقام منها لموقفها غير الودى منه فى أزمة حرب الشام الأولى ، كما فسرت موقف الروسيا بأنها ترى فى وجود بعثة الفرات قيداً لأطماعها من الانطلاق فى منطقة الخليج وجنوب غربى آسيا . أما الباب العالى فقد رفض إصدار الفرمان الذى طلبه محمد على ؛ تأسيساً على أن الفرمان الممنوح للبعثة البريطانية موجه إلى جميع باشوات الدولة دون استثناء .

ولكن بدأ محمد على يتراجع أمام الضغط الذى مارسه عليه رونالد كامبل Ronald Campbell ، قنصل بريطانيا العام فى مصر ، ورأى أن يتجنب الصدام مع الإنجليز ، فسمح بمرور البعثة عبر الشام إلى شاطىء الفرات ، وأن يتخلى عن الأراضى الواقعة على الضفة الشرقية لهذا النهر تجنباً لأى احتمال للتصادم مع الإنجليز . ولم يشاطر إبراهيم باشا والده فى خطته ، ورأى أنها تنطوى على تهرب من المسئولية . وتمسك بأن تبقى فى قبضة القوات المصرية «روم قلعة» و «بيره چك» الواقعتان على الضفة الشرقية للفرات ، لأنهما مركزان استراتيجيان يضمنان سلامة القوات المصرية فى تلك المناطق ، ويسيطران على الطريق المؤدى إلى بغداد . وقال فى رسالة أرسلها إلى والده ومؤرخة فى ٢١ من أبريل - نيسان - ١٨٣٥ مصوراً تقديره للموقف «إن الإنجليز قد جاءوا ومعهم عساكرهم ومدافعهم ومهماتهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ص٢٥٠-٢٥٢ .

وذخائرهم . فإذا بنوا سفنهم وهجموا على بغداد متخذين من العرب ذريعة لهم لهذا الهجوم ... وجلبوا على الأمة الإسلامية داهية دهياء ، يتهمنا الناس قائلين أنت الذى فعلت هذا ، وأنت الذى أذنت لهم بالمرور من أرضك ، وأنت الذى تسببت فى هذه المصيبة التى نزلت بنا ، دون أن يعلم أحد أن الدولة هى التى أذنت لهم فمرواه (١) .

وعاد محمد على تحت ضغط ابنه إلى إقناع الباب العالى بالأخطار التى تتعرض لها بلاد الشام والعراق من وجود البعثة فى العراق ، وطلب إلى السلطان سحب فرمان عام ١٨٣٤ لإنقاذ العراق مما يبيته له الإنجليز . وكان من نتائج مساعى محمد على - بالإضافة إلى الضغط الروسى فى إستانبول - أن أصدر الباب العالى تعليمات إلى مصر بأن تحجز الباخرتين فى السويدية حتى يصل الرد من لندن ، وكان معنى هذه التعليمات هو تجميد البعثة . وسارع محمد على من جانبه إلى تنفيذ هذه التعليمات . ولكن شيزنى رئيس البعثة كان عنيداً ، تحدى السلطات المصرية فى الشام مستنداً إلى الفرمان السلطانى الصادر بشأن البعثة ومعتمداً على دولته بصفتها من أكبر دول العالم . وكان شيزنى صادقاً فى حدسه ، إذ مالبثت أن اتخذت حكومة لندن إجراءات خطيرة . فقد أرسلت إلى كامبل – قنصلهما العام فى مصر – أوامر بأن يطلب من محمد على فى الحال أن يصدر أوامر صريحة لإبراهيم باشا بتقديم مساعدات لأعضاء البعثة ، وإذا رفض محمد على إصدار مثل هذه الأوامر .. كان على كامبل أن يخطر الأميرال رولى Rowley دون إبطاء بهذا الرفض ؛ حتى يتمكن من تنفيذ الأوامر التى كانت قد صدرت إليه . وكانت تقضى بأن يغادر كامبل والقطعة البحرية بقيادة رولى الإسكندرية إلى عرض البحر معلناً محمد على بأن رولى سيتخذ الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على مصالح بريطانيا وحقوقها . وكان الإجراء الأول هو فرض الحصار البحرى على الإسكندرية بمنع خروج أى وحدة بحرية مصرية من الإسكندرية أو دخولها إليها، سواء كانت هذه الوحدة حربية أو مدنية . وإذا أصرت أى سفينة على خرق الحصار فإنها تؤسر وترسل إلى مالطة . واختارت بريطانيا وقتاً ملائماً لتنفيذ تهديدها ؛ إذ إن محمد على كان قد أرسل أسطوله إلى جزيرة كريت. وبذلك هدده الإنجليز بمنع أى اتصال بين الأسطول المصرى فى كريت وقاعدته فى الإسكندرية (٢) .

وأمام هذا التهديد البريطانى الخطير تراجع محمد على للمرة الثانية خشية إضاعة مكاسبه وجهوده خلال السنوات السابقة . فلم يأمر فقط بترك البعثة تمر عبر الشام إلى بيره جك، بل أمر بالإسراع بنقل أجزاء الباخرتين وعدم الاحتكاك بالبعثة ، وطلب من إبراهيم باشا أن يغض الطرف عن نقل المهمات الحربية كالمدافع والبنادق والذخائر وأدوات البعثة . ومما

(١) المرجع السابق ، ص ص٢٥٢-٢٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص٢٥٤-٢٥٥ .

ساعد على سرعة نقلها إسهام الباب العالى فى تسهيل عمليات النقل التى كانت شاقة جداً [١] . فقد أمر رشيد باشا بإرسال دواب النقل من ديار بكر إلى البعثة التى وصلت إلى بيره چك . وكان الباب العالى ينشد تأييد بريطانيا للدولة فى جولة تالية ، تخوضها ضد محمد على انتقاماً لهزيمتها فى حرب الشام الأولى .

بدء تحرك الباخرتين :

اختير مرفأ وليم بورت William Port على الفرات الأعلى[٢] لاستقبال قطع الباخرتين مفككتين لتركيبهما هناك . وبدأتا رحلتهما من هذا المرفأ إلى البصرة فى منتصف مارس ١٨٣٦ ، وأطلقت على إحدى الباخرتين اسم «الفرات» وكانت أكبر حجماً من الأخرى التى أطلق عليها اسم «دجلة» كما كانت آلات الأولى أقوى من الصغرى[٣] ، وبحارتها أكثر عدداً منها . وقد روعى فى تصميمها ظروف الملاحة فى نهر الفرات . وكانت الباخرة الكبرى تسير فى المقدمة ومن ورائها الباخرة «دجلة» . وانقسم أعضاء البعثة إلى مجموعات عمل ، منهم من رسم خرائط تفصيلية لمجرى نهر الفرات ، ومنهم من رصد تياره وعمقه ، ومنهم من سجل الملاحظات التى بدت لهم عن ضفتى النهر ونوعية السكان ومستوى حضارتهم ، وأسماء القرى وما إلى ذلك من ملاحظات اقتصادية واجتماعية وجغرافية وسكانية .

مصاعب البعثة فى رحلتها إلى البصرة :

غرق الباخرة «دجلة» :

سارت أمور البعثة أول الأمر سيراً مرضياً منذ أن بدأت رحلتها النهرية وأتمت بنجاح مسح أكثر من خمسمائة ميل من نهر الفرات . وبعد أن غادرت دير الزور ، وفى مكان لايبعد كثيراً عن عانه ، تعرضت باخرتا البعثة فى مساء ٢١ من مايو – آيار – عام ١٨٣٦ لعاصفة شديدة شمالية غربية ، أثارتها رياح محملة بالرمال أغرقت فى الحال الباخرة الصغرى «دجلة» وسط الظلام بما كانت تحمله من خرائط ومعدات وآلات علمية دقيقة وثمينة ، وغرقت معها أيضاً جميع الأموال التى كانت تخص البعثة . وبلغت الخسائر فى الأرواح عشرين نفساً كان من بينهم ضابطان وثلاثة عشر أوروبياً وخمسة من أهل العراق . وكان شيزنى رئيس البعثة على ظهر هذه الباخرة ، ولم يستطع أن ينجو منها وسائر الضباط إلا حين ألقوا بأنفسهم فى مياه النهر . وعاد إلى لندن طاقمها من الضباط والمدنيين ممن كتبت لهم النجاة ، ولم يمكن تحديد

---

(١) كان نقل الأجزاء الكبيرة من هاتين الباخرتين عملاً يتطلب جهداً كبيراً . فقد نقلت «غلاية» الباخرة الصغيرة «دجلة» يجرها ١٠٤ من الثيران يقودها ٥٢ رجلاً من السائقين من أهل البلاد .

(٢) تقع على بعد ميلين ونصف ميل من بيره چك .

(٣) كانت قوة الباخرة الفرات خمسين حصاناً ، بينما كانت قوة الباخرة دجلة عشرين حصاناً .

المكان الذى غرقت فيه الباخرة مباشرة . وراحت الجهود تبذل مرة بعد الأخرى لانتشال الباخرة الغارقة ، وبقيت فى مكانها عشر سنوات . أما الباخرة الكبرى «الفرات» فقد تعرضت لبعض الأضرار من جراء العاصفة ، ولكنها كانت أضراراً طفيفة واستطاعت أن تمضى فى رحلتها وفى مهمتها .

وعلى الرغم من فداحة الخسائر المادية ، كان لغرقها أصداء بعيدة فى لندن ، إذ اعتقدت الدوائر الرسمية أن العواصف تشكل عقبة كبيرة فى طريق الملاحة البخارية فى نهر الفرات . واهتم شيزنى رئيس الحملة بتبديد هذا الاعتقاد ، مؤكداً أن غرق الباخرة «دجلة» كان حادثة عارضة لاتدل إطلاقاً على عدم صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية [1] .

ولما أوغلت الباخرة الكبيرة فى حوض نهر الفرات بدأ شيزنى اتصالات مبكرة مع العشائر الكبرى مثل شمر الجربا ، وعنزة . وكانت كل منهما ذات بأس شديد ، وعجز والى بغداد عن فرض السيطرة عليهما فى معظم الأوقات .

ونجح رئيس البعثة فى أن يعقد مع شيخ عشائر عنزة معاهدة باسم ملك بريطانيا فى أبريل – نيسان – عام ١٨٣٦ ، وبعث بها إلى لورد بالمرستون فتقبلها بقبول حسن واعتبرها مستنداً لبريطانيا فى قابل الأيام ، تستطيع بها التدخل فى أمور الصحراء وتجعل من هذه العشيرة القبلية الضخمة حليفاً لها ضد أى هجوم على العراق .

غير أن المقاومة الخطيرة التى تعرضت لها البعثة كانت من جانب العشائر الصغيرة ، وكان مرد هذه المقاومة إلى أسباب دينية وسياسية ؛ فواجهت مقاومة شعبية فى بعض المناطق. كانت بعض هذه القبائل تجمع أفرادها على ضفتى نهر الفرات بعد أن تضع فى مجراه جذوع الأشجار والنخيل لمنع تقدم الباخرة . وتدور معارك غير متكافئة ، لأن أفراد القبائل كانوا مسلحين بأسلحة بدائية مثل البنادق الضعيفة والسيوف ، بينما كانت الباخرة مزودة بمدفعية تقذف قنابلها على جموع العراقيين فتحدث فيهم خسائر فادحة فى الأرواح . وفى جنوبى العراق أمر شيخ قبائل المنتفق رجاله بعدم تموين البعثة بالفحم ومواد التموين . وكان الحماس الدينى الإسلامى قد اجتاح العراق بسبب هذه الباخرة البريطانية المسلحة التى تهبط العراق وتتوغل فى جوفه . ومما زاد فى تصاعد الشعور الدينى الإسلامى المعادى للبعثة أن صمويل Samuel المنصّر الإنجليزى البروتستانتى – وسنلتقى به فى موطن قادم فى هذا الفصل – جاء ليسلم البريد إلى الباخرة ، وكان هذا المنصر فى تصرفاته مندفعاً اندفاعاً بلغ حد التهور والحماقة . ولم يدرك الصعاب السياسية والدينية التى تواجهها البعثة من يمين ويسار، فدعا فى هذا

(1) Hoskins H.L.; op. cit., p. 169.

الوقت العصيب الأهلين إلى الارتداد عن الدين الإسلامى واعتناق المسيحية (١) . وجاء هذا الحادث ليضيف أثقالاً إلى أثقال البعثة . ووقر فى أذهان الجماهير أن البعثة ذات أهداف عسكرية وسياسية ودينية واقتصادية(٢) .

البعثة البريطانية تتجاوز اختصاصاتها :

والحق أن البعثة لم تثر سخط الجماهير فقط ، فقد يقال إن الجماهير كان يغمرها تعصب دينى دافق ، وإنها كانت ذات أفقى عقلى محدود ، ولكن البعثة أثارت بتصرفاتها مخاوف السلطات العثمانية فى العراق وإستانبول وأزعجت عدداً من العواصم الأوروبية وبخاصة باريس؛ لأنها تجاوزت الحدود التى رسمها لها فرمان عام ١٨٣٤ فقد سمح السلطان فى هذا الفرمان لباخرتين بأن تبحرا فى نهر الفرت ، ولم يرد قط ذكر لنهر دجلة أو غيره من الأنهار . ولكن الباخرة أبحرت أيضاً فى أنهار دجلة ، والبهماشير ، وكارون . إذ لما وصلت الباخرة «الفرات» إلى البصرة صدرت الأوامر فجأة إلى شيزنى رئيس البعثة أن يصعد بالباخرة فى نهر دجلة فصعدت الباخرة فى هذا النهر حتى بغداد وتجاوزتها ، ثم هبطت النهر بحجة استلام البريد الهندى ، ووصلت البصرة مرة ثانية وتسلمت البريد ، ثم شرعت فى صعود نهر الفرات . ورأى شيزنى أن يبعث البريد بالطريق البرى إلى ساحل الشام لإرساله إلى إنجلترا . وقد وصل البريد متأخراً ثلاثة أشهر عن موعده ؛ الأمر الذى أساء إلى سمعة البعثة (٣) .

دراسة تحليلية لفرمان عام ١٨٣٤ :

نعود لفرمان سنة ١٨٣٤ فنقول إن مقدمته ذكرت أنه موجه إلى جميع الباشوات والولاة سواء من يحمل منهم ثلاثة أطواخ أو طوخين (٤) فقط ، وكذلك إلى القضاة وقباطنة الموانئ وسائر حكام الأماكن الواقعة على ضفتى نهر الفرات . ثم قرر الفرمان أن لورد پونسونبى السفير البريطانى فى إستانبول «وهو إحدى الشخصيات الذائعة الصيت للغاية بين الأمم المسيحية» ، قد قدم مذكرة رسمية إلى الباب العالى قرر فيها أن الحكومة البريطانية تطلب الإذن لباخرتين فى أن تبحرا على التوالى فى نهر الفرات ، الذى يصب على مسافة قريبة من مدينة بغداد لغرض تسهيل التجارة . ومضى الفرمان يقول إن الباب العالى بعث بمذكرة إلى على رضا باشا وإلى بغداد والبصرة ليدلى برأيه فى شأن المشروع المقترح للملاحة . وعلى الرغم من أن رد الوالى المذكور لم يصل بعد ، قام السفير البريطانى باتصالات لدى الباب العالى ، وأبلغه أن الحكومة

---

(1) Loc. cit. p. 161.

(2) Loc cit., p. 193.

(٣) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦١-٢٦٢ .

(٤) انظر فى هذه الدراسة مدلول كلمة أطواخ ، الفصل الثانى عشر ، الجزء الأول .

البريطانية تنتظر رداً منا . ولهذا السبب فإننا نسمح لباخرتين بالملاحة على التوالى فى نهر الفرات ، على أن تستمر الملاحة طالما كانت هذه الملاحة طبقاً لما تقدم لنا ، وتثبت أنها مفيدة للدولتين . ولهذا الغرض أرسل فرمان رسمى للسفير البريطانى .

ويضيف هيروتز إلى نص الفرمان ملحوظة بأن الباب العالى أرسل صورة ، طبق الأصل ، من هذا الفرمان إلى على رضا باشا وإلى بغداد والبصرة (١) .

والنص الوارد فى الفرمان واضح لا ليس ولاغموض فيه . ونحن نورد هنا الصياغة اللفظية الإنجليزية لهذا الفرمان بعد استبعاد المقدمة التى تقول إن هذا الفرمان موجه إلى جميع الباشوات والحكام ، الذين تقع أقاليمهم على ضفتى نهر الفرات .

The Ambassador Extraordinary and Plenipotentiary of Great Britain at Constantionple, Lord Ponsonby, one of the most illustrious personnages among the Christian nations, has presented to our Sublime Porte an officialnote, by which he intimates that the British Government requires permission to cause to navigate by turns, two steam boats on the river Eutphrates which flows at a small distance from the city of Bagdad, for the purpose of facilitating commerce.

We, in consequence, issued to our very illustrious governor of Bagdad and Bussora,. Ali Reza Pasha, an order to furnish out Sublime Porte with information of the proposed navigation.

Although the answer of the Pasha had not arrived, the Ambassador made representations on this Point, informing our Sublime Porte the British Government awaited our reply.

For this reason, we have and do permit two steam boats to navigate the Euphrates by turns, and this navigation is to continue as long as, conformably to what has been repersented to us, it may prove useful to the two Powers, and no inconvenience result the refrom, and it is to this purpose that an official rule has been transmitted to the British Ambassador. (٢)

(1) Hurewitz. C., op. cit, Vol. 1, pp. 109-110.

(2) Pichon Jean; Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale. Paris. 1937, pp. 60-61.

استغلت بريطانيا سياسة الأمر الواقع le fait accompli فى ممارسة نشاطها الملاحى البخارى فى أنهار العراق ، إذ استغلت عدم اعتراض الباب العالى على تجاوز بريطانيا لنصوص فرمان سنة ١٨٣٤ ، كما استغلت سكوت على رضا باشا والى بغداد ، ومن جاء بعده من الولاة عن هذا الإخلال الخطير بالفرمان المذكور . وكان على رضا باشا وخلفاؤه من المؤيدين لمشروع الملاحة البخارية فى أنهار العراق ؛ نظراً لما تدره هذه الملاحة من أرباح وفيرة لخزانة الحكومة ، وماتؤدى إليه من نشاط متزايد فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى أرجاء العراق. ولكن كان الباب العالى والولاة العثمانيون فى بغداد يجهلون عواقب الاستجابة للمطالب البريطانية تارة ، أو السياسة السلبية الصامتة تجاه النشاط البريطاني المتزايد فى مجالات الملاحة البخارية فى أنهار العراق تارة أخرى . ونظرت بريطانيا إلى ملاحة البواخر البريطانية فى أنهار العراق ، دون إذن من السلطات العثمانية المختصة إلى أنها «سابقة» وإلى أنها «حق مكتسب» droit acquis لها . وزاد من اعتدادها بقوة مركزها أنها كانت من بين الدول الأوروبية قاطبة صاحبة النفوذ الأول فى العراق ، وانفردت بالنفوذ فى منطقة الخليج العربى وستنجح فى أواخر القرن التاسع عشر فى عقد سلسلة اتفاقيات مع مشايخ الخليج ، تكفل لها هذا الانفراد بالنفوذ وتكسبها الصفة القانونية لهذا النفوذ الذى كان عبارة عن حماية مقنعة . ولكن الدبلوماسية البريطانية آثرت تجنب تسمية هذه الاتفاقيات صراحة باسم حماية ، بل وصفتها بالمعاهدات المانعة Exclusive Treaties ؛ أى التى تجعل العلاقات مقصورة على بريطانيا وتمنع الأمير من أن يسلم أو يبيع أو يرهن أو يعطى للتصرف قسماً من أراضيه إلا بإذن منها .

وسنعرض لهذا الموضوع فى موطن قادم فى هذه الدراسة .

اعتراض فرنسا :

وتنبهت فرنسا لخطر هذا الوضع القائم فى العراق وأنه لايستند إلى أى أساس قانونى ، فضغطت على حكومة لندن مطالبة بحرية الملاحة والمرور لجميع الدول فى طريق سوريا – الفرات – البصرة – الخليج ، وطريق إسكندرية – القاهرة – السويس – البحر الأحمر (١) . وقد

(١) كان بالمرستون يقصد معاهدة لندن التى وقعت فى هذا اليوم . وهى معاهدة جماعية أطرافها خمس دول هى بريطانيا والنمسا والروسيا وبروسيا من جهة ، والدولة العثمانية من جهة ثانية ، وتعهدت الدول بمساعدة السلطان فى إخضاع محمد على باشا ، على أن يحكم مصر وراثية ، وولاية عكا طول حياته إلى آخر الشروط التى تضمنتها المعاهدة . وكان بالمرستون وراء عقد هذه المعاهدة لعزل فرنسا عن المجموعة الدولية الأوروبية . وكان ينظر شذراً إلى اتصال محمد على الوثيق بفرنسا ، ويعتقد أن كل امتداد لنفوذ محمد على يؤدى إلى زيادة نفوذ فرنسا ودعم مصالحها فى الشرق . ولذلك كان شديد الكراهية لمحمد على، ويعتبره من عوامل هدم الدولة العثمانية . وأعلن أن سلامة هذه الدولة تتطلب أن ينكمش محمد على فى ولايته فى مصر . وقد قربت هذه المعاهدة بين بريطانيا والروسيا وباعدت بين فرنسا وبريطانيا . =

رد لورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا وقتذاك على جيزو Guizot السفير الفرنسى فى لندن بمذكرة مؤرخة فى ٢١ من فبراير – شباط – ١٨٤١، جاء فيها «إن أهم ماوجه إلى السياسة البريطانية منذ ١٥ من يوليو – تموز – ١٨٤٠[1] من انتقادات أنها أرادت اغتنام المسألة المصرية لحصر طرق النقل فى يدها» . وبلغ من دهائه الدبلوماسى أنه لم يغلق باب السعى أمام الدول الأوروبية للحصول على حقوق الملاحة على طول طرق الملاحة العالمية، ولكنه أكد فى الوقت ذاته أن بريطانيا ستعمل دائماً على ضمان مصالحها فى كل اتفاقية تتعلق بالممرات الفرنسية أمام صلابة موقف بريطانيا واستقرار نظام الحكم فيها وقوة أسطولها وخرجت بريطانيا منتصرة على طول الخط من الأزمة العثمانية المصرية (١٨٣٩–١٨٤١)، وحققت أهدافها فى هذه الأزمة : أغلقت فى وجه السفن الروسية المضايق : البوسفور، وبحر مرمرة، والدردنيل . وقضت على سيطرة مصر على المرحلة البرية من طريق سوريا – الفرات – البصرة – الخليج العربى . وإن كانت قد بقيت لمصر الهيمنة على طريق السويس –القاهرة – الإسكندرية . ويهمنا هنا أن نذكر أن مشروعات الملاحة البخارية فى أنهار العراق أصبح معظمها فى يد بريطانيا . ولعل هذه النتيجة كانت من أهم النتائج التى حققتها بعثة شيزنى الرسمية التى استغرقت زهاء ثلاث سنوات (١٨٣٥–١٨٣٧) . وكان فى مقدمة إنجازاتها العلمية وضع عدة خرائط تفصيلية لنهر الفرات والاتصال بالقبائل والعشائر، وتعرف أحوالها والوقوف على كثير من المعلومات عن العراق فى ماضيه وحاضره، ومدى صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية واتخاذ العراق معبراً للاتصال بين إنجلترا والهند . وقد وضع شيزنى عن كل هذه الموضوعات مجلدين ضخمين تضمنا كثيراً من الدراسات الهامة[2] . كما كتب طبيب البعثة أنزورث Ainsworth مجلدين عنها، تضمنا قدراً كبيراً من المعلومات القيمة فى المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها[3] .

وقرر شيزنى أن يبذل أقصى جهوده لاستبقاء الباخرة «الفرات» فى مياه العراق ولمد أجل البعثة ومهمتها . وسافر لهذا الغرض إلى بمباى، ولكن باءت مهمته فى الهند بالفشل،

= أما الباب العالى، فقد تشجع وأعلن فى ١٥ من سبتمبر – أيلول – ١٨٤٠ أمراً بعزل محمد على حتى يضعف نفوذه لدى القبائل الثائرة فى الشام .

(١) انظر نص المعاهدة وملاحقها فى :

Hurewitz. C., op. cit., vol. 1, pp. 116-119.

Pichon Jean; op. cit., pp 61-62.

(2) Chesney R.A., (Commander of the Expedition); The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris Carried on by the order of the British Government, in the years 1835-1837. London, 1850.

(3) Ainsworth W.F.; A Personal Narrative of the Euphrates Expedition. London, 1888.

فسافر إلى لندن لإقناع الدوائر المسئولة بوجهة نظره . غير أن رأى هذه الدوائر كان متأرجحاً ، إذ أنها تأخذ فى اعتبارها رأى حكومة الهند [١] . وكانت هناك فى ذلك الوقت مفاضلة بين طريق العراق وطريق مصر ولكل طريق أنصاره . تلقى أعضاء بعثة شيزنى تعليمات من لندن بالإبحار بالباخرة «الفرات» إلى بمباى . وبينما كانوا يستعدون لتنفيذ هذه التعليمات جاءتهم أوامر جديدة بالعدول عن السفر وإبقاء الباخرة فى العراق ، لأن مجلس المديرين فى الهند اشترى الباخرة من الحكومة البريطانية وقرر إبقاءها وأعضاء البعثة فى العراق . ومما هو جدير بالملاحظة أن فريقاً من ضباط الأسطول البريطانى فى الهند قاموا فى تلك الفترة بدراسات ميدانية لأنهار العراق . وكان من بينهم فيلكس جونز Felix Jones الذى قام بأعمال مهمة تناولت بغداد وضواحيها والمكانين الأثريين بابل ونينوى . ولما عين هذا الضابط مقيماً بريطانياً فى بوشهر [٢] خلفه ١٨٥٥ القائد سلبى Selpy فى ميدان الدراسات الميدانية وتركزت فى نهر دجلة مابين بغداد وسامراً . وانتهت مهمته فى سنة ١٨٦٢ . وكانت العقود الثلاثة من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٦٠) من أخطر فترات تاريخ العراق فى العصر الحديث[٣] قامت بريطانيا – فى استنامة السلطات العثمانية – بعمليات المسح والتخطيط وأنفقت الأموال والجهود وتحملت المخاطر ونجحت فى جمع معلومات هامة وخطيرة فى شتى المجالات عن وادى الرافدين . فإذا انتهت هذه الدراسات العملية عمليت بريطانيا على جنى ثمار هذه السياسة بنقل دراساتها من مجال البحوث إلى المجال التطبيقى بتكوين شركات تجارية أول الأمر تعتمد على الملاحة البخارية فى نهر دجلة بين بغداد والبصرة فى ممارسة عملياتها التجارية ، ثم بإنشاء شركات متخصصة فى الملاحة البخارية فى نهر الفرات ولتجعله حلقة من حلقات الاتصال بين أوروبا والهند ؛ مما وطد النفوذ البريطانى فى ربوع العراق .

بواخر تحمل العلم البريطانى وتعمل فى نهر دجلة

اقترح على التجار البريطانيين فى بغداد فى حوالى سنة ١٨٤٠ – وبعد أن كانت رحلة شيزنى قد ملأت الأسماع – فكرة استخدام سفن بخارية فى نهر دجلة ، بإعداد أسطول صغير من سفن الحكومة البريطانية . وتأسست فى ذلك الوقت شركتان تجاريتان بريطانيتان فى بغداد، وبدأتا بمزاولة التجارة فى بغداد والبصرة ومباشرة عمليات النقل النهرى بين هاتين المدينتين

---

(١) كانت شركة الهند الشرقية تتولى حكم الهند وفى أول نوفمبر – تشرين ثان – سنة ١٨٥٨ وافق البرلمان البريطانى على قانون الحكم الأفضل للهند . وكان يقضى بأن تنتقل إدارة الهند من شركة الهند الشرقية إلى الحكومة البريطانية رأساً ، وأصبح الحاكم العام فى الهند يلقب نائب الملك Vice-Roy .

(٢) بوشهر هى المدينة الرئيسية على الجانب الفارسى من الخليج العربى ، ويطلق عليها بالإنجليزية بوشير: Boehir .

(٣) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٨-٤٩ .

بواسطة قوارب محلية كانت الشركات تمتلكان بعضاً منها . وعملت هذه القوارب تحت العلم البريطانى فى نقل محاصيل ومنتجات العراق إلى البصرة لتصديرها إلى الخارج وكانت تعود إلى بغداد محملة بالبضائع البريطانية المستوردة ، كما كانت تستخدم أحياناً فى جلب الملح والحطب والسلع الأخرى إلى بغداد من شواطىء أنهار المناطق المجاورة . ولكن ظل الطابع البارز لهاتين الشركتين هو الطابع التجارى . أما عمليات النقل النهرى فكانت متممة لنشاطها التجارى .

أراد الإنجليز التوسع فى عمليات الملاحة البخارية فى أنهار العراق باستخدام بواخر تبنى أو تشترى تباعاً . كانت أولاها الباخرة «كربلاء» ، بناها تاجر فى بمباى طبقاً لتصميم معين بحيث يكون فى مكنها السفر من بمباى إلى الصرة رأساً ، ومنها تنساب فى مياه نهر دجلة إلى بغداد دون تفريغ شىء من حمولتها . واعترض نجيب باشا وإلى بغداد على وجود هذه الباخرة واستخدامها فى المياه النهرية العراقية . وطالب السلطات البريطانية بتحويل «كربلاء» إلى باخرة عثمانية ترفع العلم العثمانى وتدفع الحكومة العثمانية ثمنها . وقد كان هذا الباشا يرى أن السلطات العثمانية يجب أن تتولى عمليات الملاحة البخارية فى أنهار العراق[١]. فلما رفضت السلطات البريطانية طلب نجيب باشا وقف منها نجيب باشا موقفاً حازماً وفورياً ، فتقدم إليها بعدة طلبات ، كان من بينها :

(١) الحصول على فرمان من السلطان يقرر لها حق تشغيل الباخرة «كربلاء» فى نهر دجلة .

(٢) قيام البواخر والقوارب البريطانية بدفع «الطلبية» وهى ضريبة تجمعها السلطات العثمانية فى العراق ، فى مقابل تكاليف حماية البواخر والسفن الشراعية من عدوان العشائر العربية[٢] .

(٣) ضرورة رفع العلم العثمانى على البواخر البريطانية طالما كانت فى مياه العراق . وقد أنكرت المؤسسات البريطانية فى العراق على الحكومة حقها فى تحصيل «الطلبية» لأنها

---

(١) كان نجيب باشا قد أرسل مذكرة – عن طريق تيلور Taylor المقيم البريطانى فى بغداد – إلى الحكومة البريطانية يطلب إليها أن تزوده بباخرة مجهزة بالفنيين البريطانيين لتعمل تحت القيادة العثمانية لحين تزويدها بالبحارة والخبراء العثمانيين . وقد رحب تيلور بمشروع نجيب باشا ووعد بتذليل العقبات التى قد تعترضه . وكان هذا التأييد سبباً فى وقوع نفور شديد بين تيلور والتجار البريطانيين الذين اتهموه بأنه يفضل المصالح العثمانية على المصالح البريطانية . وبلغ اللدد فى الخصومة أن اتهمه التجار البريطانيون بأنه يرمى إلى تحقيق مغانم شخصية من وراء تأييده لمشروع نجيب باشا . وقد نقل تيلور فى أعقاب هذا الاتهام الخطير إلى أرضروم .

(٢) فرضت ضريبة الطلبية فى بغداد سنة ١٨٢١ وكانت تجبى من السفن بنسبة الحمولة وطول الرحلة وعن كل رحلة تقوم بها . ونظراً لحصيلة هذه الضريبة الوفيرة ، وضعت ضمن جدول ضرائب الدولة . ونظراً لأنها أنشئت فى الأصل بطريقة غير قانونية ، فلم تكن تجبى من أصحاب القوارب البريطانية حتى سنة ١٨٤٥ .

أهملت فى القيام بواجبها نحو حماية البواخر فى أنهار العراق من عدوان العرب ، مما اضطر أصحاب البواخر إلى دفع إتاوات لرؤساء القبائل العربية . وكانت هذه الإتاوات تصل إلى ١,٥٠٠ قرش عن كل رحلة من بغداد إلى البصرة . ولأن ضريبة «الطلبية» والإتاوات تتعارض مع معاهدة بلطة ليمان [١] . ولكن أصر نجيب باشا على موقفه بألا ترفع الباخرة «كربلاء» العلم البريطانى ، وأعلن عدم استطاعته منع العرب من مهاجمتها فى حالة رفضها دفع الرسوم المعتادة لمشايخ المنطقة من العرب ، كما أعلن أنه سيحول الموضوع إلى إستانبول .

قرار الصدر الأعظم سنة ١٨٤٦ :

انتقل موضوع ملاحة البواخر البريطانية فى نهر دجلة رسمياً إلى إستانبول سنة ١٨٤٥ ودارت محادثات بين الباب العالى والسفارة البريطانية فى العاصمة .

وتناولت المحادثات المسائل الأربع التالية :

(١) من حيث المبدأ : هل يجب استخدام البواخر البريطانية فى نهر دجلة بين البصرة وبغداد؟ وهل يجب استخدامها بصورة دائمة ؟

(٢) فيما إذا كان يجب ، فهل يحق لها رفع العلم البريطانى على البواخر أثناء قيامها برحلاتها؟

(٣) هل تدفع هذه البواخر الإتاوات التى يطالب بها الشيوخ العرب القاطنون على ضفاف النهر والتى ستمر البواخر عليها ؟

(٤) هل تدفع هذه البواخر ضريبة «الطلبية» ؟

نجحت مساعى السفير البريطانى لدى الباب العالى ، فأصدر الصدر الأعظم فى أبريل – نيسان – عام ١٨٤٦ خطاباً موجهاً إلى والى بغداد . وعلى النحو التالى جاءت الفقرة الأخيرة منه ، والتى تضمنت حلاً للمسألة .

«ومن ثم فإنى أكتب إلى سعادتكم لتقوموا بالعناية بكل البواخر البخارية الإنجليزية التى

---

(١) هى معاهدة تجارية عقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى ١٦ من أغسطس – آب – عام ١٨٣٨ حددت فيها الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات بين الدولتين . وقررت منح التجار البريطانيين حق الشراء المباشر من المنتجين فى بلاد الدولة العثمانية إلى غير ذلك من مسائل ذات صبغة اقتصادية . وكان من أهم أهداف هذه المعاهدة تحطيم نظام الاحتكار الذى فرضه محمد على فى مصر ، وحرمانه من المكاسب الهائلة التى كان يجنيها ، وتجريده من أعظم أسباب قوته .

انظر نصوص هذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. 1, pp 110-111.

- كما ذكر بوضوح - سوف تستخدم مستقبلاً نهرى الفرات ودجلة لأغراض التجارة الداخلية ، وأن تطبق عليها الحقوق الممنوحة لمراكب الرعايا العثمانيين ، بحيث لاتفرض أية رسوم على البواخر الإنجليزية القادمة من الخارج أو المتجهة إلى البلاد الأجنبية ، خلاف رسوم الجمارك المقررة ، ورسوم الرسو بواقع خمسة قروش . وهذا كل ماهو مطلوب من سعادتكم» . وكان معنى هذا القرار هو تقرير حرية البواخر البريطانية فى القيام بنشاطها الذى يتمثل فى عمليات النقل البخارى فى نهرى الفرات ودجلة . وأن تعامل معاملة مراكب الرعايا العثمانيين ، ولاتفرض أية رسوم على البواخر الإنجليزية القادمة من خارج العراق أو المتجهة إلى بلاد أجنبية ، خلال الرسوم الجمركية المقررة ، ورسم الرسو بواقع خمسة قروش عن كل سفينة (١) .

لقد كان قرار سنة ١٨٤٦ ، وقد أطلق عليه اتفاقية ، كسباً كبيراً للسياسة البريطانية الهادفة إلى دعم الملاحة البريطانية فى أنهار العراق ؛ مما كان يشكل تهديداً خطيراً لهذا الإقليم العربى من أقاليم الدولة العثمانية ويربطه إن عاجلاً وإن آجلاً بالهند ، وجعله حلقة هامة فى المواصلات البريطانية بين إنجلترا الأم والمستعمرات والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار إلى غير ذلك من الأسماء والتعبيرات التى استحدثت فى عالم الاستعمار . والحق أن ذلك القرار كان خطوة على الطريق إلى قيام بريطانيا باحتلال العراق فى مطلع القرن العشرين ، عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى مباشرة .

إنشاء أول شركة للملاحة البخارية في العراق :

كان شيزنى - حين غادر العراق - قد ترك رياسة البعثة وقيادة الباخرة «الفرات» إلى أحد مساعديه وهو لينش Lynch H. Bless ؛ بناء على أوامر صدرت من السلطان البريطانية

---

(١) شرح السفير البريطانى إحساسه بفهم خطاب الصدر الأعظم فى ضوء المباحثات التى تمت قبيل صدوره بالعبارات التالية .

(أ) البواخر التى يملكها بريطانيون سوف تستمر فى الملاحة فى مياه العراق تحت العلم البريطانى ، سواء كانت تعمل فى تجارة أجنبية أو محلية .

(ب) تدفع البواخر البريطانية ضرائب على البضائع التى تنقلها ووفقاً للرسم المحددة فى معاهدة بلطة ليمان .

(جـ) فى حالة استخدام البواخر أكثر من ميناء دخول عادى فى العراق ، وهى تمارس عمليات النقل ، فإنها تدفع رسوم المرسى ، وهى رسوم مصدق عليها فى معاهدات الامتيازات الأجنبية .

(د) ليست هناك تفرقة بين البواخر والسفن الشراعية من حيث المعاملة .

(هـ) السفن التى بنيت فى العراق ويملكها رعايا بريطانيون ولاتحمل العلم البريطانى ؛ لأن أصحابها لم يسجلوها لدى المقيمية البريطانية فى العراق ، فإنها لاتدفع رسوماً أعلى من الرسوم المقررة على أى سفينة عثمانية.

انظر :

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٤ ، ص ص٢٠٤٥-٢٠٤٦ .

فى الهند فى أبريل – نيسان – ١٨٣٧ . وقد شرع هذا الضابط – بتوجيه من سلطات الهند أيضاً – فى دراسة ميدانية لنهر دجلة فمخر عبابه صعوداً وهبوطاً ، ومسح الجزء الواقع بين بغداد وأعلى النهر ، ثم انتقل إلى شط العرب يقوم بدراسات على منوال دراساته فى دجلة . وكان من بين مهامه إجراء محادثات ودية مع رؤساء القبائل ، التى تقطن عادة فى حوض نهرى دجلة والفرات والعمل على إقامة علاقات طيبة معهم بشكل يخدم مصالح بريطانيا ويزيد من التسهيلات فى سرعة نقل البريد من البصرة إلى أساكل بلاد الشام ، على أن يضع الضابط لينش فى ذهنه الاتفاقات أو الترتيبات التى سبق التوصل إليها مع القبائل العربية أو السلطات العثمانية فى العراق [١] . وقد استغرقت دراساته واتصالاته الفترة من عام ١٨٣٧ حتى ١٨٣٩ ، وقام لينش بعد ذلك بإنشاء مؤسسة تجارية فى بغداد حوالى سنة ١٨٤٠ مع بعض أفراد عائلته وأصابوا نجاحاً كبيراً ، ولعل لينش أراد أن يبقى فى العراق ينتظر الفرصة المواتية ليسهم فى إنشاء خط ملاحى بخارى ، وهو مشروع كان يسيطر على تفكيره نظراً للفوائد السياسية والعسكرية والتجارية ، التى أدرك أنها تعود على بلاده من هذا المشروع[٢] . وفعلاً نجح فى سنة ١٨٦٠ مع أفراد أسرته ومع عدد من الرأسماليين فى لندن فى إنشاء شركة عرفت باسم «شركة السادة لينش للملاحة البخارية فى نهرى الفرات ودجلة» Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company وكانت أول شركة للملاحة البخارية تأسست فى العراق [٣]تخصصت فى مجالات النقل المائى البخارى . وقد اعترض نامق باشا والى بغداد على تأسيس الشركة بدون فرمان مسبق من السلطان وعلى تسيير بواخرها فى أنهار العراق .

خطاب الصدر الأعظم إلى والى بغداد عام ١٨٦١ لمساندة شركة لينش :

وإزاء تصاعد الأزمة بين نامق باشا والى بغداد وشركة لينش للملاحة البخارية فى نهرى الفرات ودجلة ، رأى السفير البريطانى فى إستانبول ضرورة التدخل لدى الباب العالى لمساندة شركة لينش الوليدة . وقد نجح ضغطه إلى حد بعيد ، إذ أرسل الصدر الأعظم خطاباً مؤرخاً فى ١٥ من يناير – كانون ثان – عام ١٨٦١ إلى والى بغداد ، يؤكد فيه اتفاقية عام ١٨٤٦ ، ويخول لشركة لينش الحق فى استخدام بواخرها فى الفرات ودجلة [٤]. ويقول لوريمر

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى : ج٤ ص ص١٩٧٨-١٩٧٩ .

(٢) كان لينش قد عاصر أحداث الأزمة العثمانية المصرية (١٨٣٩-١٨٤١) وعلم أن الحكومة البريطانية قد أرسلت فى مستهل الأزمة ثلاث بواخر إلى شط العرب ، خشية أن يقوم محمد على بالزحف على العراق من بلاد الشام التى كانت تحت سيطرته . ثم عادت الحكومة البريطانية .. فسحبت هذه البواخر بعد انتهاء الأزمة وانتفاء الغرض الذى من أجله أرسلت .

(٣) كانت شركة لينش بالتعبير الاقتصادى «شركة مساهمة محدودة» .

(4) Hoskins H.L., cp. cit., p. 425.

تعليقاً على قرار عام ١٨٤٦ وخطاب الصدر الأعظم فى سنة ١٨٦١ «إن اتساع وشمول الدور الذى قام به البريطانيون لفتح العراق للملاحة البريطانية ، إلى جانب عمليات المسح والاستكشاف ، ماجعل المسئولين البريطانيين المحليين فى ذلك الوقت ينظرون إلى العراق ، كما لو كان تقريباً إقليماً تشمله الحماية البريطانية» (١) .

وتنفيذاً لخطاب الصدر الأعظم لسنة ١٨٦١ ، أنزلت شركة لينش أولى بواخرها واسمها «مدينة لندن» City of London فى سنة ١٨٦٢ . وعندما أرادت الشركة إنزال باخرة أخرى اعترض نامق باشا مرة أخرى ، وبنى اعتراضه على أساس أن فرمان عام ١٨٣٤ نص على السماح لباخرتين فقط بالملاحة فى نهر الفرات . وقد رد الإنجليز على هذا الاعتراض بأن فرمان عام ١٨٣٤ خاص بالبواخر الحكومية فقط ، بينما اتفاقية عام ١٨٤٦ وخطاب الصدر الأعظم فى سنة ١٨٦١ يتعلقان بالبواخر غير الحكومية ، وأن الباخرة «مدينة لندن» هى باخرة غير حكومية تابعة لشركة لينش . وأخذ الباب العالى بوجهة نظر الإنجليز أو لعله اضطر إلى الرضوخ لرغبتهم ؛ تجنباً لمزيد من المتاعب تثيرها الحكومة البريطانية أمام الدولة العثمانية . وكانت أزمة قناة السويس قد تصاعدت فى ذلك الوقت ، وتلاحقت المناقشات فى مجلس العموم البريطانى تندد بسكوت السلطات العثمانية عن توسع شركة قناة السويس فى الاعتماد على تسخير الفلاحين المصريين فى حفر القناة(٢) .

وإذا كان الباب العالى قد أخذ بوجهة نظر بريطانيا فأذن لبواخر شركة لينش فى الملاحة .. إلا أنه اشترط أن يكون نشاط بواخر الشركة جنوبى بغداد دون الصعود إلى الموصل ، ووافقت شركة لينش على هذا الشرط ؛ إذ كانت تحقق أرباحاً وفيرة فى مجال نشاطها بين بغداد والبصرة ، ولأن السفن الشراعية التابعة للبريطانيين أو العراقيين كانت تكفى لمواجهة مطالب نقل البضائع بين بغداد والموصل . وما كادت شركة لينش تنشىء خط الملاحة البخارية بين البصرة وبغداد بصفة منتظمة ، حتى أنشئت خدمة بريدية بخارية ، كانت تمولها حكومة الهند وتتولاها شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية ابتداء من سنة ١٨٦٢ ، وكانت بمباى والبصرة هما المحطتين النهائيتين لهذا الخط . وقد حدد عدد الرحلات فى البداية بمثانى رحلات فى كل سنة ، ولكن ابتداء من سنة ١٨٦٦ أصبحت هذه الرحلة تتم مرة كل أسبوعين . واستكمالاً لهذا الخط الملاحى البخارى ، أنشىء خط بريدى بخارى سنة ١٨٦٣ من البصرة إلى بغداد وبالعكس بإعانة من حكومة الهند وتولته شركة لينش للملاحة البخارية فى نهرى الفرات ودجلة ، وكانت الرحلات فى هذا الخط الجديد تتم مركة كل ستة أسابيع ، ثم أصبحت مرة كل

---

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره القسم التاريخى ، ج١ ، ص٣٥٧ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس . الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦ ، ص ص١٨٣-٢٢٥ .

أسبوعين . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت ثلاث مرات فى كل شهر ، كما أنشئت مكاتب للبريد ابتداء بمسقط فى الخليج سنة ١٨٦٤ وانتهاء بالبصرة وبغداد سنة ١٨٦٨ [١] ، وقد ظلت شركة لينش تهيمن على الملاحة البخارية مابين بغداد والخليج العربى إلى مابعد الحرب العالمية الأولى [٢] .

وإذا كانت المنازعات بين السلطات العثمانية والمؤسسات البريطانية قد أسفرت عن إنزال باخرة ثانية ، فقد أراد الإنجليز كعادتهم فى أن يتوسعوا فى الامتيازات التى حصلوا عليها. وثارت فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر أزمات أخرى ، وأرادت الحكومة العثمانية أن تقف فى وجه المحاولات البريطانية . ولكن كانت استنامة السلطات العثمانية طوال الخمسين سنة السابقة لخطر احتكار بريطانيا للملاحة البخارية فى أنهار العراق ؛ مما رسخ أقدام الإنجليز فى العراق . ولم يكن الأسطول البريطانى ليسمح للعثمانيين باتخاذ أى خطوة إيجابية ضد البواخر البريطانية ، وكانت أسانيد الإنجليز قوية تهاوت أمامها مقاومة العثمانيين للاحتكار البريطانى . وكان من بين أسانيد الإنجليز أنه منذ سنة ١٨٢٠ ، كانت ترابط أمام دار المقيسية البريطانية فى بغداد سفينة بريطانية مسلحة تحمل العلم البريطانى[٣] ، ولم تعترض السلطات العثمانية على وجودها فى مياه دجلة ، وأن فرمان سنة ١٨٣٤ سمح لباخرتين هما الفرات ودجلة بالملاحة فى نهر الفرات ، ثم أبحرت الباخرة الفرات فى سنة ١٨٣٦ ثم ثلاث بواخر أخرى بين سنتى ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ فى دجلة وكارون ، دون أعتراض من السلطات العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية استبقت الباخرة نيتوكريس فى نهر دجلة . ولم تعترض السلطات العثمانية على وجودها . وأخذت الأزمة شكلاً حاداً ، وأرسلت بريطانيا باخرة مسلحة ألقت

---

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص ص٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٨ .

(٣) كان اسمها «كوميت» ، وهى باخرة ذات عجلات تجديف من الصلب ، تحت تصرف المقيم السياسى فى بغداد ، ومسلحة بمدفعين عيار ٤٥ بوصة مثبتين فى القواعد ، وحمولتها ١٨٢ طناً ، وأقصى سرعتها تسع عقد فى الساعة . وكان الطاقم العامل عليها يتكون من ضابط وأربعة وكلاء وثلاثة وثلاثين صف ضابط وجندى . وأنشىء لها مستودع الفحم تحت مبنى دار المقيم .

ويلاحظ أن هذه السفينة قد دشنت عام ١٨٨٤ لتحل محل الباخرة الأولى ، وكان اسمها كوميت أيضاً . وكان قد تقرر عام ١٨٦٨ ، أن تحل باخرة جديدة محل الباخرة القديمة . وتم الحصول على إذن بذلك من الباب العالى عام ١٨٦٩ وإن كان التنفيذ قد تأخر عدة سنوات لأسباب مختلفة . وتقرر فى سنة ١٨٨٠ على وجه التحديد بناء باخرة جديدة فى بمباى . وقبل إتمامها أصبحت الكوميت غير صالحة للعمل فى سنة ١٨٨٢، ورؤى استئجار باخرة اسمها «لندن» ليستخدمها المقيم البريطانى فى بغداد ، ولكنها غرقت فى شط العرب قبل أن تصل إلى بغداد ، وأخفقت الجهود التى بذلت للحصول على باخرة مناسبة لتحل مؤقتاً محل الكوميت .وعندما تم بناء الكوميت الجديدة وجد أنها من الكبر بحيث لاتستطيع الإبحار فى نهر دجلة ، ولذلك طالت مدة التأخير سنين عددا .

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٦٢٨ ، ج٤ ، ص٢٢٢٢ .

مراسيها تجاه البصرة . وكانت الدوائر البريطانية تعتقد أن المسلك الاستفرازى الذى انتهجه والى بغداد ضد المصالح البريطانية كان بإيعاز وتشجيع قنصل الروسيا فى بغداد (١) .

غرق «دجلة» أخرى :

ولم يأل الإنجليز جهداً فى سبيل تذليل الصعاب الطبيعية والأمنية والسياسية ، التى اعترضت نشاط بواخرهم فى أنهار العراق وتمسكوا بحقهم كاملاً وأكثر من حقهم فى ممارسة الملاحة البخارية فيها .. ففى سنة ١٨٧٦ غرقت السفينة «دجلة» المملوكة لشركة السادة لينش للملاحة البخارية فى نهرى الفرات والدجلة ، عندما اصطدمت بحطام مركب أهلى كان قد غرق واستقر فى قاع نهر دجلة قبل سنتين ، وقد أخفقت جميع الجهود لتعويم الباخرة البريطانية ، على الرغم من حضور غواصين وإرسال أجهزة من إنجلترا لهذا الغرض . وسارعت الشركة البريطانية إلى التعاقد على بناء باخرة أخرى فى لندن مصنوعة من الحديد وبمدخنتين ، وطولها ٢٢٥ قدماً وعرضها ٢٩ قدماً وحمولتها ٣٨٣ طناً . وبلغت تكاليفها ٢٢,٠٠٠ جنيه ، قبل أن يتم تجميع أجزائها فى ورش شركة لينش فى ماجيل (٢) ؛ حيث أنفق على تجميعها وتجهيزها عدة آلاف أخرى من الجنيهات .

حادث الباخرة «خليفة» :

وتعرضت الباخرة «خليفة» التابعة للشركة ذاتها ، وهى متجهة إلى أعلى نهر دجلة ، لهجوم قطاع الطرق العرب فى صباح اليوم الثامن من شهر يوليو – تموز – عام ١٨٨٠ ، وكانت تحمل ثمانين راكباً والبريد وحمولة عادية من البضائع . وقد ظهر العرب فجأة من بين الأعشاب الطويلة التى على ضفة النهر ، وفتحوا لمدة أربعين دقيقة نيراناً سريعة على الباخرة وحاولوا الصعود إلى ظهرها ، ولكنهم لم ينجحوا . وقتل على ظهرها أحد المسافرين وموجه الدفة الذى كان من أهالى البلاد ، وأصيب قائد الباخرة بعيار نارى فى إحدى رئتيه . وبعد اتصالات مع والى بغداد ، صدرت الأوامر بأن تزود الباخرة فى رحلتها التالية من بغداد إلى البصرة بحراسة عثمانية مكونة من ثلاثين جندياً ، كما أمر قارب حربى عثمانى بالتوجه معها إلى البصرة . وأعلنت شركة لينش أنها ستطالب بتعويض عن هذا الهجوم . ومارس المقيم

---

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص ص٤٥٦-٤٥٧ .

(٢) تقع على الضفة اليمنى لشط العرب على بعد أربعة أميال شمالى البصرة . وكانت تضم إلى جانب ورشة تجميع أجزاء السفن مستودعاً للفحم الحجرى ومستودعات للأسطول البريطانى . وتنقلت ملكية هذا الموقع بين عدد من الوكلاء البريطانيين السياسيين فى البصرة وبغداد إلى أن انتهت ملكيته لشركة السادة لينش للملاحة البخارية فى الفرات ودجلة .

انظر :

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٤ ، ص ص٢٠٦٤-٢٠٦٦ .

السياسى البريطانى فى بغداد ضغطاً على والى بغداد . كما باشر مثل هذا الضغط السفير البريطانى فى إستانبول على الباب العالى ، الذى وعد بإرسال حملة تأديبية ضد القبيلة المعتدية، وهى قبيلة آل بو محمد التابعة لنفوذ الشيخ سيحود [١] .

الاعتراض على حق البواخر البريطانية فى قطر صنادل :

وفى سنتى ١٨٨٠ و ١٨٨١ أثير حق البواخر البريطانية فى قطر الصنادل فى نهر دجلة، وكانت شركة لينش قد مارست فى بداية سنة ١٨٨٠ عمليات قطر الصنادل بعد أن قدمت إخطاراً لمدة ستة شهور عما تعتزم القيام به . ولكن حدث بعد انقضاء ثلاثة أشهر على استعمال أحد الصنادل ، وبعد أن قام صندل آخر تقطره باخرة بعد رحلات أن اعترض والى بغداد على العملية ، وطالب بضرورة حصول الشركة على فرمان من السلطان يجيز لها الحق فى قطر الصنادل ، واستند الوالى إلى أن التصريح أو الفرمان الصادر للشركة لم يرد فيه ذكر على الإطلاق لاستخدام الصنادل ، وردت الشركة بأن العمل سار فى السنوات السابقة على أن تقطر البواخر البريطانية قوارب أهلية ، عندما تشتد حركة الشحن والنقل ولم تعترض السلطات العثمانية قط على هذا التصرف ، كما أنه لايوجد خلاف فى المبدأ بين جر القوارب الأهلية وقطر الصنادل ، وأن حق تسيير بواخر يقتضى حق استخدامها بأى طريقة يمكن استخدام البواخر فيها، وذلك يشمل قطر الصنادل [٢] .

ولكن بقيت المسألة دون حسم ، وكانت تثار من وقت لآخر ، واستخدمت شركة لينش صنادل ، ولكن بإذن خاص فقط . وانتهزت هذه الشركة فرصة إنشاء شركة الملاحة العثمانية سنة ١٨٩٤ فطالبت برفع جميع القيود المفروضة على استعمال الشركة للصنادل . ولكن كان من رأى السفير البريطانى فى إستانبول أن الوقت غير مناسب للتقدم بهذا الطلب ، وعاودت الشركة سنة ١٨٩٩ تقديم طلب جديد للحصول على تصريح واضح لاستخدام الصنادل فى فصل انخفاض المياه فى مجرى النهر أو على الأفضل السماح لها باستخدام باخرة. واستطاع السفير البريطانى فى إستانبول أن يستصدر فى شهر يونيو – حزيران – ١٨٩٩ فرماناً من السلطان موجهاً إلى والى بغداد ، يسمح فيه للبواخر البريطانية بقطر الصنادل. ولكن عاد السلطان فى أغسطس – آب – من السنة ذاتها يسحب الفرمان ، وكان من نتائج هذا التخبط فى سياسة السلطان عبدالحميد الثانى أن تكدست البضائع فى ميناء البصرة بكميات كبيرة؛ نظراً لعدم مقدرة شركات الملاحة على نقل البضائع المرسلة إليها لنقلها إلى بغداد حال تسلمها .

(١) المرجع السابق ، ص ص٢٢٥٥–٢٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص٢٢٥٧–٢٢٥٨ .

وقد وضع المسئولون البريطانيون مذكرات إضافية عن الأصول القانونية والتاريخية لحقوق الملاحة البريطانية فى بلاد الرافدين ، تعزيزاً لموقف الجانب البريطانى .

ولذلك التمست شركة لينش فى سبتمبر – أيلول – عام ١٩٠٥ عن طريق المقيم البريطانى فى بغداد – مساعدة الحكومة البريطانية فى الحصول على ترخيص لتسيير باخرة ثالثة على نهر دجلة ، إلا أن السفير البريطانى فى إستانبول اعتقد أنه ليس هناك أمل فى الحصول على هذا الترخيص من الباب العالى فى ذلك الوقت .

محاولة الحكومة العثمانية منع الملاحة البريطانية فى نهر دجلة عام ١٨٨٣ :

أرادت شركة لينش فى شهر مايو – آيار – عام ١٨٨٣ إضافة باخرة جديدة لأسطولها وأطلقت عليها «المجيدية» (١) ، ولكن والى بغداد اعترض تأسيساً على أن الشركة قد خول لها الحق فى امتلاك وتسيير باخرتين فقط ، وإذا قامت ضرورة لاستبدال باخرة بأخرى .. فإن هذا الاستبدال يجب أن يكون من الحجم والحمولة نفسها. كما استند الوالى إلى أنه ليس لشركة لينش حق الملاحة فى نهر دجلة على الإطلاق ، وأن حقها مقصور على نهر الفرات فقط . وفى ٢٨ من يونيو – حزايرن – ١٨٨٣ منعت الباخرة «المجيدية» من حمل شحنتها من بغداد ، ودارت اتصالات مكثفة بين الوالى والمقيم البريطانى فى بغداد، صرح فيها الوالى بعزمه على منع البواخر البريطانية من دخول نهر دجلة ، وأعلن أنه ينفذ التعليمات الواردة إليه من إستانبول .

وفى ٥ من يوليو – تموز – عام ١٨٨٣ أرسلت قوات الچندرمة – الشرطة – إلى الباخرة «المجيدية» التى كات تستعد لرحلتها إلى البصرة ، ومنعت هذه القوات المسافرين والشحنات من الوصول إلى الباخرة ، ونقلت البضائع إلى باخرة عثمانية . وعادت «المجيدية» من بغداد فى ٦ من يوليو – تموز – متوجهة إلى البصرة ، ولم تكن تحمل سوى البريد البريطانى . ونظراً لخلوها التام وخفتها فإن إبحارها كان محفوفاً بالأخطار ، وتطور النزاع وأخذ مظهر التحدى السافر . فقد وصلت بغداد فى ١٤ من يوليو – تموز – الباخرة «خليفة» قادمة من البصرة ، ولم تكد تلقى مراسيها حتى وضعت على ظهرها حراسة عسكرية عثمانية، ولم تسمح لها بإنزال ركابها أو شحناتها إلى الأرض ، كما منع إنزال طرود البريد البريطانى .

وأرسل المقيم البريطانى ترجماناً إلى والى بغداد ليحتج لديه على هذا الأسلوب ، فكان مما قاله والى بغداد عن موضوع طرود البريد البريطانى أنه أمر بمنع نزولها إلى البر لكى يضطر الإنجليز إلى إرسالها إلى البصرة ثم إحضارها إلى بغداد مرة أخرى على ظهر باخرة عثمانية . وأمام إصرار والى بغداد عادت الباخرة «خليفة» فى اليوم التالى إلى البصرة ، وبعد اتصالات بين لندن وإستانبول قام موزوروس باشا السفير العثمانى فى لندن بإبلاغ لورد جرانڤيل وزير الخارجية البريطانية فى ٤ من أغسطس – آب – عام ١٨٨٣ أن «الباب العالى قرر مؤقتاً إلغاء الإجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية فى بغداد فيما يتعلق بملاحة بواخر

(١) نسبة إلى السلطان عبدالمجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١) .

السادة لينش فى نهر دجلة » ، إلا أنه أوضح أن هذا القرار مقيد بثلاثة شروط ، هى :

(١) يجب ألا يفسر هذا القرار بأية حال من الأحوال بأنه ارتياب أو تقليل من قيمة الحقوق، التى يطالب بها الباب العالى بخصوص الملاحة فى نهر دجلة .

(٢) إن مسألة هذه الحقوق ومدى طبيعة الامتازات التى منحت للشركة يجب التدقيق فيها ومناقشتها بين الحكومتين .

(٣) يجب ألا تكون هناك قضية للمطالبة بالتعويض بسبب ماحدث .

ونفذت الحكومة العثمانية ماوعدت به ، فأوقفت فى ذات اليوم إجراءات التصدى لبواخر شركة لينش ، وأذنت لها باستئناف رحلاتها فى نهر دجلة ، وأنهت فى ٢٠ من أغسطس – آب – عام ١٨٨٣ هذه الإجراءات وغدت الملاحة فيه حرة طليقة (١) .

النشاط العثماني المضاد :

أفاقت الحكومة العثمانية على خطورة الملاحة البخارية البريطانية فى العراق ، واهتمت بوضع مشروعات عثمانية تنافس البواخر البريطانية وتحد من خطورتها ؛ فأوفدت أحد رجال البحرية العثمانية – وهو نجيب بك – إلى البصرة سنة ١٨٤٧ لدراسة الإمكانيات المتوفرة محلياً لإنشاء قوة بحرية عثمانية فى جنوبى العراق وتأسيس ترسانة بحرية فى البصرة لخدمة السفن، التى أزمعت الحكومة العثمانية شراءها واستخدامها سواء للنقل النهرى الداخلى فى العراق أو للنقل الخارجى من العراق .. فقد تألفت فى بغداد شركة ملاحة بخارية عثمانية تسهم الحكومة فى رأس مالها بمقدار النصف ويكتتب التجار والأعيان بالنصف الآخر . واستطاع رشيد الكوزلكى – والى بغداد – تغطية الاكتتاب المطلوب ، وعهد إلى شركة بلچيكية ببناء باخرتين أطلق عليها بغداد والبصرة . ووصلت هاتان الباخرتان إلى العراق فى عام ١٨٦١ وخصصتا للعمل فى نقل المسافرين والبضائع فى نهرى دجلة والفرات ، ثم صدرت الأوامر بأن يكون نشاط الباخرتين مقصوراً على نقل الركاب والبريد والذهب والأموال السائلة ووقف عمليات شحن البضائع عليها ، وكان هذا المنع راجعاً إلى ضعف آلاتها . وعلى عهد نامق باشا والى بغداد ازداد الاهتمام بأمر البواخر النهرية ، فأمر فى سنة ١٨٦٧ ببناء ثلاث بواخر جديدة ، هى: الموصل ، والرصافة ، والفرات (٢) .

وسار على هذا النهج مدحت باشا والى بغداد (١٨٦٩–١٨٧٢) ؛ فقد أبدى مزيداً من الاهتمام باستخدام البواخر التى استوردها من قبل كل من سلفيه رشيد الكوزلكى ونامق . وعمل

---

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٤ ، ص ص٢٢٥٩–٢٢٦٤ .
(٢) دكتور عبدالعزيز نوار ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٧١–٢٧٢ .

على أن يجعل من نهر الفرات طريقاً للمواصلات العالمية ، يربط بين ساحل بلاد الشام وبغداد والبصرة ، ويماثل طريق قناة السويس . ولتنفيذ هذا المشروع ، أنشأ طريقاً برياً يربط ساحل بلاد الشام بنهر الفرات ، وأقام على طول الطريق نقاطاً للحراسة لمنع العشائر من تهديد القوافل على هذا الطريق ، وفى الوقت ذاته أمر بإجلاء دراسات ميدانية لنهر الفرات ابتغاء تحديد العقبات التى تحول دون استخدام البواخر فيه استخداماً آمناً ، واستورد كراكات لإزالة هذه العقبات (١) .

ومن إسهامات مدحت باشا أيضاً فى مجال خطوط الملاحة البخارية فى أنهار العراق أنه ربط نهرى دجلة والفرات بقناة فى أقصر مسافة بينهما وهى تقع بين بغداد والفالوجة ، وبذلك أصبح خط البواخر فى دجلة متصلاً باستمرار بخط البواخر فى نهر الفرات ، واستخدمت فى النهر مجموعة من البواخر ، كان من بينها :

(١) الباخرة بابل .
(٢) الباخرة نينوى .
(٣) الباخرة نجد .
(٤) الباخرة آشور .

وكانت تعمل بين بغداد والبصرة وإستانبول ؛ لمواجهة نمو التجارة المتبادلة بين العراق وأوروبا والهند .

وبعد عزل مدحت باشا فى ٢٣ من مايو – آيار – ١٨٧٢ ، عملت السلطات العثمانية على دعم الملاحة البخارية فى أنهار العراق ، فبلغ عدد البواخر التى تعمل فى نهر دجلة سنة ١٨٧٨ سبع بواخر ، وكانت تعمل تحت إدارة رياسة الأسطول العثمانى فى البصرة(٢) .

مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق لربط أوروبا بالهند :

لم يكن الاهتمام الدولى بين العثمانيين والإنجليز والفرنسيين بالعراق مقصوراً على إنشاء وتنظيم خطوط ملاحة بخارية فحسب ، بل امتد هذا الاهتمام إلى ميدان آخر هو إنشاء خطوط للمواصلات الحديدة والبرقية عبر العراق . وتضافرت عدة عوامل سياسية فى وسط آسيا والشرق الأوسط على اهتمام الانجليز بإنشاء الخطوط الحديدية ، ولعل أهمها حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦) وثورة جنود السيبوى Sepoy فى الهند سنة ١٨٥٧ ضد الحكم البريطانى.. فقد حملت هذه الثورة الإنجليز على مزيد من التقدير لطريق العراق فى المواصلات البريطانية كقاعدة لمواجهة التمردات العسكرية فى الهند . ورأى الإنجليز أيضاً أن مد خطوط حديدية فى

(١) المرجع السابق ، ص٣٩١ .
(٢) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٤ ، ص٢٢٥٤ .

العراق يساعد على نقل مزيد من التجارة الشرقية ، عبر العراق فى طريق سريع وسهل وآمن إلى أوروبا ، كما أن التنافس التجارى بين الروسيا وبريطانيا دعا السلطات البريطانية إلى التفكير فى وسيلة فعالة للتغلب على النجاح الذى كانت تلقاه السلع الروسية (١) . وفى سنة ١٨٥٦-١٨٥٧ وبموافقة الحكومة البريطانية وتأييد شركة الهند الشرقية ، تكونت شركة لإنشاء سكة حديد وادى الفرات لربط البحر المتوسط بالخليج عبر العراق ، وكان من بين القائمين على هذا المشروع شيزنى قائد بعثة الفرات الرسمية (١٨٣٥-١٨٣٧) . وقد أخفق مشروع سكة حديد الفرات سنة ١٨٧٢ بعد ستة عشر عاماً من الجهود ، وتلاه مشروع بريطانى آخر لسكة حدى وادى دجلة ، وكان يقوم على ربط ديار بكر والموصل وبغداد والكويت بخط حديدى واحد . ولكن لحق المشروع الجديد بمصير سابقه (٢) .

واقترن التفكير فى إنشاء الخط الحديدى بمشروع مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق بين أوروبا والهند . وكان الاقتراح أن تتولى المشروع الأخير شركة المواصلات الهندية الأوروبية ، وكان لابد من الحصول على موافقة حكومتى إستانبول ولندن معاً على المشروعين وعلى موافقة السلطان على ضمان رأس مال الشركة التى تقوم بتنفيذ المشروع . وعرضت فرنسا مشروعاً يعارض المشروع البريطانى ؛ إذ تقدمت جماعة فرنسية بعرض لتنفيذ المشروع، دون أن تتمسك بالحصول على ضمان السلطان رأس مالها (٣) . ولكن الحكومة البريطانية كانت تعتقد أن مشروع الخط الحديدى سيكون قليل الفائدة بعد شق قناة السويس ، كما أن قيمته ستكون تافهة إذا تم مشروع خط الاتصالات البرقية على طول نهر الفرات .

وشعرت الحكومة العثمانية خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر بالفوائد التى تجنيها من إنشاء خط الاتصالات البرقية لربط العراق وغيره من أنحاء الدولة بإستانبول . وقررت أن تمد خطاً للبرق من إستانبول عبر آسيا الصغرى إلى بغداد والبصرة ، على أن تقوم الحكومة البريطانية بمد هذا الخط من الخليج العربى إلى الهند . وزاد اهتمام الإنجليز بهذا المشروع على أثر إخفاق المحاولات التى بذلت فى سبيل مد وتشغيل الخط البرقى عن طريق البحر الأحمر إلى الهند ، وأسفرت المفاوضات بين الحكومتين العثمانية والبريطانية عام ٢٨٦٣ على مد خط برقى تقوم الحكومة العثمانية بتمويليه مالياً والحكومة البريطانية فنيّاً . ونفذ المشروع . وأصبح العراق هو الرابطة ، بواسطة الخطوط البرقية ، بين الشرق والغرب (٤) .

* * *

(١) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٩-٥٢ .

(٢) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٢٥٦ ، ج٤ ص ص٢٢٧٣-٢٢٧٤ . وانظر أيضاً مذكرة ضافية عن مشروع سكة حديد وادى الفرات فى الجزء الرابع من المرجع السابق ، ص ص٢١٤٠-٢١٤٩ .

(3) Hoskins H.L., op. cit., PP. 334-335.

(٤) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج٤ ص ص٢١٥٤-٢١٥٩ .

الفصل الثالث

صور من حملات التشهير بالدولة (٣)
مناقشة عزلة العراق (تتمة)

السياحة الدينية فى العراق :

العتبات المقدسة :

توجد فى العراق «العتبات المقدسة» وهى المزارات الرئيسية للشيعة يفدون إليها من أنحاء العالم الإسلامى يتبركون بها . وقبل أن نشير إلى أماكن هذه «العتبات المقدسة» نذكر أولاً أن أضرحة الشيعة فى العراق تنقسم بوجه عام إلى ثلاث مجموعات ، تتعلق المجموعة الأولى باغتيال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، والثانية بموقعة كربلاء التى استشهد فيها الإمام الحسين بن على ، والثالثة تتعلق بالأئمة الذين خلفوا الحسين ، وعلى ذلك فالعتبات المقدسة تشمل :

أولاً : قبر على ويوجد فى النجف[1] . ويعتبر ضريحه من أهم معالم مدينة النجف ويسمى الضريح المقدس ، أو وادى السلام ، أو وادى الإنقاذ ، وله طابقان . والمئذنة محلاة بالذهب حتى الأرض ، وتوصف القبة بأنها هضبة من الذهب ترتفع وسط الصحراء . ويلاحظ أن مدينة النجف نشأت واتسعت حول هذا الضريح وسط صحراء موحشة . وتعرف مدينة النجف باسم النجف الأشرف أو «مشهد على» .

ثانيـاً : قبر الإمام الحسين بن على فى كربلاء ، وهى موقع استشهاد الحسين ، ولذلك سميت باسم «مشهد حسين» ، وهى تقع على بعد خمسة وخمسين ميلاً من جنوب الجنوب الغربى من مدينة بغداد ، وتقع على الضفة اليسرى لقناة الحسينية التى تحيط بها من جانبيها الشمالى والغربى ، وهى محاطة من الشمال والشرق والجنوب بمزارع النخيل والحدائق والفواكه ، وتوجد إلى الغرب منها بادية الشام التى تقترب جداً منها حتى تصل إلى أسوارها . وتعرف الكربلاء أيضاً باسم «الغضارية» وقديماً باسم «نينوى» . والأضرحة الرئيسية فى كربلاء ، هى : ضريح الحسين وضريح العباس أخ الحسين من

(١) تذكر مصادر إسلامية أن علياً دفن فى الكوفة ولم يدفن فى النجف ، بينما تقرر مصادر أخرى العكس وتقول إنه لايوجد فى مسجد الكوفة الكبير سوى المكان الذى جرح فيه على جرحاً أودى بحياته ، على الرغم من أن جرحه لم يكن بالغاً ، ولكن السيف كان مسموماً .

أبيه . ويوجد ضريح الحسين ، ويسمى «بركة حضرة حسين» فى اتجاه الطرف الغربى لكربلاء ، وهو مؤلف من مبنى كبير يقال له الصحن ، وله سبعة مداخل . وتحيط بالصحن خمس وثلاثون غرفة كبيرة ، ويقع الحرم فى وسط الصحن ، وهو عبارة عن مبنى مسقوف عليه قبة مرتفعة مذهبة ، وعند كل نهاية من نهايتيها مئذنة عالية جداً تواجه المدخل الرئيسى للصحن . وترتفع من زاوية الصحن مئذنة أضخم من هاتين المئذنتين ، ولكنها أقل رونقاً. ويوجد مقام الحسين وابنه على أكبر فى وسط البناء تحت القبة ، ويحيط بالضريحين غطاء من الحديد الصلب المشبك المطلى بالفضة ، وبداخله غطاء من الخشب ، وكلاهما سداسى الشكل . وتوجد فى إحدى الزوايا قبور اثنين وسبعين شهيداً سقطوا فى معركة كربلاء إلى جانب الحسين (١) . أما ضريح العباس فيقع إلى الشرق من ضريح الحسين على مقربة من وسط المدينة ، وهو يشبه ضريح الحسين إلا أنه أصغر مساحة وقبته من الآجر المنقوش ، ولكن مآذنه مطلية بالذهب .

وتوجد فى كل من هذه الأضرحة خزائن لثروات لاتعرف قيمتها . وفى عام ١٨٠١ قام الوهابيون بنهب خزائن ضريح الحسين ، ولكنها مع ذلك بقيت أغنى من غيرها . وقد بقيت هذه الثروات تحت إشراف دائرة الأوقاف العثمانية ، كما قام نادر شاه بطلاء قباب الأضرحة بالذهب . وتضاء المصابيح فى مآذن الأضرحة كل ليلة ، ولكن أشد المناظر مهابة وجلالاً هو انعكاس ضوء الشمس عند المغيب على المآذن الذهبية التى تتوهج بنور يبهر الأبصار (٢) .

ثالثاً : الكاظمية وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربى لمدينة بغداد ، وكانت تتصل ببغداد عن طريق الترام الذى تجره الخيول ، وقد أنشأه مدحت باشا والى بغداد عام ١٨٧٠ ، وهى تعد ضاحية من الضواحى الهامة لبغداد . ويعتبر ضريحا الإمام السابع والإمام التاسع من أئمة الشيعة من المعالم الرئيسية لمدينة الكاظمية ، وهما الإمام موسى ابن جعفر وحفيده الإمام محمد بن على . ولكن المدينة حملت اسمها نسبة لاسم الإمام السابع موسى الكاظم . ويلاحظ أن الزوار الشيعة كانوا يتركون حيوانات ركوبهم فى الكاظمية قبل ذهابهم إلى كربلاء ، ولايسمح للمسيحيين بدخول فناء المكان المقدس المحاط بأسوار مرتفعة . والمبنى فى شكله عبارة عن مكعبين كل منهما محاط بقبة ، وحول كل مبنى أربع مآذن ترتفع من زوايا البناء . وقام نصر الدين ؛ شاه فارس ، سنة ١٨٨٤ بطلاء القبتين وزخرفة المئذنتين بالذهب تشبهاً بما عمله نادر شاه فى مدينة كربلاء، وقد أوقفت أموال كبيرة لصالح هذا المبنى.

---

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافى ، ج٣ ، ص ص١٠٢٩-١٢١٢ .
(٢) المرجع السابق ، القسم نفسه والجزء نفسه ، ص١٢١٢ .

وتدير أملاكه دائرة الأوقاف العثمانية وهى تقوم بدفع المرتبات والنفقات والمساعدات . وبلغ عدد سكان الكاظمية الدائمين ٨,٠٠٠ نسمة منهم حوالى ٧,٠٠٠ من الشيعة وحوالى ألف من الفرس ، ٢٠٠ من الهنود الشيعة و٥٠ من رعايا الروسيا من سلالة فارسية ، وجدير بالذكر أن اللغة الفارسية واسعة الانتشار فى «العتبات المقدسة» حيث يفهمها عامة الناس تقريباً .

إدارة أضرحة العتبات المقدسة :

كانت دائرة الأوقاف العثمانية تقوم بإدارة شئون الأضرحة ، وتعين الحراس والخدم وتدفع مرتباتهم . وكان يوجد فى كل ضريح من الأضرحة الرئيسية -مثل : ضريح على فى النجف ، والحسين وعباس فى كربلاء ، وضريح الكاظمين فى الكاظمية ، وأضرحة الأئمة الشيعة المدفونين فى سامراء -حارس يسمى «كلدار» أى حامل المفاتيح ، ورئيس للخدم يطلق عليه «سرخدمة» وعدد آخر من الخدم . ويقال إن الحرس والخدم فى سامراء كانوا من أهل السنة ، ويعتبر «كلدار» النجف من أغنى رجال العراق . ويبلغ عدد الخدم الذين تدفع لهم مرتبات فى كل ضريح من أضرحة النجف وكربلاء والكاظمية خمسة عشر ، كما يوجد أيضاً ٩٥ خادماً فى كربلاء و٢٥٠ فى النجف و٣٠ فى سامراء . وعلى الرغم من أنه كانت لاتدفع لهم مرتبات إلا أنه معترف بوجودهم رسمياً [1] .

وكانت دائرة الأوقاف مسئولة عن الإيرادات المالية للأضرحة ، التى يأتى جزء منها عن طريق الهبات الكبيرة على شكل أراض ومنازل وحوانيت ، وجزء منها عن طريق التبرعات الخاصة ، وتتكون مالية الأضرحة أيضاً من الكنوز الموجودة بها والتى يتكون الجزء الأعظم منها من المجوهرات . وتوجد هذه الكنوز فى عهدة موظفين من الدائرة يقومون بفحصها ومراجعتها على فترات ، ولايعرف الأغراب شيئاً عن عددها أو قيمتها ، ويحتفظ الحراس بسجلات للهبات تشرف عليها دائرة الأوقاف . وكانت الحكومة الفارسية تسهم فى عمليات التمويل المالى لعمليات الصيانة والإنارة فى «العتبات المقدسة» ، فكانت تقدم منحة قدرها ثلاثة آلاف تومان لحراس كربلاء لإنارة الأضرحة ، ومنحة أخرى قدرها ألفان من التومانات لحراس النجف لصيانة ضريح على ، ومنحة ثالثة قدرها ١٢٥٠ توماناً لحراس الكاظمية .

تدفق شيعة فارس على العتبات المقدسة :

وكان عدد الزوار الشيعة يتراوح فى السنة بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألف زائر بما فيها الرجال والنساء والأطفال . ومع ذلك فإن عدد الزوار لم يكن ثابتاً . كان يتزايد أ

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج٦ ، ص٣٣٧٥ .

يتناقص من عام لآخر . ففى بعض السنوات كانت تقفز أعدادهم قفزات كبيرة . وعلى سبيل المثال بلغ عدد الزوار الشيعة الذين دخلوا العراق عام ١٨٨٩ من جميع الجهات ٢٣,٩٩٠ زائراً ، وفقاً للإحصائيات الرسمية العثمانية ، ثم قفز عددهم فى العام التالى (١٨٩٠) إلى ٥٧,٥٦٧[١].

وكان شيعة الفرس هم أكثر الزوار عدداً ، يليهم الهنود الذين يصلون بحراً إلى البصرة ، بالمئات بل بالألوف مع من ينضم إليها من شيعة الأفغان والتبت ، فضلاً عن سكان بنجاب ولاهور وكشمير وغيرها . وقد خصص لإقامتهم فى البصرة خانات ، وهم يتدفقون عادة بين شهرى أكتوبر - تشرين أول ، ومارس - آذار - قبل حلول شهور الصيف الحارة . وكان الممثلون البريطانيون السياسيون فى العراق يؤدون الخدمات التى يحتاج إليها الزائرون الهنود باعتبارها رعايا بريطانيين . وكان من بين الذين يأتون سنوياً إلى البصرة مع الهنود أعداد كبيرة منهم تنتمى إلى طائفة البهرة .

ويبلغ متوسط المدة التى يقضيها الزوار فى العراق حوالى شهرين . ويتراوح ماينفقه أفقر هؤلاء فى هذه الفترة مابين ستين ومائة روبية ، بينما يبسط الأغنياء أيديهم فى الإنفاق للعناية بأنفسهم وخيولهم أو لشراء سلع عادية وأشياء مقدسة أو لتقديم هبات للأضرحة أو هدايا للموظفين والأدلاء والخدم .

وليس هناك وقت محدد من السنة لزيارة «العتبات المقدسة» ، ولكن يختار الشيعة عادة الأوقات ذات الطقس البارد للقيام بها لتخفيف أعباء الرحلة عنهم . ويركب الزوار الأثرياء المسافرون عن طريق البر الخيول أو يحملون على هوادج ، بينما تحمل النساء والأطفال فيما يشبه السلال على ظهور الخيل . ويقوم بإرشاد كل جماعة من الزوار شاويش أو مرشد، يحمل علماً أحمر أو أخضر مكتوبة عليه آية قرآنية أو أسماء الأئمة ، ويسبقه حصان تتدلى منه أجراس ذات أنغام [٢] .

ويقوم الزوار القادمون عن طريق البر من الحدود الفارسية بزيارة الكاظمية أولاً ، ثم يستأنفون رحلتهم بالعربات التى تجرها الخيول إلى كربلاء والنجف . ويسلك هذا الطريق أيضاً معظم الزوار القادمين من الخليج العربى، فيأخذون سفناً من البصرة إلى بغداد . ويسافر بعض الزوار القادمين عن طريق البحر من البصرة ويصعدون فى نهر الفرات ويصلون إلى الكوفة ويزورون النجف قبل دخولهم كربلاء ، ويزور جميع الزوار أو غالبيتهم العظمى كربلاء والنجف والكاظمية . ويذهب حوالى ربعهم إلى سامراء ، وهم أولئك الذين يبدأون رحلتهم

---

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج٦ ، ص٢٣٧٨ .
(٢) المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج٦ ، ص٢٣٧٧ .

بالعربات من الكاظمية ، ثم يسلكون طريقاً يسير غرب دجلة يوصلهم إلى مكان مقابل لسامراء[١]، حيث توجد بها مدافن لأحد عشر إماماً من أئمة الشيعة ؛ ولذلك تعد المدينة مزاراً للوافدين الشيعة ، وبها وكيل قنصل لحكومة فارس يرعى شئون الزائرين الفرس .

وعندما يصل الزائر إلى أحد الأضرحة الكبرى فى «العتبات المقدسة».. فإنه يطهر نفسه أولاً بوضوء معين ، ثم يدخل صحن الضريح بإرشاد أحد الموظفين . وعند عتبة الضريح يطلب الزائر من صاحب المقام السماح له بالدخول ، وعندما يدخل يردد بعض الصلوات ثم يدور حول القبر ثلاث مرات مقبلاً السور الذى حوله ، وفى النهاية يركع أمامه مرتين . أما الزائر الثرى الراغب فى الحصول على ميزات أكثر ، فيعهد إلى عدد من المقرئين بتلاوة القرآن الكريم ثم سرد قصة استشهاد الحسين . ثم يقوم هذا الزائر بتوزيع الصدقات على الفقراء وتقديم العطايا من النقود والمجوهرات إلى الضريح . ويتزود الزوار –وبخاصة فى كربلاء– بالمسابح وبأقراص من «التربة» أو التراب المقدس يضعونها تحت رءوسهم عند الركوع فى الصلاة . وكذلك يتزودون بأكفنة مطبوع عليها آيات قرآنية لاستخدامهم أو لاستخدام أقاربهم أو أصدقائهم ، وتطلق كلمة «الزيارة» على عملية السفر إلى العتبات المقدسة وزيارة الأضرحة . ويحق للزائر بعد إتمامها أن يطلق على نفسه «كربلائى» .

شيعة فارس يصحبون معهم جثث أقاربهم لدفنها فى العتبات المقدسة :

كان شيعة فارس بوجه خاص يصحبون معهم إلى العراق جثث ذويهم ، الذين أوصوا بأن يدفنوا فى أرض مقدسة بإحدى العتبات المقدسة . وكانت هذه أمنية كل شيعى اعتقاداً منه بأنه سوف يحظى يوم الحساب بحماية الإمام الذى جاوره فى قبره ، ومن ثم يدخل الجنة . وكانت جثث الموتى الشيعة فى فارس توضع داخل غرفة أو قبة من الطوب حتى يحين موعد سفر أو صيائهم أو ذويهم إلى العراق لزيارة «العتبات المقدسة»، فيأخذون الجثث معهم لدفنها هناك . وكانوا يسافرون بطريق القوافل ويضعون الجثث فى توابيت خشبية مغطاة بطبقة سميكة من الصوف . وعند وصول الجثة أو بقاياها إلى المكان المعد لدفنها فيه .. كانت تجرى عملية الغسل مرة أخرى استجلاباً للبركة ، وكانت عملية الغسل بالغة الخطورة على الصحة العامة ؛ إذ كانت تتسبب فى انتشار الأوبئة فى العراق خاصة فى منطقة النجف[٢] . وكانت السلطات العثمانية فى العراق تتقاضى شتى الرسوم تحت مختلف الأسماء ، سواء عند اجتياز الزوار

(١) تقع سامراء على الضفة اليمنى لنهر دجلة . وقد أسسها الخليفة العباسى المعتصم الذى اتخذها مركزاً للخلافة العباسية عام ٨٣٦م وظلت على هذا الوضع حتى عام ٨٩٢م . وكان الاسم الأصلى الآرامى للمدينة هو سامر ، الذى تغير رسمياً إلى اسم «سر من رأى» ولكنه يكتب الآن وينطق سامراء . .

(٢) فى المفاوضات التى دارت بين الجانب العثمانى والجانب الفارسى فى أثناء زيارة شاه فارس للعتبات المقدسة عام ١٨٧٠ ، أثار الجانب العثمانى موضوع نقل رفات شيعة فارس إلى العراق لدفنها فى=

الحدود العراقية أو على رفات الموتى أو دفنهم ، وكانت القنصلية العثمانية فى كرمان شاه فى فارس تمنح الزوار تأشيرة دخول العراق بعد دفع عشرين قرشاً من الذهب ؛ أى مايساوى ثلاثة شلنات وسبعة بنسات عن كل زائر ، وكانت هذه القنصلية تصدر تصاريح بمرور جثث الفرس المطلوب دفنها فى العراق ، بعد دفع تسعة شلنات عن كل جثة . واكتشفت السلطات العثمانية أن بعض الزوار كانوا يضعون جثتين فى تابوت واحد كوسيلة للتهرب من دفع رسوم على إحدى الجثتين ، ولذلك عمدت السلطات العثمانية إلى فتح التوابيت ، للتأكد من أن كل تابوت لايحوى إلا رفاتاً واحداً . وكانت رسوم الدفن تتراوح بين أربعين جنيهاً إسترلينياً وعشرين جنيهاً وأربعة جنيها وجنيهين ، وجنيه ، وبضعة شلنات تبعاً للمكان الخاص بالدفن [١] ، وكانت أعلى أسعار الدفن فى منطقة النجف ثم كربلاء ثم الكاظمية ثم سامراء . وقد بلغ عدد جثث الشيعة الفرس التى دخلت العراق عام ١٨٨٩ ودفنت فى «العتبات المقدسة» ٥٦٢٠، ثم قفز عددها فى سنة ١٨٩٠ إلى ٩٧٥٤ جثة [٢] .

"الهنود المتقاعدون" في العتبات المقدسة :

وكانت توجد فى «العتبات المقدسة» أعداد وفيرة من الهنود الشيعة ، اطمأنوا إلى قضاء حياتهم فيها على مقربة من مقابر الإمامين على والحسين وغيرهما . وقد تركزت إقامتهم فى النجف وكربلاء[٣] وعرفوا باسم «الهنود المتقاعدون» ، وقد تراوح عددهم بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف هندى ، وكانوا يتمتعون بحماية بريطانيا لهم على أساس أنهم رعايا بريطانيون . وكان لبريطانيا ممثلون سياسيون فى النجف وكربلاء والكاظمية ، وكانوا من المسلمين الهنود[٤]، يرعون مصالح المتقاعدين من الشيعة الهنود .

= «العتبات المقدسة» . وقد طالب الجانب العثمانى بألا يتم نقل رفات الموتى من فارس إلا بعد انقضاء ثلاث سنوات على الوفاة منعاً لانتشار الأوبئة فى العراق ، وقد أجيب الجانب العثمانى إلى طلبه .

(١) كان المكان المخصص للدفن فى كل منطقة من مناطق «العتبات المقدسة» هو الرواق أو إيوان الذهب ، أو حجرة الصحن . والمقابر الرئيسية فى العراق الخارجة عن أروقة الأجنحة ، والتى يتم فيها الدفن أيضاً هى كالتالى من حيث الأهمية : وادى السلام فى النجف ، ووادى الإيمان فى كربلاء ، ومقابر القريش فى الكاظمية ، وترمة فى سامراء .

(٢) المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج٦ ، ٣٣٨٣ .

(٣) أما الجالية الهندية فى بغداد فكان أعضاؤها يختلفون عن هنود «العتبات المقدسة» . كان هنود بغداد بمثابة لاجئين كرهو الحياة تحت حكم الإنجليز المسيحيين فى الهند واستقروا فى بغداد بصفتها أقرب ملاذ لهم فى دار الإسلام . وكانوا من أهل السنة يتفقون مذهبياً مع أهل بغداد ، وقد سمحت لهم السلطات البريطانية فى الهند بأن يحصلوا على إيراد أراضيهم فى الهند .

(٤) نذكر من هؤلاء الممثلين السياسيين : محمد تقى خان فى كربلاء ، ومحمد حسن خان فى الكاظمية .

وصية ملك أوض[1] oude فى الهند :

وكانوا يحصلون على أنصبتهم من وصية ملك أوض ، وكان قد توفى بها عام ١٨٤٩ كان قد عقد اتفاقية قبل وفاته مع حكومة الهند ، وقصر توزيع حصيلة الوصية على الشيعة الهنود ثم الفرس ثم العراقيين فى العتبات المقدسة ، وخص العاكفين على الدراسات المذهبية الشيعية فيها بنصيب متميز . وكانت حصيلة الوصية تشكل مبلغاً ضخماً ؛ إذ بلغت أول الأمر حوالى ٧٣٣٤ روبية كل شهر أى مايوازى ٧٥٠ جنيهاً إسترلينياً حسب سعر التبادل فى ذلك الوقت ، وهى مبلغ كبير بالنسبة إلى قيمة النقد وقوته الشرائية وقتذاك . ثم ازدادت حصيلة هذه الوصية نتيجة ضمائم أخرى من عقارات ملك أوض الراحل ، وكانت ضخامة هذه الوصية تضفى عليها أهمية سياسية كبيرة ؛ إذ نشأ تخوف من أن تؤدى هذه الأموال الضخمة إلى سخط الباب العالى والسلطات العثمانية فى العراق ؛ لأن الدولة العثمانية كانت سنية المذهب ، وأن يؤدى هذا السخط بدوره إلى تصاعد التوتر بين الشيعة وأهل السنة ، كما أن الوكالة السياسية البريطانية – من حيث هى ممثلة حكومة الهند فى العراق – هى التى يتم عن طريقها التوزيع، فأصبح فى يدها سلاح خطير ، وانزعجت السلطات العثمانية لتصاعد النفوذ البريطانى فى العراق فى مجال جديد هو شيعة «العتبات المقدسة»[2] . ولذلك نبهت حكومة الهند على الوكيل السياسى البريطانى فى العراق ، تجنباً لإثارة المشكلات السياسية ، أن يوزع تلك الأموال بروح الحكمة والحصافة ... وبمرور الزمن ظهرت مشكلات وارتباطات خطيرة فى توزيع أموال الوصية ، أسهم فيها عدم وضوح النص الأصلى للوصية التى وقعها ملك أوض . وصدرت التنبيهات بأن ينال الشيعة الهنود فى كربلاء والنجف والكاظمية نصيبهم كاملاً فى وصية أوض، واشتبكت هذه الإجراءات اشتباكاً مخلاً بأعمال بعض التجار الهنود فى العراق وبإجراءات حماية مصالح الهند البريطانية فى «العتبات المقدسة» .

(١) تكتب هذه اللفظة فى بعض المراجع العربية «أوده» .

(٢) فى الواقع نجحت الحكومة البريطانية فى إقامة علاقات مع جماعة «الإخوان المجتهدين» فى كربلاء والنجف من خلال وصية أوض . وكان بعضهم يتدخل فى توزيعها ، وكان الإخوان المجتهدون وهم من غلاة الشيعة عنصراً قوياً من عناصر الحياة السياسية والدينية فى «العتبات المقدسة» ، وظلوا فترات طويلة يتمتعون بهذا الوضع . وكانت أقوالهم وآراؤهم تظفر بالتقدير العميق من الجماهير . وكانوا يضمرون العداوة والبغضاء للمسيحيين ، وفى الوقت ذاته يتدخلون فى الشئون الداخلية لحكومة فارس . وكان السفير البريطانى فى فارس يرجو أن يتحالف «الإخوان المجتهدون» مع الحكومة البريطانية لصد النفوذ الروسى فى فارس ، ولكنهم رفضوا أن يدخلوا فى علاقات ودية وثيقة مع ممثل الحكومة البريطانية . ومع ذلك نجحت السلطات الفارسية فى إيغار صدر الباب العالى على المجتهدين ، واعتبرتهم عنصراً مشاغباً خطيراً ينشئون علاقات ودية بدولة أوروبية ، وكان من جراء هذه الخطة أن نفذ العثمانيون خطة القمع للإخوان المجتهدين فى عام ١٩٠٤ .

انظر :

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٥٥٥ و ج٤ ، ص ص٢٢٨٣–٢٢٨٥ .

ولما أصبح صرف تلك الأموال ، على الرغم من التحفظات الموضوعة لصالح الهنود ، بأيدى مجتهدى كربلاء والنجف أسيء صرفها أو بددت . وفى سنة ١٨٦٦ أثار «نواب إقبال الدولة» ، وهو نبيل هندى من المشتغلين بالحياة العامة ومن عائلة أوض ويقيم فى بغداد ، مشكلة إصلاح هذا الاضطراب والعبث فى توزيع أموال الوصية . وفى سنة ١٨٦٧ أوصى الوكيل السياسى . بعد التشاور مع «نواب إقبال الدولة» بأن تصرف مستقبلاً حصيلة الوصية على مجتهدى الهنود فقط ، ويتم توزيعها عن طريق لجنة من وجهاء الهنود فى المنطقة بإشراف الوكيل السياسى ، ولكن رفضت حكومة الهند هذا الاقتراح استناداً إلى نص الاتفاقية كما فهمته وفسرته آنذاك .

وعرضت السلطات البريطانية حلاً لهذه المشكلة أن يسافر اثنان من علماء النجف إلى بمباى على فترات زمنية متقاربة لتسلم أموال الوصية والقيام بتوزيعها على مستحقيها ، ولكن ظلت مشكلة وقف ملك أوض دون حسم ، وكثر تردد الشيعة بين العراق والهند فى محاولات مكثفة لإيجاد حل يرضى عنه جميع الأطراف . ومات «نواب إقبال الدولة» فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر – كانون أول – عام ١٨٨٧ ، والموضوع تتجاذبه تيارات متعارضة. وقد استغرق هذا الموضوع مكاتبات عديدة ضافية بين حكومة الهند والمقيم البريطانى فى العراق والممثلين السياسيين لبريطانيا فى «العتبات المقدسة» والسفير البريطانى فى إستانبول وحكومتى الدولة العثمانية وبريطانيا وزعماء الشيعة فى «العتبات المقدسة» . وكان واضحاً حرص الحكومة البريطانية – على مختلف المستويات – على حماية مصالح الشيعة الهنود فى «العتبات المقدسة» وكفالة الأمن والاستقرار لهم والطمأنينة على حصولهم على أنصبتهم كاملة من وصية ملك أوض(١) .

زيارات الهنود السنيين للعراق :

وكان العراق يستقبل أيضاً زواراً من أهل السنة يأتون من الهند بوجه خاص لزيارة قبرى الإمام أبى حنيفة وعبدالقادر الجيلانى فى بغداد (٢) ، وكانت أعدادهم أقل من أعداد

---

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص ص٤٢١-٤٢٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٧ ، ٤٧٣ ، ٤٨٧، ٥١٠ ، ٥٥٥ ، ج٤ ، ص ص٢٠٧٥-٢٠٨٣ ، ٢١٨٧ ، ٢٣٤٤-٢٣٥١ ، ٢٣٥٣-٢٣٨٠ .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 75.

ويعتبر جامع الشيخ عبدالقادر وضريحه اللذان وصفا على سبيل التكريم بأنهما «جناب غوث الأعظم والمستجير» ليس فقط من معالم بغداد الرئيسية ، بل هما أيضاً مركز دينى هام يزوره المسلمون السنيون من أنحاء العالم ؛ وخاصة الأفغان والهنود ، والفقراء والنزلاء الذين لايستطيعون تكاليف الإقامة ويعتمدون فى المعيشة على البقاء بالقرب من الضريح . وكان حوالى أربعة آلاف رغيف توزع يومياً من مطبخ «بيره المستجير» ، وكان دخل الضريح من الهبات والأوقاف الدينية يبلغ زهاء ١٢,٠٠٠ ليرة تركية فى العام .

انظر : المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج٦ ، ص٣٣٩٢ .

الزائرين الشيعة ، ولكنهم كانوا يفدون بصورة مستمرة طوال العام .

وكانت هذه السياحة الدينية – بنوعيها الشيعية والسنية – من العوامل التى أسهمت مع غيرها فى انفتاح العراق على العالم الإسلامى الخارجي ؛ فلم يتعرض لعزلة خارجية فضلاً عن انتعاش الحياة الاقتصادية بما كان ينفقه الزوار من أموال ، وبما كانوا يجلبونه معهم من بضائع مثل السجاد الفارسى وقد ازدهرت تجارته فى العراق ، كما كانوا يقومون بشراء مقادير كبيرة من الشاى والسكر والملابس الصوفية ؛ لأن أعداداً كبيرة منهم كانت تأتى من أقطار باردة الطقس ، وأنشئت بالمناطق المجاورة للعتبات المقدسة مجموعات كبيرة من الخانات والمحلات التجارية .. كل ذلك بالإضافة إلى الضرائب ، التى كانت تفرضها السلطات العراقية على الزوار وعلى رفات الموتى .

إن الدولة العثمانية – وهى الدولة السنية والمدافعة عن المذهب السنى فى العالم الإسلامى– قد يسرت السبل أمام شيعة فارس والهند وأفغانستان وغيرهم لزيارة «العتبات المقدسة» فى العراق ، وكانت فى تصرفاتها مثالاً يحتذى فى الترفع عن سياسة التعصب الدينى المذهبى . وقد يرى البعض أن الدافع لها على انتهاج سياسة التسامح هو رغبتها فى الحصول على الإيرادات ، التى تأتى عن طريق زيارة الشيعة للمزارات المقدسة . ولكن لم تكن تشكل هذه الإيرادات دخلاً كبيراً للحكومة .. فقد قدر دخلها فى عام ١٨٨٩ بمبلغ ٤٨٠٧ من الجنيهات الإنجليزية ، وبلغ هذا الدخل فى السنة التالية (١٨٩٠) ٩٢٣٤ جنيهاً إنجليزياً . وكان فى مقدور السلطات العثمانية فى العراق الاستعاضة عن مثل هذه المبالغ بتدبير موارد مالية أخرى لخزانة الحكومة .

ثالثاً : التنوع البشرى والدينى فى العراق :

كان العراق يموج بتنوع بشري وديني ، وإن كان أقل عنفاً من مثيله فى بر الشام .. ففيه العصبيات الكردية ، والعشائر العربية ، وأهل السنة وأهل الشيعة ، والعداء المذهبى مستحكم بين أفراد هاتين الطائفتين .. والأكراد منقسمون : منهم من يعتنق المذهب السنى ، ومنهم من ينتمى إلى المذهب الشيعى . وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان يوجد أتراك عثمانيون ، ومسيحيون منتشرون فى طول البلاد وعرضها ، وكذلك يهود ، ولم يكن المسيحيون فى العراق على مذهب دينى واحد ، ففيهم الكاثوليك ، وفيهم البروتستانت . وكانت الموصل من أهم معاقل المسيحية فى العراق ، وكان للمسيحيين فيها ثلاث عشرة كنيسة .

وكان من أهم الطوائف المسيحية فى العراق النساطرة واليعاقبة والأرمن . كان معظم المسيحيين فى العراق من النساطرة، واتخذ بطريرك النساطرة الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكى من بغداد مقراً له .. وكان يتسلم براءة تعيينه فى منصبه من باب روما مباشرة . أما اليعاقبة ،

فقد تحولت جماعات منهم إلى الكاثوليكية وعرفوا باسم السوريان وظل الباقون على مذهبهم . وكانت الموصل مقراً لكرسيهم البطريركى ، وكانت تقيم فى بغداد ستون أسرة من الكاثوليك المنتمين لكنيسة روما ، وكان أفرادها يترددون على البصرة لممارسة عمليات تجارية واسعة فيها ، وأنشأوا بها مستشفى الآباء الكرمليين وألحقوه بالكنسية الكاثوليكية . أما بطريركية الأرمن الكاثوليك فمقرها لبنان ، وكان يوجد أيضاً فى بغداد مسيحيون كلدان وكانوا أصلاً من أتباع المذهب النسطورى ثم خرجوا عليه . وكانت لغتهم اللغة الكلدية ، وكانوا يمارسون طقوسهم الدينية بها ، وانتشر الأرمن فى شمالى العراق ووسطه وجنوبيه على السواء فى كركوك ، وأربيل ، والموصل ، وماردين ، وبغداد والبصرة ، وكانوا يتكلمون العربية والتركية والفارسية . وكان بعضهم يتحدث بالإنجليزية والبرتغالية والهندية ؛ مما أكسبهم ميزات هامة أفادتهم فى نشاطهم التجارى ، كما اشتغلوا أعواناً للمقيم البريطانى فى بغداد وهو لكوديوس چيمس ريتش Claudius James Rich (١٨٠٨-١٨٢١) ، وقد عين منهم موظفين له ، واتخذ هذا المقيم الإنجليزى من الأسقف الأرمنى فى ماردين وكيلاً له فى هذه البلدة . وكان يوجد أيضاً فى العراق اللاتين الكاثوليك .

نشاط البعثات التنصيرية فى العراق :

وفى ظل الامتيازات الأجنبية ، وفدت إلى العراق جماعات من المنتصرين وازداد نشاطها بوجه خاص فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ووجد عداء دينى مذهبى مستحكم بين المنصرين الكاثوليك وأقرانهم البروتستانت .. كانت توجد بعثات تنصيرية من الكاثوليك الفرنسيين فى بغداد والبصرة ومن الدومينيكيين الإيطاليين فى الموصل والكبوشيين فى الموصل أيضاً ، وعملت هذه الجماعات على تحويل أكبر عدد ممكن من مسيحيى العراق إلى المذهب الكاثوليكى ، وأحرزت انتصارات مذهبية كبيرة ؛ خاصة على عهد حكومة المماليك (١٧٤٩-١٨٣١) ؛ إذ دخلت فى الكاثوليكية أعداد لايستهان بها من النساطرة واليعاقبة والأرمن. وبرز فى هذا الميدان تريوش Trioch المنصر الفرنسى ، وكان من الخبراء الفرنسيين فى شئون العراق ، وتولى منصب قنصل فرنسا فى العراق ، وعين رئيس أساقفة وعنى بالبعثة الكرملية فى البصرة ، وكان أول رئيس أساقفة فى العراق ، واهتم بالسيطرة على الكلدان ، فقد كان من المعتاد أن ينتخب المطران الكلدى من بين القسيسين الكلدان فى العراق ، وأراد تريوش أن يجعل تولية المطران بمعرفة بابا روما ، وبذلك يبسط عليهم النفوذ البابوى ويقيم سداً منيعاً دون تسرب البروتستانتية إليهم (١) ، وخيل للمراقبين فى ذلك الوقت أن الكاثوليك بحماية فرنسا سيبتلعون مسيحيى العراق .

(١) انظر تفاصيل الخطوات التى اتخذها تريوش لتحقيق غرضه فى :
دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٠٣-٢٠٤ .

والحق أن وكلاء فرنسا السياسيين فى بغداد ، والبصرة ، والموصل اهتموا بنشر المذهب الكاثوليكى فى العراق اهتماماً فاق اهتمامهم بخدمة المصالح السياسية لفرنسا فى هذا الإقليم ، بل كانوا يعتقدون أن المصالح التنصيرية والسياسية مرتبط بعضها ببعض بعروة وثقى ، لاانفصام لها . وتنبهت الحكومة البريطانية لخطورة النشاط الفرنسى فى التنصير الكاثوليكى . وكان المنصرون الإنجليز – إلى جانب القناصل والسلطات البريطانية بصفة عامة فى العراق– لحكومتهم وسائل تفادى هذا الخطر المحتمل ، فاقترحوا أن توثق بريطانيا علاقات الصداقة والثقة مع مسيحيى العراق . وكان المنصرون الإنجليز ومعهم القناصل يعتقدون أن كل موظف فرنسى علمانى هو فى ذات الوقت منصر كاثوليكى ، وأن جميع البعثات التنصيرية الكاثوليكية تتمتع بالحماية الفرنسية ، وأنه عندما تنهار الدولة العثمانية ستجد فرنسا فى مسيحيى العراق الكاثوليك ركيزة سياسية ودينية ، تساعدها على بسط سيطرتها على أكبر رقعة من ممتلكات الدولة العثمانية . وقد برز فى ميدان التنصير البروتستانتى جروڤز Groves A.N. وهو أول منصر بروتستانتى إنجليزى ، وقد وصل إلى العراق عام ١٨٢٩ ، ووجد من السلطات العثمانية الحاكمة فى العراق تسامحاً دينياً ؛ إذ سمحت له بفتح مدرسة لتعليم الإنجليزية والعربية ، وكان يقوم هو بالتدريس فيها ، واتخذ من التعليم وسيلة للدعوة البروتستانتية ، كما سمحت له ببيع الإنجليل ، وعقد اجتماعات دينية فى حرية تامة .

وعلى الرغم من هذا التسامح فقد احتضنته المقيمية البريطانية فى بغدد مع أقرانه ، وتعدى نشاطهم حدود بغداد إلى الموصل ، وماردين ، وبوشهر . وإزاء هذا النشاط اعتقد الفرنسيون أن الإنجليز لايسعون إلى احتلال العراق فقط بل ، يتطلعون إلى تحويل سكانه إلى المسيحية . وكان ريتش نفسه يعتقد أن الدين الإسلامى هو العقبة فى إصلاح أمور العراق، وذهب جروڤز فى تفاؤله إلى حد الاعتقاد بأنه من الممكن تحويل عدد كبير من مسلمى الموصل إلى المسيحية . ووصل إلى العراق المنصر الأمريكى البروتستانتى جرانت فى صف ١٨٣٩ ، وفى برنامجه تحويل نساطرة العراق إلى البروتستانتية . ويلاحظ أن النساطرة كانوا لايكنون ولاء للدولة العثمانية ، بل كانوا يتطلعون إلى اليوم الذى تستولى فيه الدولة الأوروبية على ممتلكات الدولة . وكان المنصرون يغذون فى النساطرة الاتجاهات الانفصالية عنها بمقولة إنهم يشكلون كياناً مسيحياً قائماً بذاته ، يجب أن يكون بمنأى عن نفوذ السلطان العثمانى المسلم ، ولاتربطهم به أى رابطة من روابط التبعية . وكانت البعثات التنصيرية الأمريكية تقدم خدمات طبية إلى السكان بجانب العملية التنصيرية ، وفتحت بعض المدارس ، وأحضرت مطبعة طبعت كتباً تعليمية باللغة العربية .

ووجدت مؤسسات دينية مسيحية تعليمية يديرها المنصرون . وكانت رسالتها فى الظاهر تعليم اللغة العربية وإحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية وقلة من المواد الثقافية ، ولكنها كانت

فى لحمتها وسداها مراكز للتنصير ، وكانت لمؤسسات الفرنسية فى البصرة كاثوليكية ، و بها قسم لتعليم البنات اللغة العربية وأشغال الإبرة ، وكان فى هذه المدينة أيضاً دار للكرمليين ، وكانت هذه المؤسسات ذات نفوذ . وكان النفوذ الفرنسى الدينى ظاهراً ملموساً ، بل إن هذا النفوذ الدينى هو الذى تبقى للفرنسيين فى العراق . وعمل الإنجليز على مواجهة النشاط الفرنسى بنشاط على شاكلته . واتفقت المقيمية البريطانية فى بغداد مع جروفز المنصر الإنجليزى على استيراد كتب مطبوعة لتعليم اللغة العربية من مالطة . ولقيت هذه الكتب مقاومة من الكاثوليك . وأرادت إنجلترا أن تتخلص من مشكلة تصدير الكتب العربية إلى العراق ونجح جروفز فى إحضار آلة طباعة ، وقد وصلت هذه المطبعة إلى البصرة عام ١٨٣٠ ، ولكن الحرب التى نشبت بين داود باشا والى بغداد وعلى رضا باشا وإلى حلب الذى تولى مهمة طرد المماليك من العراق لم تسمح بإرسال المطبعة إلى بغداد .

وكان فى العراق الصابئون ، وهم بين النصارى والمجوس ، ويعبدون الكواكب والنجوم[١] . وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى موطنين : سورة البقرة ، «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون»[٢] وسورة الحج «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد» [٣] . ويثير بعض الباحثين ظلالاً من الشك حول الصابئين الموجودين فى العراق إبان الحكم العثمانى ، وهل هم الذين ورد ذكر أجدادهم فى القرآن الكريم . وكان مقرهم فى العصر العثمانى «سوق الشيخ» على نهر الفرات ، والناصرية ، والعمارة ، وقلعة صالح ، وشطرة المنتفك وغيرها ، ويقيم رئيسهم الدينى الذى يطلق عليه «القارىء» عادة فى سوق الشيخ ، ولغتهم العربية ضعيفة ، ويربى الرجال لحاهم حتى تطول ، ولهم مقدرة خاصة على العمل فى الذهب والفضة ، ويعمل معظمهم فى هذه المهنة وفى بناء القوارب وأعمال النجارة ، ونادراً من يعمل منهم فى الزراعة ، والتعميد هو أحد طقوسهم الرئيسية ويدخل الماء فى جميع شعائرهم الهامة . ويحترمون يحيى أو يوحنا المعمدان كنبى ويعتقدون أنه تجسد ، ويعتبرون أن موسى والمسيح عليهما السلام كان معلمين زائفين ، ويعتقدون أن الجنة تقع فى النجم الشمالى . ولهم كتب

---

(١) محمد فريد وجدى : المصحف المفسر ، الطبعة السادسة ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر بمصر، ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م ، ص١٣ ، ص٤٤١ .

سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج١ ، د.ت . ص٤٢ ، حاشية رقم ١ .

(٢) سورة البقرة ، آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة الحج ، آية رقم ١٨ ومعناها : والذين آمنوا واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون سيعرضون على الله يوم القيامة فيحاسبهم على ما اعتقدوا وماعملوا فيفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . إن الله على كل شيء شهيد .

مقدسة خاصة بهم وكتاب آخر للطقوس الدينية ، وليس من عادتهم الختان ، وفى استطاعة الزوج أن يتزوج إذا أثبت أن زوجته الأولى عاقر (١) .

وكان الصابئون مجالاً للتنافس على النفوذ فى العراق بين إنجلترا وفرنسا .. حاولت كلتاهما أن تبسط حمايتها عليهم . وفى منتصف القرن التاسع عشر كان شيخ الصابئين ، واسمه يحيى ، من أنصار إنجلترا .. رحل من العراق إلى الهند ، ثم عاد منها ليوطد صلاته برجال الدين والمنصرين الأنجليكان والكاثوليك ؛ مما أدى إلى حدوث تصدع بين الصابئين إذ انتقدوا مسلكه . وكان على رأسهم الشيخ داموق الذى لجأ إلى الحكام العثمانيين ، وكانوا يعملون فى ذلك الوقت على كبح جماح النفوذ البريطانى المتزايد بين الطوائف ، ورد عليهم الشيخ يحيى بأن خفض رسوم التعميد والزواج وغيرها من الرسوم الدينية ليكتسب شعبية بين أفراد طائفته . ولم تترك أثراً محسوساً المجهودات التى بذلها قسيسو الموصل والرهبان البروتستانت خلال القرن التاسع عشر فى أوساط الصابئين ؛ إذ ظلوا متمسكين بمذهبهم إلى الوقت الحاضر (٢) .

أما اليهود فقد انتشروا فى شتى مدن العراق ، وقد بلغ عددهم فى بغداد فى مطلع القرن التاسع عشر حوالى ٢,٥٠٠ أسرة يهودية تضم زهاء ثمانية آلاف نسمة ، وعددهم فى السليمانية ١,٨٠٠ نسمة ، وفى ماردين حولى ٨٠٠ ، وكانوا فى كل مدينة يعيشون فى أحياء خاصة بهم شأنهم فى ذلك شأن سائر اليهود فى الشرق وأوروبا . ويقال إن أول إصابة بالطاعون ظهرت فى سنة ١٨٣٠ كانت فى حيهم القذر ، وكانوا يشتغلون فى أخطر العمليات التجارية والمصرفية ، وفى الوقت ذاته اشتغل بعضهم فى أحقر الحرف .. كانوا يتحدثون بالعربية ويكتبون بالعبرية . ولم يكونوا فى تصرفاتهم مثالاً للأمانة ، منهم من دبروا المؤامرات السياسية ، ومنهم من تعاونوا مع ريتش المقيم البريطانى فى بغداد فكانوا يقدمون له إحصاءات عن دخل المدن الهامة فى العراق ، ومنهم من عمدوا إلى الغش والتدليس فى مسائل سك النقود ونقل الأموال السائلة خارج العراق ، وكان رئيس طائفة الصرافين يهودياً ، وكانوا تحت الحماية البريطانية .

وشعر يهود العراق أنهم على قدر كبير من الأهمية فى نظر بريطانيا وفرنسا اللتين تنافستا على كسب ودهم واصطناعهم عملاء . وكان فونتانييه Fontanier ممثل فرنسا يسعى فى أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لجمع الأتباع من اليهود وبسط الحماية الفرنسية عليهم ، وكان اليهود يرحبون بأن يكونوا تحت حماية أى دولة أوروبية حتى يحصلوا على مزيد من الامتيازات ، ويكونوا بمنأى عن نفوذ السلطات العثمانية ويظفروا بفرص واسعة للإثراء . أما إنجلترا .. فقد اتخذت منهم عملاء اشتغلوا فى خدمة مصالحها وبخاصة على عهد

---

(١) لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافى ، ج٦ ، ص ص٢٠٦٣-٢٠٦٤ .
(٢) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣١٨-٣٢٠ .

ريتش Rich القنصل البريطانى فى بغداد ، واتجه اهتمام إنجلترا باليهود إلى ميدان جديد هو تنصيرهم على المذهب البروتستانتى . وأخذت الجمعيات التنصيرية ترسل منصرين إلى يهود العراق ، وأسندت أول الأمر إلى منصر إنجليزى بروتستانتى يدعى صمويل Samuel مهمة تحويل اليهود إلى المسيحية ، وقدم إلى البصرة سنة ١٨٣٦ ، وخاض مجادلات مع كبار رجال الدين اليهود فى المعبد اليهودى لم تسفر عن ازدياد تمسكهم بعقيدتهم فحسب ، بل أمعنوا فى السخرية به إمعاناً بلغ حد إيذائه ، فترك البصرة على كره منه إلى بغداد حيث لقى أذى من اليهود فاق الضرر الذى أصابه فى البصرة . وكان يتجول فى شوارع بغداد ويوزع كتبه المسيحية . وثارت ثائرة المسلمين إذ اعتقدوا أن هدف حكومته الإنجليزية من إيفاده إلى العراق هو احتلال البلاد وتحويل جميع السكان إلى المسيحية ، وكان مما قوى هذا الاعتقاد وجود بعثة شيزنى فى ذلك الوقت فى نهر دجلة ، ثم النشاط المحموم الذى أبداه هذا المنصر الإنجليزى واجتمعت عليه نقمة المسلمين واليهود يبيتون خطة لاغتياله .. فقرر إخراجه من بغداد إلى البصرة على أن يغادر العراق سريعاً ، وتولى مهمة تحويل اليهود إلى المسيحية بعد صمويل عدد من البولنديين كانوا قد تحولوا من اليهودية إلى المسيحية . وباشروا عملهم التنصيرى بطبيعة الحال تحت حماية الإنجليز ، وتكونت جمعية تشرف على عمليات تنصير اليهود، وأطلق عليها Society of the Conversion of the Jews أى جمعية هداية اليهود إلى المسيحية ، وأحرزت نجاحاً جعل بعض المنصرين يعتقدون أنه فى الاستطاعة تحويل المعبد اليهودى فى بغداد إلى كنيسة (١) .

سؤال يفرض نفسه فرضاً :

وهناك سؤال يفرض نفسه فرضاً فى هذا الصدد ، وهو ، لماذا لم تشهد مصر هذا النشاط التنصيرى العريض والمكثف كما شهدته بلاد الشام والعراق ؟ وتتلخص الإجابة عن هذا السؤال فى أن الأزهر الشريف وقف سداً منيعاً فى وجه هذا النشاط ؛ فالأزهر كان ولايزال قلعة الإسلام والقبلة العلمية للمسلمين ، كما كان ولايزال أيضاً حصناً للغة العربية حافظ عليها طوال الحكم العثمانى . يضاف إلى ذلك أن مصر كانت خالية من التنوع البشرى والدينى واللغوى ، الذى كان من أبرز سمات تاريخ الشام والعراق .. فلم يكن أمام المنصرين الأوروبيين مجال رحيب للتسلل إلى أوساط المجتمع فى مصر لممارسة نشاطهم التنصيرى ، وكان سكان مصر يتألفون من المسلمين والأقباط الأرثوذكس واليهود ، يتكلمون اللغة العربية . وكانت الجبهة الداخلية متماسكة هادئة تربط عناصرها الثلاثة صلات من الوئام والتعايش السلمى . كانت هجرة الأوروبيين إلى مصر قد زادت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ونشطت فى خلال

---

(١) المرجع السابق ، ص ص٣١٦-٣١٨ .

هذه الفترة حركة قدوم البعثات التنصيرية من كاثوليكية وبروتستانتية ، ومن فرنسية وإيطالية وإنجليزية وأمريكية وألمانية ، واهتمت بتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى المذهب الكاثوليكى أو المذهب البروتستانتى ونشر المسيحية بين مسلمى مصر . ولكنها لم تصادف إلا نجاحاً محدوداً فى المجال القبطى ، لأن الأقباط - شأنهم فى ذلك شأن المسلمين - كانوا محافظين ومتعصبين. فلم يرض معظمهم عن مذهبهم الأرثوذكسى بديلاً . حقيقة .. التحق عدد كبير من الأقباط بالمدارس ، التى أنشأتها البعثات التنصيرية ؛ خاصة فى الصعيد حيث قام تنافس شديد بين البعثات البروتستانتية والكاثوليكية لاجتذاب أقباط الصعيد إلى مذهبيها . وكانت كفة البروتستانت أرجح من كفة الكاثوليك نتيجة الجهود المكثفة التى بذلتها البعثة التنصيرية الأمريكية ، بعد أن اتخذت أسيوط مقراً لها فى الصعيد . وكان هدف الأقباط من إلحاق أبنائهم بمدارس هذه البعثة هو الإفادة من فرصة أتيحت لهم للتزود بسلاح العلم ، وبقيت غالبيتهم على المذهب الأرثوذكسى . أما تنصير المسلمين فكان يحدث فى حالات فردية ونادرة ، وقعت تحت إغراء المال بشتى صوره وأشكاله . وكان الأزهر الشريف يثور على هذه الحالات ، على الرغم من ندرتها وتفاهة المركز الاجتماعى للمسلمين الذين ارتدوا عن دينهم ، وحتى هؤلاء كانوا يعودون سراعاً إلى رحاب الإسلام .

رابعاً : الصراع بين الدولة العثمانية وفارس على العراق :

لم تثمر السياسة الحصيفة التى أرسى قواعدها السلطان سليمان المشرع فى أثناء وجوده فى العراق فى سنة ١٥٣٥ عقب فتح هذا الإقليم ، حين احترم مشاعر الشيعة وحافظ على أماكنهم الدينية وهى «العتبات المقدسة» ويسر السبل أمام زائريها [(١)] ، فاستمرت الحروب والمنازعات بين الدولتين منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر[(٢)] . وكانت هذه الحروب بين الدولتين تنقطع فى بعض الفترات لتعود أشد ضراوة من سابقاتها . وتبادل الطرفان الهزيمة والانتصار ، وعاد العراق أو أجزاء كبيرة منه لحكم فارس أكثر من مرة[(٣)] .

(١) انظر فى هذه الدراسة ص ص٢٤-٢٥ .

(2) Hurewitz J.C., op. cit., Vol. 1, p. 90. A Historical Introduction to the Treaty of Peace, Erzurem, between the Ottoman Empire and Perisa,. concluded on 28 July, 1823.

(٣) من الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد أن بغداد استسلمت عام ١٦٣٢ لحكم عباس الأول شاه فارس وأصبحت الكاظمية ، وكوت ، والعمارة ، وكربلاء ، والنجف ، بما فيها من أماكن يقدسها أهل الشيعة ، بل والحلة أيضاً ، أصبحت جميعاً فى أيدى الشاه ، واستمر العراق تابعاً للدولة الفارسية حتى عام ١٦٣٨ حين أعد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) حملة على العراق ، واستولى على بغداد وعاد العراق مرة أخرى للحكم العثمانى . ثم ظهر على مسرح السياسة فى بلاد فارس سنة ١٧٢٩ نادر شاه ، وهو أمير تركمانى من قبيلة أفشر ، ويعرف أيضاً بلقب طهماسب قولى خان ، وتمكن من القضاء على حكام فارس=

ويرجع العداء بين الدولتين إلى سبب عام ، هو العداء الدينى المذهبى المستحكم بين أهل السنة وأهل الشيعة ؛ فالدولة العثمانية كانت تعتبر نفسها المدافع الأول عن المذهب السنى بينما تعتبر فارس نفسها المدافع الأول عن المذهب الشيعى ، كما يرجع العداء إلى أسباب خاصة. كان الشيعة فى العراق ينظرون إلى شاه فارس على أنه الملاذ يلجأون إليه كلما نزل بهم ضيم أو أعوزتهم الأموال ، وكانت تنظم حملات فى فارس لجمع التبرعات لشيعة العراق، والتى كانت حكومتها تهتم بالقيام بإصلاحات معمارية فى «العتبات المقدسة» ، أو قوافل تجارية. ومما شجع الفرس على غزو العراق أن نصف سكانه تقريباً كانوا من الشيعة ، ومما ساعد العثمانيين على صد هجوم فارس على العراق أن النصف الآخر من سكانه كانوا من أهل السنة . واستعان الفريقان المتصارعان بالعصبيات والعشائر العربية والكردية ، وقامت الروسيا فى بعض الأحيان بدور بارز فى زيادة حدة النزاع بين العثمانيين والفرس تماشياً مع سياستها التقليدية فى خلق الأزمات أمام الدولة العثمانية وتصعيد هذه الأزمات . واعتقدت بريطانيا أن الروسيا هى السبب فى اندلاع الحرب بين فارس ؛ والدولة العثمانية ، والتى استمرت من سنة ١٨٢٠ حتى سنة ١٨٢٣ ، وكان زمام المبادرة فى الهجوم على العراق فى يد فارس ؛ لأنها كانت تتطلع دائماً إلى استرداده ، بينما لم يكن لدى العثمانيين رغبة فى التوسع على حساب الدولة الفارسية .

= الأفغانيين الستة ، الذين كانوا قد انتصروا بقيادة زعيمهم الثائر مير محمود سنة ١٧٢٢ على الصفويين وحلوا مكانهم . وأعاد نادر شاه الصفويين إلى الحكم ، وأصبح هؤلاء مجرد حكام صوريين ، وتركزت السلطة الفعلية فى يد نادر شاه ، ومالبث أن أعلن نفسه حاكماً على فارس متخذاً لقب شاه سنة ١٧٣٦ بعد أن أزال الصفويين من الحكم، وكان هو العدو الأكبر للعثمانيين حتى قتل فى ١٩ يونيو - حزيران - ١٧٤٧ . وفى أثناء حكمه حاصر بغداد والموصل أكثر من مرة ، وعقدت عدة معاهدات صلح بينه وبين العثمانيين ، ولكنها سرعان ماكانت تنقض ويتجدد القتال . وقد حاول نادر شاه أن يدخل تعديلاً خطيراً على نظام قوافل الحج إلى الحجاز ليؤكد نفوذه الدينى منافساً السلطان العثمانى . وكان هذا الشاه قد تبنى المذهب الشيعى الجعفرى ، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ، وأراد أن يرسل إلى الحجاز قافلة حج رئيسية فارسية يرأسها أمير حج فارسى . واستهدف أيضاً صرف الحجاج الفرس عن الذهاب إلى دمشق للانضمام إلى قافلة الحج الشامى كما جرت العادة ، ورفض السلطان العثمانى ، الأخذ بهذا النظام لأنه اعتبره انتقاصاً لسلطته الدينية لإشرافه على الأماكن المقدسة فى الحجاز ، ولأنه يستمد من هذا الإشراف لقب «حامى حمى الحرمين الشريفين» .

انظر :

Minorsky V., Encycl. of Islam, Art. Nadir Shah.

Muhammad Ali Hikmat; Essai sur l'Histoire des Relations Irano - Ottomanes de 722 â 1747. Paris, 1937, pp. 184-184.

دكتور عبدالكريم رافق : بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨)، دمشق ، *الطبعة الثانية* ، ١٩٦٨ ، ص ص٢٩٩-٣٠٠ .

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج١ ؛ ص٥٥ ، ص ص١٣٩-١٤١ .

وكانت حرب ١٨٢٠-١٨٢٣ هى آخر حرب بين العراق وفارس ، وانتصرت فارس فى مراحلها الأولى ثم أحرز العراق انتصارات فى مراحلها الأخيرة بسبب تفشى وباء الكوليرا فى الجيشين . وظل الموقف معلقاً حتى أبرمت معاهدة أرضروم الأولى فى ٢٨ من يوليو - تموز - عـام ١٨٢٣ (١) ، ولكن هذه المعاهدة لم تحسم مشكلة الحدود بين العراق وفارس فبقيت مشكلة مزمنة متأزمة أثارت عديداً من المشكلات والأزمات ، واكفهر الجو بين العراق وفارس فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر بخاصة حين كان نجيب باشا والياً على بغداد (١٨٤٢-١٨٤٧) . وكان سبب تدهور العلاقات مشكلة الحدود والمشكلة الكردية ، ووقعت مصادمات بين العراقيين والفرس فى عربستان ، والسليمانية ومنطقة بنى لام ، وزهاب ، وطالبات فارس بلواء السليمانية وعربستان حتى القرنة ، وبإبعاد الأمراء الفرس المناوئين للشاه عن بغداد ، وهددت بإرسال قوات فارسية لاحتلال البحرين والكويت ، واستعدت لشن حرب شاملة على العراق . وردت الدولة العثمانية بحشد قواتها على حدود فارس واستنفرت قبائل المنتفق وبنى لام والبابانيين ، ودارت المناوشات العنيفة فعلاً على الحدود ؛ خاصة فى منطقة السليمانية . ورأت بريطانيا أن تتدخل لإيجاد حل سلمى لمشكلة الحدود التى هى جوهر النزاع . واقترحت تشكيل جنة مختلطة تضم أعضاء من الإنجليز والروس والعثمانيين والفرس ، أطلق عليها اللجنة المختلطة للحدود The Mixed Boundary Commission ، وكانت بريطانيا قد رأت إشراك الروسيا معها حتى لاتنفرد الأخيرة بعمل انفرادى يؤدى إلى تصعيد الأزمة وازدياى النفوذ الروسى فى المنطقة .

واعترض السلطان على تدخل الدولتين البريطانية والروسية فى نزاع طرفاه دولتان إسلاميتان . ورأى أن المسألة تخص المسلمين فيجب أن يكون بحثها مقصوراً عليهم ولاشأن للدول المسيحية بهذه المسألة «الإسلامية» . ولكن الدولتين أرغمت السلطان على قبول وساطتهما، واتخذت اللجنة مدينة أرضروم مقراً لها . وبدأت عملها فى ١٥ من مايو - آيار - ١٨٤٣ ، وكانت مهمتها الرئيسية وضع خريطة دقيقة للحدود يرجع إليها عند الحاجة، وواجهت اللجنة صعوبات جمة فى عملها . ووقفت بريطانيا تؤيد الدولة العثمانية فى مطالبها فى العراق، وأخذت الروسيا بوجهة النظر الفارسية وتشعبت نقط الخلاف ، واستبان للجنة أن تسوية جميع مشكلات الحدود أمر يتطلب وقتاً طويلاً حتى يستطاع وضع خريطة تفصيلية ، يحدد عليها مكان كل عشيرة فى مناطق الحدود وتبعيتها منعاً لأى نزاع فى المستقبل ، ومن ثم رأت اللجنة عام ١٨٤٧ وضع مشروع معاهدة تسجل فيها بعض المشكلات التى تم الاتفاق عليها ، وإرجاء المشكلات الأخرى التى لم يتم الاتفاق عليها ومواصلة بحثها وتسويتها .

(1) Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. 1, pp. 90-92.

وعلى هذا الأساس وضعت معاهدة أرضروم الثانية فى ٣١ من مايو – آيار – عام ١٨٤٧ وهى معاهدة حدود A boundary agreement ، وبعد إبرام المعاهدة تشكلت لجنة حدود ثانية ، فيها أعضاء إنجليز وروس ، لتسوية مشكلات الحدود المتبقية . ولم تحرز اللجنة الثانية تقدماً يذكر فى أعمالها . وعندئذ اقترح بالمرستون إجراء مفاوضات بين حكومات الدول الأربع بدلاً من اللجنة ، فانتقلت المفاوضات إلى عواصم الدول الأربع ، وفى الوقت ذاته ، قامت لجنة فنية بمسح الحدود من مصب شط العرب جنوباً حتى الحدود المشتركة فى الأناضول (١٨٥٧–١٨٦٥) . وكانت المفاوضات قد توقفت بسبب نشوب حرب القرم ، واستفاضت فى أثنائها الشائعات بأن فارس ستدخل فى هذه الحرب إلى جانب الروسيا ضد الدولة العثمانية . وعلى الرغم من أن الشاه صرح بأنه لن يطعن أخاه السلطان العثمانى المسلم من الخلف ، كان رشيد باشا الكوزلكى – والى بغداد – يرى أن احتمال انضمام فارس إلى الروسيا هو احتمال قوى، وأدرك حجم الخطر الجسيم ، الذى يتعرض له العراق لو دخلت فارس الحرب ضد الدولة العثمانية ، ولذلك طلب من الإنجليز أن يرسلوا قوات هندية للإسهام فى الدفاع عن العراق ، ولم يكن يدرى أن القنصل البريطانى فى بغداد كان يحث حكومته على احتلال العراق ، مذكراً إياها برغبتها فى خلال أزمة التوسع المصرى فى الشام ونجد فى تنفيذ هذا المشروع . وأكد لها القنصل أن أوضاع العراق تتطلب إلى حد بعيد احتلال بغداد . ولكن حال دون تحقيق هذه الرغبة تحالف بريطانيا مع الدولة العثمانية [١] ، وأخيراً أنجزت لجنة الحدود مهمتها فى عام ١٨٦٥ ووضعت خريطة للحدود من جبال أرارات إلى الخليج العربى، وافقت عليها الدولة العثمانية وفارس وعقدت معاهدة حدود جديدة [٢] ، ومع ذلك لم تحل مسألة الحدود بصفة نهائية إلا فى أواخر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩١٤ ، عندما قبلت الدولتان بصفة نهائية تحديد الحدود بينهما[٣].

حسبنا أننا ذكرنا ثلاثاً من الولايات العربية الكبرى هى مصر ، وبر الشام ، والعراق ، والتى دخلت تحت الحكم العثمانى . أما الأقاليم العربية الأخرى التى خضعت للسيادة العثمانية مثل الحجاز واليمن وأجزاء من منطقة الخليج العربى.. فإن الوجود العثمانى لم يكن مستقراً فيها ولم يكن قوياً ولم يكن مستمراً . أما الولايات العربية فى شمالى إفريقية ، وهى التى يطلق عليها النيابات Les Règences ، وهى حسب ترتيب دخولها تحت الحكم العثمانى : الجزائر ، وطرابلس ، وتونس .. فإن قربها من أوروبا لم يفرض عليها عزلة ، بل قام صراع حربى صليبى سافر وعنيف بين البرتغاليين والإسبانيين من ناحية وسكان هذه النيابات من ناحية

---

(١) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٤٤–٣٤٦.

(2) Hertslet Ed., op. cit., pp. 167-168.

(3) Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. 1, p. 90.

أخرى ، ثم تطور إلى جهاد دينى بحرى إسلامى ، حملت لواءه هذه النيابات دفاعاً عن إسلامها وعروبتها . وقد استطال هذا الجهاد الدينى أمداً طويلاً حتى القرن التاسع عشر . ومما هو جدير بالذكر أن نيابات شمالى إفريقية كانت أولى الولايات العربية التى تساقطت تباعاً فى قبضة الاستعمار الأوروبى ؛ فاحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وبسطت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، أما طرابلس فقد احتلتها إيطاليا عام ١٩١١ .

* * *

نخلص من هذا العرض الموضوعى لمسألة العزلة التى قيل إن الدولة العثمانية قد فرضتها على الأقاليم العربية التابعة لها إلى عدة حقائق :

أولاً : إن الدولة العثمانية قد فتحت منذ وقت مبكر جداً أبواب ولاياتها العربية على مصاريعها للاتصال بأوروبا ، وأبرم السلطان سليم الأول فى عام ١٥١٧ معاهدة مع جمهورية البندقية لتعزيز العلاقات الاقتصادية بينها وبين مصر . ثم جاء ابنه السلطان سليمان المشرع فدعم هذا الانفتاح مع أوروبا أمام الدولة العثمانية بما فيها الولايات العربية ، فعقد عام ١٥٣٥ معاهدة الامتيازات الأجنبية مع فرنسا وعقد خلفاؤه معاهدات أخرى متعاقبة ، على غرارها ، مع إنجلترا ودول أوروبية أخرى .

ثانياً : لم تنقطع الصلات بين الولايات العربية ، فلم تكن هناك حواجز أو سدود مصطنعة بين هذه الولايات . وظلت العلاقات الاقتصادية والثقافية والدينية - ويمثل الأخيرة الحج إلى الحجاز - قائمة ومستمرة ووثيقة .

ثالثاً : إن غلق البحر الأحمر فى وجه السفن البرتغالية أولاً ثم السفن الأوروبية عامة كان الغرض منه منع التسلل البرتغالى الصليبى إلى هذا البحر واحتلال ثغر جدة تمهيداً للزحف على مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما من الأماكن المقدسة فى الحجاز ثم مواصلة الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس فى فلسطين . وكان هذا التسلل قد اتخذ من «الصليب والمدفع» شعاراً له ، ثم لمنع الزحف الهولندى والفرنسى والبريطانى على الولايات العربية . وكان غلق البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية بمثابة إجراء أمن داخلى وخارجى للحدود الشرقية للممتلكات العثمانية ، واتخذت الدولة من اليمن خط دفاع ، ورأت عدم الخرج إلى المحيط الهندى ؛ لأن صراع الدول الأوروبية مع الدولة العثمانية كان يدور فى معظم مراحله فوق البحار . وكانت الدولة الأوروبية تملك من أسباب القوة البحرية أضعاف ماكانت تملكه الدولة العثمانية فى البحار الشرقية . وكانت القوات الضاربة الرئيسية للدولة قوات برية ، ولم تكن قوات بحرية ؛ فالمعارك لم تكن متكافئة من حيث نوعية السلاح . وكانت الدولة العثمانية تضع نصب عينيها النجاح

الذى حققه الاستعمار الأوروبى فى استيلائه على الهند وغيرها من الأقاليم الواقعة فيما وراء البحار ، وكانت الدولة تخشى أن تصيب الدول الأوروبية الاستعمارية نجاحاً على غراره باستيلائها على ولاياتها العربية البعيدة عنها، فظلت متمسكة بسياسة غلق البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية حتى القرن الثامن عشر، ثم تخلت عن هذه السياسة مرحلياً لظروف كانت خارجة عن إرادتها .

رابعاً : إن غلق البحر الأحمر فى وجه السفن الأوروبية لم يمنع السفن الإسلامية من أن تمخر عبابه ، محملة بشحنات من البضائع الشرقية فضلاً عن بعض محصولات ومنتجات اليمن والحجاز وغيرها من الأقاليم الواقعة على ساحل هذا البحر . وكانت السفن الإسلامية تبدأ رحلاتها من ثغر المخا فى اليمن وترفأ إلى ثغور البحر الأحمر مثل جدة وسواكن والسويس[١] .

خامساً : إن نظرة الشعوب العربية إلى أوروبا كانت قائمة على الحذر والشك ؛ لأن رواسب الحروب الصليبية فى الشرق العربى كانت لاتزال عالقة فى أذهان الجماهير .

سادساً : حدث انفتاح بين مصر وبر الشام والعراق من ناحية أوروبا من ناحية أخرى فى القرن الثامن عشر ، ثم اتسعت فى القرن التاسع عشر أبواب هذا الانفتاح وتعددت مجالاته وكثرت شرايينه ، وكانت لكل ولاية عربية ظروفها فى الأخذ بسياسة الانفتاح. وهذه الظروف هى التى حددت حجم ونوعية هذا الانفتاح ، فظروف كل من مصر وبر الشام والعراق كانت تختلف بعضها عن بعض .

* * *

(١) انظر معلومات أكثر تفصيلاً عن العلاقات التجارية بين الولايات العربية بعضها وبعض وعن دور الحج فى تنشيط العلاقات التجارية بينها ؛ نظراً لإعفاء بضائع الحجاج من الرسوم الجمركية ومن التفتيش وعن علاقات الولايات العربية فى ميادين التجارة مع أوروبا :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1., Part 1, pp. 299-313.

صور من حملات التشهير بالدولة (٤)
السلطان العثمانى رجل أوروبا المريض

نشأة قصة المريض المشرف على الموت :

من حملات التشهير بالدولة إطلاق عدة مسميات أو صفات على السلطان العثمانى ، فهو «المريض الذى لايرجى شفاؤه» و «المريض المشرف على الموت» و «رجل أوروبا المريض» . وقد أطلقت هذه المسميات ، أول ما أطلقت ، فى المجال الدبلوماسى المغلق وعلى أعلى المستويات . ولكن لم تمض سنوات ذات عدد حتى أذيعت هذه المسميات وما أحاطت بها من ملابسات فى الخمسينيات ، من القرن التاسع عشر . ووقف عليها الرأى العام فى بريطانيا ثم انتقلت إلى سائر الدول الأوروبية ، وتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة المتحاملون واتخذوا منها مادة للتشهير بالدولة العثمانية . وسواء كانو هذا التوجيه بإيعاز من حكومات بعض الدول الأوروبية ، أو جاءت كتابتهم بوحى من تفكيرهم وحقدهم ، فقد كان الهدف هو النيل من الدولة والإعداد الفكرى المسبق لدى الشعوب الأوروبية بأن سقوط الدولة العثمانية أمر وشيك ، وأن نهايتها السريعة آتية لاريب فيها .

كانت عبارة «رجل أوروبا المريض The Sick Man of Europe» وأمثالها قد صدرت أولاً عن نيقولا الأول قيصر الروسيا (١٨٢٥-١٨٥٥) فى حديث جرى سنة ١٨٤٤ بينه وبين أبردين Aberdeen رئيس وزراء بريطانيا فى وندسور Windsor فى إنجلترا ، وكانت تجمع بين الاثنين صداقة وثيقة . والحق أن هذا التصريح لم يكن جديداً على القيصر ، فقد سبق أن أعلن رأياً يتفق فى لحمته وسداه مع هذا التصريح ، وإن كان أشد عنفاً وأكثر بعداً عن اللباقة الدبلوماسية ، حين صرح عام ١٨٣٣ بقوله «ليس فى استطاعتى أن أبعث الحياة فى الموتى . إن الإمبراطورية العثمانية دولة ميتة ، وليس لدى ثقة فى أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظاً على الحياة . إنه فى حالة انحلال فى جميع النواحى» .

"I have no power to give life to the dead, and the Turkish Empire is dead. I have no confidence in this old body preserving life, it is in dissolution from all sides". (١)

---

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص١٧ .

ثم أعاد القيصر عبارة رجل أوروبا المريض وعبارات أخرى على شاكلتها فى شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٣، قبيل نشوب حرب القرم، فى ثنايا حديث مع سير هاملتون سيمور Sir Hamilton Seymour السفير البريطانى لدى البلاط الروسى. وكان صديقاً حميماً له، ومع غيره من رجال السياسة. وكانت هذه الأحاديث تدور حول اعتقاد نيقولا الأول أن سلطان الدولة العثمانية رجل مريض للغاية، وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة. وأن من الخير للسلام العالمى أن تفكر الدول ملياً فى توزيع ممتلكاته قبل وفاته، وأعرب عن رأيه فى إمكان تسوية الأمور بين بريطانيا والروسيا دون حاجة إلى قيام أى حرب.

وكان مشروعه لاقتسام ميراث رجل أوروبا المريض يقوم على الأسس الآتية:

أولاً: تحتل الروسيا الأستانة، ولكن لاتضمها إليها.

ثانياً: ترابط القوات الروسية فى البوسفور، وترابط القوات النمساوية فى الدردنيل.

ثالثاً: تستقل ولايتا الدانوب، وهما الأفلاق والبغدان، وكذلك الصرب وبلغاريا. ولكن تكون هذه الدول تحت حماية الروسيا؛ أى يكون استقلالها استقلالاً مزيفاً.

رابعاً: تحتل بريطانيا مصر، ولها إذا شاءت أن تستولى على جزيرة كريت.

وقد أثار عرض القيصر شكوك بريطانيا واعتقدت أن نواياه هى القضاء على الدولة العثمانية. ولذلك لم تأخذ به لسببين: أولهما، أنها كانت لاتزال متمسكة بسياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية، وهى المحافظة على سلامة الدولة وتماسك ممتلكاتها، وثانيهما أنها كانت تشك فى إخلاص قيصر الروسيا فى تقديم مشروعه، لأنها علمت أنه عرض سراً على فرنسا الاستيلاء على جزيرة كريت. ولما نشبت حرب القرم، نشرت الحكومة البريطانية وثائق تلك المحادثات لتكشف للرأى العام الأوروبى الأغراض الحقيقية للروسيا من دخولها الحرب(١). وقد ظلت بريطانيا متمسكة بسياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨، ثم تخلفت عنها على عهد الوزارة الثانية، التى شكلها بنيامين دزرائيلى اليهودى، وقد شكلها فى فبراير - شباط - ١٨٧٤(٢) وتسمى عام ١٨٧٦ باسم لورد بيكونزفيلد Beaconsfield، فاحتلت بريطانيا جزيرة قبرص عام ١٨٧٨، ثم مصر عام ١٨٨٢ على عهد وزارة جلادستون الثانية. ومما

---

(١) انظر كلاً من:

Grant A. and temperley H.; op. cit., pp. 212-213, fn. 1.

Temperley H.; England and the Near East : The Crimea. 1936, pp. 233-237.

دكتور محمد مصطفى صفوت: مؤتمر برلين إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٦-٢٨.

(٢) بقيت هذه الوزارة فى الحكم حتى شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠، وخلفتها وزارة جلادستون حتى شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٥.

يذكر أن لورد سالزبورى Salisbury إبان وزارته الثالثة (١) قد صرح فى حديث له جرى عام ١٨٩٥ مع دى كورسيل de Courcel ، السفير الفرنسى فى لندن، بأنه آسف أشد الأسف لأن الحكومة البريطانية رفضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية الذى عرضه عليها نيقولا الأول قيصر الروسيا عام ١٨٥٣ ، وقال إن الحكومة البريطانية قد ساندت الحصان الخاسر backed the wrong horse. ، وهكذا واكبت بريطانيا الدول الأوروبية وعلى رأسها الروسيا والنمسا فى خطتها التدميرية للدولة العثمانية (٢) .

مسئولية أوروبا :

هذا المرض الذى انتاب السلطان العثمانى إنما هو تعبير دبلوماسى قصد به الضعف السياسى والعسكرى ، بعد أن بلغا بالدولة حد الاضمحلال والتدهور فى القرن التاسع عشر . حقيقة كان جانب من الضعف الذى أصاب الدولة يرجع إليها ، وسنفرد فصلاً عن المآخذ على الدولة نعرض فيه لمسئوليتها عن هذا التدهور . ولكن كانت الدول الأوروبية الكبرى هى المسئولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذى ألم بالدولة .. أخذت الروسيا والنمسا أول الأمر بسياسة التوسع الإقليمى على حساب ممتلكات الدولة العثمانية فى وسط أوروبا وفى حوض الدانوب وعلى حدوده وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان، وتغلغلت الروسيا فى القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز . وأصبحت هاتان الدولتان فى حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفدتا قوة الدولة وحيويتها ولم تعطياها قسطاً طويلاً من الراحة لالتقاط أنفاسها أو لاستعادة حيويتها . ثم انضمت فرنسا إلى ركبهما فاحتلت الجزائر ثم وضعت تونس تحت حمايتها . ونهجت بريطانيا هذا النهج فاحتلت جزيرة قبرص ثم مصر بما فيها قناة السويس . واحتلت إيطاليا جزر الدوديكانيز وولايتى برقة وطرابلس . وهكذا اتبعت الروسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة ، استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها . وواجهت الدولة ثورات عنيفة قامت بها الشعوب المسيحية الخاضعة لها . ودأبت الروسيا والنمسا على تحريك هذه الشعوب ثورياً بدافع الشعور القومى حيناً، وبمقولة إنه يجب ألاتخضع هذه الشعوب لسلطان مسلم جاهل متبربر حيناً ثانياً . وادعت

---

(١) ألف لورد سالزبورى ثلاث وزارات :
(أ) الوزارة الأولى وقد تألفت فى شهر يونيو – حزيران – عام ١٨٨٥ .
(ب) الوزارة الثانية وقد تألفت فى شهر أغسطس – آب – عام ١٨٨٦ وظلت فى الحكم إلى شهر أغسطس – آب – عام ١٨٩٢ .
(جـ) الوزارة الثالثة وقد تألفت فى شهر يونيو – حزيران عام ١٨٩٥ وظلت فى الحكم إلى شهر يوليو – تموز – عام ١٩٠٢ .
انظر : Ensor R.C.K., of. cit.; pp. 608-611.

(2) Taylor A.J.P. op.; cit., p. 359.

الروسيا لنفسها حق حماية الرعايا الأرثوذكس فى الدولة العثمانية . ورأت فرنسا ضرورة حماية اللاتين ورجال الدين الكاثوليكى فى الدولة . ولم يكن أحد من هذين الطرفين مستعداً لقبول المساومة أو التحكيم. ثم بسطت فرنسا حمايتها على الموارنة فى لبنان ، وبسطت بريطانيا حمايتها على الدروز فى الجبل . وهكذا تسابقت أوروبا المسيحية المتحضرة على التهام ولايات دولة إسلامية ، وإنشاء مناطق نفوذ لها فى ولايات أخرى ، وفرض معاهدات غير متكافئة على الدولة ، ونهب ثرواتها .

لقد أرادت الدولة الأخذ بسياسة الإصلاح وتطوير نظمها فى الحكم والإدارة وتحقيق المساواة بين رعاياها دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم . وأصدرت من أجل الإصلاح فرمانين مشهورين هما «خطى شريف جلخانة» عام ١٨٣٩ و «خطى همايونى» عام ١٨٥٦ ووجدت أن نظام الامتيازات الأجنبية يقف حجر عثرة فى سبيل تنفيذ الإصلاحات المنشودة . وكان هذا النظام يجعل الأجانب فى الدولة بمنأى عن الخضوع للسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية . وطالبت الدولة عقب حرب القرم مباشرة الدولة الأوروبية ، التى كانت متحالفة معها فى هذه الحرب الموافقة على إلغاء هذا النظام . فأجابت بأنها لاتقر إطلاقاً إلغاء هذا النظام . وتكررت محاولات الدولة وتكرر رفض الدول ، ولو كانت نيات الدول الأوروبية خالصة نحو الدولة لاستجاب لطلبها . ولكنها ذهبت إلى أبعد من ذلك ففرضت رقابة دولية ضارية على شئونها المالية وفتحت أبواب بلادها على مصاريعها أمام جمعيات عثمانية سرية ، تتآمر على سلامة الدولة . ومع ذلك فإن رجل أوروبا المريض الذى لم يكن يرجى شفاؤه عام ١٨٥٣ ظل يقاوم الزحف الاستعمارى الأوروبى فى شتى صوره وأشكاله ما استطاع إلى هذه المقاومة سبيلاً ، ويعمل على إدخال الإصلاحات ما وسعته الإمكانيات وسط ظروف متناهية فى صعوبتها وظلامها وأخطارها ، ولم تتحقق نبوءة قيصر الروسيا فظلت الدولة قائمة سبعين عاماً حتى سقطت عقب الحرب العالمية الأولى ، وتوارى رجل أوروبا المريض إلى مغيب .

إجراء مذابح دينية عامة بين رعايا الدولة المسيحيين

وهناك مسألة خاض فيها المؤرخون والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية ، ونعوا عليها فى استفاضة غير عادية قيامها بإجراء مذابح دينية عامة بين أفراد بعض الطوائف المسيحية الخاضعة للدولة ، وأذاعوا عنها أنباء مبالغاً فيها إلى حد بعيد ، ونظروا إليها على أنها بقعة سوداء فى تاريخ الدولة ، والأمر العجاب أن الغالبية العظمى من هذا الفريق من المؤرخين والباحثين لم يتكلموا قط عن المذابح العامة ، التى تعرض لها رعايا الدولة المسلمون على أيدى المسيحيين . ويلاحظ أيضاً أن القلة الضئيلة العدد من المؤرخين الذين تكلموا عن مذابح

المسلمين ، لم يتعرضوا لها إلا بشكل عام فى بضع كلمات ، لم تتجاوز سطراً واحداً فى الوقت الذى لم يغادروا صغيرة ولاكبيرة من تفاصيل مذابح المسيحيين إلا أحصوها وأبرزوها ، بل وبالغوا فيها. ويلاحظ عليهم جميعاً أنهم أغفلوا أو تجاهلوا عدة حقائق ، منها : أن أفراد الطوائف المسيحية هم الذين كانوا يبدأون بذبح جموع المسلمين ، وأن هذه المذابح كانت تحدث فى المناطق التى يتكاثر فيها عدد المسيحيين ، ويقل فيها عدد الرعايا المسلمين فيكون الأخيرون صيداً سهلاً فى أيدى المسيحيين ، وأن السلطات العثمانية كانت تفاجأ بوقوع هذه المذابح على أيدى جمعيات ثورية إرهابية ، تكونت وتدربت خارج حدود الدولة بعلم وتشجيع حكومات بعض الدول الأوروبية ، فكان لامندوحة للدولة العثمانية عن مقابلة هذا العدوان على رعاياها المسلمين بعدوان على غراره على الطوائف المسيحية ، التى اشتركت فى ذبح المسلمين لحصر هذه المذابح فى نطاق ضيق ، ومنع انتشارها فى مناطق عثمانية أخرى .

بواعث الدولة على إجراء المذابح الدينية :

هناك عدة عناصر هامة تتصل اتصالاً وثيقاً بمسألة المذابح الدينية ، تحكمت فى موقف الدولة فأملت عليها اتخاذ هذا الإجراء . ونحن لانسوق هذه العناصر دفاعاً عن الدولة ، بل للإحاطة بكافة جوانب هذه المسألة ؛ حرصاً منّا على التزام الموضوعية والحيدة فى هذه الدراسة. كان الرأى العام الإسلامى فى الدولة بعامة وفى إستانبول بخاصة وكذلك أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تثور ثائرتهم ، عندما تترامى إلى مسامعهم أنباء ذبح المسلمين فى ولايات الدولة . وسنرى بعد قليل أن المظاهرات الصاخبة كانت تطوف فى شوارع العاصمة تنادى بضرورة الرد على هذه المذابح ، وتحمل السلطان الحاكم مسئولية تعرض الرعايا المسلمين للذبح وتتهمه بالتقاعس عن أداء واجبه . وقد سبق أن ذكرنا مراراً فى هذه الدراسة أنه للحكم على حادث وقع فى عصر سابق .. يجب أن يوضع فى الاعتبار الأول التقاليد والعادات، التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، ولانقيس الحادث بمعايير الوقت الحاضر . ومع ذلك ففى التاريخ المعاصر ، لاتزال تقع مذابح عامة بين طوائف من السكان فى بعض الدول ، على الرغم من أن هيئة الأمم المتحدة قد أصدرت الإعلان العالمى لحقوق الإنسان على امتداد الساحة العالمية فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر – كانون أول – عام ١٩٤٨ أى منذ أكثر من ثلاثين عاماً . أما العنصر الثانى فكان يتمثل فى أن هذه المذابح الدينية قد حدثت فى القرن التاسع عشر حين كانت الدولة تمر بدور عصيب من أدوار اضمحلالها والذى انتهى بزوالها عقب الحرب العالمية الأولى . وفى هذا الدور تعرضت جيوشها لهزائم حربية أليمة متعاقبة أو خاضت معارك ضارية متتالية ، مما أدى إلى أن تصاعد الإنفاق العسكرى بسبب هذه وتلك، وزادت القروض المالية الخارجية عدداً وحجماً ؛ مما أدى إلى ارتباكات مالية حادة فى الموازنة العامة للدولة ، وأعلنت سنة ١٨٧٥ عجزها عن سداد فوائد القروض المتراكمة عليها لمدة خمس

سنوات [١] ، فأساء هذا التصرف إلى سمعة الدولة وأفقدها عطف الحكومات والأنصار فى إنجلترا وفرنسا ، وأثار كثيراً من الشكوك حول قدرتها على البقاء دولة متماسكة .

فكانت الحالة النفسية للعثمانيين هابطة ، وأرادوا أن يثبتوا لأوروبا بعامة ولرعاياهم المسيحيين بخاصة أنهم قادرون على توجيه ضربات مماثلة لهم . وكان العنصر الثالث هو مبدأ المعاملة بالمثل ، وهو مبدأ تأخذ به دول عديدة فى كثير من الحالات . ولعل هذا السبب هو الذى حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن المذابح الدينية التى أقدم عليها العثمانيون قد تعددت وبرزت فى تاريخ الدولة العثمانية كلما ازدادت هذه الدولة ضعفاً . وغفل هذا الفريق من المؤرخين عن حقيقة هامة ، هى أن تلك المذابح لم تحدث إلا نتيجة ثورات هادرة قامت بها الشعوب المسيحية للانفصال عن الدولة ، وأنها اتخذت من تلك المذابح وسيلة لتحقيق هدفها . ولم يسبق أن اشتعلت ثورات ، صحبتها مذابح حين كانت الدولة قوية منيعة مهيبة الجانب .

كان من نتائج الأسلوب الذى عالج به ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين المتحاملين مسألة المذابح الدينية العامة أن علق فى أذهان الكثيرين أن الدولة العثمانية كانت دولة متبربرة يحلو لها من وقت إلى آخر إجراء مذابح عامة بين أفرد الشعوب المسيحية الخاضعة لها ، وأن هدفها هو استئصال المسيحية من شرقى أوروبا وتصفية الوجود المسيحى منها .

المذابح الجماعية بين المسلمين والمسيحيين فى اليونان

خطط اليونانيون لثورة استهدفوا منها بصفة أساسية تحرير أنفسهم من سيطرة العثمانيين، الذين كانوا يختلفون عنهم فى الدين والجنس واللغة والتقاليد والعادات والثقافة . وقد مرت هذه الثورة بمرحلتين . تولت قيادة المرحلة الأولى والتخطيط لها جمعية الإخوان Philiké Hetairia ، وهى جمعية سرية تكونت فى سنة ١٨١٤ فى ثغر أوديسا على الساحل الشمالى للبحر الأسود ، وانضم إليها كل ذى حيثية من اليونانيين فى الدولة العثمانية . وانتخبت إسكندر هپسلنتى Alexander Hypselantes أحد كبار ضباط الجيش الروسى رئيساً لها ، أملاً فى أن تظفر الجمعية بتأييد قيصر الروسيا ، وكان برنامج الجمعية متشعباً :

استقلال اليونان ، وطرد العثمانيين من أوروبا ، وبعث الدولة البيزنطية ، واستعادة إستانبول - القسطنطينية - عاصمة لها . ورأى هپسلنتى أن تبدأ الجمعية نشاطها الثورى فى

---

(١) عقدت الدولة أكثر من أربعة عشر قرضاً حتى وصل الدين العثمانى إلى مائتى مليون جنيه إسترلينى بفائدة سنوية قدرها ١٢ مليون جنيه . وكانت النتيجة الأولى تأسيس البنك العثمانى سنة ١٨٦٣ برياسة فرنسى، ويتولى وكالته إنجليزى كشركة فرنسية بريطانية ، أسهمت أكثر من أى هيئة فى استنزاف ثروات الدولة وأدت بها إلى الإفلاس .

ولايتى الدانوب – الأفلاق والبغدان[١] – فقد كان يحكم كل ولاية منهما حاكم يونانى من الفناريين [٢] Phanariotes يطلق عليه هوسپودار Hsopodar . وكان السلطان العثمانى يعينهما ، ويؤديان له الجزية . كما كانت غالبية السكان من المسيحيين ، بينما كان المسلمون فيهما يشكلون أقلية عددية . ونزل رئيس الجمعية مع أتباعه فى ولاية مولداڤيا فى السادس من شهر مارس – آذار – عام ١٨٢١ ، ودخلوا عاصمتها وأذاع بلاغاً حربياً ، كان مما جاء فيه أن قوة عسكرية رهيبة قد تم إعدادها لمعاقبة العثمانيين على جرأتهم ، وهى تعتزم إبادتهم عن بكرة أبيهم .

وفى الوقت ذاته جردوا القوة العثمانية المرابطة فى العاصمة من أسلحتها . وكان عدد أفرادها قليلاً ، ثم شرعوا فى إجراء مذابح عامة بين المسلمين سكان جالاتز Galatz وچاسى Jassy ، وقد أخذوهم على غرة ونالوا منهم منالاً عظيماً لأنهم كانوا قلة . وأقر رئيس الجمعية المجازر البشرية التى ذهب ضحيتها ألوف المسلمين فى هاتين المنطقتين وفى غيرهما ، وانتقل رئيس الجمعية مع أعوانه إلى الولاية الأخرى «والاشيا» وتنادى الرعايا المسيحيون إلى الثورة على العثمانيين . وقد فشلت الثورة فى المرحلة الأولى لعدة أسباب ليست هذه الدراسة موطناً لعرضها . ويهمنا أن نذكر أن اليونانيين فى المرحلة الأولى للثورة هم الذين بدأوا عمليات الذبح الجماعى للمسلمين . ولما علم السلطان محمود الثانى بما اقترفه الثوار اليونانيون ، أمر بذبح بعض اليونانين فى إستانبول ممن حامت حولهما الشبهات فى أنهم كانوا من بين المخططين للثورة أو الضالعين معها ، كما استطاع الجيش العثمانى إخماد الثورة فى غير عناء . ولكن مالبثت الثورة أن انتقلت إلى الجنوب فى بلاد المورة وهى المهد الأول لليونانيين ، والتى قامت فى أرجائها الحضارة الإغريقية بمظاهرها الرائعة فى العصور القديمة ، كما امتدت الثورة إلى الجزر اليونانية .

وبدأت الثورة مرحلتها الثانية [٣] . وكان هدفها فى هذه المرحلة مقصوراً على استقلال

---

(١) رومانيا حالياً . وكان يطلق على هاتين الولايتين أيضاً مولدڤيا وولاشيا .

(٢) نسبة إلى حى الفنار فى إستانبول ، وكان يسكن هذا الحى الأرستقراطية اليونانية .
انظر فى هذه الدراسة الفصلين الثالث والثالث عشر – الجزء الأول .

(٣) لم يشترك هبسلنتى فى المرحلة الثانية ، لأنه لما أخفقت الثورة فى مرحلتها الأولى خشى على حياته وترك جنوده لمصيرهم وفكر فى ضمان سلامته . ورأس إليهم خطاباً انطوى على أكاذيب ، كان من بينها أن تلقى رسالة من السلطات العليا فى النمسا ، تطلب منه الذهاب إليها ليناقش مع إمبراطور النمسا مخطط مواصلة العمليات الحربية ضد الدولة العثمانية ؛ لأن الإمبراطور يريد أن تشترك القوات النمساوية فى الحرب . وتسلل هبسلنتى مع أخوين له إلى النمسا . ولكنه لم يكد يعبر الحدود النمساوية حتى أمر مترنيخ بالقبض عليه وأودعه المعتقل حيث ظل فيه ست سنوات إلى أن مات فى منفاه سنة ١٨٢٨، انظر :
Miller W.: op. cit., p. 68.

اليونان فقط . ولم يكن من أهدافها طرد العثمانيين من أوروبا أو إحياء الدولة البيزنطية . واشتعلت الثورة فى بتراس Patras فى أبريل – نيسان – عام ١٨٢١ . وأوقع الثوار المسيحيون بالمسلمين مذبحة رهيبة . ثم امتدت الثورة عبر مضيق كورنت Corinthe إلى الشمال فى مقدونيا وتراقيا Thessalie، واحتل الثوار تريبولتزا Tripolitza مقر السلطات العثمانية فى المورة ، ومثلوا بالمسلمين أفظع تمثيل . ولم يقل عدد المسلمين واليهود الذين ذبحهم الثوار اليونانيون فى هذه المدينة عن ثمانية آلاف شخص ، تركت جثثهم فى العراء مما أدى إلى انتشار أوبئة فتكت باليونان فتكاً ذريعاً . وذاعت أغنية شعبية بين الثوار جاء مطلعها على هذا النحو «يجب ألا يبقى عثمانى واحد فى بلاد المورة» وقد ترجمها الثوار من الناحية العملية بذبح آلاف المسلمين فى أنحاء شبه جزيرة المورة . وأسهم رجال الدين اليونانيون إسهاماً فعليّاً فى المذابح العامة التى ارتكبها الثوار الثونانيون فى المورة ؛ مما أضفى على الثورة اليونانية الطابع الدينى إلى جانب الطابع القومى ، وكان الثوار قد لجأوا إلى الرأى العام الأوروبى يستثيرونه لمساعدة شعب مسيحى فى نضاله للتخلص من حاكم مسلم هو السلطان العثمانى .

وكانت الحكومات الأوروبية قد وقفت أول الأمر موقف الحيدة ، ولقيت استغاثة الثوار استجابة من الشعوب المسيحية على الرغم من اختلاف المذاهب الدينية المسيحية بين هذه الشعوب والثوار . فقد كان يؤلف بين الفريقين وحدة الهدف وهو إنزال الهزيمة بالسلطان العثمانى المسلم ، الذى يحكم شعوباً مسيحية لأول مرة فى شرقى أوروبا . وفضلاً عن ذلك كان الأوروبيون ينظرون إلى الثوار اليونانيين على أنهم سلالة هوميروس وحفدة بركليس . وتألفت لجان فى باريس ولندن وجنيف لمساعدة الثوار وإمدادهم بالأموال والأسلحة والمتطوعين ، وكان أشد المتحمسين لهم بيرون Byron الشاعر الإنجليزى الذى ذهب إلى المورة فى أغسطس – آب – عام ١٨٢٣ ليثير مزيداً من الحماس فى نفوس اليونانيين وتكثيف عدد الثوار . وقد توفى فى مدينة مسولونجى Mescologhi فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٢٤ ، ونظر إليه الثوار على أنه من أبطال الثورة ، وأقام له الشعب اليونانى فيما بعد التماثيل فى عدة مدن وأطلق اسمه على شوارع المدن والقرى الجبلية وفاء لذكراه .

ولم يقف السلطان محمود الثانى مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة وما تخللها من مذابح عامة ، فقد اتخذ عدة إجراءات . كان من بينها إرسال قوات عسكرية لإخماد الثورة ، ولكنها فشلت فى إنجاز مهمتها . وكان الإجراء الثانى هو إجراء مذابح عامة بين كبار اليونانيين مثل باش ترجمان الباب العالى (١) وعدد من كبار الفناريين . ولما اتسع نطاق مذابح المسلمين على يد الثوار ، واشترك بعض رجال الدين اليونانيين فى العمليات الحربية وفى ذبح المسلمين أمر

(١) يطلق عليه كبير مترجمى *الباب العالى أو الترجمان الأول* .

السلطان بذبح جريجورى الخامس بطريرك الكنيسة اليونانية فى إستانبول . وعلقت جثته ثلاثة أيام على بوابة قصره ، ثم جاء اليهود وأنزلوا الجثة وطافوا بها فى شوارع العاصمة ، وهى على الأرض ثم ألقوا بها فى البحر(١) ، ولم ترهب الثوار المذابح التى أمر بها السلطان فمضوا يفتحون الحصون ويفتكون بحامياتها وبالمدنيين المسلمين فى المناطق القريبة منها على نحو ما فعلوا فى تريبولتزا . ورد العثمانيون عليهم بإجراء مذابح فى جزيرة خيوس Chios وغيرها . وكان النصر حليف الثوار فى الفترة من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٨٢٥ ؛ لتفوق اليونانيين فى البحر ولتدفق المساعدات العسكرية والمالية على الثوار . ولم يتغير المركز الحربى للطرفين إلا بعد أن استعان السلطان بمحمد على باشا والى مصر.. فأرسل حملة بقيادة ابنه إبراهيم نزلت فى المورة فى فبراير – شباط – ١٨٢٥ ، وأنزلت الحملة المصرية بالثوار هزائم أليمة متلاحقة مما أدى إلى تدخل الدول الأوروبية . وكانت الروسيا قد أعلنت أنه لابد من التدخل لإنقاذ الشعب اليونانى من الفناء (٢) ، وقررت منح الثوار الاستقلال الذاتى لليونان ثم جعلته استقلالاً تاماً تضمنه الدول الأوروبية الكبرى ؛ كى تغل يد الروسيا عن التدخل فى شئون اليونان إذا بقيت مستقلة استقلالاً ذاتياً . ويعد منح اليونان الاستقلال التام من أهم معالم الدراسات التاريخية البلقانية ، كما أنه يمثل مرحلة من مراحل انكماش رقعة الدولة العثمانية فى أوروبا .

مذابح المسلمين فى بلغاريا

بينما كان كبار ساسة أوروبا يفكرون فى كيفية قضاء عطلتهم فى مستهل صيف ١٨٧٥ ، ويعتقدون أن فى استطاعتهم قضاء فترة راحة طويلة بعد أن تمت تسوية الأزمة الفرنسية الألمانية ، فوجئوا بقيام ثورة فى الهرسك والبوسنة . ولم يعبأ أحد بهذه الثورة أول الأمر غير إجناتيف Ignatiev السفير الروسى فى إستانبول ، وكان الرأى السائد لدى رجال السياسة أنها من الثورات العادية الوقوع فى الدولة . ولكن لم يكد يمر شهر واحد حتى اضطروا إلى توجيه أنظارهم نحو البلقان ونحو الدولة العثمانية ، ومن سوء حظ الأخيرة أنها تمهلت فى إخماد الثورة وفشلت فى القضاء عليها ؛ إذ سرعان ما امتدت الثورة إلى الشعوب البلقانية المجاورة منتهزة هذه الفرصة للاستقلال نهائيًا عن الدولة العثمانية ، وكان البلغاريون من بين هذه الشعوب . واكتسبت ثورتهم أهمية خاصة ؛ لأن عدداً من الحكومات والشعوب الأوروبية اتخذت منها مادة خصبة للتشهير بالدولة العثمانية ابتغاء استفزاز الرأى العام الأوروبى ، وإعادة فتح باب المسألة الشرقية . وتوزيع ممتلكات الدولة أسلاباً بين الدول الأوروبية .

اشتعلت الثورة هادرة فى بلغاريا فى شهرى مايو ويونيو – آيار وحزيران – عام ١٨٧٦ ،

(١) تسلل بعض اليونانيين فى ظلمة الليل وانتشلوا جثة البطريرك من البحر، وأبحروا بها إلى أوديسا حيث تم دفنها ، ثم نقلت الجثة بعد خمسين عاماً إلى الكاتدرائية الكبرى فى أثينا حيث دفنت .

(2) Grant A.J. and Temperley Harold; op cit., p. 204.

وكانت الروسيا وراء هذه الثورة . وكانت قد بدأت فى شكل عصيان فى سبتمبر وأكتوبر – أيلول وتشرين أول – من العام السابق ، واستطاعت الدولة أن تقضى عليها فى مهدها بواسطة باشى بوزوق عساكرى أى قوات غير نظامية أرسلتها إلى بلغاريا . ولكن حدث أن تسلل عملاء روس فى أوائل شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٧٦ إلى هذه الولاية ، وخططوا لثورة يقوم بها السكان المسيحيون الصقالبة الأرثوذكس – وتجمعهم مع الروس وحدة الجنس والعقيدة والمذهب الدينى – وقام هذا التخطيط على تحريك ثورة تبدأ بمذابح عامة يقوم بها الثوار ضد المسلمين . وفى الوقت ذاته ، ينشط الثوار فى إشعال الحرائق فى عدة مدن . وذكر العملاء أن الروسيا قد صحت عزيمتها على شد أزر الثوار وعلى تدخل قواتها لتأييدهم ، إذا تعرضوا لهزيمة وتعويض خسائرهم. وتدفقت الأسلحة والأموال سراً إلى الثوار عن طريق ولاية الأفلاق ، وهى جزء من رومانيا الحالية وتجاور بلغاريا . وكانت الاتصالات للتخطيط للثورة قائمة على قدم وساق بين عملاء الروسيا والبلغاريين . وكانت الاجتماعات تتم تارة فى بلغاريا ، وتارة أخرى فى رومانيا، التى ازدحمت بعدد كبير من البلغاريين على اختلاف نوعياتهم .

وكان من أسباب تذمر البلغاريين أن الدولة العثمانية قد أنزلت فى بلغاريا عائلات من الشراكسة هربوا من حكومة الروسيا طلباً للاحتماء بالدولة . وانتهز عملاء الروسيا فرصة هذه الهجرات الإسلامية ، التى تمت تحت إشراف السلطات العثمانية ، فأدخلوا فى روع البلغاريين أن الدولة تبغى إقطاع أراضيهم لهؤلاء الشراكسة واستعباد المسيحيين أصحاب البلاد الأصليين .

إنشاء الإكساركية البلغارية :

وفوق هذا كله كان هناك سبب هام جداً شجع البلغاريين على القيام بثورتهم ؛ فقد ازدادوا عتواً وجبروتاً واعتزازاً بقوميتهم وبأنفسهم بعد أن أصدر السلطان عبدالعزيز فرماناً مؤرخاً فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس – آذار – عام ١٨٧٠ بإنشاء كنيسة خاصة بهم مستقلة عن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية – اليونانية – فى إستانبول ، وبذلك تحرر البلغاريون الأرثوذكس من نفوذ البطريرك اليونانى فى إستانبول ، والذى كانت له زعامة دينية على جميع الصقالبة المسيحيين فى بلاد البلقان مثل البلغاريين والصرب . ونص هذا الفرمان على أن يكون بطريرك الكنيسة الجديدة من أهل بلغاريا ، وأن تصدر «براءة» أى أمر سلطانى بتعيينه فى منصبه . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب الدينى الرياسى لقب إكسارك Exarch ومن هذه اللفظة اشتقت عبارة «الإكساركية البلغارية» The Bulgarian Exarchate ، ومعناها الكنيسة السلافية ذات البطريرك البلغارى .

وقد تضافر عاملان على إنشاء الكنيسة البلغارية ، كان أولهما : أن الدولة العثمانية كانت تنقم على اليونانيين اشتراكهم فى الثورات التى قام بها سكان جزيرة كريت المسيحيون

ضد الحكم العثمانى ، وشد أزرهم وإمدادهم بالأسلحة والذخائر والمتطوعين، وإسهامهم إسهاماً فعلياً فى المذابح الوحشية التى ارتكبها الكريتيون المسيحيون ضد مسلمى الجزيرة . وكان من رأى فؤاد باشا «أنه يجب عزل اليونانيين عن المسيحيين الآخرين قدر الاستطاعة ، وإبعاد البلغاريين عن سيطرة الكنيسة اليونانية» . وكان غالى باشا يشاطره هذا الرأى . واستطاع الاثنان أن يقنعا السلطان عبدالعزيز بالأخذ برأيهما . أما العامل الثانى فكان الضغط الشديد الذى مارسته الروسيا على السلطان لإنشاء هذه الكنيسة تأسيساً على أن البلغاريين يشكلون قومية متميزة ، ويجب أن تكون لهم كنيسة مستقلة عن الكنيسة اليونانية وتضم شملهم . وكان الهدف الحقيقى للروسيا هو دعم حركة الجامعة الصقلبية Panslavism التى تنادت إليها ، واستهدفت منها ضم جميع الصقالبة الأرثوذكس فى أوروبا تحت جناحها ، أملاً فى قضائها على الوجود العثمانى فى أوروبا. وكان من أكبر دعاة هذه الحركة هو إجناتيف Ignatiev سفير الروسيا فى إستانبول . وكان هدفه الأساسى العمل على انهيار الدولة العثمانية أو وقوعها تحت السيطرة الروسية (١) .

واستجاب السلطان عبدالعزيز لطلب الروسيا ، لأنه اعتقد أن إنشاء الإكساركية البلغارية يتماشى مع سياسة «فرق واحكم» *divide et timpera* إذ كانت سياسة الدولة تتجه إلى تعميق الانقسام بين العناصر المسيحية فى البلقان مثل اليونانيين والبلغاريين والصرب وغيرهم ؛ نظراً للصعاب التى كانت تواجهها الدولة فى دعم نفوذها بين هذه العناصر . ومما هو جدير بالذكر أن صدور «براءة» تعيين أول إكسارك تنفيذاً لفرمان ١١ مارس - آذار - ١٨٧٠ قد تأخر سنتين بسبب معارضة البطريرك اليونانى فى إستانبول ، فلم تصدر هذه «البراءة» إلا فى سنة ١٨٧٢ ، بعد أن حاول البطريرك اليونانى إقناع السلطان عبدالعزيز بإلغاء الفرمان ، الذى أصدره عام ١٨٧٠ بإنشاء الإكساركية البلغارية . ولكن باءت محاولاته بالإخفاق ، ولم ينجح إلا فى تأخير تعيين البطريرك البلغارى سنتين . فلما صدرت براءة تعيينه أصدر البطريرك اليونانى قرار الحرمان ex-communication ضد الإكسارك ورجال الدين التابعين له وأتباع الكنيسة البلغارية . وقد أوجد إنشاء هذه الكنيسة الجديدة صراعاً دينياً حاداً فى البلقان بين اليونانيين أو البطريركيين Patriarchists وبين البلغاريين أو الإكساركيين Exarchists وسارع الفريقان إلى تكوين عصابات من قطاع الطرق مستخدمين شتى الأسلحة ، وأخذ كل فريق يثبت صحة مذهبه بالضربات القاتلة . ويعد إنشاء الإكساركية البلغارية نقطة بارزة فى تاريخ الدراسات البلقانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وبالتالى فى تاريخ الدولة العثمانية (٢) .

---

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨ .

(٢) عن الإكساركية البلغارية ، انظر كلاً من :

Miller W., op. cit., pp. 344-346.

Grant A., and Temperley, op. cit., pp. 297-298.

Ensor R.C.K., op. cit., p. 41.

وبتعيين الإكسارك البلغارى ازداد الطابع الدينى رسوخاً إلى جانب الطابع القومى للثورة البلغارية على الحكم الإسلامى العثمانى .

وبدأ الثوار عملياتهم فى كافة أرجاء بلغاريا فى أول مايو – آيار – عام ١٨٧٦ بإجراء مذابح عامة بين المسلمين ، الذين كانوا مجردين من السلاح ، فكانت خسائرهم فادحة . وعجز الباشى بوزوق عساكرى ، وهم القوات العثمانية غير النظامية ، عن مواجهة الموقف المتعدد الجبهات . واستنجد الوالى العثمانى بإستانبول لترسل له نجدات عسكرية من القوات النظامية . ولجأ – كإجراء مؤقت – إلى توزيع ما لديه من أسلحة على السكان المسلمين . وفى فورة غضبهم رد المسلمون على البلغاريين بالمثل . ولكن كفة المسيحيين كانت راجحة على كفة المسلمين فى هذه المذابح ، فيما عدا قرية باتاق Batak وتقع شمالى جبل رودوب Rhodope وكان أهلها قد انضموا إلى الثوار فهاجمتها قوة من الباشى بوزوق بقيادة عصمت أغا وزميله محمد أغا . وأعمل أفراد القوة القتل فى سكان القرية ، ولم يفرقوا بين ذكر وأنثى أو بين شاب ورجل طاعن فى السن . ويقول بارنج أحد رجال السفارة البريطانية فى إستانبول بعد زيارته للقرية إن مذبحة باتاق تعد أشنع جريمة وحشية لطخت تاريخ القرن التاسع عشر ، وإن عدد سكان القرية كان سبعة آلاف شخص لم ينج منهم إلا ألفان فقط . وسنلتقى بهذه الشخصية البريطانية بعد قليل ، وكان من أكبر المتحاملين على الدولة العثمانية فى مذابح البلغاريين، على النقيض من رئيسه سير هنرى إليوت Sir Henry Elliot السفير البريطانى فى إستانبول .

هياج الرأى العام الإسلامى :

المطالبة بمعاملة المسيحيين بالمثل :

وقد ثار الرأى العام الإسلامى فى الدولة على المذابح ، التى تعرض لها المسلمون فى بلغاريا . وقام طلبة المدارس الدينية فى العاصمة وكذلك أتباع الطرق الصوفية بمظاهرات صاخبة ضد السلطان عبدالعزيز، واعتبره المتظاهرون مسئولاً عن هذه المذابح وعن الارتباكات المالية التى عانت منها الدولة ، واتهموا الصدر الأعظم بأنه ذو ميول أو اتجاهات روسية Russophil ، واستقر رأى معظم الوزراء ومن إليهم من كبار المسئولين على ضرورة عزل السلطان عبدالعزيز . واستصدروا فتوى من حسن خير الله أفندى شيخ الإسلام تجيز عزله تأسيساً على أنه «مختل الشعور ، وليست له دراية بالمسائل السياسية ، ولتبذيره فى إنفاق أموال الدولة ، وإخلاله بالمسائل الدينية والدنيوية ، وتسببه فى خراب الدولة ، وفساد الملة الإسلامية». وتم عزل السلطان عبد العزيز فى الثلاثين من شهر مايو – آيار – عام ١٨٧٦ ، وعين مكانه السلطان مراد الخامس . ولم تمض إلا أيام ذات عدد حتى جاز السلطان عبدالعزيز إلى ربه فى ظروف غامضة . أما السلطان الجديد مراد الخامس ، فقد خلع

هو الآخر بعد ثلاثة شهور من تعيينه . وصدرت فتوى من شيخ الإسلام تجيز خلعه بناء على إصابته بخبل فى قواه العقلية(١). وعين مكانه أخوه عبدالحميد الثانى فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أغسطس – آب – عام ١٨٧٦ ، واستغل الثوار البلغاريون هذه الهزات العنيفة المتلاحقة التى تعرض لها العرش العثمانى فى هذا الوقت العصيب ، ووسعوا نطاق عمليات مذابح المسلمين بحيث شملت النساء والأطفال . ولما وصلت القوات النظامية من الجيش العثمانى إلى بلغاريا ، استطاعت السيطرة على الموقف ، واستخدمت العنف فى إخماد الثورة . وإزاء هذه النكسة التى أصابت ثورة بلغاريا، أذاع المرجفون فى أوروبا طولاً وعرضاً أنباء مبالغاً فيها عن المذابح التى تعرض لها البلغاريون ، وذهبوا إلى أن الدولة العثمانية بإقدامها على هذه المذابح قد ارتكبت وحشية لم ير لها القرن التاسع عشر من قبل مثيلاً .

خطف فتاة مسيحية اعتنقت الإسلام :

وفى هذا الوقت العصيب وقع حادث مؤسف أدى إلى تصعيد الموقف المتأزم بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية الكبرى، التى اتهمت الدولة بأنها ممعنة فى ممارسة تعصبها الدينى ضد المسيحيين ،على النقيض من الدول الأوروبية التى تضع فى اعتبارها الأول سياسة التسامح الدينى مع رعاياها دون تمييز بينهم فى الدين أو المذهب . وأرادت أن تتخذ من هذا الحادث ذريعة للتدخل فى شئونها وتمزيق أوصالها .

ويتلخص هذا الحادث طبقاً لرواية ميلر Miller فى أن فتاة مسيحية بلغارية اعتنقت الإسلام حديثاً ، تعرض لها بعض اليونانيين فى اليوم الخامس من شهر مايو – آيار – عام ١٨٧٦ فى أثناء وجودها فى محطة السكة الحديدية فى مدينة سالونيك ، ومزقوا غطاء وجهها – اليشمك Yashmak – وخطفوها وأخفوها فى دار قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المدينة . وانتشر الخبر بين المسلمين ، وتزعمهم عدد كبير من غوغائهم ، صبوا جام غضبهم وتعصبهم الدينى على قنصل فرنسا وقنصل ألمانيا . وكان القنصل الأخير من رعايا بريطانيا، وقع عليه اختيار حكومة برلين ليمثل المصالح الألمانية فى مدينة سالونيك . واستطاع هؤلاء المسلمون القبض على القنصلين وساقوهما إلى أحد مساجد المدينة حيث تم قتلهما فى اليوم السادس من الشهر ذاته . وألقت السلطات العثمانية القبض على ستة من رعاع المسلمين الذين تزعموا الحركة وأمرت بشنقهم فوراً(٢) ، ولعل السلطات العثمانية أرادت أن تنفى عن نفسها شبهة الاشتراك فى تدبير قتل القنصلين . ولكن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية لم يكن كافياً فى نظر الحكومات الأوروبية ، التى اتهمت الدولة بالتراخى فى حماية القنصلين، ونظرت إلى قتلهما على أنه أشد خطراً وأكثر أهمية من مذابح البلغاريين . ومن ثم لجأت إلى

(١) نشر الأستاذ محمد فريد بك النصين الكاملين لنهايتى الفترتين فى كتابه ص٣٧٦ ، ص٣٨٤ على التوالى .
(2) Miller W.; op. cit., p. 367.

تدبير سياسية وعسكرية ، سنشير إليها بعد حين .

أما محمد فريد بك فيذكر هذا الحادث فى صورة أدنى إلى الحقيقة ، وتتماشى مع المنطق ومع تسلسل الأحداث ، فيقول : إن هذه الفتاة قد وصلت فى الخامس من شهر مايو - آيار - ١٨٧٦ إلى سالونيك لتتخذ الإجراءات الشرعية لإشهار إسلامها أمام قاضى المدينة . وكانت فى حراسة بعض الجنود العثمانيين ، وفى طريقها إلى دار المحكمة تعرض لها بعض رعاع اليونانيين واعتمدوا على كثرتهم العددية ، وانهالوا ضرباً على الجنود العثمانيين حتى استطاعوا خطف الفتاة وأخفوها فى دار قنصل الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم نقلوها إلى دار أحد كبرائه . وانتشر الخبر سريعاً فى أوساط المسلمين فثارت ثائرتهم ، واحتشدوا أمام دار الوالى العثمانى وطلبوا منه البحث عن الفتاة ، ووعدهم الوالى باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإنقاذ الفتاة، ولم تثمر جهود الوالى فى هذا الصدد . وفى اليوم التالى اجتمعت حشود كاثرة من المسلمين فى أحد المساجد واتهموا الوالى بالتقاعس عن إنقاذ الفتاة ، وانتشرت الشائعات بأن الفتاة محتجزة سراً فى دار قنصل ألمانيا ، «وفى أثناء هذا الهياج حضر قنصلاً فرنسا وألمانيا . ويقال إنهما دخلا الجامع . ولتواتر الإشاعة بأن البنت فى بيت قنصل ألمانيا ازداد الهياج . وفى أقل من القليل بلغت الحدة منتهاها من المجتمعين ، وتعدوا على القنصلين بالقتل»(١) .

عقد مؤتمر دولى فى برلين لبحث حماية رعايا الدولة المسيحيين :

تطايرت الأنباء عن هذا الحادث إلى العواصم الأوروبية ، واجتمع فى برلين فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ؛ أى بعد مضى أربعة أيام على مقتل القنصلين - مؤتمر ثلاثى ضم بسمارك المستشار الألمانى ، وأندراسى وزير خارجية النمسا والمجر ، وغورتشاكوف إسكندر (٢) .Gortchakov Alex المستشار الروسى . ويلاحظ أن الدول الثلاث التى اشتركت فى هذا المؤتمر كانت ، تشكل ماعرف فى تاريخ أوروبا الحديث «باتحاد القياصرة الثلاثة Dreikaiserbund الذى تكون فى سنة ١٨٧٢ ، واستمرت اجتماعات المؤتمر ثلاثة أيام أصدر فى نهايتها لائحة برلين أو مذكرة برلين Berlin Memorandum ، وهى مذكرة شديدة اللهجة طالبت الباب العالى باتخاذ إجراءات رادعة لحماية الرعايا المسيحيين الخاضعين للدولة وتحسين أوضاعهم ، وأن يوافق الباب العالى على تشكيل لجنة دولية لمراقبة تنفيذ ما جاء فى المذكرة ، وأن تبرم هدنة مع الثوار لمدة شهرين أو ستة أسابيع للوصول إلى إتفاق مرض للثوار.

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٩٩ .
وانظر رواية مصطفى كامل باشا عن هذه الحادثة فى كتابه :
المسألة الشرقية ، ج١ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٠٩ ، ص ص٢١٥-٢١٧ .

(٢) توجد شخصيتان تحملان الاسم ذاته : الأولى الأمير إسكندر غورتشاكوف ، والثانية الأمير ميخائيل غورتشاكوف .

فإذا لم يصل الباب العالى إلى عقد مثل هذا الاتفاق .. فإن الدول ستلجأ إلى استخدام القوة لتنفيذ ماجاء فى مذكرة برلين(١) .

وعرض المؤتمر على بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الاشتراك فى التوقيع على هذه المذكرة ، فرفضت بريطانيا متذرعة بأنها لم توجه إليها الدعوة للاشتراك فى المؤتمر الثلاثى . وكان دزرائيلى - لورد بيكونزفيلد Beaconsfield؛ فيما بعد - رئيس الوزارة البريطانية يرمى إلى عدم تدخل الروسيا فى مسائل الدولة العثمانية ، وأن من الأفضل ترك العثمانيين يفصلون فيها بما يرون . وأصدرت الوزارة البريطانية فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ الأوامر إلى وحدات من الأسطول البريطانى بالتحرك إلى خليج بيسيكا Besika ليكون على أهبة التوجه إلى البوسفور ، إذا أعلنت الروسيا الحرب على الدولة العثمانية وحاولت احتلال إستانبول . أما فرنسا وإيطاليا فقد وافقتا على الاشتراك فى مذكرة برلين ، ويلاحظ أن فرنسا كان قد تأثر مركزها الدولى عقب هزيمتها فى الحرب السبعينية ، وإن كانت دائبة السعى لاستعادة مركزها السابق . أما إيطاليا التى كان يطلق عليها صغرى الدول الكبرى فكانت تريد أن تشبع غرورها بمواكبة الدول الكبرى . أما الباب العالى فوقف موقفاً سلبياً من مذكرة برلين لعلمه تعذر اتفاق الدول الكبرى فيما بينها لتباين أطماعها وأهدافها ولعدم موافقة بريطانيا على المذكرة . وانصرف الباب العالى للتصدى للثورات المسيحية التى اندلعت فى أنحاء شتى فى شبه جزيرة البلقان ، ولمواجهة المؤامرات التى كانت تحيكها الروسيا ضد الدولة العثمانية ، وكان الموقف يتدهور وينذر بأن الحرب آتية لاريب فيها . وكان تقدير الدولة للموقف السياسى والحربى سليماً ، فقد تطورت الأحداث تطوراً أدى إلى إعلان الروسيا الحرب فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ على الدولة ، وانضمت إلى الروسيا كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود .

تشهير جلادستون بالدولة العثمانية :

تطايرت الأنباء المبالغ فيها عن مذابح البلغاريين المسيحيين إلى جلادستون زعيم حزب الأحرار فى إنجلترا ، فخرج من عزلته حيث كان عاكفاً على التعمق فى دراسة اللاهوت. وكان هذا الزعيم السياسى إنجيلياً يفيض تعصباً دينياً ، وكان يمقت الدولة العثمانية مقتاً شديداً بصفتها دولة إسلامية تحكم شعوباً أوروبية مسيحية ، فلما قامت الثورة البلغارية وما اقترنت به من مذابح لم ينظر إليها نظرة موضوعية تتناول جميع جوانبها ، ولكنه نظر إليها نظرة دينية

(١) يلاحظ أن مذكرة برلين المؤرخة فى ١٣ من مايو . آيار - عام ١٨٧٦ تضمنت الخطوط الرئيسية التى جاءت فى المذكرة التى وضعها أندراسى فى الثلاثين من ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٧٥ ، وكانت تشمل الإصلاحات التى يجدر فى نظر الدول أن يتبعها الباب العالى لإصلاح حال رعايا الدولة المسيحيين ، وتأليف لجنة دولية للإشراف على تنفيذ الإصلاحات المقترحة .

ضيقة على أنها ثورة شعب مسيحى يئن من مظالم حاكم مسلم ، فقام - مدفوعاً بشعوره الدينى المتأجج ومناوأته لحزب المحافظين الذى كان وقتذاك فى الحكم - بجولات فى المدن الإنجليزية يلقى أمام الجماهير خطباً حماسية مستغلاً بلاغته ومقدرته الخطابية . وتناول المذابح البلغارية ، وهاجم الدولة العثمانية ، ونعتها بأنها نقمة على الحضارة والإنسانية ، وطالب بطرد العثمانيين نهائيّاً من أوروبا ، هم وما ملكت أيديهم Bag and Luggage ، كما طالب بإنقاذ الشعوب المسيحية الخاضعة لهم ، ونشر فى عام ١٨٧٦ كتاباً صغيراً عنوانه

Bulgarian Horrors and the Question of the East.

أى «الأهوال البلغارية والمسألة الشرقية» . وكان مما جاء فى هذا الكتيب .

"Let the Turks now carry away their abuses in the only possible manner, namely, by carrying off themselves. Their Zaptielis and their Mudirs, their Binbashis and their Yuzbachis, their Kaimakams and their Pashas, one and all, bag and baggage, shall, I hope, clear out from the province they have desolated and profaned". (1)

«فليحمل الأتراك الآن مساوئهم بعيداً ، وبالطريقة الوحيدة الممكنة ، أى يرحلوا بأنفسهم. ومعهم الضبطية (٢) والمديرون ، والبنباشية(٣) ، واليوزباشية(٤) ، والقائمقامية (٥) ، والباشوات، جميعاً ، هم وما ما ملكت أيديهم . وإنى لآمل أن يرحلوا عن الولاية (٦) التى نشروا فيها الخراب ودنسوها» .

---

(1) Miller W., op. cit., p. 366.

(٢) معناها رجال الشرطة .

(٣) البنباشية ، وتكتب أحياناً بمباشية ، وأحياناً أخرى بكباشية ومعناها الضباط من رتبة بمباشى ، بنباشى، بكباشى ، أى مقدم .

(٤) يوزباشية ، مفردها يوزباشى ، أى الضابط من رتبة يوزباشى ، ومعناها فى المصطلح العسكرى الحديث نقيب .

(٥) القائمقامية مفردها قائمقام ، أى الضابط الذى يحمل هذه الرتبة . وتعادل فى المصطلح العسكرى الحديث عقيد .

(٦) يقصد جلادستون من هذه العبارة بلغاريا . ويستند معظم المؤرخين الإنجليز إلى هذه العبارة ، وكانوا فى مجموعهم متعاطفين مع جلادستون ، ويقررون أنه لم يطالب بطرد العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى أوروبا ..ولكن الحقيقة أنه طالب فى موطن آخر فى كتيبه (ص٥٤) بضرورة طرد العثمانيين من البوسنة والهرسك. ويستشف الدارس المحايد من كتابة جلادستون أن هدفه النهائى كان طرد العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى أوروبا ، وإنقاذ الشعوب المسيحية الخاضعة لهم من سيطرتهم .

ويذكر أحد المؤرخين الإنجليز أنه بيع من هذا الكتيب فى خلال ثلاثة أو أربعة أيام عدد ضخم بلغ أربعين ألف نسخة (١) . ومن المحتمل – إن لم يكن من المؤكد – أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . ولكن المهم أن الخطب التى ألقاها جلادستون والكتيب الذى نشره (٢) كانا أول وأشهر وأخطر حملة إعلامية سياسية ضد الدولة العثمانية، قام بها زعيم سياسى فى تاريخ السياسة البريطانية . وقد وضع جلادستون كتيباً ثانياً باسم Lesson in Massacre أى «دروس فى المذابح» . ولكن لم يكن لهذا الكتيب الثانى الشعبية العريضة أو الأثر القوى الذى ظفر به الكتيب الأول ، ويقول جلادستون إنه منذ المذابح التى تعرض لها البلغاريون جعل من المسألة الشرقية شاغله الأول . ولم تكن تسوية المسألة الشرقية فى نظره سوى عقد مؤتمر دولى لتصفية الدولة العثمانية بتقطيع أوصالها، وتخليص الشعوب المسيحية الخاضعة لها من السيطرة العثمانية ومنحها الاستقلال ، أو تحويلها إلى مناطق نفوذ للدول الأوروبية الكبرى أو احتلالها عسكرياً أو ضمها إليها .

تحليل موقف جلادستون :

ولنا عدة ملاحظات على حملات التشهير ، التى قام بها جلادستون على المذابح البلغارية:

أولاً : أنه أفاض فى الكلام عن المذابح التى تعرض لها البلغاريون ، ولم يتعرض للمذابح التى ذهب ضحيتها المسلمون ، وهى ظاهرة عامة فى كافة المذابح التى لاكتها ألسنة المؤرخين والباحثين الأوروبيين فى تاريخ الدولة العثمانية ، كما سبق أن ذكرنا .

ثانياً : أنه لم يذكر أن البلغاريين هم الذين أخذوا زمام المبادأة بذبح المسلمين . وأن المذابح التى قام بها المسلمون جاءت متأخرة وكانت دفاعاً عن أنفسهم ، وأن البلغاريين لم تكن لديهم الشجاعة ، مع توافر الأسلحة لديهم والتى تدفقت عليهم من عملاء الروسيا ، للوقوف فى مواجهة عسكرية ضد القوات العثمانية ، وإنما اختاروا المدنيين المسلمين هدفاً عسكرياً لهم . وكانت كل جريرتهم فى نظر البلغاريين أنهم عثمانيون أصلاً أو بلغاريون اعتنقوا الإسلام ، وهم فى كلتا الحالتين سوائم أحل للبلغاريين المسيحيين ذبحهم واستئصالهم .

ثالثاً : تناسى جلادستون حرب الأفيون الأولى (١٨٣٩-١٨٤٢) ، وحرب الأفيون الثانية

(1) Ensor R.C.K., op. cit., p. 45.

(٢) يذكر إنسور أن جلادستون نشر كتيبه أولاً ، ثم قام بجولته فى المدن الإنجليزية مهاجماً الدولة العثمانية، ناعياً عليها ارتكابها المذابح البلغارية . وهذه مسألة شكلية ، ولكننا آثرنا الإشارة إليها تماشياً مع المبدأ القانونى ، وهو «الأخذ بالأحوط» .

(١٨٥٦-١٨٥٧) اللتين شنتهما بريطانيا على شعب الصين لإجباره على الاتجار فى الأفيون كسلعة تجارية وعلى تعاطيها . وتناسى أن بريطانيا قد استخدمت أحدث الأسلحة البرية والبحرية، وقصفت بالمدافع والقنابل الجيش والشعب والمنشآت ، ونشرت المذابح والحرائق والخراب فى الصين(١) .

(١) لم تكن الصين تعرف الأفيون إلا بعد أن تسلل التجار البرتغاليون والهولنديون ، ونزلوا فى مدينة كانتون Canton فى جنوبى الصين فى القرن السابع عشر ، فأخذت هذه السلعة تظهر فى البلاد بالتدريج وفى نطاق محدود جداً إلى أن دخل رجال من بريطانيا الميدان ، وأخذوا ينقلون الأفيون كسلعة تجارية من الهند إلى الصين بمقادير متزايدة عاماً بعد عام .

ويلاحظ أن الهند كانت أكثر الدول إنتاجاً للأفيون . وكان حكام الهند - سواء على عهد شركة الهند الشرقية البريطانية أو على عهد تبعيتها المباشرة للحكومة البريطانية (وزارة الهند) - حريصين على التوسع فى إنتاج الأفيون وعلى إيجاد أسواق ضخمة لاستهلاكه . ورأت بريطانيا أن الصين بلاد مترامية الأطراف كثيفة السكان تعد خير سوق للاتجار فيه ، وقد اضطرت حكومة بكين إلى إصدار أول مرسوم سنة ١٧٢٩ بمنع الاتجار فى الأفيون واستهلاكه . وتوالت المراسيم فى هذا الصدد . ولم تعبأ بها شركة الهند الشرقية البريطانية التى اشتركت فى هذه التجارة بعد أن كانت مقصورة على أفراد وجماعات من التجار ، وتظاهرت أنها لاتقر هذه التجارة ، ولكنها ما لبثت أن كشفت عن وجهها القبيح ، فزادت من مساحة الأراضى الهندية لزراعة الأفيون . ومضت فى تصدير معظم محصول الأفيون إلى الصين فى سفن مجهزة بالمدافع حتى إذا اقتربت من شواطىء الصين ، انطلقت منها زوارق سريعة تحمل صناديق الأفيون فى حماية رجال مسلحين . ولما اعترضت حكومة بكين لدى بريطانيا على إصرارها على تصدير هذه السلعة ، شنت بريطانيا حرباً على الصين عام ١٨٣٩ من أجل حرية الإتجار فى الأفيون ، واستطالت هذه الحرب، التى تسمى حرب الأفيون الأولى ، إلى عام ١٨٤٢ . وكانت عبارة عن مذابح ارتكبتها القوات البريطانية مدججة بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً ، وتساقط الصينيون تل . وانتهت هذه الحرب بهزيمة ساحقة لجيش الصين الذى لم يكن لديه أسلحة ذات خطر، وأبرمت معاهدة نانكين Nankin ، وتقرر بمقتضاها أن تستولى بريطانيا على جزيرة هونج كونج Hong-kong ، وهى ذات موقع إستراتيجى هام ، وأن تدفع حكومة الصين غرامة حربية ضخمة لبريطانيا ، وتعويضات مالية للتجار الذين أضيروا فى تجارة الأفيون بسبب العمليات الحربية . كما تضمنت المعاهدة نصاً يقرر أن تهريب الأفيون خروج على القانون . ويكشف هذا النص عن نفاق السياسة البريطانية تجاه الشعوب الشرقية غير المسيحية ؛ لأنه على الرغم من إدراج هذا النص فى المعاهدة ، مضت الحكومة البريطانية تضغط على حكومة الصين كى توافق لورد بالمرستون Palmerston إالمندوب البريطانى فى الصين يطلب منه السعى لعقد إتفاقية مع الصين تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة تجارية ، وأن تفرض حكومة بكين رسوماً جمركية عالية على الأفيون المستورد حتى تزداد حصيلة الرسوم الجمركية ، وبالتالى تتضاعف موارد الحكومة . ولكن رفض إمبراطور الصين هذا الاقتراح بشقيه قائلاً «قد أكون عاجزاً عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى على كره منى ، لأن بعض الناس تدفعهم شهواتهم وحبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى. ولكن ليس فى العالم قوة تستطيع أن تغرينى على أن أستمد للدولة إيراداً من تسميم شعبى ونشر الرذيلة فيه» .

وأصرت الحكومة البريطانية على موقفها ، وأعدت مستعمرة هونج كونج لإيواء التجار والمهربين وحصنتها تحصيناً قوياً . وأعدت فيها مستودعات لتخزين صناديق الأفيون ، ريثما تنقلها زوارق التهريب=

رابعاً : لم يعمد جلادستون – وهو زعيم حزب الأحرار – إلى التشهير بفرنسا حين أقدمت على إجراء مذابح عامة بين أهل الجزائر عقب احتلالها هذا البلد حين أقدمت على إجراء مذابح عامة بين أهل الجزائر عقب احتلالها هذا البلد عام ١٨٣٠ ، والسبب معروف ، وهو أن الجزائريين شعب عربى مسلم . وفى قاموس الاستعمار الأوروبى بعامة والإنجليزى بخاصة أنه لاتثريب على دولة أوروبية مسيحية إذا غزت بلداً إسلامياً أو بلداً عربياً إسلامياً واستعمرته واستذلت أهله واستغلتهم . ومما يذكر فى هذا الصدد أن مصر وقعت قريبة الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ على عهد وزارة الأحرار الثانية وكان رئيسها جلادستون ، وكان وزير خارجيتها لورد جرانڤيل George Granville وقد شكلت فى أبريل – نيسان – عام ١٨٨٠ ، وتلاعبت هذه الوزارة بالألفاظ فوصفت الاحتلال البريطانى لمصر بأنه احتلال مؤقت ، ومع ذلك استطال ثلاثة وسبعين عاماً . كما حدث على عهد هذه الوزارة استيلاء فرنسا على تونس عام ١٨٨١ ، وكانت قد ظفرت عام ١٨٧٨ بموافقة بريطانيا على استيلائها على هذا البلد العربى الإسلامى بعد مفاوضات متعثرة مع لورد سالزبورى Salisbury وزير الخارجية البريطانية(١) وكان

= وهى زوارق مسلحة تمنحها السلطات البريطانية فى هونج كونج ترخيصاً رسمياً لمزاولة عمليات التهريب فى حماية العلم البريطانى .

وافتعلت بريطانيا حادثاً لإشعال حرب ثانية ، ابتغاء إكراه حكومة الصين على إباحة تجارة الأفيون . وهذه هى حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦–١٨٥٧) ، وأغارت القوات البريطانية على بلاد الصين . وأمطرت سكانها بالقنابل ودمرت المدن والقرى . ولم يكن فى مقدور الجيش الصينى أن يقاوم القوات البريطانية ، وأسفرت هذه الحرب عن هزيمة الصين ، وكان من أهم نتائجها اتساع مستعمرة هونج كونج ، بحيث لم تعد مقصورة على الجزيرة المواجهة للساحل ، بل على قسم كبير من الإقليم الساحلى المجاور لها . وبذلك أصبحت المستعمرة البريطانية متصلة اتصالاً مباشراً ببلاد الصين لاتحول بينهما مياه البحر الضيق كما كانت الحال من قبل . واضطرت حكومة بكين فى عام ١٨٥٨ إلى إصدار أمر يبيح استيراد الأفيون وبفرض ضريبة على المستورد منه .

ويعلق كاتب إنجليزى على إشعال بريطانيا حربى الأفيون بقوله «ليس فى التاريخ التجارى الإنجليزى صفحة تلحق ببلادنا عاراً أشنع مما ألحقته بنا وبتجارنا وساستنا قصة الإتجار فى الأفيون مع الصين ، إذا سردناها ببساطة تامة من غير تهويل . فقد شنت إنجلترا أكثر من حرب واحدة على الشعب الصينى الأعزل المسكين ، من أجل الفوائد التى يجنيها المتجرون فى هذه السموم ، وقد استولت إنجلترا عنوة على أرض صينية اغتصبتها اغتصاباً ، لكى تجعل منها مرفأ يعتصم به المهربون الذين لم يلبثوا أن اتسعت تجارتهم وتزايد نشاطهم رغم أنف السلطات الصينية . وحسب أى رجل إنجليزى أن يطالع هذه القصة لكى يدرك السبب فى أن الأجانب يحكمون على هذه البلاد بأنها ، مع إدعائها التمسك بالمبادىء السامية ، لاتسمح للاعتبارات الإنسانية أن تحول بينها وبين مطامعها» .

انظر : دكتور محمد عوض محمد – الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ص٨٦–١٠١ .

(١) كان لورد سالزبورى يشغل منصب وزير الهند فى وزارة المحافظين الأولى ، وكان يرأسها بنيامين دزرائيلى اليهودى – وقد شكلها فى فبراير – شباط – ١٨٧٤ ، ثم نقل فى التعديل الوزارى الذى تم فى إبريل – نيسان – ١٨٧٨ وزيراً للخارجية خلفاً للورد دربى ، الذى أقصى من منصبه .

هدفه هو استرضاء فرنسا والتخفيف من ثورتها ، عندما ترامت إليها أنباء الاتفاقية السرية التى فرضتها بريطانيا فى الرابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ على الدولة العثمانية تحت سلاح التهديد ، واحتلت بمقتضاها جزيرة قبرص ونصت الاتفاقية: على أن احتلال بريطانيا لقبرص هو احتلال مؤقت . ومع ذلك استطال إلى الحرب العالمية الأولى ، حيث أعلنت ضم قبرص إليها، وفى سنة ١٩٢٥ طبقت نظام المستعمرات عليها.

ونخلص من هذه الملاحظات إلى أن موقف جلادستون من مذابح البلغاريين كان يتسم بالتحيز الصارخ للمسيحيين ، على الرغم من أنه ينتمى إلى ديانة سمحة كريمة هى المسيحية . وقد دفعه هذا التحيز إلى تناقض فى موقفه بالنسبة إلى سلبيته فى حالات ، أكثر سوءاً وقعت فى التاريخ القريب له .

وجدير بالذكر أن حزب الأحرار كان مؤيداً لرئيسه فى حملات التشهير التى قام بها . وكان لورد جرانفيل ، وهو من أقطاب الحزب[١] على رأس المناصرين له فى موقفه . كما حصل جلادستون على وعد بتأييد الصحف البريطانية الكبرى ، وعلى رأسها جريدة التايمز The Times لحملات التشهير بالدولة العثمانية ، وكذلك على عدد من كبار الناشرين وكبار المؤرخين الإنجليز[٢] ومن إليهم من أعلام الفكر فى إنجلترا[٣] .

مذكرة بريطانيا للدولة العثمانية :

عرض وتحليل ونقد

أرسل لورد دربى وزير خارجية بريطانيا مذكرة مؤرخة ، فى الثامن عشر من شهر

---

(١) كان جرانفيل وزيراً للمستعمرات فى وزارة حزب الأحرار الأولى التى شكلها جلادستون فى ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٦٨ ثم عينه وزيراً للخارجية فى ذات الوزارة عام ١٨٧٠ عقب وفاة لورد كلارندون وزير الخارجية فى الوزارة ذاتها عام ١٨٧٠ عقب وفاة لورد كلارندون وزير الخارجية . وفى وزارة جلادستون الثانية التى ألفها فى أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠ ، كان جرانفيل وزيراً للخارجية . وفى وزارة جلادستون الثالثة التى شكلها فى فبراير - شباط - عام ١٨٨٦، كان جرنفيل وزيراً للمستعمرات . وفى وزارة جلادستون الرابعة التى ألفها فى أغسطس - أب - ١٨٩٢ ، لم يظهر جرانفيل فى التشكيل الوزارى، لأنه كان قد توفى فى العام السابق (١٨٩١) .

(٢) كان منهم كارليل Carlyle ، وفرود Froude ، وستبز Stubbs ، وآكتون ، وجرين .Green R، وفريمان Freeman .

(٣) نذكر من بينهم : تنيسون Tennyson ، ورسكين Ruskin ، وبيرن جونس Burne-Jones ، وداروين Darwin .

ونخلص من ذكر هذه الأسماء اللامعة إلى أن أعلام الفكر فى إنجلترا ، كانوا من زمرة المهاجمين أو المعارضين للدولة العثمانية .

سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٦ إلى سير هنرى إليوت السفير البريطانى فى إستانبول ، اشتملت على خلاصة تقرير ضاف عن مذابح البلغاريين المسيحيين، تلقاه من بارنج Baring سكرتير السفارة البريطانية فى إستانبول .

وكان الوزير قد عهد إليه بتقصى الحقائق عما نسب إلى العثمانيين من إجراء مذابح عامة فى بلغاريا بين سكانها المسيحيين . وقد جاء تقرير بارنج ، يتشح بالتحيز الصارخ ضد العثمانيين والمبالغة الشديدة فى وصف المذابح والأهوال التى تعرض لها البلغاريون . ولم يبد بارنج أدنى اهتمام فى تقريره بمذابح المسلمين على أيدى البلغاريين ، ولم يذكر أن البلغاريين هم الذين بدأوا عمليات الذبح الجماعى للمسلمين ، ثم ذكر أرقاماً غير مؤكدة عن عدد ضحايا المسيحيين .

ثم طلب وزير الخارجية فى مذكرته أن يوجه السفير اللوم إلى الحكومة العثمانية على ارتكاب تلك المذابح ، وأن يطلب باسم الملكة ڤيكتوريا من السلطان عبدالحميد الثانى شخصياً - ولم يكن قد استكمل ثلاثة أسابيع على ارتقائه العرش - أن تدفع الحكومة العثمانية تعويضات مالية للثوار ، وأن تعيد على نفقتها بناء ماتهدم من كنائسهم ومنازلهم ، وأن تقدم مساعدات للأهالى المسيحيين ، الذين بقوا على قيد الحياة وشردوا من بيوتهم وفقدوا مصادر رزقهم ، وأن تدبر على وجه السرعة وسائل إعاشتهم وتأمين مستقبلهم ، وأن تأمر بإعادة المنهوبات والمسروقات إلى ذويها المسيحيين ، وأن تعيد السيدات المخطوفات إلى بعولتهن ، وأن توقع عقوبات رادعة على الموظفين العثمانيين ، الذين أمروا بإجراء تلك المذابح ، أو الذين اشتركوا فى تنفيذها أو الذين أظهروا تراخياً فى منعها ، وأن يحكم بلغاريا حاكم قدير بشرط أن يكون مسيحياً.

وإذا أرادت الدولة أن يكون الحاكم مسلماً ، فلابد من تعيين مستشارين له من المسيحيين حتى يستطيع السكان المسيحيون فى بلغاريا الاعتماد عليهم والاطمئنان عليهم . وأضاف وزير الخارجية إلى هذه المطالب قوله إن الحكومة البريطانية قد استحوذت عليها الدهشة حين ترامت إلى مسامعها أن الباب العالى قد أمر بترقية الذين شاركوا فى ذبح المسيحيين وبمنحهم أوسمة .

وقرر وزير الخارجية أن الباب العالى قد أخفيت عليه حقائق الموقف الرهيب فى بلغاريا، وإلا ما أخذت تلك المذابح هذا الحجم الكبير وهذا العنف البالغ وهذه الوحشية التى تقشعر منها الأبدان . وضرب لورد دربى مثلاً بمقتلة قرية باتاق . وقال إنها بدأت فى اليوم التاسع من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ، واستمرت حتى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - من السنة ذاتها . واستطرد فقال إنه لم تكن لمذابح البلغاريين أصداء واسعة وأليمة فى بريطانيا فحسب ، بل امتدت هذه الأصداء إلى كافة أرجاء أوروبا . وأكد أن الدول

الموقعة على معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ لن تقف مكتوفة الأيدى أمام المذابح، التى ارتكبتها الدولة ضد البلغاريين المسيحيين. وفى ختام المذكرة طلب وزير الخارجية من السفير البريطانى أن يقابل الصدر الأعظم ويترك له نسخة من هذه المذكرة لتنفيذ ماجاء بها .

على هذا النحو جاءت مذكرة وزير الخارجية البريطانية ترديداً لحملات تشهير جلادستون بالدولة العثمانية ، وقد سمحت الحكومة البريطانية لنفسها بالتدخل فى صميم الشئون الداخلية للدولة العثمانية بتقديم مطالب جائرة ، تمس سيادة الدولة على أحد أقاليمها وبتأليب الدول الأوروبية عليها ، وهى الدول الأطراف فى معاهدة باريس (٣٠ من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦)، والتى نصت على منع أى دولة من التدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية . كما أن ثلاثاً من الدول الأطراف فى هذه المعاهدة ، وهى بريطانيا وفرنسا والنمسا ، قد وقعت فى ١٥ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٦ على معاهدة عرفت باسم معاهدة ضمان استقلال الإمبراطورية العثمانية ، وتماسك أقاليمها، تعهدت فيها الدول الثلاث بأن تضمن مجتمعة ومنفردة استقلال الدولة وسلامة ممتلكاتها كما تعهدت بعدم التدخل ، مجتمعة ومنفردة أيضاً ، بين السلطان ورعاياه ولا فى الإدارة الداخلية للدولة العثمانية . وإذا قامت صعوبات أو استجدت مشكلات بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول الأطراف فى المعاهدة ، فقبل الالتجاء إلى استخدام القوة يجب الاحتكام إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه المعاهدة ، وألحقت هذه المعاهدة الثلاثية بمعاهدة باريس وغدت جزءاً منها[١] . والحق أن معاهدة باريس «كانت أول معاهدة وقعتها الدولة العثمانية [٢] لايكون فيها أى انتقاص لممتلكات السلطان أو إضعاف لقوته... وجعلت أمر استقلال الدولة العثمانية فى أمورها الداخلية جزءاً من القانون الدولى والدبلوماسية الأوروبية»[٣] .

ويلاحظ أيضاً أن مذكرة وزارة الخارجية البريطانية أغفلت عدة حقائق فى موضوع المذابح .. فلم تتعرض للمذابح التى تعرض لها المسلمون ، ولم تذكر أن البلغاريين هم الذين بدأوا بذبح المسلمين . ومن المؤسف حقّاً أن الحكومة البريطانية عمدت إلى نشر هذه المذكرة فى مجموعة وثائق الكتاب الأزرق لسنة ١٨٧٦ ، وهنا مكمن الخطورة ، لأن المؤرخين والباحثين فى الأجيال التالى استقوا مادتهم العلمية عن المذابح من هذه الوثيقة وغيرها . وفيها طمس للحقائق وقلب للأوضاع وإزهاق للحق وإحقاق للباطل .

---

(1) Great Britain, Parliamentary Papers, 1856, Vol. 61, pp. 444-445.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة الثلاثية فى باريس فى ٢٩ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٦ .

(٢) كان يمثل الدولة العثمانية فى مؤتمر باريس كل من غالى باشا وفؤاد باشا .

(٣) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٥٢-٥٣ .

نتائج حملات جلادستون التشهيرية بالدولة العثمانية :

كان لحملات التشهير التى اندفع إليها جلادستون ضد الدولة العثمانية أصداء بعيدة فى كافة أنحاء أوروبا ، كما ترتبت على هذه الحملات نتائج خطيرة فى السياسة الدولية ، انعكست آثارها على مركز الدولة العثمانية وولاياتها المسيحية البلقانية وموقف الدول الأوروبية الكبرى . وكان من بين هذه النتائج :

أولاً : ساد الاعتقاد فى أوروبا – سواء فى الدوائر الرسمية أو على الصعيد الجماهيرى – أن العثمانيين كانوا هم الجناة فى مذابح البلغاريين ، وأن الأخيرين هم المجنى عليهم ، ثم جاءت الوثائق الرسمية تؤيد هذه الحقيقة الزائفة فى أذهان الأجيال المتعاقبة .

ثانياً : فقدت الدولة العثمانية عطف وتقدير قطاعات كبيرة من الرأى العام فى إنجلترا وفرنسا وغيرها .

ثالثاً : ازداد اعتقاد الحكومات الأوروبية أن الدولة العثمانية لم تعد صالحة للبقاء كدولة متماسكة قوية قديرة على تطوير نظمها وتحسين معاملة رعاياها المسيحيين ، وأن وجودها أصبح يهدد السلام العالمى للخطر، وأن الحل الأمثل هو استبعادها من الخريطة السياسية لشرقى أوروبا كخطوة أولى ، ثم تقسيم ممتلكاتها ذات الأهمية الإستراتيجية فى آسيا ، وإفريقية بين الدول الأوروبية الكبرى .

رابعاً : أما النتيجة الرابعة فتنبثق عن النتيجة السابقة ، وهى أن حملات جلادستون التشهيرية قد وضعت حداً للسياسة التقليدية التى سارت عليها بريطانيا ، وهى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها ، بصفتها دولة كبرى محايدة وحاجزة A Great Neutral Buffer State تحول دون استيلاء الروسيا على إستانبول والمضايق، والتسلل منها إلى المياه الدفيئة ، وتكفل لبريطانيا فى الوقت ذاته الاطمئنان إلى مصالحها فى حوض البحر المتوسط ومنطقة الشرق الأوسط وسلامة مواصلاتها مع الهند . فلم يكن فى مقدور حكومة المحافظين ورئيسها دزرائيلى أن تعلن التمسك بهذه السياسة التقليدية القديمة ، وبالتالى لاتستطيع التدخل للدفاع عن العثمانيين . وأعلنت الروسيا الحرب على الدولة العثمانية فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٧٧ ، وكانت هذه رابع وآخر حرب اشتعلت بين هاتين الدولتين فى القرن التاسع عشر (١) . وقد خاضتها الروسيا تحقيقاً لأطماعها التوسعية فى الدولة العثمانية، وانتصاراً لحركة الجامعة الصقلية ومساندة للشعوب المسيحية البلقانية . وانضمت كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود إلى جانب الروسيا . وعبرت القوات الروسية نهر

(1) Miller W.; op. cit., p. 373 .

الدانوب وانسابت مع حليفاتها فى اتجاه الجنوب ودخلت بلغاريا، واحتلت أدرنة واقتربت من مشارف الأستانة فى شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٧ . أما فى الشرق.. فقد استولت الروسيا على معظم أرمينيا . وطلب السلطان عبدالحميد الثانى الصلح . فعقدت هدنة فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير - كانون ثان - تلتها معاهدة سان ستفانو San Stefano وقد فرضتها الروسيا على الدولة العثمانية ، فى اليوم الثالث من شهر مارس - آذار- وكانت معاهدة ثنائية غير متكافئة ، وسنتكلم عنها فى موطن قادم فى هذه الدراسة.

جاءت الهزائم العسكرية المتلاحقة التى تعرضت لها الدولة العثمانية فى هذه الحرب تأكيداً عملياً ومجسداً لرأى وزارة المحافظين البريطانية فى أن سياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية ، إنما هى سياسة عقيمة ، وأنها مضيعة للأرواح والأموال والوقت والجهود (١) . وكان بنيامين دزرائيلى زعيم حزب المحافظين ورئيس الوزارة وقتذاك ولورد سالزبورى وزير الخارجية يدينان بالرأى القائل إن الدولة العثمانية لم تستفد من الفرصة التى أتاحها لها صلح باريس عام ١٨٥٦ لتنظيم شئونها وتوطيد دعائم ملكها ، بل تدهورت أوضاعها المالية والعسكرية وازدادت إيمراطوريتها تزعزعاً وفشلت فى حكم ولاياتها ، وعجزت عن دفع فوائد ديونها والوفاء بسائر التزاماتها(٢) .

* * *

(1) Seton-Watson R.W.; Disraeli; Gladestone and the Eastein Question. A Study in Diplomacy and Party Politics, London, 1935, P. 423.

(٢) على الرغم من التغيير الجذرى الذى طرأ على السياسة التقليدية لبريطانيا تجاه الدولة العثمانية منذ عام ١٨٧٧ أو ١٨٧٨ من الناحية العملية أو التطبيقية ، لم تغير بريطانيا موقفها من أطماع الروسيا ، إذ ظلت حريصة على وقف التوسع الروسى نحو البحر المتوسط ، وعلى منع الروس من السيطرة على المضايق ، وعلى الحيلولة دون تسللهم من أرمينيا إلى العراق والشام وغيرها .
انظر : دكتور محمد مصطفى صفوت - مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٧-١٩ .

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (١)

أولاً : حماية الأماكن المقدسة الإسلامية من مخططات الصليبية البرتغالية

حماية المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى :

كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت فى وجه الزحف الصليبى الاستعمارى البرتغالى للبحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . فعلى الرغم من أن الدولة أخفقت فى طرد الاستعمار البرتغالى من مراكزه فى المحيط الهندى ومنطقة الخليج العربى .. إلا أنها نجحت فى منع تغلغله إلى الحجاز ، حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبى مسرف فى وحشيته ، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة ، ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة ، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم استئناف الزحف على تبوك ، ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى ، وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة فى أيدى البرتغاليين . وكان الأسطول البرتغالى قد نجح فى دخول البحر الأحمر وقام بمحاولتين لاحتلال ميناء جدة : كانت الأولى فى عام ١٥١٧ والثانية فى سنة ١٥٢٠ ولكنه أخفق فى محاولتيه ، فأرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى ميناء السويس ، باعتبارها قاعدة الأسطول العثمانى فى البحر الأحمر، واستهدفوا تدمير هذه القاعدة . ولما بلغوا الطور علموا أن الأسطول العثمانى يقف فى حالة تأهب ، فارتدوا على أعقابهم دون أن يلتحموا به (١) .

وقررت الدولة اتخاذ اليمن قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر ومنع السفن البرتغالية من دخوله كما سبق أن ذكرنا ، ثم عممت هذا المنع على جميع السفن المسيحية بحيث كان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها فى ثغر المخا فى اليمن وتعود أدراجها إلى المحيط الهندى . وكانت شحنات هذه السفن يعاد نقلها على سفن إسلامية ، يعمل عليها بحارة مسلمون ، وترفأ

---

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : المراحل الأولى للوجود البرتغالى إلخ ، بحث سبقت الإشارة إليه.

إلى ثغور البحر الأحمر . وكانت حجة الدولة العثمانية فى هذا المنع هى أن الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز تطل على مياه البحر الأحمر، ويجب ألا تدنس مياهه بوجود سفن مسيحية تمخر عباب هذا البحر ، وقد ظل هذا الحظر معمولاً به حتى القرن الثامن عشر .

وجدير بالذكر أن المشروع البرتغالى الصليبى لم يكن الأول من نوعه . فقد حدث فى أثناء الحروب الصليبية فى الشرق العربى أن تجرأ أحد أمراء الصليبيين واسمه أرناط فى المصادر العربية ، ورينو دى شاتيو فى المصادر الأوروبية ، وكان صاحب حصن الكرك ، وقام بمشروع خطير سنة ١١٨٢ لغزو الحرمين الشريفين .. فبنى عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى إيله (إيلات) على خليج العقبة ، وأعيد تركيبها ثم قامت بهجوم على ساحل الحوراء [١] قرب ينبع ، وأغار الصليبيون على القوافل وأصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة ، واعتزموا الزحف عليها ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراج جسده الطاهر ونقله إلى بلادهم . غير أن العالم الإسلامى فى الشرق وقتذاك كان تضمه وحدة سياسية قوية على رأسها صلاح الدين الأيوبى . ووقع على مصر واجب حماية الأماكن المقدسة فى الحجاز . فما كادت تصل إليه وهو فى الشام هذه الأخبار حتى عهد إلى نائبه فى مصر العادل سيف الدين بتجهيز قائد الأسطول الأمير حسام الدين لؤلؤ ، وبتعقب هؤلاء الصليبيين فى الحجاز وإبادتهم أو أسرهم ، وأمر صلاح الدين بقتل الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يتجرأ على الاعتداء على «حرم الله وحرم رسوله» [٢] .

---

(١) بفتح الحاء وسكون الواو .

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى بحث عنوانه ، بحر الحجاز فى العصور الوسطى - للدكتور حسنين ربيع ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا البحث فى هذه الدراسة .

ثانياً : الدولة تحافظ على إسلام وعروبة شمالى إفريقية

الدولة تبسط سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية :

من الخدمات الجليلة التى أسدتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة ، بل لعل من أعظم خدماتها أنها حافظت على إسلام وعروبة سكان شمالى إفريقية من أخطار الغزو الصليبى الاستعمارى الأوروبى ، الذى حملت لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية التى اشتهرت باسم فرسان القديس يوحنا ، وكانت قد اتخذت لها فى نهاية المطاف من جزيرة مالطة مستقراً ومقاماً ، وكان من أهداف هذا الغزو أيضاً إنشاء ممالك مسيحية تتناثر على الساحل الشمال لإفريقية كمرحلة ثالثة ، وبذلك يغدو البحر المتوسط فى المدى البعيد بحيرة مسيحية أوروبية ، ويعقب ذلك فى مرحلة أخرى تغلغل صليبى أوروبى جنوباً فى داخل القارة الإفريقية . ولكن تصدت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية .. فأصبحت أحلاماً وغدت هباءً منبثاً .

بسطت الدولة العثمانية سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية فى القرن السادس عشر ، وكانت حسب ترتيب دخولها تحت السيادة العثمانية : الجزائر وطرابلس ، وتونس . ولم تمد الدولة نفوذها إلى مراكش - المملكة المغربية حالياً - لأسباب سنعرض لها فى موطن قادم فى هذا الفصل . كان سكان تلك الأقاليم - وبخاصة الجزائر وطرابلس - قد استنجدوا بالدولة العثمانية ، على أساس أنها أكبر وأقوى دولة إسلامية اكتسحت دولاً أوروبية عديدة ، وفتحت مصر والشرق العربى الآسيوى . وطالب سكان شمالى إفريقية بإنقاذهم من الزحف الصليبى الاستعمارى الأوروبى ، الذى كان خطره يتفاقم يوماً بعد يوم ، واستجابت الدولة لاستغاثاتهم . ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالى إفريقية نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالى البلاد ، أو تدخل مباشر من حكومة إستانبول على غرار ماحدث فى الشام أو مصر أو العراق ، ولكنهم فتحوها منقذين للسكان من أخطار القضاء على دينهم وطمس عروبتهم ، وتحويل بلادهم إلى جزء من العالم المسيحى . أما تونس فكان الوضع فيها يختلف اختلافاً جزئياً عن الوضع فى الجزائر وطرابلس، اشتد الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان على رأسها الإمبراطور شارل الخامس .

تبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة ، وفى إحدى المرات التى انتصر فيها الإمبراطور أقامت البابوية فى روما احتفالات رائعة ابتهاجاً بانتزاع تونس من المسلمين . ونجح الإمبراطور فى أن يصطنع أحد الأمراء ، وهو مولاى الحسن الحفصى ، ليكون عميلاً للاستعمار

وقبل أن يحكم تونس باسم الإمبراطور وتحت حمايته . ولما انتزعت الدولة العثمانية تونس عام ١٥٦٩ وأعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية دفعت الدولة العثمانية ثمناً باهظاً .. فقد تكون تحالف دولى صليبى ضدها ، أوقع بها هزيمة بحرية فادحة فى معركة ليبانت البحرية عام ١٥٧١ ، وشجعت هذه الهزيمة إسبانيا على إعادة غزو تونس وإعادة حكم الحفصيين إليها . ولكنهم لم يحتفظوا بمركزهم سوى عام واحد ، وعاد إليها العثمانيون سنة ١٥٧٤ ليستقر حكمهم فيها وليؤسسوا النيابة الثالثة والأخيرة فى شمالى إفريقية .

كان من الطبيعى أن يقوم الأسطول العثمانى بدور رئيسى فى هذا الصراع ، الذى احتدم بين الجانبين الصليبى والإسلامى فى شمالى إفريقية ؛ فالقوات الصليبية كانت تأتى من أوروبا عبر البحر المتوسط إلى الأقاليم الشمالية للقارة الإفريقية . وكانت الأساطيل الإسبانية وقوات فرسان القديس يوحنا فى رودس أولاً ، ثم فى مالطة ثانياً وغيرها من القوى البحرية تتردد على القواعد العسكرية التى أنشأها الصليبيون ، وتناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية من مراكش حتى طرابلس . وكان الأسطول العثمانى فى القرن السادس عشر يعمل متعاوناً مع القوات البحرية ، التى كان يقودها قادة محليون نشأوا فى خدمة الأسطول العثمانى .

ولايستطاع إدراك أهمية وحجم الدور الرائع الذى قامت به الدولة من أجل الحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمالى إفريقية من الغزو الصليبى الأوروبى إلا بعرض سريع أولاً لنشأة الأسطول العثمانى وتنظيماته وتطوره ، فى مواجهة الصراع ، الذى خاضه ضد الدول الأوروبية فى حوض البحر المتوسط .

نشأة الأسطول العثماني

الفتوحات العثمانية الأولى كانت برية :

من المعروف أن الدولة العثمانية نشأت دولة برية في الأناضول . ولما عبرت جيوشها البحر إلى غاليبولي عام ١٣٥٦ ، تبعتها حركة تهجيز واستيطان [1] في السهل الساحلي الأوروبي المطل على بحر مرمرة حتى رودستو . ومضت الدولة معتمدة على جيوشها في محاربة الدول الأوروبية مثل الصرب ، التي كانت تعتمد هي الأخرى على قواتها البرية . ولذلك كان في مقدور الدولة العثمانية أن تقضي على إمبراطورية الصرب ، دون اللجوء إلى قوات بحرية . ونهج العثمانيون النهج نفسه عندما فتحوا إقليمي الأفلاق والبغدان وبلاد المجر، وغيرها من الدول والكيانات السياسية التي كانت تعتمد على القوات البرية وحدها . أما بلاد اليونان فقد فتحها العثمانيون من الداخل وكانت ذات سواحل قليلة نسبياً ، ومن هنا كان العثمانيون يختلفون عن البيزنطيين الذين كان لهم أسطول ؛ إذ كانت ممتلكاتهم تمتد على سواحل بحرية ، كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الجزر . وكان العثمانيون يختلفون أيضاً عن البنادقة والجنويين الذين كانت قواتهم الرئيسية الضاربة تعتمد على السلاح البحري . وبمضي الوقت شعر العثمانيون بالحاجة الماسة إلى إنشاء أسطول لتأمين فتوحاتهم في البلقان، وللاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم وفي بحر إيجة والبحر الأيوني ، وللقضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين ، ولطرد البنادقة والجنويين من المناطق المتعددة ، التي كانوا قد تغلغلوا فيها وامتلكوها منذ أن أتاحت لهم الحروب الصليبية عديد الفرص لتنمية تجارتهم .

---

(١) انظر ملابسات حركة تهجير واستيطان مسلمي الأناضول ، وكانت حركة حكومية وشعبية كمقدمة للتوسع العثماني الإقليمي في أوروبا .

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٥٩٧-٥٩٩.

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 89.

والواقع أن البنادقة خرجوا بنصيب الأسد من غنيمة توزيع أشلاء الدولة البيزنطية ، إذ أخذوا الحي البندقي في القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجاري ، واستولوا على معظم الجزائر القريبة لبحر مرمرة والدردنيل، بالإضافة إلى بعض المراكز الساحلية في شبه جزيرة المورة ، ورقعة واسعة من الأرض شمالي خليج كورنت Corinthe ، ثم ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التي اشتروها من بونيفيس دي مونتفرات .

انظر :

دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٩٣٧ .

كان إنشاء الأسطول ضرورة حربية للعثمانيين :

غير أن نشأة الأسطول العثمانى كانت ترجع أساساً إلى رغبة الدولة العثمانية فى القضاء على أسطول جمهورية البندقية . وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء، نجد أن هذه الجمهورية كانت قد استحوذت على أكثر من ربع ممتلكات الدولة البيزنطية [1] فى مقابل الخدمات ، التى أدتها البندقية للحملة الصليبية الرابعة التى غيرت وجهتها ، وهى مصر إلى القسطنطينية [2] ، وأطاحت بحكم الدولة البيزنطية ، التى استقرت مؤقتاً فى رابيزون على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ومناطق أخرى [3] . وإذا كانت بعض الجزر والأماكن فى شبه جزيرة البلقان كانت لاتزال فى أيدى الدولة البيزنطية والدولة اللاتينية التى أسسها صليبيو الحملة الصليبية الرابعة ، لم يكن فى مقدور هاتين الدولتين المتداعيتين إنشاء وسائل دفاع قوية أمام الهجمات العثمانية . كما لم يكن فى مكنة الدولة العثمانية قهرها ، دون أن يكون لديها سلاح بحرى[4] . وفى الوقت ذاته ، كان احتلال الممتلكات البيزنطية واللاتينية أمراً ضرورياً لسلامة الممتلكات العثمانية ، ثم كان هناك عامل هام جداً حمل العثمانيين على إنشاء الأسطول . وتمثل هذا العامل فى أن جمهورية البندقية كانت هى الدولة ، التى تستطيع بقواتها البحرية الضخمة والمنظمة أحسن تنظيم الوقوف أمام العثمانيين . ونجم عن هذا الوضع أن جمهورية البندقية كانت العقبة الرئيسية فى تأمين الفتوحات العثمانية على الأرض الأوروبية وفى الجزائر القريبة منها ثم ، فى التوسع فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط على الأقل فى المراحل الأولى لنشأة الأسطول . ولذلك كان إنشاء الأسطول العثمانى ضرورة قومية عثمانية للتغلب على أسطول جمهورية البندقية .

البندقية تنشىء إمبراطورية استعمارية فى الليڤانت :

والحق أن جمهورية البندقية – وهى قوة غربية وافدة من وسط أوروبا – تسللت إلى عدة مناطق فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط – كان لها مراكز ومحطات بحرية على سواحل

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة دكتور حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ص١٠٩-١٥٤ .

(٢) فى الواقع لم يستسلم البيزنطيون للغزو الكاثوليكى الغربى ، ولم يؤسسوا حكماً لهم فى طرابيزون فقط، وإنما أقاموا عدة ملكيات وإمارات اتسمت بالطابع القومى البيزنطى ، وذلك فى إقليم ألبانيا ، وإيبيروس Epirus، وتراقيا Thrace ، والمورة . وقد سقطت الدولة اللاتينية التى أقامها صليبو الحملة الرابعة بعد زهاء سبع وخمسين سنة (١٢٠٤-١٢٦١) أنظر :
دكتور سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص٩٢٨ .

(٣) عن النشاط البحرى الحربى للدولة العثمانية على عهد السلطان مراد الثانى ، انظر :
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٦٢٤-٦٣٠.

بلاد المورة وبحر الأرخبيل وفى مقدونيا وفى الدردنيل (أبيدوس) وبحر مرمرة (رودستو) وهرقلية . والجزر الأيونية والجزر الواقعة فى جنوب الأناضول وغربه . وكان لها مراكز على ساحل دلماشيا فى البحر الأدريانى وبعض الأقاليم فى شبه الجزيرة الإيطالية واستولت على جزيرتى كريت وقبرص . وكانت تريد الاحتفاظ بما استحوذت عليه من قواعد ومابلغته من نفوذ وقوة وهيبة . وقد أطلق الأستاذ شارل ديل Charles Diehl ، أستاذ التاريخ البيزنطى بجامعة باريس على تلك الممتلكات «إمبراطورية البندقية الاستعمارية» [١] وكان الاسم الرسمى لها هو «جمهورية القديس مرقص» وهى ذات نظام جمهورية أوليجاركى[٢] . وتجاوزت كثير من ممتلكات هذه الإمبراطورية مع ممتلكات العثمانيين ، كما أصبحت البندقية تتحكم فى الطرق البحرية التى تصل بينها وبين القسطنطينية وموانىء الأناضول والشام ومصر . ولهذه الأسباب وغيرها ، تضاربت مصالح الدولة العثمانية مع مصالح جمهورية البندقية ؛ مما أدى إلى قيام صراع حربى بينهما . وكان هذا الصراع يدور فوق الماء ويعتمد على الأساطيل فى المكان الأول ، ولما كانت جمهورية البندقية أسبق من الدولة العثمانية فى الاعتماد على الأساطيل الحربية ، بل والأساطيل التجارية التى كانت تتحول عند الحاجة إلى أساطيل حربية .. كان على الدولة العثمانية أن تبذل عناية بالغة بإنشاء أساطيل تنادد أساطيل البندقية، إن لم تتفوق عليها فى صراع زاده عنفاً وتأججاً ماطبع عليه الفريقان المتصارعان من طموح واعتزاز بالنفس وشجاعة فائقة وعزيمة لاتنى أمام الأخطار . وكان من عادة البحارة البنادقة أنهم عند التحامهم مع العدو ، تنطلق حناجرهم بصيحات جماعية مدوية ماركو ! ماركو ! Marco Marco ، استحلاباً لبركات هذا القديس ، واعتقاداً منهم أن التوسل به يحقق لهم نصراً عزيزاً فى المعركة .

ويلاحظ أن جمهورية البندقية أقامت مجدها على التجارة الخارجية ، وأثرت منها ثراء عريضاً معتمدة على أسطولها . وكما كانت التجارة الخارجية مصدر قوتها ، كانت هى العامل الموجه لحكومة الجمهورية فى علاقاتها الدولية . ولذلك كانت سياستها الخارجية متقلبة بل وخالية من المبادئ ، فهى حيناً ترحب بالإسهام فى حملة صليبية موجهة ضد العثمانيين ، إذا رأت أن فى هذا الاشتراك مايكفل لها المحافظة على ممتلكاتها ومصالحها التجارية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، كما حدث حين وضعت أسطولها ومواردها المالية فى خدمة حملة نيقوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦ ضد السلطان أبى يزيد الأول . وكانت هذه الحملة تجسد أكبر التكتلات الصليبية التى واجهتها الدولة فى القرن الرابع عشر من حيث عدد الدول ، التى

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب دكتور أحمد عزت عبدالكريم والأستاذ توفيق إسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص٣٩ .

(٢) حكومة تكون فيها السلطة مركزة فى يد قلة من الأفراد أو العائلات . ويوصف هذا الطراز من الحكومات بأنه حكم القلة أو حكم الخاصة ، والكلمة مأخوذة من Oligarchie الفرنسية .

اشتركت فيها بالسلاح والعتاد والأموال والقوات البرية والبحرية [١]. وكانت حيناً آخر تهادن العثمانيين ، بل وتقبل شروطاً مهينة لها إذا لقيت هزيمة من الأسطول العثمانى ، ورأت أن هذه المهادنة وقبول الشروط المذلة ؛ مما يسمح لها باستئناف نشاطها التجارى فى أسواق الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

وإذا كانت جمهورية البندقية قد أضيرت نتيجة تحول طريقى التجارة الشرقية من البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، فإن هذا الإضرار لم يقع فجأة ولم يكن شاملاً ، فظلت تمارس نشاطها التجارى مع دول غربى أوروبا وشماليها ، وظلت جمهورية البندقية إحدى دول حوض البحر المتوسط قوة تحسب لها الدول حساباً ، وظلت تبنى فى دار الصناعات البحرية فى ثغر البندقية أحدث وأقوى أنواع السفن الحربية ، وظلت الدبلوماسية التى تميزت بها حكومتها تقوم بدور هام فى سياسة البحر المتوسط وسياسة القارة الأوروبية ، واشترك سفراؤها فى المؤتمرات الدولية الهامة وبرزوا فيها مثل مؤتمر وستفاليا (١٦٤٨) ومؤتمر أوترخت (١٧١٣) حتى انتهت حياة هذه الجمهورية فى أواخر القرن الثامن عشر .

انساق العثمانيون لحروب البحار للأسباب التى بسطناها ولأسباب أخرى ، طرأت فيما بعد على السياسة الدولية ، مثل : مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى للبحار الشرقية ، والنشاط المعادى الذى مارسته الروسيا فى البحر الأسود . ومن ثم انصرف العثمانيون يعدون عدتهم لإنشاء أسطول حربى يستكملون به قواتهم المسلحة البرية . ولم يلبث أن نما هذا الأسطول وقفز إلى مصاف أساطيل الدول الأوروبية الكبرى فى حوض البحر المتوسط ، وتعددت قواعده البحرية فى حوض البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر ومنطقة الخليج العربى . وأثبتت الدولة أنها تملك كثيراً من مقومات الدول البحرية ، ووضعت له تنظيمات ، نوجزها فيما يلى :

القائد العام للأسطول :

إذا كان السلطان هو القائد الأعلى للقوات العثمانية المسلحة بما فيها الأسطول ، فإن القائد العام للأسطول كان يطلق عليه قبودان باشى ، ومعناها رئيس قباطنة السفن الحربية ، وهى مشتقة من كلمة إيطالية [٢]، ثم حرفت إلى كلمة قبطان . وكان القبودان باشى يجمع خلال القرون الأولى لنشأة الأسطول بين منصبين : القائد العام للأسطول وحاكم ولاية ، وكان يحمل طوخين ، ويطلق عليه بصفته الأخيرة بكلريكى أو بكلربك[٣] . وكان له ديوان على غرار ديوان

---

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذه التكتلات الصليبية فى :
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع القرن إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٦١٢-٦٢٠.

(٢) ، (٣) أنظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

حكام الولايات ، وكان يعقد جلساته فى مقر ديوان البحرية ، وكان له معظم اختصاصات الوالى ، فكان مسئولاً عن الأمن العام فى المناطق التى نيطت به [(١)] .

كانت غاليبولى إلى عام ١٥١٦ مقر قيادة الأسطول .. فكان قبودان باشى يحكم صنجقبة غاليپولى ، ولذلك أطلق عليه أيضاً بكلربكى غاليبولى . وألحقت الدولة بهذه الصنجقية كلاً من قضاء جالاطه وإزميد Izmid فى نيقوميديا فى الأناضول؛ لأن الغالبية العظمى من سكان جالاطه – وهى إحدى ضواحى إستانبول – من أهل جنوة . وقد أسهموا بجهودهم وخبراتهم البحرية والملاحية فى تطوير ودعم الأسطول العثمانى ، بعد أن فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية . أما إزميد .. فكانت تعد من المصادر الرئيسية لتزويد ترسانة البحرية بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول . ولما نقلت قواعد الأسطول إلى إستانبول على عهد سليم الأول ألحقت بسلطة القبودان باشى جميع السواحل تقريباً لشبه جزيرة البلقان والجزر القريبة منها ، ومناطق ساحلية أخرى فى حوض البحر المتوسط . وتكونت من هذه المناطق والجزر «إيالت بحر سفيد» وترجمتها الحرفية ولاية بحر إيجه ، ولكنها كانت تشمل أقاليم ساحلية فى حوض البحر المتوسط بعامة . وقد قسمت هذه الإيالة إلى صناچق ، يحكم كل منها «دريا بكلرى» Derya Bcyleri أى بك البحر ، وقد شمل سلطانه أربعة عشر صنجقاً [(٢)] .

ومما يذكر أن بعض الثغور فى ولايات الدولة كانت تتبع مباشرة القبودان باشى . وعلى سبيل المثال كانت الإسكندرية خارجة عن سلطة الباشا العثمانى فى القاهرة، وكانت تتبع القبودان باشى مباشرة . وظل هذا الثغر على هذا الوضع الإدارى حتى تم جلاء الحملة، البريطانية عن مصر عام ١٨٠٧ فى مستهل حكم محمد على .. ولذلك يقرر أحد المؤرخين أن محمد على كان هو المستفيد الوحيد من هذه الحملة ، بعد أن أخفقت فى تحقيق الأغراض التى توختها بريطانيا منها . ونجح محمد على فى حمل الباب العالى الموافقة على إلغاء تبعية هذا الثغر لقبودان باشا ، وجعل الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة . وكان الإنجليز يخشون أن يردها محمد على القائد عام الأسطول العثمانى[(٣)] . وكان حكام كل من رشيد ودمياط والسويس يطلق عليهم قبودان . وقد عادت هذه الثغور الثلاثة إلى الحكم الأم : حكومة القاهرة .

---

(١) وعلى سبيل المثال ، كان يتولى المحافظة على الأمن العام فى جالاطه وقاسم باشا ، بينما كان يتولى هذه المسئولية فى سائر أحياء إستانبول كل من أغا الإنكشارية ، والبوستانجى باشى ، والجبه جى باشى ، والطوبجى باشى . وكان قائد الأسطول يلجأ إلى النظام الذى يتبعه هؤلاء فى المحافظة على الأمن العام فى مناطقهم . وكانت توجد فى مناطق قائد الأسطول مراكز حراسة تخرج منها دوريات من البحارة تجوب أنحاء المناطق التى يعهد بها إليهم . وكان يرأس هؤلاء البحارة ضباط بحريون .

(٢) بروكلمان كارل ، مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص٩١ .

(3) Douin George et Mme Fawtier-Jones E.C., L'Angleterre et L'Egypte, etc., op. cit., p. LXX.

وكان أول ضابط يشغل منصب قبودان باشى هو بلطه أو غلر سليمان ، وقد عينه السلطان محمد أبو الفتوح فى هذا المنصب؛ تقديراً لجهوده فى أثناء حصار القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وأصدر السلطان سليمان المشرع فرماناً بترقية خير الدين بربروس إلى منصب قائد عام للأسطول العثمانى مكافأة له على خدماته الحربية للإسلام فى الجزائر وتونس . وسنرجىء الكلام عن هذه الشخصية لحين تعرضنا لهذين الإقليمين الإسلاميين العربيين . وحسبنا أن نذكر هنا أنه منذ تعيينه فى منصب قبودان باشى رفعت هذه الوظيفة إلى مرتبة وزير ، ومنح شاغلها ثلاثة أطواخ ورتبة الباشوية وأصبح يطلق عليه قبودان باشا . وكانت له أسبقية على جميع الوزراء الآخرين ، وكان ترتيبه يأتى مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وعين عضواً فى الديوان الهمايونى (الإمبراطورى) . ومنذ تعيين خير الدين بربروس فى الديوان، أصبح من التقاليد المرعية أن شاغل هذا المنصب يكون عضواً فيه بحكم منصبه – ex-officio، وكان يحضر جلساته كلما كان موجوداً فى العاصمة .

تنظيمات البحرية :

كان يقوم مقام قبودان باشا فى إدارة البحرية مسئول كبير ، يشرف على بناء السفن وإصلاحها وتسليحها ، وكان يطلق عليه ترسانة إمينى Tersana Emini أى أمين الترسانة . أما المخازن البحرية فيتولى مسئوليتها اثنان ، أحدهما بقلب أمين ويسمى «انبارلر إمينى» Enbarlar Emini والآخر بلقب ناظر ويطلق عليه «انبارلر ناظرى» Enbarlar Naziri وكان هذان المسئولان الأخيران يقلان مرتبة عن مرتبة «ترسانة إمينى» . أما رئيس الميناء فكان يطلق عليه «ليمان ريسى» Liman Reisi ويمنح رتبة البكوية، وكان للبحرية أيضاً مفتش يتولى قيادة حرسها ويسمى «ترسانة كخياسى» Tersana Kahyasi . ومن تنظيمات البحرية أيضاً وجود عدد من الوظائف الإدارية ، مثل : كاتب للسفن يطلق عليه «قليونلار كاتبى» Kaylyonlar Katibi ، وصراف يطلق عليه «سركى إمينى» (١) Sergi Emini .

وحدات الأسطول :

كانت سفن الأسطول تتكون فى القرن السادس عشر – شأن كل الأساطيل المقاتلة فى البحر المتوسط وقتذاك – من السفن المزودة بأشرعة قليلة ومجاديف، ويطلق عليها فى اللغة التركية جكديرى ، أو جكديرية ، وكانت الأشرعة تستخدم حين لايكون العدو على مرمى البصر . أما المجاديف .. فلاتستخدم إلا فى وقت الاشتباك فى المعركة ، ويجلس المجدفون فى أماكن معدة لهذا الغرض ، ويوجهون السفينة إلى الالتحام بسفن العدو ومهاجمتها طبقاً لأوامر قائد السفينة . وكانت مرتبة السفينة تتحدد بعدو الأماكن المخصصة للمجدفين فيها ، ولذلك

---

(1) D'Ohsson Ignatius Mouradges; op. cit., t. VII, p. 435.

كان عدد الملاحين فيها قليلاً، فى حين كان عدد المجدفين والمقاتلين كبيراً . وعلى سبيل المثال كان طاقم السفينة المقاتلة من النوع المتوسط ذات المجاديف ، ويطلق عليها فى اللغة التركية «قادرغة» ، على النحو التالى :

مجدفون	١٩٦
مقاتلون (رجال مسلحون)	١٠٠
بحارة	٣٠
ضباط	٣٠

أما السفينة المقاتلة من النوع الكبير الحجم ذات المجاديف ، ويطلق عليها فى اللغة التركية «ماثونة» ، فكان عدد العاملين عليها كالآتى :

مجدفون	٣٥٧
مقاتلون	١٧٥
بحارة	٥٥
ضباط	٦

أما سفينة القيادة وتسمى «باشتردة Bastarda ، القبطان ، وهى مأخوذة من كلمة إيطالية ، فكان طاقمها موزعاً وفق النظام التالى :

مجدفون	٤٩٧
مقاتلون	٢٥٠
بحارة	٧٦
ضباط	٨٠

وكان من الرجال المسلحين فى السفن ذات المجاديف على اختلاف أحجامها : الطوبجية أى الذين يطلقون قذائف مدافعهم على سفن الأعداء ، ومنهم من كانوا مزودين بالسيوف الباترة لاستخدامها ، إذا اقتضى الأمر ونجحوا فى التسلل إلى سفن الأعداء ، واشتبكوا فى معارك على ظهورها . أما البحارة .. فكانوا على الرغم من قلة عددهم النسبى ذوى اختصاصات متباينة ، وكان منهم من يسهر على صيانة أسلحة السفينة ويطلق على الواحد منهم آلتجر ، ومنهم من يعمل فى تسيير السفينة ، ويطلق عليه الدومنجى ، ومنهم غلمان السفينة ، ويسمون يلكنجى ، ومنهم النجارون والمقلفطون .

وكان القائمون بهذه الأعمال رجالاً تخصصوا فى الشئون البحرية ، أو درجوا على ركوب البحار فى المقام الأول وعلى شئون القتال ، ويطلق عليهم فى اللغة التركية «لوند» ، ومعناها بحارة مقاتلون متمرسون ، وهى مأخوذة من مصطلح إيطالى[١] . ولكن أعفى اللوند من أعمال التجديف والقتال فى سفن الأسطول منذ القرن السادس عشر ؛ إذ كان عملهم شاقاً وخطيراً وكانوا يقبلون القيام به على مضض . وخشى القبودان باشا أن تؤثر حالتهم النفسية على كفايتهم القتالية ، فعهد بهذه العمليات إلى رجال يمكن إجبارهم عليها . وكان هؤلاء الرجال من أسرى الحرب البالغين ، والذين كانوا يصبحون عبيداً بمجرد وقوعهم فى الأسر ومن المجرمين العتاة ، الذين صدرت عليهم أحكام بالعمل كعبيد فى السفن ذات المجاديف عقوبة لهم .

تطوير الأسطول العثمانى :

وقد أدخلت الدولة العثمانية تطويراً هاماً فى نوعية سفن أسطولها ؛ إذ أقبلت فى منتصف القرن السابع عشر على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بمدافع ، كان يتراوح عددها بين أربعين وخمسين مدفعاً فى كل سفينة . وكان هذا التطوير قد سبقتها إليه الدول الأوروبية الكبرى، التى تبحر سفنها فى المحيطين الأطلنطى والهندى ، بعد أن اتضح لهذه الدول أنه لاقيمة للسفن ذات المجاديف فى المعارك الحربية .

ورأت الدولة العثمانية ألا تظل متخلفة فى هذا الميدان ، وكانت قد مرت بتجربة مريرة فى حملتها على جزيرة كريت، التى أرادت انتزاعها من جمهورية البندقية لأسباب سياسية وعسكرية ودينية وعائلية[٢] ، وخاضت الدولة صراعاً دامياً استطال أمده خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩)، وتعرضت لهزائم كثيرة ، اعتبرت إحداها - وقد حدثت عام ١٦٥٦ - أنها لاتقل كثيراً من حيث نتائجها السيئة عن معركة ليانت ، وكان القبودان باشا المسئول هو كنعان باشا ، وقد عزله السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) وألقى به فى السجن[٣] .

والواقع أن الدولة العثمانية فى حملة كريت واجهت تفوقاً بحرياً من جمهورية البندقية ، التى كانت أسبق منها فى تطوير نوعية سفن أسطولها وخاضت المعركة ، وهى تملك مجموعة قوية من السفن الشراعية الكبرى بالإضافة إلى السفن ذات المجاديف . وكانت وحدات الأسطول

---

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة ، الجزء الرابع .

(٢) انظر عرضاً لأسباب حملة كريت وأحداثها ونتائجها فى :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص ٨٠١-٨١٠.

(3) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, pp. 96-97.

العثماني مقصورة على السلاح التقليدى وهو السفن ذات المجاديف ، وبفضل السلاح المطور استطاعت جمهورية البندقية فى بداية الحرب فرض الحصار على الدردنيل ، وقطع الطريق بين القوات العثمانية فى كريت والاتصال المباشر بحراً بإستانبول(١) . وإزاء تدهور الموقف الحربى .. ركزت الدولة العثمانية ، والحرب مشتعل أوارها ، جهودها على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بالمدافع ، واستمر هذا التركيز حتى المراحل الأخيرة من الحرب . وكان من نتائج هذا التطوير أن خفت وطأة حصار البندقية للدردنيل ، وتوجت الحملة بانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية وتوقيع اتفاقية التسليم فى اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٦٦٩ ، وقعها أحمد كوبريللى باشا الصدر الأعظم والقائد فرانسسكو موروسينى Francesco Morosini قائد قوات جمهورية البندقية .

وكان من بين السفن الشراعية الكبرى التى بنّها الدولة العثمانية ثلاث سفن رئيسية ، عرفت باسم سفن القيادة «صنجاق كميليرى» ، وهى من حيث الأهمية قبودانه Kapidana ، باطرونه Patrona ، وريالـه Riyala وهذه الأسماء الثلاثة مشتقة من كلمات إيطالية ، وكان قادة هذه السفن الثلاث يحملون البكوية ، فكان يقال بك قبودانه ، وبك باطرونه ، وبك رياله .

وعلى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣–١٧٣٠) بنت الدولة من السفن الشراعية الكبرى من ذوات الأسطح الثلاثة Three-deckers ، وعدداً من السفن الصغيرة السريعة والخفيفة . وجرت عادة العثمانيين على إطلاق أسماء من نسج الخيال على السفن الحربية ، مثل: «تحفة الملوك» و «فاتح بحرى» أى فاتح البحر ، «وبريدى ظافر» أى بريد الظفر . وقد استخدمت السفن الشراعية الكبرى فى غارات حربية على سواحل إسبانيا وفى الهجوم على مالطة . ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز على تعزيز الأسطول العثمانى فى ذلك الوقت بأنه كان بعثاً لذكريات مجد قديم(٢) .

وكان من المعتاد أن ترجع السفن الكبيرة المخصصة للخدمة فى البحر المتوسط إلى قواعدها فى الخريف قبيل اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر – تشرين أول – كل عام، وألا تخرج من هذه القواعد إلا فى أواخر الربيع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل – نيسان ؛ إذ يخرج الأسطول فى رحلات تفتيشية . فكان هذان التاريخان – عند العثمانيين – يشيران إلى الوقت الذى يفصل بين الصيف والشتاء .

وقبل حلول اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل – نيسان – كان قبودان باشا يرسل سنوياً إلى النيابات الثلاث فى شمالى إفريقية ، وهى طرابلس وتونس والجزائر ، عدداً من

(1) Loc. Cit.

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 98.

ضباط الأسطول يجمعون المتطوعين للخدمة فى الأسطول، ويعطون أجر ستة أشهر مقدماً لتدبير معيشة عائلاتهم . وكان يطلق على هؤلاء المتطوعين «بايراق عسكرى» أى قوة البيارق ، وقد عرفوا بهذا الاسم ؛ لأن كل ضابط يختص بجمع هؤلاء المتطوعين ، إنما كان يجمعهم تحت لواء – بيرق – ينم عن وظيفة(١). أما السفن الحربية المخصصة للخدمة فى البحر الأسود فلم تكن تخضع لهذا التنظيم الزمنى ، وبالتالى لم تكن تتمتع بفترة استرخاء عسكرى خشية أن تتعرض لهجوم غادر من الأسطول الروسى . أما أسطول البحر الأحمر.. فكان يخضع فى تحركاته ونشاطه لمقتضيات الظروف .

مصطلحات الأسطول العثمانى ذات أصول إيطالية :

وجدير بالذكر أن أسماء أنواع السفن فى الأسطول العثمانى ووظائفه وألقاب شاغليها مأخوذة من مصطلحات إيطالية تقابلها فى المعنى لعدة أسباب ، منها : تغلغل بحارة البندقية وجنوة فى الشرق . وكان رجال الأسطول العثمانى فى نشأته قد تتلمذوا على هؤلاء البنادقة والجنويين، وقد تعمق هذا التأثير الإيطالى نتيجة سياسة السلطان محمد الفاتح . كان الإمبراطور ميخائيل السابع باليولوج Michael VII Palaeologue أراد أن يكافىء أعضاء جالية جنوة فى القسطنطينية على مساعدتهم له فى العودة إلى العرش سنة ١٢٦١ ، وإعادة قيام حكم يونانى فى القسطنطينية .. فسمح لهم بأن يحكموا ضاحية جالاطه من ضواحى العاصمة بمثابة مستعمرة ذات استقلال ذاتى . ولما فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية ، وأطلق عليها إستانبول .. عهد إليهم بمساعدته على تدعيم الأسطول العثمانى ؛ لأن العثمانيين كانوا حديثى عهد بصناعة بناء السفن وعلوم الملاحة البحرية فى أعالى البحار ، ولأن أهل جنوة كانوا بحارة ممتازين . هذه الكثرة الملحوظة فى المصطلحات الإيطالية التى أدخلها العثمانيون على أسطولهم ، والتى مرت بنا أمثلة كثيرة عليها ، جعلت أحد كبار المؤرخين الإنجليز المتخصصين فى تاريخ الدولة العثمانية ونظمها يذهب رأياً إلى أنه كان من المتوقع أن يأخذ الأسطول العثمانى ، حين خرج إلى حيز الوجود ، طابعاً تركياً (عثمانياً) بوجه خاص أو طابعاً إسلامياً على الأقل ، ولكن لم يحدث شىء من هذا .. فعلى العكس كان صورة طبق الأصل من أساطيل إيطاليا .

It might be expected that the Ottoman navy, when it came into being, would have a peculiarly Turkish, or at least Moslem, character. This was not so, however, It was, on the contrary, a faithful copy of the navies of Italy (٢)

---

(1) Loc. Cit., p. 100.

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part, 1, p. 91.

ثم أكد فى موطن تالٍ من كتابه هذا الرأى بصورة أخرى ولسبب آخر فقال : «وطبقاً لجميع الآراء ، تظهر على الأقل حقيقة واحدة واضحة ، هى أن كل من كان يسميهم الأوروبيون المعاصرون «أتراك» ، بمعنى المسلمين الذين يتكلمون اللغة التركية ، لم يتألقوا كبحارة ، وإن الأسطول كان يعتمد بشكل مثير فى جانبه الخاص بركوب البحر - تمييزاً له عن مظهره الحربى - على اليونانيين من أهل جزر وسواحل بحر إيجة وعلى المسلمين ، الذين يتكلمون العربية من سكان نيابات شمالى إفريقية . ومن هذا الحكم تسطع الحقيقة البارزة ، وهى أن الأسطول العثمانى لم يكن نتاجاً عثمانياً أصيلاً إذا أجيز استخدام هذا التعبير» .

"From all accounts one point at least emerges clearly: that what contemporary Europans called (Turks), that is, Turkish-speaking Moslems, did not shine as sailors : the navy being very strikingly dependent, in its sea faring as opposed to its military aspect, on Greeks from the islands and coasts of the Aegean and Arabic-speaking Moslems from the North African Regencies. And in this judgment the fact is evidently that the Ottoman navy, was not, if such an expression may be used, an indigenous Ottoman product" (١)

وهذا الرأى قابل للمناقشة ، لأن العبرة ليست فى المظهر وإنما فى المخبر . فالأسطول العثمانى حمل راية الجهاد البحرى الدينى الإسلامى ضد تكتلات بحرية صليبية أوروبية عاتية، سواء فى حوض البحر المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندى أو منطقة الخليج العربى ، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية فى آسيا من الغزو الصليبى البرتغالى بوجه خاص . وقد اعترف كبار المؤرخين الأوروبيين بأن المعارك التى خاضها الأسطول العثمانى كانت معارك صليبية (٢) Croisades chrétiennes ، وطبقاً لرأى مؤرخ إنجليزى عاش فى عصر سابق لعصر جب وبوون ، كان الأتراك العثمانيون يناددون اليونانيين فى الملاحة البحرية علماً وفناً وممارسة (٣) .

ولايقدح فى قيمة السلاح البحرى العثمانى أن الدولة اعتمدت . أول الأمر على عدد من المهندسين والعمال المدربين الإيطاليين فى بناء وحدات الأسطول ، أو أن دور بناء السفن كانت تضم عمالاً يونانيين وإيطاليين . ومن المعروف أن خدمتهم فى دور الصناعات البحرية لم تكن تتسم بطابع الاستمرار ، فهى تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف . ولكن الحقيقة التى

(1) Loc, Cit., p. 106.

(2) Lavisse et Rambaud, op. cit., t. V, p. 859.

(3) Thornton Thos., The Present State of Turkey, 2 vols., London, 2nd ed., 1807, vol. 1, pp. 77-78.

لامراء فيها أن الأسطول العثمانى قد ضم أخلاطاً من الأتراك العثمانيين والعرب من سكان شمالى إفريقية ، ومن العناصر البلقانية التى اعتنقت الإسلام ، وتدربوا جميعاً فى ظل الأسطول العثمانى . وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الأسطول ينتظر عدداً من البحارة اليونانيين المسيحيين ، وعدداً أقل من بحارة شبه الجزيرة الإيطالية اجتذبتهم المغانم الوفيرة ، التى كانوا يظفرون بها فى خدمة الأسطول العثمانى ، فجاءوا زرافات إلى قاعدة الأسطول فى إستانبول ينشدون العمل (١) .

لقد كان يعوز الأسطول العثمانى العامود الفقرى الذى مكن للأساطيل الأوروبية المعادية له وأمدها بقوة فائقة ، ونعنى به القوة البحرية التجارية القوية . ولكن كان مما عوض هذا الضعف الإمكانيات المادية للعثمانيين .. كانوا يحصلون على الأخشاب بكميات وفيرة من بعض جهات الأناضول ؛ خاصة من الغابات القائمة على سواحل البحر الأسود . وكانت مناجم ولايتى الأفلاق والبغدان - رومانيا حالياً - تقدم المعادن الضرورية لصناعة الملاحة والأسلحة وكانت أشرعة الفن تستورد من فرنسا (٢)، ثم كانت السرعة والمرونة اللتان كانت عمليات بناء السفن تتم بهما .

ومع ذلك .. فإن الدولة كانت تعتمد بصورة أو بأخرى على السفن العثمانية التجارية، التى كانت تتردد على الموانئ العثمانية فى الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، إذ كان القبودان باشا يلجأ إلى إجراء استثنائى لسد النقص فى عدد بحارة الأسطول الحربى . فكان يتفق مع قباطنة السفن التجارية على وضع سفنهم فى خدمة الأسطول زمن الحرب ، فى مقابل إعفائهم من دفع الرسوم الجمركية على البضائع ، التى تحملها سفنهم فى أوقات السلم وبهذا الإجراء استطاع قبودان باشا أن يحصل على خدمات مايزيد على ألفى بحار مدرب ، يعملون فى خدمة الأسطول فى وقت الحرب .

وبقى هذا الإجراء الاستثنائى معمولاً به حتى عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤)، فقد اعترض كمرك أمينى - مدير الجمارك - على الإعفاء الجمركى لشحنات السفن التجارية ، وأصر على أن يؤدى أصحاب البضائع الرسوم الجمركية المقررة عليها . وكان يهدف من هذا الاعتراض إلى استنباط موارد مالية لخزانة الحكومة واستطاع أن يحقق هدفه (٣) . وأصبح لزاماً على قبودان باشا أن يعتمد اعتماداً كلياً على السفن الحربية دون سواها ؛ مما جعل الأسطول العثمانى يواجه موقفاً صعباً إبان الحرب التى اشتعلت عام ١٧٣٦

(١) بروكلمان كارل ، مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص٨٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ص٨٨-٨٩ .
(3) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part 1, p. 105.

بين الدولة العثمانية والروسيا ؛ إذ استطاعت الأخيرة أن تحتل ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية فى البحر الأسود ، وأن تتقدم فى نهر الدانوب وتحتل ولاية البغدان وتدخل مدينة ياسى عاصمتها[١] ، واضطرت الدولة إلى تخصيص جزء لايستهان به من الأسطول العثمانى للعمل فى البحر الأسود لمواجهة احتمالات خطر التقدم الروسى فى هذا البحر ، وإلى إبقاء عدد من السفن الصغيرة فى نهر الدانوب للدفاع عن ولايتى الأفلاق والبغدان .

الأسطول العثمانى عبر تاريخ الدولة :

كان حكم السلطان مراد الأول (٣٦٠-١٣٨٨) هو البداية الحقيقية لنشأة الأسطول العثمانى.. فإلى جانب سياسته فى التوسع الإقليمى فى البلقان ، ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنة فى أوروبا ، بنى هذا السلطان عدداً من السفن ، ونظم قوة عسكرية من البحارة ، وأقام داراً للصناعات البحرية فى كل من أزمير وكميليك ، وأنشأ ثكنات عسكرية للبحارة فى غاليبولى . وقد انتهج ابنه أبو يزيد الأول (٣٨٨-١٤٠٣) سياسة أبيه ، واهتم بتعزيز الأسطول وتوسيع ميناء غاليبولى ؛ حتى أصبح يتسع لسبعين سفينة . وكان قد وضع فى برنامجه الحربى فتح القسطنطينية وفرض عليها حصاراً محكماً ، وكانت أوروبا تتوقع سقوطها بين يوم وليلة . ولكن تعرضت الدولة لكارثة الغزو المغولى بقيادة تيمور الأعرج (تيمور لنك) ، وواجهتها هزيمة أليمة فى معركة أنقرة فى اليوم العشرين من شهر يوليو - ١٤٠٢ ، ووقوع السلطان أسيراً ورفاقه فى الأسر فى السنة التالية ، وتعرضت الدولة لكارثة أخرى هى الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة العثمانية كان كل منهم يبتغى إلى العرش سبيلاً .

وقد استطالت هذه الحرب الأهلية عشر سنوات (١٤٠٣-١٤١٣) ، وانتهت بتولى العرش محمد الأول[١] ابن أبى يزيد (١٤٣١-١٤٢١) ، وكان لهاتين الكارثتين أثرهما على الأسطول شأن سائر أجهزة ومرافق الدولة . ولكن هذا السلطان أسدى إلى الدولة خدمة جليلة ؛ إذ أزال آثار كارثة المغول ومحنة الحرب الأهلية ، وعمل على إعادة تنظيم الدولة بحيث مهد الطريق أمام خلفائه السلاطين ؛ ليتابعوا سياسة تعزيز القوات المسلحة العثمانية بما فيها الأسطول،

---

(١) انتهت هذه الحرب بعقد معاهدة بلجراد فى الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٢٩، وكان من بين ماجاء فيها التزام الروسيا بهدم قلعة ميناء آزوف وعدم تجديدها مستقبلاً ، وأن يسمح للروسيا بأن تقيم قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة فى نهر دون Don ، الذى يصب فى الساحل الشمالى للبحر الأسود . كما قررت المعاهدة عدم السماح للروسيا ببناء أو إبقاء سفن حربية أو تجارية فى البحر الأسود أو بحر آزوف ، وأن يمارس رعايا الروسيا نشاطهم التجارى فى البحر الأسود على سفن عثمانية. انظر:

Hurewitz J.C., op. cit., vol. 1, pp. 47-51.

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٥٠-١٥٥ .

(١) كان السلطان محمد الأول يطلق عليه أيضاً محمد شلبى ، وتكتب بالجيم المعطشة چلبى .

وليمضوا قديماً فى برنامجهم الحربى الهادف إلى التوسع . فقد بنى السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١) ، عدداً من السفن مكنت العثمانيين من انتزاع سالونيك من جمهورية البندقية.

نشاط مكثف للأسطول على عهد أبى الفتوح بعد فتح القسطنطينية :

ويعد حكم السلطان محمد أبى الفتوح (١٤٥١-١٤٨١) بداية مرحلة هامة فى تاريخ الأسطول العثمانى ؛ لأن مشروعه الرئيسى الذى نفذه فى مستهل حكمه الطويل ، وهو فتح القسطنطينية تطلب بناء عدد كبير من السفن ، يذهب بعض المؤرخين اليونانيين إلى أنها بلغت أربعمائة وعشرين سفينة بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

لم يقف نشاط الأسطول العثمانى بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، بل ازدادت ميادين العمل أمامه على عهد السلطان محمد أبى الفتوح . وكانت هذه الأعباء الجديدة أمراً طبيعيّاً بعد أن أصبح الأسطول يسيطر على ضفاف البوسفور الأوروبية والآسيوية وأصبح الطريق أمامه مفتوحاً إلى البحر الأسود للقضاء على مملكة طرابيزون وممتلكات جمهورية جنوة فيه وفى بحر إيجه وموانىء شبه جزيرة المورة ، ثم فوق ذلك كله الصراع البحرى ، الذى خاضه الأسطول ضد جمهورية البندقية .

استولى السلطان محمد أبو الفتوح بفضل الأسطول سنة ١٤٥٩ على عدد من الموانىء الهامة فى بلاد المورة (١) ، ثم تفرغ السلطان للقضاء على مملكة طرابيزون، وهى كما ذكرنا دولة مسيحية يونانية قامت على أنقاض الدولة البيزنطية بعد سقوطها المؤقت عام ١٢٠٤ . وهاجم عاصمتها طرابيزون على البحر الأسود براً وبحراً ، واستولى عليها عام ١٤٦١ ووقع آخر ملوكها وهو داڤيد كومنين David Comnène أسيراً ، وظل فى الأسر بضع سنين ، ثم صدر الأمر سنة ١٤٧٠ بذبحه مع جميع رفاقه . وكان لجمهورية جنوة ممتلكات ومحطات تجارية فى البحر الأسود وبحر إيجة ، وكان من البرنامج الحربى للسلطان محمد أبى الفتوح طرد الجنويين من هذه الأقاليم ، وقد بدأ بطردهم من مدينة إينوس (٢) Enos والجزر القريبة منها . وفى سنة ١٤٦١ انتزع السلطان منهم موقعاً هاماً فى شمالى الأناضول هو آماستريس Amastria ثم استولى فى عام ١٤٧٥ على ثغر كافه Caffe ويقع فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود ، ثم انتزع منهم آزوف على ذات البحر ، ووضع يده على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة فى منطقة البحر الأسود ، واعترف تتار خانية القرم وملحقاتها بالسيادة

(١) كان من الموانىء التى انتزعها السلطان :
كورنت Corinthe أڤارينو Avarino – نڤاران Navarin أركاديا Arkadia – مونيمڤاسيا Monemvasia .

(٢) تقع مدينة إينوس على دلتا نهر ماريتزا Maritza وخليج إينوس .

العثمانية ، وأصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية .

وكانت الحرب التى اندلعت بين السلطان محمد أبى الفتوح وجمهورية البندقية أطول أمدا وأشد عنفاً وأكثر تعقيداً من الحرب ، التى خاضها ضد جمهورية جنوة ؛ إذ استطال أمد حرب البندقية مايقرب من سبعة عشر عاماً (١٤٦٣-١٤٧٩) ، وامتد نشاط الأسطول العثمانى إلى أجزاء شتى من الحوض الشرقى للبحر المتوسط سواء حول الجزر المتناثرة فى بحر إيجة أو على سواحله الشمالية وشملت صراعاً صليبياً أوروبياً ضارياً دعا إليه البابا سكست الرابع Sixte IV (١٤٧١-١٤٨٤) . ففى بلاد المورة هاجم الأسطول العثمانى سنة ١٤٦٧ الجزر الهامة فى جزر بحر الأرخبيل الخاضعة للبندقية ، وكان من أهمها جزيرة أطلق عليها الملاحون الإيطاليون فى العصور الوسطى اسم نجريون Negrepont أى الجسر الأسود[1] ، واستولى العثمانيون عليها وانتقموا من الحامية والسكان المدنيين انتقاماً ذريعاً ، فقطعوا تقطيعاً أجسام بعض جنود القلعة بواسطة المناشير ، ووضعوا البعض الآخر منهم على الخوازيق ليموتوا موتاً بطيئاً، ومثلوا بجثة نائب البندقية فيها أبشع تمثيل ، ونجحت جمهورية البندقية فى العام التالى (١٤٦٨) فى تكوين تحالف صليبى ضد الدولة العثمانية .

وقد ضم هذا التحالف بالإضافة إلى جمهورية البندقية - البابا سكست الرابع وحكان نابولى والمجر وترنسلفانيا وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس . وبسبب هذا الحلف الصليبى .. انتقلت العمليات الحربية إلى سواحل آسيا الصغرى ، واستولت القوات المتحالفة على أزمير ، وحالت دون استيلاء الأسطول العثمانى على ثغر ليانت وكان تابعاً لجمهورية البندقية . وفى الجبهة الأوروبية اجتاح الأسطول العثمانى ساحل دلماشيا ، وكانت تتناثر عليه عدة موانئ ومراكز تابعة لجمهورية البندقية ، التى خشيت أن تتساقط تباعاً بقية ممتلكاتها فطلبت الصلح . ولكن رفض السلطان محمد أبو الفتوح وقف إطلاق النار حتى لايعطيها فرصة لتسترد نفاسها واقترب الأسطول العثمانى من البندقية ذاتها حين أغار على إقليم فريول Frioul ، ودك المنطقة الواقعة بين البندقية وثغر تريستا وكان سكان الثغرين يشاهدون ألسنة النيران وأعمدة الدخان تتصاعد من القرى ، التى أحرقتها مدفعية الأسطول .

وأخذ الموقف بالنسبة لجمهورية البندقية يتدهور من سيء إلى أسوأ ، وانفصمت عرى التحالف الصليبى سنة ١٤٨٧ بخروج مملكتى نابولى والمجر منه وتبعهما سائر الأعضاء . ووقفت جمهورية البندقية وحيدة أمام العثمانيين، واضطرت إلى قبول معاهدة سنة ١٤٧٩ وكانت معاهدة مهينة لها تقرر فيها أن تدفع مبلغاً باهظاً باسم تعويضات الحرب ، فضلاً عن جزية سنوية ، وأن تتنازل الدولة عن عدة مدن وجزر[2] ، وأن تسحب قواتها من الأماكن التى

(١) تسمى الآن جزيرة إيوبيه Eubée، وكانت لها قلعة تسمى إجريبوس Egrippos .

(٢) تنازلت جمهورية البندقية للدولة العثمانية عن :
أرجوس ، نجريون ، ولنوس ، وماين Magne .

بقيت لها فى ألبانيا . وسمحت الدولة العثمانية لجمهورية البندقية فى مقابل فداحة هذه التنازلات بأن يمارس البنادقة التجارة الحرة فى الأراضى العثمانية ، وبأن تعين حكومة الجمهورية ممثلاً تجارياً فى جالاطه فى إستانبول؛ ليشرف على مصالحها كمظهر من مظاهر تطبيع العلاقات بين الدولتين .

وهكذا قام الأسطول العثمانى بدور رئيسى فى بسط سيطرة الدولة على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى . وفى السنة التالية (١٤٨٠) هاجم الأسطول ثغر أوترانت Otrante فى مملكة نابولى، ونجح السلطان فى إنزال قواته فى الثغر وذبح قائد الحامية وأسر اثنى عشر ألفاً من جنودها وسكانها . واعتزم أن يتخذ من أوترانت قاعدة للزحف على شبه جزيرة إيطاليا من الجنوب إلى الشمال حتى يصل إلى روما مقر البابوية ، ولكنه جاز إلى ربه فى اليوم الثانى من شهر مايو – آيار – عام ٤٨١ عن اثنين وخمسين عاماً ، وانسحب العثمانيون من أوترانت . ويقرر أحد المؤرخين أن أوروبا تنفست الصعداء حين تطايرت الأنباء بوفاته ، واعتقدت أنها أنقذت من خطر شديد ، وأمر البابا سكست الرابع أن تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام سوياً[(١)] . وعلى عهد السلطان أبى يزيد الثانى (١٤٨١–١٥١٢) ، فرضت ضريبة خاصة على إستانبول ومدن أخرى للإنفاق على بناء السفن[(٢)] . ولما تولى العرش ابنه سليم الأول (١٥١٢–١٥٢٠) نقل فى عام ١٥١٦ المراكز البحرية الرئيسية للأسطول من قاعدتها الأصلية فى غاليبولى إلى إستانبول؛ حيث أنشأ داراً لصناعة السفن «ترسانة» فى ضاحية جالاطه على القرن الذهبى ، ويطلق عليها فى اللغة التركية» «ترسانة بوغازى» أى بوغاز البحرية[(٣)] . وقد أمر بهذا النقل قبل أن يخوض صراعاً حربياً ضد دولة المماليك الشراكسة فى الشام ومصر ، وقد بنى سليم فى هذه الترسانة سفناً أكبر حجماً من أى سفينة استعملت حتى ذلك الوقت . وكان يعد العدة لفتح جزيرة رودس منذ أن عاد إلى إستانبول عقب انتهاء العمليات الحربية فى الجهتين الآسيوية والإفريقية . ولكن فاجأه الموت وهو فى الطريق من إستانبول إلى أدرنة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٥٢٠ عن أربعة وخمسين عاماً، وبعد حكم قصير دام زهاء ثمانى سنوات . وارتقى العرش من بعده ابنه سليمان ، وعلى عهده كان للأسطول نشاط لم تشهد له الدولة العثمانية من قبل مثيلاً.

ومما يذكر أن السلطان سليم بعد أن أقام فى القاهرة بضعة أشهر غادرها فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو – آيار – عام ١٥١٧ إلى الإسكندرية ؛ ليقوم بالتفتيش على الأسطول

---

(1) Lavallée, Histoire de la Turquie, t. 1, p. 275.

(2) Gibb Hamilton & Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 105, fn. 2.

(٣) لم تكن جالاطه Galata حتى بداية القرن السادس عشر تمتاز عن بيرا Pera إذ كانت لفظة جالاطه تطلق على كل المنطقة .

العثمانى ، وكان بقيادة بيرى باشى Piri وسافر إليها بطريق النيل من بولاق إلى رشيد ومنها امتطى صهوة جواده وسار ، فى حراسة ألف فارس من سلاح الفرسان ،(١) على طول الشريط الساحلى إلى الإسكندرية ؛ حيث يلغها فى اليوم الثانى من شهر يونيو - حزيران - وأقام فى قلعة المدينة ، ثم استعرض الأسطول وكان يتكون من مائتى سفينة . ثم زار المدينة واستقبل فيها مشايخ العربان الذين قدموا له «التقادم» أى هدايا القدوم . وكانت عبارة عن خيول وجمال وأغنام وأبقار وغير ذلك ، وغادر الإسكندرية فى اليوم السادس من شهر يونيو - حزيران - عائداً إلى القاهرة . من الطريق نفسها فبلغها فى اليوم الثانى عشر من ذات الشهر بعد غيبة استمرت أسبوعين (٢) ، وتدل ملابسات هذه الزيارة على أن الهدف الرئيسى منها كان التفتيش على الأسطول وبالتالى على مدى اهتمامه به وضخامة عدد وحداته .

الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع :

منذ أن استوى السلطان سليمان المشرع على العرش (١٥٢٠-١٥٦٦) ظفر الأسطول بعناية بالغة منه . فأنشأ له - إلى جانب قاعدته الرئيسية فى إستانبول - قواعد بحرية فى جزر بحر الأرخبيل وفى أقلونا على ساحل ألبانيا وفى غيرها ، كما أنشئت قاعدة بحرية وترسنة فى ميناء السويس يرتكز إليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية (٣) .

وقد استهل سليمان حكمه بعد أن فرغ من فتح بلغراد عام ١٥٢١ بانتزاع جزيرة رودس، من فرسان القديس يوحنا فى أواخر عام ١٩٢٢ ، وكانت قوة الأسطول العثمانى المهاجم تتكون من ثلاثمائة سفينة بين سفن حربية وسفن نقل الجنود . وبدأت بنقل طلائع الحملة وكان عدد أفراد هذه الطلائع عشرة آلاف مقاتل ، ثم جاءت بالقوات الرئيسية وقوامها مائة ألف جندى كانوا تحت قيادة السلطان (٤) .

---

(١) كانت الأوامر قد صدرت إلى يونس باشا بأن يتحرك بقواته من تروجه لمقابلة سليم فى رشيد والتوجه معه إلى الإسكندرية . وقد صدر أمر السلطان بعد عودته إلى القاهرة بتعيين يونس باشا نائباً للسلطان فى حكم مصر ثم عزله فى شهر شعبان ٩٢٣ (١٩ من أغسطس - آب - إلى ١٦ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧) وولى مكانه خاير بك ثم أمر فى الشهر ذاته بقتل يونس باشا وفصل رأسه عن جثمانه .

(٢) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، ج٥ ، ص ص١٨٤-١٨٧ ، وانظر أيضاً Combe Etienne, op. cit., p. 14. .

(٣) عن نشاط الأسطول العثمانى على عهد السلطان سليمان الشرع فى البحر الأحمر والبحار الشرقية .
انظر : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : المراحل الأولى للوجود البرتغالى إلخ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٤) انظر أسباب فتح السلطان سليمان المشرع لجزيرة رودس ووقائع الفتح فى :
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٦٩٠-٦٩٣.

وبفضل استيلاء السلطان سليمان على جزيرة رودس ، زادت سيطرة الأسطول العثمانى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط . فقد كانت له من قبل سيطرة على سواحل الأناضول والبلقان والشام ومصر ، وقد استغل السلطان سليمان استيلاءه على جزيرة رودس استغلالاً حربياً واسع النطاق . فقام الأسطول العثمانى بتطهير بحر إيجة من الجزر والمحطات البحرية ، التى كان يتخذها البنادقة وغيرهم جيوباً عسكرية لهم ، وما لبث أن نقل الأسطول عملياته الحربية إلى البحر الأيونى ثم البحر الأدرياتى .

النشاط الحربى للأسطول العثمانى فى بحر إيجه عام ١٥٣٧ :

بينما كانت الحرب تدور فى ضراوة بالغة بين قوات فرنسا وقوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى زحفت على فرنسا من ناحية الجنوب الشرقى، وتكبدت فيها الدولتان خسائر فادحة .. استجاب السلطان سليمان فى مايو - آيار - ١٥٣٧ لنداء فرنسوا الأول ملك فرنسا، وأنفذ حملة لتخفيف الضغط على القوات الفرنسية ، ولكى يضطر الإمبراطور شارل الخامس إلى حجز جزء من قوات الإمبراطورية فى الجبهة الشرقية (١) . وقد استولى الأسطول العثمانى على أڤلونا Avlona وهو ميناء يقع على البحر الأيونى . ومن هذا الميناء اتجه الأسطول إلى جزيرة كورفو Corfu، وفرض عليها حصاراً ، وتصدى للعثمانيين الأسطول الإسبانى بقيادة أندريه دوريا André Dorea أحد مشاهير القادة البحرين الإسبانيين . وانتصر على الأسطول العثمانى فى المراحل الأولى ، ولكن سرعان ماتفوق عليه خير الدين بربروس باشا وحول الهزيمة إلى نصر ، ثم اضطر إلى رفع الحصار عن كورفو ، وعوض هذا الانسحاب بفتح جزر بحر إيجة (٢) بما تضمه من جزر الدوديكانيز Dodékanése ، ولما رأى حاكم جزيرة ناكسوس (٣) Naxos وهى كبرى جزر الأرخبيل اليونانى (٤) ماحل بسائر الجزر سارع إلى إعلان خضوعه للسلطان العثمانى ، وعقد معاهدة تعهد فيها بدفع جزية قدرها خمسة آلاف دوكة سنوياً وأن يكون تابعاً للسلطان .

---

(١) انظر تفصيلات عن الموقف الدولى فى أوروبا عقب سلم السيدات أو صلح كنبراى
La Paix des Dames ou la Paix de Cambrai.
وازدياد خطر العثمانيين سواء فى القارة الأوروبية أو فى حوض البحر المتوسط ، فى دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٢٥٩-٢٦٢.

(٢) كان من بين الجزر التى استولى عليها الأسطول العثمانى :
Syra-Guira(Gyatos) - Pathmos - Stampalia - Egine.

(٣) كان اسم هذا الحاكم كريسبو Crispo .

(٤) تسمى جزر بحر الأرخبيل اليونانى سيكلاديس Cyclades . وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة اليونانية Kuklos ومعناها دائرة ، لأن جزر بحر الأرخبيل فى مجموعها تكون دائرة حول ديلوس Délos وهى أصغر جزر الأرخبيل .

نشاط الأسطول على سواحل دلماشيا فى البحر الأدرياتى سنة ١٥٣٨ :

وعلى الرغم من عقد هدنة نيس فى اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٣٨ بين الإمبراطور شارل الخامس وفرنسوا الأول ملك فرنسا (١) ، وفيها تقرر وقف العمليات الحربية بينهما لمدة عشر سنوات .. أثبتت الأحداث أن هذه الهدنة لم تكن إلا قصاصة ورق لاقيمة لها . فقد استمرت الحرب مستعر أوارها بين العاهلين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وتدعم مركز الإمبراطور بانضمام جمهورية البندقية والبابا بول الثالث وفرديناند ملك النمسا إليه ، وظهر التحالف الفرنسى العثمانى قوياً فى هذا الوقت العصيب . فواصل خير الدين بربروس باشا - قبودان باشا - عملياته الحربية ومضى يستكمل الاستيلاء على بقية جزر بحر الأرخبيل (٢) ، ثم قام بهجوم على جزيرة كريت ، وتصدى له أندريه دوريا القائد البحرى الإسبانى . ولكن كان النصر حليف خير الدين بربروس الذى أشعل النيران فى مدينتين بقذائف مدفعية الأسطول ، كما أحرق عدداً كبيراً من القرى الساحلية فى الجزيرة (٣) .

انتصار بحرى ساحق للأسطول فى معركة بريڤيزا :

هاجم الأسطول العثمانى السواحل الجنوبية لشبه جزيرة إيطاليا ، وأنزل قوات عثمانية على مقربة من المدينة البحرية أوترانت Otrante وانتشرت الشائعات فى أرجاء أوروبا بأن السلطان سليمان المشرع يبتغى الزحف منها على روما مقر البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، وأنه سوف يفعل بها مافعله السلطان محمد أبو الفتوح حين دخل القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وحوّل كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد . وارتفعت الأصوات فى أوروبا تطالب بضم الصفوف لمواجهة هذا الخطر الإسلامى العثمانى الداهم ، الذى تتعرض له الكنيسة الكاثوليكية . وعقد فى عام ١٥٣٨ حلف صليبى دولى ، كان قوامه الإمبراطورية الرومانية المقدسة وجمهورية البندقية والبابوية . وتلاقت أساطيل هذا الحلف تجاه ميناء بريڤيزا Prévéza جنوبى جزيرة كورفو . ولجأ خير الدين بربروس إلى الحيلة كى يصرف قادة السفن عن القتال . وتظاهر برغبته فى الدخول فى مفاوضات للصلح ، وقدم لهم مقترحات فى هذا الصدد . وبينما كانت الاتصالات دائرة ، وبينما كان البحارة فى حالة استرخاء عسكرى .. اشتبك معهم فى معركة

---

(١) عن هدنة نيس ، انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢) كان من بين الجزر التى استولى عليها الأسطول العثمانى .

Skiathos - Skyros - Karpathos (Skarpantos).

انظر :

Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 732.

(3) Loc. Cit.

وردهم على أعقابهم خاسرين ، واسترد الأسطول العثمانى سمعته بعد أن نال منها انتصار الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان قد استولى على تونس عام ١٥٣٥ . ومما يذكر أن وحدات الأسطول الفرنسى بقيادة سان بلانكار Saint-Blancart كانت موجودة فى مياه المعركة ، ولكنها لم تشترك على الإطلاق فى العمليات الحربية ، وهذه حقيقة يقررها أحد كبار المؤرخين الفرنسيين :

La flotte française, commandée par Saint-Blancart, avait paru dans les eaux de Prévéza, mais sans prendre part à aucune action. (١)

أما التحالف الصليبى الدولى.. فقد ترنح بعد هذه الهزيمة البحرية ، وبذل فرنسوا الأول ملك فرنسا جهوده الدبلوماسية لإخراج جمهورية البندقية من هذا التحالف . وعهد بهذه المهمة إلى مبعوثيه الدبلوماسيين وهما رنسون Rincon ، وسيزار كانتلمو Cesar Cantelmo ونجحا فى هذه المهمة ، وعقد صلح فى عام ١٥٣٩ بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية (٢) .

امتداد نشاط الأسطول إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط :

ظل نفوذ الأسطول العثمانى بعيداً عن الحوض الغربى للبحر المتوسط حتى الثلاثينيات من القرن السادس عشر ، ثم ظهر قوة ضاربة عملاقة شامخة فى أنحاء شتى من هذا الحوض، شملت جنوبى إيطاليا وأجزاء من جزيرة صقلية والساحل الجنوبى لفرنسا وسواحل إسبانيا ، فضلاً عن ثلاثة أقاليم إسلامية عربية ، هى: الجزائر وتونس وطرابلس . وجاء نشاط الأسطول العثمانى فى مياه تلك الجهات نتيجة عدة عوامل ، كان من بينها :

أولاً : اشتداد الصراع الدينى بين الإسلام والمسيحية فى منطقة شمالى إفريقية ، وهو الصراع الذى وصل إلى حد الاشتباك المسلح بين البرتغال وإسبانيا من ناحية ، والقوى الإسلامية فى شمالى إفريقية من ناحية أخرى ، وقد أضفى عليه البرتغاليون والإسبانيون الطابع الصليبى العنيف ؛ مما دعا القوى الإسلامية إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية .

ثانياً : سياسة التوسع الإقليمى البحرى التى انتهجتها الدولة العثمانية باستيلائها تباعاً على ممتلكات جمهورية البندقية .

ثالثاً : التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ضد عدوهما المشترك شارل الخامس ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

---

(1) Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 732.

(2) Loc. Cit.

وكان امتداد نشاط الأسطول العثمانى إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط بمثابة فتح جبهة حربية ثانية ضد الإمبراطور شارل الخامس، وسياسة عليا للدولة على عهد السلطان سليمان ، استهدفت منها مزيداً من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا ؛ إذ أصبح الاتصال العسكرى والتعاون الحربى بين الدولتين -بفضل الأسطول العثمانى - مباشراً وأكثر سهولة وأشد فاعلية ، فإن الحروب البرية التى خاضتها الدولة ضد المجر وضد النمسا لم تتح الفرصة أمام فرنسا لتنسيق التعاون المنشود .

أما وقد فتحت الدولة العثمانية جبهة حربية فى هذا الحوض الغربى ، الذى تطل فرنسا على سواحله الشمالية .. فقد أصبح فى مقدور الدولتين تنسيق وتعزيز التعاون الحربى بينهما، واستطاع الأسطول العثمانى أن يتغلغل فى أنحاء الحوض الغربى ، وأن يتخذ من الموانىء الفرنسية قواعد له يحتمى بها ، وأن يقوم بمهاجمة ممتلكات الإمبراطور شارل الخامس ، فى إيطاليا وإسبانيا ؛ كى يخفف الضغط على القوات الفرنسية فى حربها ضد هذا الإمبراطور .

ولم تكن الانتصارات التى حققها الأسطول العثمانى تقل من حيث أهميتها عن الانتصارات التى سجلتها الجيوش العثمانية على أرض القارة الأوروبية فى بلغراد وفى موهاكز، بل كانت انتصارات الأسطول العثمانى أبقى أثراً من فتوحات المجر والنمسا ؛ لأنه نجم عن انتصاراته فى الحوض الغربى للبحر المتوسط إنقاذ شمالى إفريقية من الغزو الصليبى الأوروبى، ودخول ثلاثة أقاليم إسلامية عربية تحت السيادة العثمانية ، وتراوحت فترة هذه السيادة بين قرنين وثلاثة قرون .

وسنرجىء الكلام عن الجبهة الإفريقية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط عند تعرضنا لموضوع الجزئار وطرابلس وتونس .

هجوم الأسطولين العثمانى والفرنسى على ثغر نيس :

لم يتأخر السلطان سليمان المشرع عن تقديم المساعدات الحربية ، التى طلبها فرنسوا الأول فى أثناء الحرب التى اشتعلت من جديد بين هذا الأخير والإمبراطور شارل الخامس حول دوقية ميلان Milan فى شمالى إيطاليا عقب هدنة نيس . وقد أبحر خير الدين بربروس من إستانبول فى شهر مايو - آيار - عام ١٥٤٣ ، على رأس قوة بحرية كبيرة إلى جنوب فرنسا لمساعدة الفرنسيين على تخليص ميناء نيس من قوات شارل الخامس . وكان فى رفقته يولان Paulin القائد البحرى الفرنسى ، واستولى خير الدين فى يونيو - حزيران - عام ١٥٤٣ على ثغر رجيو Reggio فى جزيرة صقلية ويطل على بوغاز ميسينا ،ثم مضى يطهر المنطقة الواقعة فى منتصف حوض البحر المتوسط من سفن الإسبانيين حتى بلغ مارسيليا فى يوليو - تموز - عام ١٥٤٣ وهناك انضم إليه أميرال فرنسى هو الدوق إنجهين Enghein ، الذى كان تحت

إمرته أربعون سفينة مختلفة الأنواع والأحجام .

وتعاون الاثنان فى الاستيلاء على ثغر نيس فى اليوم العشرين من شهر أغسطس – آب – عام ١٥٤٣ ، ولكن تعذر على العثمانيين والفرنسيين الاستيلاء على حصن المدينة ؛ إذ أنقذه من السقوط وصول أسطول إسبانى يقوده أندريه دوريا ، ووصول جيش إمبراطورى من دوقية ميلان . ولما استعصت القلعة على المهاجمين عمد العثمانيون إلى الانتقام الذريع من سكان نيس ، فنهبوا المدينة وقتلوا السكان وأعملوا النار فى منشآتها [١] ، ومما هو جدير بالذكر أنه حدث نزاع بين القائدين المتحالفين ، إذ هدد خير الدين بربروس زميله الأميرال الفرنسى بوضع الأغلال فى يديه ؛ لأن هذا الأخير اهتم بشحن كميات هائلة من النبيذ من مارسيليا ، ولم يهتم بتزويد سفنه بمقادير كافية من الذخائر[٢] .

الأسطول العثمانى يتخذ من طولون قاعدة حربية له :

وفى سبتمبر – أيلول – عام ١٥٤٣ ، وقع حادث من الحوادث الفريدة فى التاريخ التى لاتحدث إلا لماماً أو لاتحدث على الإطلاق .. فإن طولون – وهو الميناء الحربى لفرنسا فى حوض البحر المتوسط – قد تحول إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية برضاء وموافقة السلطات الفرنسية . كان الأسطول العثمانى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، يهاجم فى غير هوادة الأهداف العسكرية الإسبانية ، وكان فى حاجة إلى قاعدة حربية يستند إليها فى عملياته العسكرية . وفى ضراوة القتال المستعر بين فرانسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس ، وقع اختيار ملك فرنسا على ثغر طولون ليكون قاعدة للأسطول العثمانى ، وأصدرت الحكومة الفرنسية فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٥٤٣ بإخلاء الثغر من جميع سكان . وطلبت منهم أن يأخذوا معهم جميع أمتعتهم وأموالهم . وهددت كل شخص تسول له نفسه مخالفة هذه الأوامر بأقسى العقوبات واعتبار رفض الهجرة من المدينة عصياناً للحكومة الملكية فى بارس ، وأصبحت طولون مدينة إسلامية عثمانية وقاعدة عسكرية للأسطول العثمانى . وعادت السلطات الفرنسية ، فخشيت أن يعمد البحارة العثمانيون إلى ارتكاب أعمال التخريب فى طولون ، على النحو الذى فعلوه فى نيس ، فأصدرت تعليمات لاحقة قصرت فيها الهجرة من المدينة على الأطفال والنساء اللاتى يردن مغادرة طولون ، وقد قضى خير الدين بربروس شتاء ١٥٤٣–١٥٤٤ فى طولون .

وتشيد الوثائق الرسمية بحسن سلوك العثمانيين فى أثناء مرابطتهم بميناء طولون ، وقد خرجوا منها بحصيلة آدمية بلغت أربعة عشر ألف أسير من قوات شارل الخامس [٣] . وقد بلغ

(1) Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 735.

(2) Loc. Cit.

(3) Loc. Cit., pp. 120-121.

السخط العام فى أوروبا أقصى مداه على الملك فرنسوا الأول ، الذى دعم تحالفه مع أكبر دولة إسلامية إلى الحد ، الذى جعله يسمح بتحويل ميناء حربى فرنسى إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية ، ويجعل هذا الميناء فى خدمة الأسطول العثمانى . ولذلك لم يكن أمراً عجاباً أن أطلق الرأى العام الأوروبى على التحالف بين فرنسوا الأول ملك فرنسا والسلطان سليمان المشرع هذه العبارة «الاتحاد المدنس بين فرنسا والهلال L'Union Sacrilége du Lis et du Croissant[1]» . وقد أساء هذا التعاون الوثيق إلى مركز الملك فرنسوا الأول فى نظر الرأى العام الأوروبى ، وقرب بين الكاثوليك والبروتستانت ؛ إذ وعد الأمراء الألمان بأن يقفوا إلى جانب الإمبراطور شارل الخامس ضد الدولة العثمانية وضد فرنسا [2] .

وكان ذلك العمل العسكرى فى طولون آخر عمل حربى ، قام به خير الدين بربروس باشا، إذ اعتزل حياة البحر وعاش فى إستانبول حتى جاز إلى ربه عام ٦٤٥١ ، بعد أن سطر فى تاريخ البحرية العثمانية أروع الصفحات فى البطولة والفدائية والنزاهة والإخلاص للإسلام وللدولة العثمانية ، وردع القوى الصليبية الباغية .

والحق أن خير الدين بربروس يعد بطل التاريخ البحرى العثمانى ، ومن أبرز القادة البحريين الذين ظهروا فى العالم فى القرن السادس عشر . وكان طرازاً فريداً بين القادة العثمانيين البحريين ؛ إذ كان يجمع بين المهارة الحربية والثقافة السياسية العميقة ، ملماً بأدق تفاصيل السياسة الدولية ؛ مما جعله عوناً للدولة فى مواجهة المشكلات الخارجية للدولة، وأكسبه احتراماً وتقديراً عميقين فى الدوائر العليا سواء فى الباب العالى أو فى فرنسا . ويعزو بعض المؤرخين عقد التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى النفوذ العظيم ، الذى كان يتمتع به خير الدين فى الدولة ، والتقدير العميق الذى ظفر به من المسئولين فى فرنسا ، وكانوا ينظرون إليه على أنه صديق لفرنسا . كما يقرر المؤرخون أن معاهدة الامتيازات الأجنبية التى أبرمت بين

---

(١) لفظة Lis بالفرنسية اسم لزهرة ناصعة البياض على شكل حربة ، ويقرب شكلها الجانبى من رسم الصليب. كانت تتخذ قديماً شعاراً لفرنسا ثم أطلقت من باب الاستعارة على فرنسا فيقال :

فرنسا Les Lis.

مملكة فرنسا Le Royaume des Lis.

عرش فرنسا Le Trône des Lis.

(٢) اشتعلت الحرب من جديد بين فرنسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس ، وانتصر فيها ملك فرنسا فى معركة سيريزول Cerisoles فى ١٤ من أبريل – نيسان – عام ١٥٤٤، وكانت أخر حرب يخوضها فرنسوا الأول قبل أن تدركه الوفاة فى ٣١ من مارس – آذار – فى عام ١٥٤٧ ، وكانت هذه الحرب قد انتهت بعقد معاهدة كريسبى Crespi (١٨ من سبتمبر - أيلول – عام ١٥٤٤) .

انظر دكتور عبدالعزيز الشناوى ، أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره الطبعة الأولى ، ص ص٢٦٥-٧١٥ .

الدولتين عام ٥٣٥١ ، إنما كانت ثمرة من ثمار جهوده فى التقريب بين هاتين الدولتين العملاقتين .

وتوالت انتصارات الأسطول العثمانى على عهد السلطان سليمان المشرع ، منذ أن عين بيالة Pialé فى منصب قبودان باشا عام ٤٥٥١ ، وهو من ألمع القادة الذين جاءوا بعد خير الدين بربروس ، فقد هاجم الساحل المحيط بنابولى سنة ١٥٥٥ ، واستولى على رجيو Reggio وأسر سكانها ، وأحرز انتصارات بحرية متعاقبة : احتل عام ١٥٥٦ ميناء بنزرت فى تونس . وفى العام التالى كان يقود مائة وخمسين سفينة دمر بها ميورقة ، وأحرق سورنتو Sorento بالقرب من نابولى . وفى عام ١٥٥٨ ظل رابضاً بأسطوله المكون من تسعين سفينة أمام ولونة Valona على ساحل ألبانيا ، يراقب أساطيل الأعداء الذين كانوا يتأهبون لمهاجمة جربة وطرابلس ، ثم أحرز فى ٣١ من شهر يوليو - تموز - عام ١٥٦٠ أعظم انتصاراته البحرية وهى احتلال جربة، وكانت قد سقطت قبل ذلك فى أيدى الإسبانيين . وكان أسطوله يتكون وقتذاك من مائة وعشرين سفينة . وقاد حملة موفقة على جزيرة خيوس Chios (ساقز Sakiz) وكانت آخر جزيرة فى بحر إيجه، استعصت على العثمانيين ، فسقطت الجزيرة وميناؤها فى يوم واحد هو عيد الفصح عام ١٥٦٥ (١) .

هزائم الأسطول العثمانى :

وإذا كان للأسطول العثمانى انتصارته الباهرة .. فقد كانت له أيضاً هزائمه الأليمة شأن أساطيل كل الدول دون استثناء . وحسبنا أن نذكر منها إخفاقه فى فتح جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ على عهد السلطان سليمان المشرع وتعرضه لخسائر فادحة فى الأرواح والسفن ، ثم هزيمته فى معركة لبنات سنة ١٥٧١ على عهد السلطان سليم الثانى . وقد وصلت هذه الهزيمة إلى حد الكارثة .. فقد تحطمت غالبية وحدات الأسطول ، بحيث لم ينج منها إلا القليل ، كما قتل أو غرق عدد من كبار القادة البحريين والبحارة المدربين . وإذا كانت الدولة قد استطاعت بناء عدد كبير من السفن خلال العام التالى إلا أن خسارتها البشرية فى الضباط والبحارة المتمرسين فى شئون الملاحة والقتال البحرى كانت فادحة ؛ لأنها لم تستطع تعويضهم بالسرعة نفسها ، التى تم بها بناء سفن جديدة .

ومن هنا يمكن القول إن بناء الإنسان أصعب بكثير من بناء السفن . وكان هذا هو سبب ضعف الأسطول العثمانى بعد معركة لبانت ، فلم يخض معركة بحرية ذات شأن إلا فى منتصف القرن التالى ، حين أرسلت الدولة حملة بحرية لانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية ، وقد استغرق فتحها خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩) ، وقد كشف طول أمد هذه

---

(١) انظر عرضاً لانتصارات بيالة باشا فى :

Babinger Franz, Encycl. of Islam, Art. Piale Pasha

الحرب عن أن الأسطول لم يستعد أمجاده الأولى . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تحاول إخفاء حجم هزيمة ليانت عن الجماهير . فلم تطلق عليها نكسة أو أوصافاً أخرى ابتغاء التمويه على أفراد الشعب أو الاستخفاف بعقولهم ، بل أطلقت عليها «صنغين دونما سفرى» أى «معركة الأسطول الذى غرق» ، وتعرف هذه المعركة فى تاريخ الدولة العثمانية باسم «اينة بختى[1] Ine Bahti» ، وفى القرن التاسع عشر تحطم الأسطول العثمانى فى معركة نفارين البحرية (١٨٢٧) .

ويلاحظ أن هذه الهزائم الثلاث الأليمة التى تكبدها الأسطول العثمانى قد وقعت ؛ لأنه كان يواجه فيها قوات بحرية تتبع عدة دول بحرية تحالفت ضده . ففى حملة مالطة انضمت إسبانيا فى الدفاع عن الجزيرة إلى جانب أصحابها فى ذلك الوقت ، وهم فرسان القديس يوحنا. وفى معركة ليانت ، واجه الأسطول العثمانى تحالفاً رهيباً هو العصبة المقدسة La Sainte-Ligue التى تنادى إليها البابا بيوس الخامس . وقد تم تكوين العصبة فى ٥٢ من مايو – آيار – عام ١٥٧١ من البابوية ، وإسبانيا ، والبندقية ، وتوسكانيا ، وجنوة ، وفلورانس ، وسافوى ، ومانتو ، وبارما ، وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة .

وقد تضمن ميثاق العصبة نصوصاً حددت عدد السفن والبحارة والجنود والأموال التى يقدمها الأطراف المتعاقدون فى هذه العصبة . وتدخل البابا بيوس الخامس ؛ للقضاء على التنافس الذى ثار بين أعضاء العصبة حول منصب القائد العام. واستطاع أن يقنعهم بقبول تعيين قائد بحرى ، سبق له خوض معارك ضد مسلمى شمالى إفريقية ، وهو دون جوان النمساوى Don Juan d'Autriche ، وهو ابن غير شرعى للإمبراطور شارل الخامس . وقد تسلم القيادة العامة للأساطيل المتحالفة فى ٢٢ من أغسطس – آب – عام ١٥٧١ ، واحتشدت هذه الأساطيل فى ميناء مسينا بجزيرة صقلية فى ١٥ من سبتمبر – أيلول . وكانت تضم خيرة القواد البحريين فى الدول المتالفة . وبعثت الأسرات المالكة فى أوروبا والإمارات الإيطالية بعدد كبير من أمرائها إلى قيادة الأساطيل الصليبية ؛ إظهاراً لعواطفها نحو الحملة الصليبية ورمزاً لتضامنها .

ومما يذكر أن دون جوان القائد العام رأى أن سفن جمهورية البندقية يعوزها العدد الكافى من البحارة المدربين ، فأمر بوضع خمسمائة بحار إسبانى على كل سفينة من سفن البنادقة . وكانت كل سفينة صليبية بمثابة قلعة طافية على سطح الماء تحمل مدفعية ثقيلة

---

(١) يطلق على هذه المعركة فى المراجع الفرنسية Lépante وفى المراجع الإنجليزية Lepant وفى المراجع الإيطالية Lepanto . وقد دارت المعركة فى المنطقة الواقعة بين خليج ليانت وخليج باتراس patras ولهذا يرى بعض المؤرخين بأنه خليق بأن يطلق على هذه المعركة البحرية اسم معركة باتراس وليس معركة ليانت.

وخمسمائة بحار عدا طاقم السفين . وقابل العالم المسيحى أنباء هزيمة الأسطول العثمانى فى المعركة بابتهاج شديد . وأقيمت فى جميع أنحاء العالم المسيحى صلاة شكر te Deum ، ونظمت الاحتفالات ، وأقيمت الزينات فى روما والبندقية وغيرهما . وسارت المواكب وسط قرع الطبول إلى الكابيتول ، حيث صعد إليه القائد كولونا الذى اشترك فى المعركة ممثلاً للبابوية .

وفى معركة نفارين[1] البحرية واجه الأسطول العثمانى أساطيل ثلاث دول أوروبية كبرى هى بريطانيا وفرنسا والروسيا . وكان الأسطول العثمانى يضم الأسطول المصرى وأسطولى نيابتى تونس والجزائر ؛ مما أضفى على المعركة صورة أسطول مسيحى يفتك بأسطول إسلامى ، مما دعا السلطان محمود الثانى إلى إعلان الجهاد الدينى ضد المسيحيين؛ خاصة الروس ، على أساس أن الروسيا هى العدو اللدود رقم١ للدولة العثمانية .

مسلمو الأندلس يستنجدون بالدولة العثمانية :

كان من الطبيعى أن يتجه سكان الأندلس قبل سقوط الحكم الإسلامى فيها ، وبعد انتهاء هذا الحكم ، وكذلك أهالى شمالى إفريقية ، إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكرياً فى الصراع ، الذى احتدم بين الإسلام والمسيحية فى تلك الأقاليم، وهو صراع اتخذ الطابع الصليبى العنيف . كانت الكيانات المسيحية فى الأندلس تضغط ضغطاً لاهوادة فيه على ماتبقى للمسلمين من معاقل ومراكز . ولما طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس بعقد معاهدة غرناطة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٤٩١ ، أثبتت الأحداث أن هذه المعاهدة لم تكن إلا ستاراً للغدر والخيانة [2] ؛ إذ عمدت السلطات المسيحية الحاكمة فى إسبانيا إلى تصفية الوجود الإسلامى الشعبى فى شتى أنحاء البلاد ، واتخذت إجراءات تعسفية ضد المسلمين الذين آثروا الحفاظ على دينهم . وقدمت أعداد كثيفة منهم إلى ديوان التحقيق – محاكم التفتيش – وصدرت عليهم أحكام جائرة بالإعدام أو السجن مدى الحياة مع مصادرة أملاكهم . ومضت فى اضطهاد البقية الباقية منهم ، فمنعتهم من التحدث باللغة العربية ، ومن ارتداء ملابسهم الوطنية ، ومن التردد على الحمامات العامة ، ومن حمل السلاح ، وفرضت عليهم وضع شارة زرقاء على قبعاتهم ، وخصصت لهم فى كل مدينة منطقة معينة أو حياً من أحيائها يسكنون فيه ، وحولت جميع المساجد إلى كنائس ، وأمرت المسلمين بأن يخروا للأذقان سجداً فى الشوارع ، إذا مر بهم كبير الأحبار[3] .

---

(١) بجانب معركة نفارين ، وقعت معارك بحرية تحطم فيها الأسطول العثمانى ، نذكر منها على سبيل المثال معركة سينوب فى البحر الأسود ، حيث استطاع الأسطول الروسى القضاء على الأسطول العثمانى ، فى أواخر شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٨٥٣ .

(٢) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٤٤-٢٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢٥٤ .

أهداف البرتغاليين والإسبانيين من نقل الحرب الصليبية إلى شمالى إفريقية :

كان البرتغاليون والإسبانيون يشنون حروباً متصلة على أقاليم شمالى إفريقية ، باعتبارها بلاداً إسلامية ، تحوى رصيداً بشرياً إسلامياً هائلاً يشد أزر مسلمى الأندلس فى جهادهم الدينى . فكان هدفهم العاجل احتلال شمالى إفريقية للفصل بين المغاربة المتمركزين على الساحل الشمالى للقارة الإفريقية وبين المسلمين فى الأندلس . أما أهدافهم الصليبية التالية، فكان من بينها تحويل المغاربة إلى المسيحية وطمس عروبتهم ، وقد دل هذا الهدف المزدوج على أن أحلام اليقظة كانت تراود البرتغاليين والإسبانيين ؛ لأن تنصير مسلمى شمالى إفريقية وطمس عروبتهم ، كانا أمرين فى حكم الاستحالة تنفيذهما .

كان دخول الإسلام وانتشاره فى شمالى إفريقية عاملين هامين فى تعريب الجماعات التى تقطن هذه الأرجاء الشاسعة ، وكان انتشار الإسلام فيها قد بدأ مبكراً . ولم تلبث القيروان أن أصبحت منذ أواخر القرن الأول الهجرى أى القرن السابع الميلادى مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية العربية ، يتلقى فيه الدارسون مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويدرسون اللغة العربية والأدب العربى ، ثم يخرجون إلى جماعات البربر فيعلمونهم أصول الدين ويقرءونهم القرآن الكريم ، وينشرون بينهم اللغة العربية . واقترنت تلك الأهداف الصليبية بهدف اقتصادى هو انتزاع التجارة الإفريقية من أيدى المسلمين والاستيلاء على موارد الثروة الطبيعية فى البلاد والتوغل جنوباً فى الداخل .

وكانت كفة البرتغاليين راجحة فى هذا الصراع الصليبى ؛ إذ احتلوا عام ١٤١٥ مدينة سبته Ceuta فى أقصى الساحل الشمالى لإفريقية من ناحية الغرب فى مواجهة بوغاز جبل طارق ، وكان احتلالهم لهذا الموقع الإستراتيجى الهام أمراً بالغ الخطورة ، لأن احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الأسباب التى أعاقت سكان شمالى إفريقية عن تعزيز القوات الإسلامية فى الأندلس عن طريق بوغاز جبل طارق . ولذلك حرص البرتغاليون والإسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع ، ثم احتل البرتغاليون سنة ١٤٢٨ مدينة طنجة فى غربى سبته لإحكام الحصار حول المعبر الجنوبى لشبه جزيرة أيبريا عن طريق بوغاز جبل طارق ، وأقام البرتغاليون مؤسسة تجارية لهم فى وهران (١٤٨٣-١٤٨٧) .

تفاقم الخطر الصليبى الإسبانى على شمالى إفريقية :

وعلى الرغم من هذا التوفيق ، الذى لازم البرتغاليين فى صراعهم الصليبى ضد مسلمى شمالى إفريقية ، كان خطرهم أقل من خطر الإسبانيين ؛ لأن البرتغاليين اتجهوا بعد

فترة نحو الساحل الغربى لإفريقية حيث ركزوا نشاطهم وأنشأوا لهم قواعد عسكرية ، وهو الاتجاه الذى أسفر فى النهاية عن وصولهم بحراً إلى رأس العواصف - رأس الرجاء الصالح - وانتهى بهم إلى الوصول بحراً إلى الهند ، وخاضوا صراعاً صليبياً ضارياً ضد الكيانات الإسلامية على ساحل ملبار ومنطقة الخليج العربى وجنوبى شبه الجزيرة العربية وغيرها .

إما الإسبانيون فكانوا ينفذون وصية الملكة إيزابلا الأولى ، التى كتبتها قبل وفاتها عام ١٥٠٤ ، وكان مما جاء فيها : «إنى أرجو من الأميرة ابنتى والأمير زوجها ، وآمرهما بطاعة وصايا الكنيسة أمنا المقدسة . فعليهما أن يقوما بحمايتها ، وألا يكفا عن المضى فى فتح إفريقية ومحاربة الكفار» ، وكانت تقصد المسلمين واليهود بكلمة الكفار ، وكانت هذه الملكة لشدة تعصبها للمذهب الكاثوليكى قد عرفت فى التاريخ باسم «الملكة إيزابلا الأولى الكاثوليكية» La Reine Isabelle lère La Catholique ، وكان زوجها على شاكلتها ، وعرف باسم فرناندو الخامس الكاثوليكى . وقد توفى عام ١٥١٦ . وقد أُطلق الإسبانيون على الحرب بينهم وبين مسلمى شمالى إفريقية حرب الاسترداد (١) Reconquesta ، وهى تسمية تنطوى على التحدى والمغالطة ؛ لأنه لم يسبق لهم الاستيلاء على أقاليم شمالى إفريقية .

احتل الإسبانيون عام ١٥٠٥ المرسى الكبير فى غربى الجزائر ، وقتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف مسلم ، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر (٢) ، وفى عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس . وفى العام التالى استولوا على بجاية ، وفى سنة ٥١٥١ احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدمير منشآت المدينة ، كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية (٣) . وعلى هذا النحو .. تناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية ابتداء من طرابلس إلى المغرب الأقصى محطات عسكرية ، اتخذها الإسبانيون ، ومن قبلهم البرتغاليون جيوباً صليبية .

---

(١) دكتور محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى .. الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص١٣ .

(٢) كانت مدينة الجزائر فى أول نشأتها عبارة عن جزيرة صغيرة لاتبعد عن الساحل الشمالى لإفريقية إلا بمسافة لاتتجاوز ثلاثمائة متراً . وأقام عليها الإسبانيون قلعة اتخذوها قاعدة عسكرية يضربون منها الساحل بالقنابل ، ثم ربطها خير الدين بربروس بقرية ساحلية مواجهة لها . ونشأت من الجزيرة والقرية مدينة الجزائر ، وهى الطريقة ذاتها التى كان الإسكندر المقدونى قد اتبعها فى تأسيس مدينة الإسكندرية.

(٣) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير وهجوم الاستعمار ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص١٥ .

مسلمو الأندلس وشمالى إفريقية يستغيثون بالدولة العثمانية :

وفى ذلك الوقت - قبل سقوط الحكم الإسلامى فى الأندلس ، وفى أثناء الحروب الصليبية الضارية التى أشلعها البرتغاليون والإسبانيون ، فى شمالى إفريقية - ترامت إلى مسامع المسلمين فى هذه الأقطار الانتصارات الباهرة ، التى أحرزتها الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت فى أوروبا وآسيا ، وما تخللها من نجاح السلطان محمد أبى الفتوح أو السلطان الفاتح محمد الثانى فى فتح القسطنطينية فاشرأبت الأعناق إليه وإلى خلفائه ، ودارت اتصالات بين الجانبين ، ناشد فيها مسلمو الأندلس وشمالى إفريقية سلاطين الدولة تقديم معونات عسكرية لهم فى نضالهم ضد الصليبية الأيبيرية ، واتجهوا أيضاً إلى دولة المماليك الشراكسة فى مصر ، وإلى مراكش من أجل هذا الهدف.

(أ) أهل غرناطة يستنجدون بالسلطان محمد أبى الفتوح :

أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٧٧٤١ - أى قبل سقوطها بإحدى عشرة سنة كآخر معقل إسلامى فى الأندلس - سفارة إلى إستانبول ، وجهوا فيها نظر السلطان محمد أبى الفتوح إلى تدهور أحوال المسلمين فى الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم (١) . ولكن كان فى حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان محمد أبو الفتوح لهذه الاستغاثة ؛ لأنه كان هو الاخر كما سبق أن ذكرنا منصرفاً إلى مواجهة تحالف صليبى يهدد دولته بأفدح الأخطار . وقد ضم هذا التحالف البابا سكست الرابع Sixte (١٤٧١-١٤٨٤) ، وجمهورية البندقية ، وحكام نابولى ، والمجر ، وترانسلفانيا ، وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس ، وعدداً من الزعماء الألبانيين الذين كانوا لايزالون يضمرون عداءً شديداً للدولة العثمانية . واستولت القوات المتحالفة على أزمير ، وحالت دون استيلاء العثمانيين على لپانت ، وكان تابعاً لجمهورية البندقية ، ولم تضع الحرب أوزارها إلا سنة ١٤٧٩ (٢) . وشرع السلطان محمد أبو الفتوح يعد مشروعاً لفتح روما عاصمة البابوية الكاثوليكية ، واتجه بقواته إلى أوترنت فى مملكة نابولى عام ١٤٨٠ ليتخذ منها قاعدة للزحف على روما ، ولكنه جاز إلى ربه فى اليوم الثانى من شهر مايو - آيار - عام ١٤٨٠ (٣) .

---

(١) دكتور عبدالجليل التميمى . بحث عنوانه «من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى ، سنة ١٤٥١» منشور فى المجلة التاريخية المغربية . تونس ، العدد الثالث ، شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٧٥ ، ص ص٣٧-٤٦ . انظر *مقدمة البحث* .

(٢) انظر عرضاً لملابسات تكوين هذا التحالف الصليبى ، وأدوار الحرب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد الدول الأعضاء فى التحالف فى :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع ..إلخ ، الطبعة الأولى ، ص ص٦٦٠-٦٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ص٦٦٦-٦٦٧ .

واتجه مسلمو غرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى إلى السلطان الملك الأشرف قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦) ؛ سلطان دولة المماليك الشراكسة يرجون تدخله لإنقاذهم من الملوك المسيحيين . وقد أرسل الأشرف قايتباى وفوداً إلى البابا وإلى ملوك الدول الأوروبية، يذكرهم بأن المسيحيين فى أرجاء دولته يتمتعون بكافة الحريات ، فى حين أن إخوانه فى الدين فى مدن إسبانيا يتعرضون لألوان شتى من الظلم . وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل ، وهى التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكف حكام قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء ، وعن طرد المسلمين من أراضيهم ، وطالب بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم[1] . ولكن لم يكن لهذا التهديد أو الوعيد أى أثر فى تغير الموقف العام للإسبانيين والبرتغاليين تجاه المسلمين ، سواء فى الأندلس أو فى شمالى إفريقية .

(ب) أهل الأندلس يستنجدون بالسلطان أبى يزيد الثانى :

واستنجد مسلمو الأندلس مرة أخرى ، بعد وفاة السلطان محمد أبى الفتوح بابنه السلطان أبى يزيد الثانى (١٤٨٠-١٥١١) ، ولكن تزاحمت على السلطان الجديد الأزمات الداخلية والخارجية مثل مشكلة نزاعه على العرش مع أخيه الأمير جم ، وما أثاره هذا النزاع من مشكلات مع البابوية فى روما وبعض الدول الأوروبية ، ثم هجوم البولنديين على مولداڤيا - جزء من رومانيا حالياً - والحروب فى ترانسلڤانيا والمجر وجمهورية البندقية ، وتكوين تحالف صليبى آخر ضد الدولة من البابا چيل Jules الثانى وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ، وما أسفر عنه هذا التحالف من حرب تنازلت الدولة فى نهايتها عن بعض ممتلكاتها ، وانتهى حكم السلطان أبى يزيد بصراع مع أبنائه أسفر عن خلعه وقتله مسموماً[2] .

وتوالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب ، غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع ابن وطاس لإسبانيا وعقد معاهدة سنة ١٥٣٨ معها وازدياد النفوذ الإسبانى البرتغالى على السواحل المغربية .. كل ذلك جعل من المستحيل القيام بإجراء حازم وفعال لنصرة أهل الأندلس ، وإنقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها ، فسقطت غرناطة عام ١٤٩١، وطويت صفحة الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة أيبريا .

نخلص من هاتين الاستغاثتين المتلاحقتين للسلطان محمد أبى الفتوح والسلطان أبى يزيد الثانى إلى أن الدولة العثمانية لم تستطع - لظروفها الداخلية والقوات الصليبية التى

---

(١) دكتور عبدالجليل التميمى : بحثه السابق الذكر . المجلة التاريخية المغربية ، العدد الثالث لعام ١٩٧٥ .

(٢) انظر عرضاً لهذه الأزمات الداخلية والأخطار الخارجية التى واجهها السلطان أبو يزيد الثانى فى :
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٦٦٩ - ٦٧٩ .

واجهتها أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لإنقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية الإسبانية، وبقى مسلمو شمالى إفريقية يواجهون ضراوة الصليبية الإسبانية بالذات .

سكان شمالى إفريقية مجاهدون إسلاميون ، وليسوا قراصنة :

مناقشة فرية ألصقت بهم :

اجتذب هذا الصراع الصليبى عدداً كبيراً من البحارة المسلمين من أقاليم شمالى إفريقية، وكانوا قد نشأوا فى مطلع حياتهم فى خدمة الأسطول العثمانى ، ثم كونوا سفناً كانت بمثابة أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم فى عمليت النقل البحرى ، وتجاهد فى الوقت ذاته ضد البرتغاليين والإسبانيين ، وأطلق عليها «مراكب الجهاد» ، وكان من قادة هؤلاء المجاهدين المغامرين : عروج ، وأخوه خير الدين بربروس ، وحسن باشا ، وصالح ريس ، ودراجوت باشا[1]، وغيرهم .

ويصر المؤرخون والباحثون الأوروبيون إصراراً شديداً على أن الفضل فى نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين إنما يرجع إلى أصولهم المسيحية الأولى ، فقد كانوا يونانيين أو إيطاليين أو ألبانيين قبل أن يعتنقوا الإسلام . واستهدف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين تصوير القادة البحريين المسلمين المغاربة بأنهم أجانب عن الدولة ، وأنهم قوم قلب ، ومجردون من المبادئ الخلقية ، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعارك جرياً وراء مغانم يظفرون بها، وأوغل هؤلاء المؤرخون فى التهكم عليهم والسخرية بهم ليوضحوا ، فى زعمهم ، وضاعة أصلهم . فقالوا عن بياله باشا إنه ابن إسكافى ، وقالو عن العلج على إن والده كان صائد سمك، وهكذا لم يغادروا صغيرة ولاكبيرة تسىء إلى قادة الأسطول العثمانيين المسلمين إلا أحصوها ، مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلاً أعلى فى الفدائية والبطولة فى المعارك التى خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية ، كما كانوا على جانبى كبير من التقوى حرصوا على إنشاء مساجد فى إستانبول وأفردوا فيها أماكن لتكون مثوى لهم بعد وفاتهم .

وقد خلص أولئك المؤرخون رأياً إلى إطلاق صفة «القراصنة» على قادة الأسطول العثمانى ، وكانوا يحرصون على ذكر اسم كل قائد مقروناً بهاتين الصفتين وبهذين الترتيبين قرصان ، وأمير بحر تركى . وهذا الرأى وماسبقه من تبريرات يعد نوعاً من التحامل على الدولة العثمانية ، لايقدح فى قدرها أو فى كفاية هؤلاء القادة المسلمين ؛ فالدولة هى التى تعهدتهم بالتدريب فى أسطولها وخرجوا قادة أفذاذاً استطاعوا أن يشقوا طريقهم فى حياة البحر ، وأن يخوضوا بنجاح ، دفاعاً عن دينهم ، صراعاً صليبياً ضارياً ضد دولتين بحريتين هما

---

(١) يرد هذا الاسم فى بعض المراجع طور غود ، وفى المراجع الفرنسية Dragut ، وفى المراجع الإنجليزية Torgud .

البرتغال وإسبانيا ، كانتا تتمتعان فى ذلك الوقت بمصادر مالية وحربية رهيبة ، وأسهمت كلتاهما بأكبر نصيب فى حركة الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار سواء فى الأمريكيتين أو فى إفريقية وآسيا بعد الوصول بحراً إلى الهند ، وبعد عبور المحيط الأطلنطى . فالوصف العلمى الذى يلحق بهؤلاء القادة ورجالهم هو أنهم مجاهدون إسلاميون خاضوا صراعاً صليبياً ضد برتغاليين وإسبانيين ، أرادوا الاستيلاء على بلادهم ، وتحويل سكانها إلى المسيحية وطمس عروبتهم . أما وصفهم قراصنة فقول بجانب الحق والواقع ، وكان مبعثه شعور الأوروبيين بالمقت والضغينة بسبب ما أنزله المجاهدون من خسائر بالأوروبيين وبفرسان القديس يوحنا . ومن المؤسف حقاً أن نفراً من المؤرخين والباحثين العرب قد سايروا مسايرة عمياء المؤرخين الأوروبيين فى هذا الرأى الخاطىء ، وقد سبق أن تعرضنا لموقف أولئك العرب من هذه التسمية الخاطئة والظلمة معاً(١) .

الدولة العثمانية ومجاهدو شمالى إفريقية :

برز من بين صفوف المجاهدين فى شمالى إفريقية بابا عروج (٢) ، وكان ذا شخصية قوية ودراية واسعة بأساليب مهاجمة الإسبانيين (٣) ، وذاع اسمه فى كل مكان على أثر انتصاراته عليهم . طلب إليه رجال القبائل فى الجزائر أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الإسبانيين ، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء فى المنطقة الشرقية من المغرب المتوسط فى ذلك الوقت . وحقق بابا عروج الآمال المعقودة عليه ، فكانت بجاية أول ميناء استطاع المسلمون تحريره من حكم الإسبانيين ، ونقل قاعدة عملياته من جزيرة جربة إلى ميناء جيجل فى شرقى الجزائر ، ثم طلب مواطنو بلدة الجزائر إلى عروج مساعدتهم على الصمود فى وجه الإسبانيين، الذين كانوا قد أقاموا قلعة منيعة تسمى پينون Pénon على الجزيرة المواجهة للساحل والبلدة ، ويلاحظ أن پينو مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والرءوس الداخلة فى البحر .

واعتاد الإسبانيون أن يقيموا عليها قلاعاً حصينة كى تهدد سكان الساحل ، وتمنع فى الوقت ذاته وصول سفن المسلمين إليهم . فسار بابا عروج بطريق البر على رأس ثمانمائة جندى نظامى وخمسة آلاف متطوع جزائرى ، فى الوقت الذى أرسل فيه سفناً محملة بالمجاهدين ومسلحة بالمدفعية لتهديد حصن پينو ، ونجح فى صد هجوم إسبانى عن هذه البلدة عام ١٥١٦ ، وتمكن من إقامة حكمه على الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للإسبانيين . وساعده هذا النجاح على أن يؤسس، بصفته قائد تحرير ، حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها عدد كبير

---

(١) انظر فى هذه الدراسة ص٦٧٤ حاشية رقم٢ ، ص ص٦٧٤-٦٧٥ .

(٢) يرد اسمه فى بعض المراجع العربية أوروج ، وفى المراجع الفرنسية Aroudj ، وفى المراجع الإنجليزية Aruc .

(٣) بدأ بابا عروج نشاطه فى الجهاد الدينى البحرى سنة ١٥١٠، وكان يمتلك فى ذلك الوقت نحو عشر سفن .

من القبائل وسكان المدن ، واستولى على أقاليم المغرب الأوسط الواحد بعد الآخر (١) . وعهد بابا عروج إلى أخيه خير الدين بإدارة كل شرقى البلاد واتخذ دلس مقراً لإقامته وعاصمة للشرق(٢). وكان لنجاح بابا عروج أصداء واسعة فى تلمسان عاصمة بنى زيان فى غربى الجزائر ؛ إذ ظهر فيها اتجاه نحو توحيد الجهود مع هذه السلطة البحرية المجاهدة ؛ خاصة وأن بنى زيان هادنوا الإسبانيين الذين كانوا يحتلون فى ذلك الوقت وهران والمرسى الكبير .

وتحرج موقف المسلمين حين استنجد آخر حكام بنى زيان بالإسبانيين ، الذين رحبوا بهذا التقارب ، وكانوا يخشون هجوم بابا عروج على وهران فأرسلت إسبانيا حملة قوية بلغت خمسة عشر ألف مقاتل ، تمكنت من التوغل فى أرض الجزائر وحصار مدينة تلمسان ، ووقع بابا عروج فى أيديهم أسيراً وقتلوه عام ١٥١٨(٣) ، وكان يبلغ من العمر وقتذاك أربعة وأربعين عاماً . ومما يذكر أنه كانت له لحية حمراء فأطلق عليه عروج بربروس (٤)Barberousse أى صاحب اللحية الحمراء ، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين(٥) ، الذى كان يسمى خزر ريس (٦) Hizir Reis وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقاً بخير الدين ، ويهمنا أن نذكر أن عروج كان قد نجح فى ضم معظم صفوف اشعب الجزائرى وقرب بينه وبين سائر مسلمى شمالى إفريقية فى كفاحهم ضد العدو المشترك ، وخلفه أخوه خير الدين بربروس فى قيادة عمليات الجهاد فى بلاد المغرب الكبير (٧) .

الدولة العثمانية وخير الدين :

كان موقف خير الدين حرجاً بعد مقتل أخيه ، وقد أدرك فى الحال ضعف موقفه السياسى ومركزه الحربى . فقد كان يحيط به الأعداء ، وهم بقية بنى زيان فى تلمسان وأنصارهم ، وبنو حفص ، والإسبانيون ، وكانو اجميعاً يتربصون به الدوائر ويعملون على الإطاحة به . ولم يكن يتمتع أول الأمر بشعبية واسعة عريضة كشعبية أخيه . ولم تكن له

(١) استولى بابا عروج على مليانة ، ومدية ، وتناس وأقام فيها حاميات ، وقد أدى نجاحه إلى اضمحلال معظم القيادات الأهلية القديمة ، أمام نمو هذه السلطة الجديدة .

(٢) دكتور عبدالرحمن التميمى ، أول رسالة من أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة١٥١٩ ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، شهر يوليو – تموز – عام ١٩٧٦ ، ص١١٧ .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٦–٢٧ .

(٤) كانت هذه الكلمة اختصاراً أو إدماجاً لعبارة ayant la barbe rousse .

(5) Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 805.

(٦) دكتور أرجمند كوران : أحمد باى قسنطينة المدافع عن الجزائر . بحث تقدم به إلى المؤتمر التاريخى الخامس الذى عقد فى أنقرة فى الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل – نيسان – عام ١٩٥٦، وقد نشره دكتور عبدالجليل التميمى كملحق لرسالة دكتور كوران التى عربها . ص ص٧٨–٨٥ .

(٧) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٢–٢٣ .

صداقات برؤساء القبائل ، فضلاً عن أنه كان يواجه نقصاً فى السلاح والعتاد ؛ فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يستنجد بالدولة العثمانية ، وكانت قد نجحت فى إنزال ضربة أليمة بالدولة الصفوية فى فارس (١٥١٤) ، ونجحت فى ضم بر الشام (١٥١٦) ومصر والحجاز والمناطق الساحلية فى اليمن إليها (١٥١٧) .

سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول :

وقد نشر الأستاذ الدكتور عبدالجليل التميمى ترجمة عربية لوثيقة تركية [1] محفوظة فى دار المحفوظات التاريخة بإستانبول – طوب قابى سراى – تحت رقم ٦٤٥٦ ، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر ، على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة فى أوائل شهر ذى القعدة عام ٩٢٥ ، فى الفترة من ٢٦ من شهر أكتوبر – تشرين أول – إلى ٣ من شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٥١٩ ، وكتبت بإيحاء وتوجيه من خير الدين بربروس إلى السلطان سليم الأول عقب عودة الأخير من مصر والشام إلى إستانبول [2] ، واستهدف منها خير الدين ربط مصير قضية الجزائر بالدولة العثمانية .

وجاء فى الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة فى أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصيّاً أبعاد قضية الجزائر ، ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كى يستطيع مواجهة الموقف إذا تحرك الأعداء ، وأشاروا عليه بأن يوفد إلى السلطان بعثة أو سفارة تقوم بهذه المهمة نيابة عنه . والرسالة التى حملتها البعثة موجهة باسم «القاضى والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة» ، وهى تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية والتقدير العظيم للسلطان والرغبة الأكيدة لسكان الجزائر فى الاعتماد على الدولة ، وأنهم عبيد لها . وقد وقع اختيار خير الدين بربروس على مبعوث شخصى له يرأس البعثة ، وهو «الفقية العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضى» .

ويستدل من تاريخ حياة هذا الفقيه أنه كان أكبر علماء الشريعة الإسلامية ، وكان يجمع بين التبحر فى العلوم الدينية والإلمام بالمسائل العسكرية .. فكان إلى جانب بابا عروج فى حصار قلعة بجاية ، وحصر حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان ، واستطاع أن ينجو من الأسر وأن يلجأ إلى مدينة الجزائر ، كما أنه عايش الأحداث السياسية للبلاد ، فكان فى مقدوره أن يصور تصويراً دقيقاً للسلطان العثمانى أوضاع المسلمين المتردية تجاه الأخطار المحدقة بهم فى

(١) يقرر الدكتور التميمى أن الوثيقة كتبت باللغة العربية ، ثم ترجمت إلى اللغة التركية . وقام هو بدوره بترجمتها إلى اللغة العربية . انظر بحثاً له بعنوان «أول رسالة من أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩» نشره فى المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، يوليو – تموز –١٩٧٦ .

(٢) المرجع السابق .

المغرب . فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يختار هذا القاضى لرياسة البعثة ؛ إذ أراد أن يكون مبعوثه شخصية دينية لها وزنها العلمى الكبير فى دراسات الفقه الإسلامى وذات دراية بشئون الحرب ، وأراد أن يدلل عن طريق هذه الشخصية أن سكان الجزائر متعلقون بالدولة العثمانية ، وراغبون فى ربط مستقبلهم السياسى ومصير بلادهم بالدولة العثمانية (١) .

وتقول الرسالة إن أهل مدينة الجزائر - وهم عبيد السلطان العثمانى - ليس لهم ملاذ سواه يفزعون إليه فى موقفهم الحرج ، وأشادوا بأفضال بابا عروج فى مدافعة «الكفار» ؛ لأنه كان «ناصر الدين وحامى المسلمين المجاهد فى سبيل الله» إلى أن وقع شهيداً فى حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان ، وخلفه أخوه «المجاهد فى سبيل الله أبو التقى خير الدين ، وكان له خير خلف . فقد دافع عنا ، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوى الشريف، وهو ينظر إلى مقامكم العالى بالتعظيم والإجلال ، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ، ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً إجلالها وتعظيمها . على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية ، وأهالى إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالى . وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم مايجرى فى هذه البلاد من الحوادث . والسلام» .

دراسة تحليلية للوثيقة :

تكشف الدراسة التحليلية للرسالة التى بعث بها أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول عن آراء واتجاهات خير الدين بربروس تجاه الدولة العثمانية ، وكان من بينها :

أولاً : أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل فى شمالى إفريقية ، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له فى الحكم .

ثانياً : أن نشاطه يتركز فى قيادة عمليات الجهاد الدينى الإسلامى .

ثالثاً : أنه يكن للسلطان كل تقدير ، وللدولة العثمانية ولاء دون حدود .

رابعاً : أنه شديد الرغبة فى الحصول على مساعدات عسكرية فى المقام الأول من الدولة العثمانية .

خامساً : سلامة وتماسك الجبهة الداخلية مع وضوح وحدة الهدف أمام المواطنين .

---

(١) أثبتت الأحداث أن هذا القاضى لم يكن أهلاً للثقة التى وضعها خير الدين فيه . إذ تحالف مع أعداء خير الدين ، وهجم على مدينة الجزائر ، واحتلها وحكمها خمس سنوات واضطر خير الدين إلى الالتجاء إلى جيجل ، حتى استطاع استرداد مدينة الجزائر بعد خمس سنوات وقبض على القاضى وأعدمه .

استجابة سليم الأول لاستغاثة أهل مدينة الجزائر :

نجحت البعثة الجزائرية فى تحقيق أهدافها .. فقد سارع السلطان سليم الأول إلى منح رتبة بكلر بك إلى خير الدين بربروس ، وهى رتبة تخول صاحبها اختصاصات إدارية واسعة ومتشعبة ، كما تجعله قائداً أعلى للقوات المسلحة فى إقليمه ممثلاً للسلطان . وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة(١) أن بلاد الجزائر أو المنطقة التي كان يحكمها خير الدين فى ذلك الوقت -والتى قد يمتد إليها نفوذه ونفوذ خلفائه في قابل الأيام- تصبح تحت السيادة العثمانية وأن أى اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداءً على الدولة العثمانية . ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية ؛ إذ أرسل إلى خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية ، وكان هذا السلاح من أقوى أسلحة الجيش العثماني، كفل له الانتصار على جيش دولة المماليك الشراكسة فى معركة مرج دابق (١٥١٦) ، كما أرسل ألفين من الجنود الإنكشارية . وكانت الفيالق الإنكشارية ، كما مر بنا – تعد من خيرة الجنود البيادة – المشاة – فى القوات المسلحة العثمانية.

ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩) بدأ الإنكشارية يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية فى الأقاليم العثمانية فى شمالى إفريقية ؛ بحيث أصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث، بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم عندما استبان للسلاطين بوادر تمردهم وأنهم غدوا مركزاً خطيراً من مراكز القوى فى الدولة . وأذن السلطان سليم أيضاً فى الوقت ذاته لمن يشاء من رعاياه المسلمين فى السفر إلى الجزائر والانخراط فى صفوف المجاهدين ، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية (٢) تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين .

وقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر والتطوع فى عمليات الجهاد ، وسواء أكان الدافع لهم هو النزعة الدينية الجياشة والمتأصلة فى نفوسهم انتصاراً لدينهم أم الرغبة فى الحصول على نصيبهم من مغانم وفيرة .. فقد ترتبت على القرارات التى اتخذها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة ، كان من بينها :

أولاً : دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩، ودعى للسلطان سليم على المنابر فى المساجد وضربت العملة باسمه(٣) .

ثانياً : إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم .. فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلدة .

---

(١) لم يكن فى الدولة العثمانية كلها أول الأمر سوى اثنين يحمل كل منهما رتبة بكلر بك . يشمل نفوذ أحدهما الممتلكات العثمانية فى أوروبا ، ويطلق عليه «بكلر بك الروم إيلى» ، ويشمل نفوذ الآخر ولايات الأناضول ويسمى «بكلر بك أناضولى» ، وكان الأول يحمل ثلاثة أطواغ ، بينما كان الثانى يحمل طوخين .
(٢) دكتور أرجمند كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر (ص١١) .
(٣) دكتور محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص٣٠ .

ثالثاً : إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمالى إفريقية يدخل تحت السيادة العثمانية ، وأصبحت الجزائر ركيزة حربية للدولة العثمانية لتمد نفوذها بعد ذلك إلى إقليمين آخرين ، هما : طرابلس وتونس إنقاذاً لأقاليم إسلامية عربية ، تعرضت لغزو صليبى منظم وعنيف من سكان شبه جزيرة أيبريا .

على هذا النحو شهد حكم السلطان سليم الأول بداية متواضعة نسبياً لمد النفوذ العثمانى إلى أحد أقاليم شمالى إفريقية وهو الجزائر من أجل الحفاظ على إسلام وعروبة السكان هناك ، لأن السلطان سليم لم يطل به الأجل ؛ إذ قضى نحبه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ ، تاركاً لابنه السلطان سليمان المشرع مهمة توطيد السيادة العثمانية على إقليم الجزائر ، ومد هذه السيادة إلى إقليمين آخرين ، هما : طرابلس وتونس .

صعوبة موقف خير الدين :

كان أمام خير الدين بربروس فى وضعه السياسى والعسكرى الجديد أن يحارب فى جبهتين:

أولاً : الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانيين من الجيوب التى أقاموها على ساحل الجزائر . وقد أصاب فى هذه الجبهة نجاحاً كبيراً ، فضم إليه عنابة وقالة فى شرقى الجزائر ، ثم حقق انتصاراً باهراً على الإسبانيين ، حين استولى عام ١٥٢٩ على حصن بينون الإسبانى المقام على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر ، وكان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه ، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد ، كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل . وأسر قائد الحصن مارتين دى ڤرج Martin de Verge مع كبار ضباطه واقتيدوا إلى قصر خير الدين حيث تعرضوا لمهانة ؛ إذ أمر بضربهم بالعصى ضرباً مبرحاً[١] ، ثم أقام خير الدين حاجز أمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن ، وبذلك أوجد ميناء حصيناً وآمناً ترفأ إليه السفن . وإذا كانت سنة ١٥١٩ تعد بداية وصول النفوذ العثمانى رسمياً إلى شمالى إفريقية .. فإن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩ ، يعد بداية تأسيس ماعرف باسم نيابة الجزائر، فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمالى إفريقية العثمانية بنياباتها الثلاث . وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط [٢] ، ولكن وهران ظلت قاعدة إسبانية تهدد الجزائر ، حتى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٢) .

---

(1) Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV,pp. 808-809.

(٢) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢ .

ثانياً : الجبهة الداخلية وكانت تتمثل فى محاولة توحيد المغرب الأوسط . وقد تعرض كما ذكرنا لمؤامرات بنى زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة ، ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية . ورأت الإمارات العربية فى دخولها تحت السيادة العثمانية سياجاً يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الإسبانية ، ومن قهرها على اعتناق المسيحية .. ولهذا أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية ، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثمانى إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل قسنطينة Constatine .

خير الدين يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسبانى :

وقد نجح خير الدين بربروس نجاحاً بعيداً فى إنشاء هيكل دولة قوية فى الجزائر بفضل المساعدات العسكرية ، التى كان يتلقاها من السلطان سليمان المشرع ، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الإسبانية . وكانت جهوده مثمرة فى حركة إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا – الموريسكيين – من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية واللجوء إلى شمالى إفريقية، فقام فى سنة ١٥٢٩ بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم [١] ؛ مما جعل مسلمى غرناطة وبلنسيه وغيرهما يستجدون بخير الدين لإنقاذهم[٢]، واستطاع أن يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسبانى . ولما كان خير الدين يتوجس خيفة من ازدياد مطامع الفيالق الإنكشارية وتطلعهم إلى الاستئثار بالنفوذ ، استقدم إلى الجزائر ثمانية آلاف جندى ألبانى ليوازن بهم قوة الإنكشارية ، وكون لنفسه حرساً خاصاً من المهاجرين المسلمين الأندلسيين [٣] . وغدا خير الدين بربروس الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وكانت تسانده قوات هذه الدولة ومواردها فى صراعه ضد شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وكانت هناك عدة عوامل بالغة الأهمية ، أملت على السلطان سليمان المشرع الاهتمام بمد نفوذ الدولة إلى تونس فى الصراع ، الذى احتدم بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس . وسنرجىء الكلام عن هذه العوامل إلى مطلع الفصل التالى .

* * *

---

(١) دكتور عبدالجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٢) المرجع السابق .

(3) Lavisse et Rambud, op. cit., t. 4, p. 809.

ثانياً : الدولة تحافظ على إسلام وعروبة شمالى إفريقية (تتمة) (٢)

الدولة تعيد تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية

تتداخل بل تترابط أحداث دخول الجزائر وتونس تحت السيادة العثمانية بحيث يصعب الفصل بينها ، على عكس الأحداث الخاصة بطرابلس . وحرصاً على تسلسل الأحداث السياسية، المحلية والدولية – فيما يتصل بالجزائر وتونس فى ذهن القارئ –، كان من المناسب عدم الإلتزام بالترتيب التاريخى لدخول هذه الأقاليم الثلاثة تحت السيادة العثمانية ، وهو الترتيب الذى سبق أن ذكرناه : الجزائر ، ثم طرابلس ، ثم تونس ، ونرجئ دراستنا عن طرابلس إلى مابعد الانتهاء من تونس .

السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس :

استدعى السلطان سليمان المشرع إليه فى إستانبول خير الدين بربروس عام ١٥٣٣ فذهب إليه مع بعض وحدات من الأسطول . وعهد إليه السلطان بإعادة تنظيم الأسطول وبالإشراف على بناء عدد من السفن فى الترسانة ، ثم طلب منه أن يستولى على تونس وإعلانها ولاية تابعة للدولة العثمانية ، قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس فى الاستيلاء عليها . وفضلاً عن ذلك كانت هناك عدة عوامل أملت على السلطان سليمان الاهتمام بمد النفوذ العثمانى إلى تونس . كان من بينها : موقعها الجغرافى فى منتصف الساحل الشمالى لإفريقية تقريباً ، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا التى كانت أحد جناحى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وقتذاك (وكان الجناح الآخر إسبانيا) ، ومجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للامبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية لدداً فى عداء الإسلام والمسلمين ، ثم الإمكانات الهائلة التى تتيحها موانئ تونس فى التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط . وهكذا .. تضافرت عدة عوامل على إضاف أهمية عسكرية على تونس فى هذا الصراع الحربى ، بين السلطان سليمان والإمبراطور شارل الخامس .

غادر خير الدين بربروس إستانبول على رأس قوات، تتكون من ثمانين سفينة وثمانية

آلاف جندى ، واتجه رأساً إلى تونس وظهر أمام ميناء تونس فى شهر أغسطس – آب – عام ١٥٣٤ واستولى عليها ، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية ، وإنهاء الحكم الحفصى فيها [١]، كما سقطت فى يديه المدن الساحلية ، وتوغلت قواته جنوباً فى الداخل ، وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية .

استيلاء شارل الخامس على تونس :

كان لنجاح خير الدين فى احتلال تونس أصداء بعيدة فى أوروبا .. ذلك أن الإمبراطور شارل الخامس كان يدرك الأهمية العسكرية لموقع إقليم تونس فى السيطرة على الملاحة فى حوض البحر المتوسط ، ونظر إلى هذه النجاح الإسلامى العثمانى على أنه تهديد مباشر للمواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا ، جناحى الدولة الرومانية المقدسة فى ذلك الوقت . ونظر إليه أيضاً على أنه انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية ، وتشجيع لمجاهدى شمالى إفريقية على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية وإنقاذ الموريسكيين .

لهذه الأسباب .. قرر شارل الخامس غزو تونس، وأعد حملة جرارة [٢] خرجت من برشلونة فى أوائل يونيو –حزيران – عام ١٥٣٥ ، وكانت هذه الحملة هى الحملة الأولى له على شمالى إفريقية . وتمكن من الاستيلاء على تونس فى السنة[٣] ذاتها بسبب التفوق العددى ، والخيانة العربية التى حمل لواءها مولاى الحسن الحفصى وأتباعه ، وبسبب سوء الأوضاع الداخلية فى تونس ووجود عدة آلاف من الأسرى المسيحيين فى مدينة تونس قاموا بحركة تمرد ، حين شعروا أن قوات الإمبراطور تقترب من المدينة فحطموا أبواب السجون وانتشروا فى شوارع المدينة يرتكبون أعمالاً تخريبية ، ويمهدون السبيل أمام القوات الإمبراطورية لدخول العاصمة . وأقامت البابوية فى روما احتفالات كبرى ابتهاجاً بسقوط تونس فى يد الإمبراطور شارل الخامس «عاهل العالم المسيحى» Le Chef de la Chrétienté .

كان ضياع تونس صدمة للدولة العثمانية ولمجاهدى شمالى إفريقية . وافق مولاى الحسن الأمير الحفصى على أن يحكم تونس باسم شارل الخامس وتحت حمايته ، كما تنازل له عن ميناء حلق الوادى حيث أقام الإسبانيون قاعدة بحرية صليبية عسكرية . ورد خير الدين على انتصار شارل الخامس بغارة مفاجئة على جزر البليار ، واستولى منها على ستة آلاف أسير مسيحى وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر [٤] . ووصلت أنباء هذه الغارة وحصيلتها

---

(١) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٤ .

(٢) كانت الحملة تضم خمساً وستين سفينة حربية يعمل عليها سبعة آلاف بحار ، وتصحب السفن مجموعة من ناقلات الجنود بلغ عددها أربعمائة وإحدى وخمسين سفينة ، كانت تحمل تسعة وعشرين ألف مقاتل .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ص٣٤-٣٥ .

الآدمية الدسمة من الأسرى المسيحيين إلى روما ، وسط احتفالات البابوية بانتزاع تونس من المسلمين .

وكان السلطان سليمان المشرع قد أراد مكافأة خير الدين بربروس على خدماته ، التى أداها للإسلام فعينه قبودان باشا أى قائداً عاماً للأسطول العثمانى ، وعين فى منصبه فى الجزائر ابنه حسن باشا وشهرته حسن أغا[١] . وركز خير الدين نشاطه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط أولا ثم فى الحوض الغربى ، بينما واصل حسن أغا جهود والده فى الجزائر ، فلم تنقطع جهوده عن مهاجمة الإسبانيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

هزيمة منكرة للإمبراطور :

ظهرت الأهداف البعيدة من استيلاء الإمبراطور شارل الخامس على تونس .. فقد أعد حملة جرارة لغزو الجزائر ، وكان من أهداف هذه الحملة اجتثاث النفوذ العثمانى من البحر المتوسط ، وعزل فرنسا بمنع النجدات العسكرية عنها عن طريق حليفتها الدولة العثمانية ، وهو التحالف الذى أطلق عليه فى أوروبا فى ذلك الوقت كما ذكرنا «التحالف المدنس» لأنه يقوم على تحالف الصليب مع الهلال . وكان شارل الخامس يعتقد أنه لولا الوجود العثمانى فى شمالى إفريقية ، لاستطاع إنشاء مملكة مسيحية هناك لإسبانيا . وكان هذا الامبراطور يتوجس خيفة من احتمال قيام الدولة العثمانية بحملة على إسبانيا ، وقد نوقش هذا الاحتمال فى بلاط مدريد [٢] .

وقد أذاع شارل الخامس على جميع الدول المسيحية فى أوروبا أن عزيمته قد استقرت على الانتصار للمسيحية ، والثأر من غارة المسلمين على جزر البليار . وجمع أسطولاً كان من أقوى التجمعات البحرية المقاتلة ، التى ظهرت فى القرن السادس عشر [٣] ، وكان يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات الجنود . وعهد بقيادة هذا الأسطول إلى عدد من كبار القادة البحريين ، كان من بينهم أندريه دوريا André Doria وفرناند كورتيز Fernand Cortez . وكانت الحملة تضم ٣٦,٢٥٠ من الجنود الألمان والإيطاليين والإسبانيين

---

(١) يقع المؤرخ ماسكيراى Masqueray E. فى خطأ ؛ إذ يذكر أن حسن أغا معناها حسن الخصى Hassan، l'Eunuque ولعله يجهل أن لفظة أغا فى اللغة الركية تعنى الرجل الذى أجريت له عملية الخصاء ، وتعنى أيضاً رتبة عسكرية فى القوات العثمانية المسلحة . وكانت هذه اللفظة بمعناها الأخير ، وبوجه عام تطلق على العسكريين تمييزاً لهم عن المدنيين ، الذين كان تطلق عليهم لفظة أفندى . وفى اللغة العربية تطلق على الأولين أرباب السيف وعلى الآخرين أرباب القلم .

(٢) دكتور عبدالجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٣) المرجع السابق .

وفرسان القديس يوحنا من مالطة والقوات البابوية ، وجعل من نفسه القائد الأعلى للحملة . واختار لإنزال حملته مدينة الجزائر ؛ بصفتها مقر القوة الإسلامية العثمانية فى المغرب .

وتمكنت الحملة من النزول بسهولة إلى البر فى جهة مجاورة لميناء الجزائر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١ .

كان شارل الخامس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى سيؤيده بنصر من عنده ، طالما كان القسيسون والرهبان ومن إليهم من رجال الدين المسيحى فى إسبانيا يدعون الله أن ينصره نصراً عزيزاً على المسلمين (١). والحق أن من فضائل هذا الإمبراطور إيمانه العميق بالله جل علاه ، وشدة تدينه ، وإن كان من مساوئه فى ذات الوقت اللدد فى عداء الإسلام ، وأنه كان يحمل كراهية وبغضاء لاحد لهما للمسلمين . لم يضع هذا الإمبراطور فى تقديره للموقف الحربى التغييرات العنيفة فى الجو فى فصل الخريف فى بلاد الجزائر .. كان الجو صحواً حين هبط بقواته إلى أرض الجزائر ، وما أن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجو وهطلت السماء هطلاناً (٢)متتابعاً ، وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض ؛ مما أدى إلى غرق كثير منها ، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطىء ، وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها.. أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود .

وفى وسط هذه الكوارث ، حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر ، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل . وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة قوات الغزو مستغلين تلك الكوارث الطبيعية التى حلت بها ، فأفنوا جزءاً كبيراً منها . واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ماتبقى لهم من سفن ، واتجه بهم إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا (٣) . وكان من العوامل التى ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا ، وأهم من ذلك النجدات العسكرية التى بعث بها السلطان سليمان المشرع إلى حسن أغا والتى نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو إسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزاً لشوكة المسلمين(٤) . وكانت الهزيمة التى منى بها الإمبراطور أكبر هزيمة بحرية حاقت به فى حياته . وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل ، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، فقالوا فى

---

(1) Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 811.

(٢) بفتح كل من الهاء والطاء واللام . ويقال أيضاً تهطالاً بفتح التاء وسكون الهاء وفتح الطاء ، ويقال مطر هطل (بفتح الهاء وكسر الطاء) كثير الهطلان .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٨-٣٩ .

(٤) دكتور عبدالجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان المشرع إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده «بعقاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً؛ فجعلهم بسواحل البحر مابين أسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق قليل»(١) .

أهل الجزائر يبعثون برسالة إلى السلطان عقب هزيمة الإمبراطور ، يحددون فيها مطالبهم :

ومما يذكر فى هذا الصدد أن سكان الجزائر - سواء أهل الإقليم الأصليين أو مسلمى الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة فى الشهر التالى لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان المشرع ، مؤرخة فى أوائل شهر شعبان عام ٩٤٨ - أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٤١ ، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التى تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم فى إسبانيا ، بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم .

ووصفتهم الرسالة بأنهم «عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس ، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً» وأنهم يشكون إلى السلطان سليمان «مايلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان ، دام عزه ونصره ، لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين ، وماهم فيه من مكابدة الكفار» . وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التى أداها خير الدين باشا «المجاهد فى سبيل الله ، وناصر الدين ، وسيف الله على الكافرين» للإسلام . ومضت الرسالة تقول إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم «وكان سبباً فى خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام» ، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين .

وحددت الرسالة مطلبين أساسيين :

أولاً : إرسال نجدات عسكرية «لنصرة الجزائر ، لأنها سياج أهل الإسلام ، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان ، وهى موسومة باسمكم الشريف ، وتحت إيالة مقامكم المنيف ، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة ، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة» .

ثانياً : إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلر بكى الجزائر - «فهو الممتثل لأوامر مولانا ، لأنه أحيا هذا الوطن ، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار ، ... وإنه لهذا الوطن نعم ناصر ، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر» (٢) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) دكتور عبدالجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

وقد وصفت الرسالة السلطان سليمان بألقاب عديدة ، لها دلالاتها السياسية والدينية والحربية العميقة (١) .

الإسبانيون ينقلون نشاطهم الحربى إلى تونس :

بعد الهزيمة الفادحة التى نزلت بالإمبراطور شارل الخامس أمام مدينة الجزائر فى أواخر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٥٤١ ، كف الإسبانيون عن مهاجمة الجزائر ، ولكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية والمغربية إلى تونس .. فقد استطاع أندريه دوريا القائد البحرى الإسبانى الاستيلاء على عدة مدن فى إقليم تونس ، مثل : صفاقس ، وسوسة ، ومناستير ، مما أثار سخط السكان على بنى حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية . واندلعت ثورات داخلية ضدهم فى بقاع شتى، واضطر مولاى الحسن إلى الرحيل إلى أوروبا التماساً لمساعدتها .

وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو دراجوت باشا ، ليملأ الفراغ السياسي والحربى في تونس ، على نحو مافعل الأخوان عروج وخير الدين ، وغدا منافساً خطيراً لأندريه دورياً فى البحر المتوسط . واستطاع دراجوت باشا أن يتخذ من طرابلس ، التى أصبحت نيابة عثمانية ، قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال إفريقية ، واحتل ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦ ، وتوغل فى الداخل حتى بلغ القيروان ، واحتلها وأقام فيها حامية عام ١٥٥٨ .

ولكن ظل الإسبانيون يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم بنى حفص، ورأى السلطان سليمان المشرع أن يستولى على جزيرة مالطة نظراً لأهميتها فى الصراع الحربى والدينى ، الذى ازداد احتداماً بين الدولة العثمانية وإسبانيا حول تونس ، فأرسل أسطولاً ضخماً بلغ عدد قطعة مائة وخمساً وتسعين وحدة مختلفة الأنواع والأحجام ، تحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة مصطفى باشا . وبدأ الأسطول حصاره للجزيرة فى ١٩ من مايو – آيار – عام ١٥٦٥ ، واستمر الحصار أربعة أشهر ، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الرجال والسفن، وبلغ عدد القتلى والغرقى والمفقودين عشرين ألفاً . وكان من بينهم دراجوت باشا الذى قتل فى إحدى العمليات الحربية فى ١٦ من يوليو – تموز – عام ١٥٦٥ ، واستعصت الجزيرة على

---

(١) من هذه الألقاب :

السلطان ابن السلطان ابن السلطان – سلطان الإسلام والمسلمين – صاحب الخلافة العلية – حائز الفضيلة السنية من خدمة المساجد الثلاثة – الفائز بشرف الدين والدنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة – ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة – قامع الملحدين وقاطع دابر الطغاة والبغاة– سلطان البرين والبحرين – له ملك مصر وأنهارها ، والشام وديارها ، والحجاز وشرف مقدارها.

الثمانيين فانسحبوا منها في ١١ من سبتمبر – أيلول عام ١٥٦٥[١] وظلت جزيرة مالطة معقلاً لفرسان القديس يوحنا أكثر من قرنين ، إلى أن أطاح بحكمهم بونابرت ، حين استولى على مالطة في شهر يونيو – حزيران – عام ١٧٩٨ والحملة الفرنسية بقيادته في طريقها إلى مصر .

العلج علي ومحاولة إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا :

وإذا كان دراجوت باشا قد قضى نحبه شهيداً في معركة جزيرة مالطة ، قبل أن يحرر تونس تماماً من الصليبية الأوروبية والاستعمار الأوروبي ومن العملاء العرب بني حفص .. فإن هذا العبء وقع على عاتق نيابة الجزائر . ولمعت أسماء عدد من القادة البحريين، ممن تولوا نيابة الجزائر بعد خير الدين بربروس ، مثل ابنه حسن باشا ، وصالح ريس ، والعلج علي[٢] . وقد اتخذ العلج علي خطوات عملية سنة ١٥٦٩ ، لتنفيذ مشروع خطر للغاية ، هو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا [٣] .

وتصر المراجع الأوروبية على أن العلج علي كان في مطلع حياته مسيحياً ومن مواليد إقليم كالابريا في جنوبي إيطاليا ، ثم وقع أسيراً في إحدى الغارات العثمانية على الموانئ الإيطالية ، وأجبر على العمل بإحدى السفن الحربية ذات المجاديف التابعة للأسطول العثماني، ثم تحول إلى الإسلام .. بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانياً إسلامي المولد ، ولم يكن قط مسيحياً ولا إيطالياً ، والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه ، واشترك مع دراجوت باشا في صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة في تونس ، وقد أخفق

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ص٧٢٣-٧٢٤ .

(٢) يرد اسمه في المراجع العربية العلج علي (بكسر العين وسكون اللام) ، وعلوج علي ، وأولوج علي ، وقلج علي . ولكن الاسم الأكثر استخداماً وشيوعاً هو العلج علي . ويرجح كرامرز أن كلمة علج أطلقت عليه في شمالي إفريقية ، وأنها كلمة عربية جمعها علوج (بضم العين واللام) للدلالة على أصله الأجنبي ، ولكن مدلولات كلمة علج في اللغة العربية متعددة ومتباينة ، منها حمار الوحش الغليظ ، ورجل علج أي شديد ، والعلج هو الرجل الضخم من كفار العجم . ويطلق بعض العرب العليج على الكافر مطلقاً ، واستعلج الرجل إذا نبتت لحيته ، وكل ذي لحية علج . ولذلك لايقال علج للأمرد الذي لم تنبت لحيته . وجمع علج علوج وأعلاج مثل حمل وحمول وأحمال . وإذا أخذنا بتفسير كرامرز.. فإن المعنى الثاني هو المقصود ، وهو رأي ضعيف . ويعترف هذا المؤرخ بأن هناك أقوالاً متناقضة في هذا الصدد .

انظر :

كرامرز Kramers J. H. في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أولوج علي ، ويرد اسم العلج علي في المراجع الفرنسية Euldj-Ali ، وفي المراجع الإنجليزية Uluc Aly ، وتدمج المراجع الإيطالية الاسمين في كلمة واحدة على هذا النحو Ochialy .

(٣) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٨ .

دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٧ .

الإمبراطور فى احتلال الجزيرة ، ثم رقى إلى منصب بكلربكى طرابلس ثم بكلر بكلى الجزائر . واشترك فى معركة ليانت البحرية حيث كان قائداً للجناح الأيسر للأسطول العثمانى .

ورقى بعد هذه المعركة إلى منصب قبودان باشا تقديراً لبطولته فى المعركة ؛ لأنه استطاع أسر سفينة القيادة الخاصة برئيس فرسان القديس يوحنا ، كما نجح فى الخلاص بجزء من الأسطول وإعادته سالماً إلى إستانبول ، بعد أن حلت الهزيمة بالأسطول العثمانى . وقد ظل يشغل منصب قبودان باشا طيلة خمسة عشر عاماً حتى توفى فجأة فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٨٧ فى مسجده الخاص ، طوب خانه ، ، الذى أقامه فى جالاطه فى ضواحى إستانبول ، وأبدى نشاطاً كبيراً فى حركة إعادة بناء الأسطول العثمانى بعد كارثة ليانت . واشترك فى استرداد تونس وحلق الوادى سنة ١٥٧٤ ، وكان إذا أقبل فصل الربيع خرج مع رجاله فى سفن حربية كبيرة إلى أعالى البحار ، ويتعرض للسفن الإسبانية فى رحلاتها فى حوض البحر المتوسط ، ويعرقل خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا والدولة الخارجية ، ويعرض التجارة الإسبانية للخسائر الجسيمة . كما كان يهبط فى سفن خفيفة وسريعة على مواقع معينة على السواحل الإسبانية ، مسترشداً بإشارات ضوئية يبعث بها إليه مسلمو إسبانيا ، أو بناء على معلومات مسبقة يتلقاها منهم ، وكان يقوم بتدمير المنشآت فى هذه الأماكن ويأسر سكانها . ولذلك كان الإسبانيون أهل السواحل ينتقلون إلى الداخل مسافة ، تتراوح بين خمسة وستة فراسخ إذا أقبل الربيع ؛ تجنباً لكوارث يتعرضون لها .

ومن المؤكد أن العلج على- قبل أن يقدم على مشروع إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا- كان على علم تام بالجهود الجبارة التى بذلتها الدولة العثمانية ، إبان وجود خير الدين بربروس فى الجزائر للقضاء على الزحف الصليبى الاستعمارى على شمالى إفريقية ، كما كان يعلم تماماً مدى النجاح الذى حققه خير الدين فى طرد الإسبانيين من بعض قواعدهم وتحطيم حصن بينون وفى تشجيعه ، بل وفى إسهامه فى حركة إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية واللجوء إلى شمالى إفريقية . فهذه الحقائق لاتخفى على شخصية حاكمة فى نيابة الجزائر ونعنى بها شخصية العلج على . بقى سؤال يفرض نفسه فى هذا الموطن : هل كان مشروع إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا بتوجيه من السلطان العثمانى سليم الثانى ، الذى كان يتبوأ عرش الدولة فى ذلك الوقت ؟ أم كان هذا المشروع بوحى من العاطفة الدينية لدى العلج على أو من تفكيره السياسى ؟

من المستبعد تماماً الأخذ بالسبب الأول ؛ لأن الحياة الخاصة للسلطان سليم الثانى (١٥٦٦-١٥٧٤) كانت تتشح بالقاذورات . أدمن تناول الخمور حتى أطلق عليه السكير ، وأسرف فى إرتكاب أقذر أنواع الموبقات الجنسية ، وكان ينتمى إلى مجموعة السلاطين

المعروفين فى تاريخ الدولة باسم السلاطين التنابلة[١] Les Sultans Fainéants ، وأهم من ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، أنه فى السنة ذاتها التى اتخذ فيها العلج على الخطوات الأولى لتنفيذ مشروع إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا كانت الدولة مشغولة بالحملة التى أرسلتها بقيادة سنان باشا لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، ثم انصرفت فى العام التالى إلى فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من جمهورية البندقية (١٥٧٠-١٥٧١) ؛ وكان محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم قد اقترح على السلطان سليم الثانى أن توجه الدولة حملة قبرص إلى إسبانيا لمحاربة مليكها فيليب الثانى (١٥٥٦-١٥٩٨) إذ كانت المتاعب تحيط بهذا الملك من يمين ويسار ، وهو فى وضعه المحفوف بالأخطار ، لايستطيع للقوات العثمانية المسلحة دفعاً . ولكن لم يأخذ السلطان باقتراح الصدر الأعظم لأنه كان متأثراً برأى صديق يهودى من البرتغال، اسمه چوزيف نانسى Joseph Nansi ؛ اتخذه السلطان صفياً له[٢] . تضاف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى ، هى أن الدولة تعرضت لكارثة كبرى ، حين تحطم أسطولها فى معركة ليانت البحرية فى السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ؛ فلم يكن فى مكنة السلطان سليم الثانى - سواء قبل عام ١٥٦٩ أو بعده - أن يفكر فى مشروع خطير مثل إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا ، ولم يبق إلا السبب الثانى وهو أدنى إلى الحقيقة .

كان العلج على يفكر فى مشروعين : طرد الإسبانيين من تونس ، وإعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا ، وفى تقديره للموقف الحربى رأى أن يجعل الأسبقية فى التنفيذ للمشروع الثانى ، على أساس أن نجاحه فى تحقيقه يؤدى إلى إنكماش الوجود المسيحى فى إسبانيا ، وبذلك يضع حداً للتهديد الصليبى الإسبانى المستمر لشمالى إفريقية ، ويسهل عليه طرد الإسبانيين والبرتغاليين نهائياً من المراكز ، التى كانت لاتزال فى أيديهم فى شمالى إفريقية .

وتنفيذاً لهذا البرنامج الحربى ، عقد العلج على اتفاقاً سرياً فى مطلع سنة ١٥٦٩ مع الثوار المسلمين، الذين اعتصموا بجبال الأندلس ، تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة هادرة فى الوقت ، الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز معينة على الساحل

---

(١) انظر فى هذه الدراسة الفصل الحادى والعشرون ، الجزء الأول .

(٢) كان يسمى هذا اليهودى فى مطلع حياته دون ميجيه Don Miguez ، قام بدور بارز فى سياسة الدولة العثمانية . وفى ظل شتى أنواع الانحراف الخلقى الذى تردى فيه السلطان سليم الثانى. تمتع هذا اليهودى البرتغالى بنفوذ كبير لديه ، وزين له فتح جزيرة ناكسوس Naxos ، وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ وخلعوا حاكمها الدوق الحادى والعشرين من الأسرة الحاكمة وهى كريسبى Crispi ، وبلغ من خطورة هذا اليهودى البرتغالى لدى السلطان أن الأخير أعطى صفيه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى تجرأ اليهودى ، وأعلن نفسه دوقاً عليها «بفضل الله» . ولم تقف أطماعه عند هذا الحد ، فقد زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأسانيد التى ساقها اليهودى للسلطان أن نبيذ قبرص لايضارعه نبيذ أخر فى العالم ، وفى نشوة الخمر واللذة قال سليم لليهودى «ستكون ملكاً على قبرص» .

الإسباني . ونجح العلج علي في إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسباني في عام ١٥٦٩ . وفي هذا الوقت ترامت إليه الأنباء عن استعداد دون جوان أمير النمسا لغزو الجزائر، فعدل عن مشروعه مؤقتاً ، ورأى أن يبدأ بالتخلص من المراكز الإسبانية في تنس ، ومع ذلك .. فإن مشروع فتح إسبانيا لإعادة الحكم الإسلامي فيها ظل حياً في أذهان الحكام الذين تعاقبوا على نيابة الجزائر في الفترة الباقية من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وكانت هذه المشروعات تقوم على التعاون الوثيق بين نيابة الجزائر ومسلمي إسبانيا . وقد ذكر الأستاذ محمد عبدالله عنان طرفاً منها [1] .

تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية :

كان إخفاق العثمانيين في فتح جزيرة مالطة وتحطيم الأسطول العثماني في معركة ليبانت دافعين قويين للإسبانيين على معاودة الهجوم على تونس .. فقد هاجمها دون جوان النمساوي بقوات بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، واحتل تونس سنة ١٥٧٣ . وقد رد العلج علي رداً سريعاً على الصليبيين ، فهاجم تونس على رأس قوات قفز تعدادها إلى ستين ألف مقاتل ، وكان معه قوجه سنان باشا [2] ، وأباد الحاميات الإسبانية عن بكرة أبيها ودخل تونس عام ١٥٧٤ ، ومعنى هذا الانتصار أن العلج علي وسنان باشا استطاعا بعد ثلاث سنوات من كارثة ليبانت أن ينتزعا تونس من أيدي الإسبانيين . وكان الأوروبيون المعاصرون ينظرون إلى استيلاء الإسبانيين على تونس على أنه من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس ومفخرة من مفاخر حكمه ، ولكن عادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية ، واستقرت النيابة الثالثة والأخيرة في شمال إفريقية .

أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا :

طرابلس تدخل في رحاب الدولة العثمانية :

استولت إسبانيا على مدينة طرابلس عام ١٥١٥ ، على عهد الإمبراطور شارل الخامس لتتخذها جيباً صليبياً بجانب الجيوب الصليبية التي أقامتها ، وتناثرت على طوال الساحل الشمالي لإفريقية . وظلت طرابلس تحت الحكم الإسباني المباشر زهاء عشرين عاماً ، ثم أراد هذا الإمبراطور أن يلقي عبء مكافحة الإسلام في طرابلس على عاتق فرسان القديس يوحنا . وكانوا قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبي إلى جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام مع فلول الصليبيين سنة ١٢٩١ على عهد دولة المماليك البحرية ، فلما استولى السلطان سليمان المشرع على جزيرة رودس في أواخر عام ١٥٢٢ ، انتقلوا إلى جزيرة مالطة ، وأسهموا

(١) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٨٢-٣٩٠ .

(٢) قوجه معناها العظيم أو الكبير .

إسهاماً حربياً ومباشراً فى المحالفات الصليبية التى تكونت من البابوية فى روما ومن دول أوروبية ضد الدولة العثمانية .

وكانوا يمتلكون عدداً من السفن تجوب البحر المتوسط ؛ بحثاً عن سفن المسلمين فى أعالى البحار يستولون على شحناتها ، ويأسرون ركابها ويزجون بهم فى غيابات السجون إلى أن يدركهم الموت .. فعهد الإمبراطور شارل الخامس إلى هؤلاء الصليبيين العتاه بحكم طرابلس عـــام ١٥٣٥[١] ؛ كى يتفرغ لمواصلة الحرب الصليبية ضد سكان الجزائر وتونس ، وليتفرغ لمواجهة المشكلات المتصاعدة بينه وبين السلطان سليمان المشرع الذى لم يكن يعترف به إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، بل كان يرى أنه ملك إسبانيا فقط كما كان فى مطلع حياته[٢] . وأراد الإمبراطور أيضاً أن يكرس جزءاً من وقته لمواجهة تفاقم حركة مارتن لوثر فى ألمانيا بعد صلح كانبراى أو صلح السيدات ١٥٢٩ La paix de Cambria ou La Paix ,des Dames وكيف زج فرنسوا الأول ملك فرنسا فى هذا النزاع لمساعدة البروتستانت على الرغم من أنه كاثوليكى نكاية فى الإمبراطور [٣] .

ويهمنا هنا أن نذكر أن فرسان القديس يوحنا أخذوا ميناء ومدينة طرابلس غنيمة باردة، وجعلوا من ميناء طرابلس جيباً صليبياً ينطلقون منه لاصطياد السفن الإسلامية على نحو ما كانوا يفعلون . وأقاموا حكومة مسيحية دينية مسرفة فى تعصبها استهدفت تغيير الوجه الإسلامى العربى لهذا الإقليم ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس السكان . وكان الإسبانيون قد نجحوا فى احتكار التجارة لأنفسهم ، بعد أن حرموها على الوطنيين والأجانب ، فتحولت تجارة جمهورية البندقية وتجارة السودان إلى مصراته [٤] .

عمد أهالى طرابلس إلى مقاومة الاحتلال الصليبى- سواء على عهد الإسبانيين أو على عهد فرسان القديس يوحنا -ودأبوا على مهاجمتهم ابتغاء استرجاع مدينة طرابلس ومينائها ، ولكن جهودهم فى هذا السبيل أخفقت لأن إمكاناتهم الحربية والبشرية ومواردهم المالية كانت ضعيفة ، فرأوا أن ينهجوا نهج أهل الجزائر ، فاستنجدوا بالدولة العثمانية وكانت قد بلغت ، إبان حكم السلطان سليمان المشرع ، الأوج فى ازدياد قوتها وتصاعد نفوذها واتساع رقعتها فى أوروبا وآسيا وإفريقية [٥] .

---

(١) دكتور نقولا زيادة ، ليبيا فى العصور الحديثة ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص٣٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع إلخ ، الطبعة الأولى ، ص ص٧٠٣-٧١٢ .

(٣) أنظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى المرجع السابق ، ص ص٢٥٩-٢٦٣ .

(٤) دكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٣ .

(٥) انظر مظاهر القوة والنفوذ والتوسع الإقليمى للدولة على عهد السلطان سليمان المشرع فى : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى : ص ص٦٨٣-٧٢٤.

وقد أرسل أهل تاجوراء وفداً إلى السلطان سليمان المشرع ، يلتمسون تدخله حربياً لتحرير بلادهم من الحكم الصليبي ، ويعلنون ولاءهم له ودخول بلادهم تحت السيادة العثمانية، واستجاب السلطان سليمان لطلبهم ، وأرسل «مراد أغا» مع قوة صغيرة إلى مدينة طرابلس ، ولكنه لم يتمكن من احتلالها .. فاستقرت هذه القوة العثمانية فى تاجوراء ، وانصرفت إلى إقامة تحصينات عسكرية حول هذا الموقع وإنشاء طريق يبدأ من تاجوراء ويتجه نحو مدينة طرابلس.

ثم طلب مراد أغا إلى الباب العالى إرسال قوات برية وبحرية لتعزيز القوة التى تحت قيادته ابتغاء إنهاء الحكم الصليبي فى طرابلس ؛ فأصدر السلطان سليمان «إرادة» إلى فوجه سنان باشا الصدر الأعظم بالتوجه إلى طرابلس على رأس الأسطول . واستطاع ضرب منشآت الميناء ودخل المدينة عام ١٥٥١ ، وكان دارجوت باشا ممن أعاد سنان باشا فى عملياته الحربية[١] . وصدر فرمان من السلطان بتعيين مراد أغا والياً على طرابلس فى العام ذاته فكان أول الولاة العثمانيين عليها ، ثم خلفه دراجوت باشا الذى استطاع أن يقضى على فلول فرسان القديس يوحنا من إقليم طرابلس ومد النفوذ العثماني؛ بحيث شمل السواحل الليبية كلها تقريباً . وهكذا زال حكم فرسان القديم يوحنا فى طرابلس بعد فترة بلغت ست عشرة سنة ، وأصبحت طرابلس منذ سنة ١٥٥١ ولاية عربية تحت السيادة العثمانية . وقد نجح دراجوت باشا فى الحصول على موافقة الباب العالى على إرسال فيالق انكشارية لتعزيز الحامية العثمانية ؛ لمنع أى اعتداء صليبى ، قد يقع عليها سواء من جانب الإسبانيين أو من جانب فرسان القديس يوحنا . وهذا الحذر يفسر حقيقة هامة هى أن اهتمام السلطات العثمانية ، كان معظمه موجهاً إلى سواحل طرابلس والنواحى العسكرية أكثر من النواحى المدنية ؛ فانصرفت هذه السلطات إلى تحصين المدن الساحلية فى ولاية طرابلس .. أما أفراد فيالق الإنكشارية .. فقد تزوجوا بالنساء العربيات فى الولاية ، واهتموا بامتلاك الأراضى الزراعية وأشجار النخيل .

وكانت حصيلة هذه الزيجات المختلطة نشأة طوائف عرفت باسم القولوغلية[٢] ، وتطورت الأحداث فى هذه الولاية حين قام أحد الانكشارية ، ويسمى أحمد القرمانلى [٣] بإعلان نفسه حاكماً عليها سنة ١٧١١ ، منتهزاً فرصة غياب خليل باشا والى طرابلس ، الذى كان قد هرب إلى مصر لاجئاً سياسياً[٤] ، عقب ثورة قام بها أهل الولاية بسبب ضياع سفينتين

(١) دكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٤ .

(٢) يكتب هذا المصطلح أحياناً قولوغلان ، ومفرده قولوغلى . وكان القولوغليه يتركزون فى حى المنشية ، وعلى ساحل مدينة طرابلس وفى مصراته ، والزاوية .

(٣) نسبة إلى مدينة قرمان فى الأناضول . وارتحل مصطفى ، وهو الجد الأكبر لأحمد القرمانلى ، إلى طرابلس. وكان بحاراً صغيراً وامتلك بعض المزارع والنخيل فى حى المنشية . واندمج أبناؤه وحفدته مع أهالى البلاد وصاهروهم .

(٤) انتهى أمره بمقتله فى شهر أغسطس - آب - عام ١٧١١ أمام مدينة زواوه فى غربى مدينة طرابلس =

فى جنوبى البحر الأدرياتى تصدت لهما سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا وأضرمت فيهما النار.

واستطاع أربعمائة رجل من السبعمائة الذين كانوا فيهما النجاة من النيران ، واقتيدوا أسرى إلى جزيرة مالطة ، وفشلت جهود الدولة فى زحزحة أحمد القرمانلى عن منصبه . وأخيراً أصدر السلطان أحمد الثالث فرماناً سنة ١٧١١ بتعيينه والياً على طرابلس على أن يكون حكمه فيها وراثياً فى أسرته ومنحه لقب الباشوية (١) . وأرسل إليه سفينتين حربيتيين بكامل طاقميهما ومعداتهما . وكانت الأولى تحمل ثلاثين مدفعاً أخذت من فرسان مالطة ، والثانية تحمل أربعين مدفعاً أخذت من البندقية . ووصلت هاتان السفينتان فى الوقت المناسب لأن القوات البحرية التى كانت تحت تصرف أحمد باشا القرمانلى تضاءلت إلى حد بعيد ؛ بسبب سوء حالة السفن وعدم كفاية استعداداتها (٢) . وقد استطال حكم أسرة القرمانلى مائة وأربعة وعشرين عاماً (من أواخر يوليو – تموز – عام ١٧١١ حتى أوائل يونيو – حزيران – عام ١٨٣٥) (٣) ، ثم عادت طرابلس إلى الحكم العثمانى المباشر حتى عام ١٩١١ حين وقعت فريسة للاحتلال الإيطالى . . فكانت أخر ولاية أو نيابة من نيابات شمالى إفريقية تزول عنها السيادة العثمانية ، بعد عزل السلطان عبدالحميد الثانى بسنتين .

هبوط حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا :

تراخى اهتمام إسبانيا بشمالى إفريقية منذ أواخر القرن السادس عشر ، وقبلت الأوضاع السياسية التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية وإنشاء النيابات الثلاث ؛ لعدة أسباب ، منها :

أولاً : المصاعب الداخلية التى واجهها فيليب الثانى ملك إسبانيا .

ثانياً : تركيز هذا الملك اهتمامه على المستعمرات الإسبانية ، التى تأسست عقب حركة الكشوف الجغرافية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، مثل : جواتيمالا ، وسلفادور، وهندوراس ، ونيكارجوا ، وبيرو ، ومانجم عن هذه الكشوف والمستعمرات من تدفق الفضة على الموانئ الإسبانية . وانتهى الأمر فى أيام فيليب الثانى إلى أن أصبحت

= وجدير بالذكر أن مصر وتونس كانتا تقبلان عن طيب خاطر رؤساء القبائل ومن إليهم فى طرابلس وبرقة كلما نزل بهم ضيم .

(١) كان أحمد القرمانلى يحمل أول الأمر لقب بك ، ثم ميرميران أى كبير الأمراء ، وبكلربك . ولما صدر فرمان تعيينه من السلطان سليمان ، حمل لقب الباشوية .

(٢) رود لفوميكاكى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى . تعريب الأستاذ طه فوزى ، ومراجعة الأستاذين حسن محمود وكمال الدين عبدالعزيز الخربوطلى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص١٩ .

(٣) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : العلاقات المصرية الليبية فى العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص٢.

إسبانيا «القناة» التى تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا ، وفى ذلك الوقت بدأ عصر الفضة فى أوروبا ، وظلت الفضة خلال الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى أوروبا (١) .

ثالثاً : الأعباء المالية المتزايدة التى كانت تتحملها خزانة حكومة مدريد فى تموين الحاميات الإسبانية المرابطة فى المدن الساحلية فى شمالى إفريقية ؛ لأن الأهالى فيها امتنعوا عن التعاون مع قادة هذه الحاميات .. فكانت الحكومة الإسبانية ترسل مواد التموين وغيرها عبر البحر المتوسط إليها ، وقد أدى هذا الوضع إلى إنقاص حجم الحاميات الإسبانية .

رابعاً : قيام منازعات مستمرة بين العسكريين والمدنيين فى إدارة هذه الجيوب العسكرية .

أما الدولة العثمانية .. فقد فتر اهتمامها هى الأخرى بشمالى إفريقية بعد أن أسست النيابات الثلاث ، وبعد أن اطمأنت إلى إبعاد أخطار الزحف الصليبى الاستعمارى عن تلك الأقاليم إلى حد بعيد ، ولأن الدولة كانت قد بدأت تدخل فى دور الاضمحلال منذ حكم السلطان سليم الثانى السكير ، وتعاقب سلاطين ضعاف من بعده على العرش ، ورؤساء شغلوا منصب الصدارة العظمى لم يكونوا على مستوى المسئولية ، وظهور مراكز قوى فى الدولة على النحو الذى بسطناه من قبل .

وقد طلب فيليب الثانى ملك إسبانى توقيع هدنة مع الدولة سنة ١٥٨١ على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) ، واستجاب الباب العالى لهذا الطلب الذى كان معناه أن إسبانيا قد قبلت الأوضاع السياسية ، التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية فى شمالى إفريقية وإنشاء النيابات الثلاث تحت السيادة العثمانية . ولكن النزاع كان يتجدد بين إسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ بسبب استمرار احتلال الأسبانيين مدينة وهران، وقد تم جلاء الإسبانيين عنها عام ، وأصر حسان باشا داى الجزائر على تسليم مفاتيح المدينة إلى الباب .

إخفاق الدولة العثمانية فى بسط سيادتها على مراكش :

قد يتساءل البعض عن الأسباب التى جعلت الدولة العثمانية تمد نفوذها إلى ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية ، وهى : الجزائر وطرابلس وتونس وتدخلها تحت السيادة العثمانية . ولم تنتهج هذه السياسة فيما يتعلق بالإقليم الشقيق الرابع المتبقى وهو مراكش ؛ خاصة وأن هذا

(1) Lavisse et Rambaud; op. cit., t. V., pp 932-933 et 935-937.

وانظر أيضاً :

دكتور محمد فؤاد شكرى ودكتور محمد أنيس : أوروبا فى العصور الحديثة ، الجزء الأول ، من النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١ ، ص ص٨٣-٩٢ .

الإقليم كان يعانى كزملائه من الوجود الصليبى الاستعمارى المتمثل فى البرتغال وإسبانيا . والواقع أن الدولة العثمانية لم تغفل عن هذا الموضوع .

وبرز هذا الاهتمام على عهد السلطان سليمان المشرع بالذات .. فقد كان هذا السلطان يدرك أهمية وحدة الصف الإسلامى فى الصراع المحتدم بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى شمالى إفريقية ، بعد أن وحدت وحدة الهدف بين الأغلبية العظمى والساحقة بين جماهير مسلمى شمالى إفريقية وانضمام الدولة العثمانية إلى صفوفهم . وكان هذا السلطان يدرك أيضاً الأهمية البالغة لموقع مراكش من الناحية العسكرية ، فهى دولة متوسطية ومحيطية فى الوقت ذاته ؛ بمعنى أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، كما أنها تقترب جداً من إسبانيا من جهة بوغاز جبل طارق ، وكان فى استطاعة السلطان سليمان – لو قدر له أن يبسط السيادة العثمانية عليها – أن يتخذ من الموانئ المراكشية قواعد عسكرية لضرب السواحل الإسبانية . وكانت تابعة للإمبراطور شارل الخامس مما يعطيه ثقلاً حربياً إسلامياً ومزيداً من الفرص والقوة فى صراعه الضارى مع هذا الإمبراطور ، وكان أحدهما عاهل العالم الإسلامى ، والآخر عاهل العالم المسيحى . كما كان هذا السلطان يرى أن دخول مراكش تحت السيادة العثمانية يساعده على المضى بخطى سريعة فى تصفية الوجود الصليبى فى شمالى إفريقية .

استطاع محمد المهدى السعدى أن يؤسس فى مراكش دولة الأشراف السعدية ، وأن يحكم البلاد بدلاً من أسرة بنى وطاس ، التى فشلت فى الدفاع عن مراكش حتى سقطت جميع ثغورها فى أيدى البرتغاليين والإسبانيين . وكان محمد الوطاس قد تقدم بعرض إلى محمد المهدى السعدى ، يحكم الأخير بمقتضاه مدينة مراكش عاصمة الجنوب باسم الأسرة الوطاسية. ولكنه رفض هذا العرض ؛ لأنه كان يتطلع إلى توحيد جميع أنحاء مراكش تحت سلطته، وشتت شمل الأسرة الوطاسية ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩ واتجه إلى تحرير بعض الموانئ الشمالية ، كما فعل فى الجنوب من قبل ، واسترد أصيلة والقصر الصغير (١٥٤٩-١٥٥٠) ، ولم يبق للبرتغاليين سوى سبته وطنجه ومزغان .

وحدث أن هرب أحد أفراد أسرة بنى وطاس ، وهو أبو حسون على الوطاسى ، من مراكش وذهب يلتمس مساعدة حكام البرتغال وإسبانيا لإعادة أسرته إلى الحكم ، ولكن لم تسفر مساعيه عن نتيجة عملية ، فولى وجهه شطر إستانبول حيث قابل السلطان سليمان المشرع، الذى أصدر أمراً إلى صالح ريس بكلر بكى الجزائر بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع أبى حسون الوطاسى ، وتعيينه سلطاناً تحت السيادة العثمانية . واستطاع صالح ريس دخول فاس سنة ١٥٥٤ وغدا أبو وطاس حاكماً ، وبذلك امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى مراكش ، ولكن لم يطل أمده سوى بضعة أشهر ؛ لأن محمد المهدى السعدى استطاع أن يسترد فاس من العثمانيين والوطاسيين ، وأن يبعد عنها النفوذ العثمانى والجزائرى .

كان من المتوقع أن يحدث نوع من التضامن أو التعاون بين الدولة العثمانية والدولة السعدية ، بعد أن استقرت لها الأوضاع فى مراكش نظراً لوحدة الهدف بينهما ، فالدولة السعدية قامت أساساً لتصفية الجيوب البرتغالية فى مراكش . وكان السلطان سليمان المشرع يفكر فى تكوين اتحاد إسلامى ومجاهد ، يواجه أخطار الزحف الصليبى الاستعمارى الإسبانى والبرتغالى على أقاليم شمالى إفريقية ، بل كان يطمع فى دخول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعاً على غرار جاراتها الشقيقات . وقد أرسل السلطان سليمان سفارة إلى محمد المهدى السعدى للوصول إلى إتفاق يحقق وحدة الصف الإسلامى بعد أن تحققت وحدة الهدف ، ولكن رفض محمد المهدى الفكرة من حيث المبدأ رفضاً باتاً ، ورفض الاعتراف بالسلطان العثمانى كأكبر قائد فى حركة المجاهدين المسلمين فى شمالى إفريقية وحوض البحر المتوسط ، ورفض الاعتراف بالخلافة الإسلامية العثمانية ، على أساس أن العثمانيين ليسوا عرباً ، وإنما هم أعاجم.

وكان محمد المهدى يعتز بنسبه إلى أسرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فهو ينحدر من سلالة على بن أبى طالب ، وكان لفكرة الشرافة فى مراكش أهمية كبيرة فى حياتها السياسية والدينية والاجتماعية .

وتعمقت هذه الأهمية ، منذ أن وصل إدريس بن عبدالله وبنى مدينة فاس[١] ، وكان سكان مراكش يعتزون بحكامهم بصفتهم حفدة وذرارى البيت النبوى الشريف. وتبوأ هؤلاء الحكام مكاناً علياً فى قلوب أهل البلاد ، وأصبحت أضرحتهم أماكن زيارة وتبجيل . وكان هذا الانتماء إلى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب تفوق الأسرة السعدية على القيادات المنافسة الأخرى ؛ ومما ساعد على ترسيخ هذه الفكرة فى أذهان أهل مراكش انتشار الطرق الصوفية ، ولاسيما الطريقة الشاذلية التى تفرع عنها كثير من الطرق الصوفية فى شمالى إفريقية . وأصبحت مراكش الإقليم الوحيد من أقاليم المغرب الكبير الذى اعتز بحسب ونسب قيادته السعدية ، واحتفظ لنفسه بشخصية قائمة بذاتها ، ورفض دخوله تحت السيادة العثمانية، على الرغم من استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين شعوب شمالى إفريقية ، وأطلق عليه شخصه لقب «أمير المؤمنين» . ولما أدرك السلطان سليمان إصراره على موقفه ، عهد إلى صالح ريس بإعداد حملة أخرى لفتح مراكش . وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق توفى صالح ريس ، .. أمر السلطان خلفه حسن باشا خير الدين الذى أعيد تعيينه فى منصب بكلر بكى الجزائر بأن يمضى فى مشروع فتح مراكش ، ولكن لم تصادف الحملة توفيقاً . ثم جاءت مشكلة تلمسان ، فأضافت عنصراً جديداً من عناصر النزاع بين العثمانيين والسعديين[٢].

(١) دكتور السيد عبدالعزيز سالم : المغرب الكبير ، العصر الإسلامى ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص٤٨٧-٥٠١ .

(٢) انظر عرضاً لهذه المشكلة فى :

دكتور جلال يحيى ، المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٧-٣٩ .

ثالثاً : إيجاد وحدة على الطبيعة بين الولايات العربية

ومن الخدمات التى أدتها الدولة العثمانية للعالم العربى أنها أوجدت بين الولايات العربية التى دخلت تحت سيادتها – من منطقة الخليج العربى إلى الحدود الغربية للجزائر فى شمالى إفريقية– وحدة على الطبيعة من نوع خاص ؛ فاحتفظت هذه الولايات بمقوماتها الأساسية : الدين الإسلامى ، واللغة العربية ، والثقافة العربية الإسلامية ، والتقاليد والعادات الموروثة عبر الأعصر والأدهار . وكان سكانها تجمعهم دولة إسلامية واحدة هى الدولة العثمانية ، وينتمون لجنسية واحدة هى الجنسية العثمانية بالتعبير الحديث ، وتضمهم رعوية واحدة بصفتهم رعايا عثمانيين ، ويشتركون فى تبعيتهم لحاكم واحد هو السلطان العثمانى . ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة بين الولايات العربية أو حواجز مصطنعة بين سكانها، فكانت حرية الانتقال والسفر أمامهم مكفولة ومحترمة فى جميع الأوقات . وكانت فرص العمل متاحة لهم فى كل الأوقات .

وكان فى مقدور العربى فى دمشق مثلاً أن ينتقل إلى بغداد أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو القاهرة أو القيروان أو غيرها من مدن الولايات العربية ، ويعيش فيها ويمارس ألواناً من النشاط الاقتصادى أو الثقافى ، دون أن يحصل على إذن بالخروج أو الإقامة .

وكانت هذه الوحدة هى أول وحدة تتحقق للعالم العربى إبان الحكم العثمانى بعد تفتت وحدته بسقوط الدولة العباسية فى حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، عقب غزو المغول وتخريب مدينة بغداد وانسياحهم فى وادى الرافدين ثم شمالى بلاد الشام إلى جنوبى فلسطين . ولذلك يرى جمهرة من المؤرخين والباحثين أن الوحدة التى تمت على أيدى العثمانيين هى نقطة البداية فى تاريخ العرب الحديث [1] . وفضلاً عن تلك التبعية السياسية كانت وشيجة الدين تربط سكان الولايات العربية بالسلطان العثمانى باستثناء أهل الذمة . وكانوا قلة عددية يعيشون على هامش المجتمعات الإسلامية فى الولايات العربية ماعدا بعض الجهات

---

(١) يتبادر إلى ذهن بعض المثقفين ربط بداية تاريخ العرب الحديث ببدء تاريخ أوروبا الحديث على أساس أنهما وقعا فى وقت واحد تقريباً هو عصر النهضة الأوروبية . ولكن كان هذان الحادثان – الوحدة فى ظل الحكم العثمانى والنهضة الأوروبية – مختلفين بعضهما عن بعض فى نشأتهما ومعالمهما وتطورهما وسير الأحداث فى العالم العربى وفى أوروبا .

فى بلاد الشام[١] . وكانت وشيجة الدين من أقوى الوشائج التى ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية ، فأخلصوا لها واشتركوا فى حروبها ضد التكتلات الصليبية التى واجهتها ، وكان ولاؤهم لها والتصاقهم بها يزداد إذا تعرضت الدولة لهزيمة عسكرية من دولة أوروبية . وكان الدين يعمل فى تلك العصور عمل القومية فى الوقت الحاضر ، فى تقرير الأوضاع السياسية والحربية لشعوب الولايات العربية [٢] . وكانت تفسيرات علماء الدين للأحداث الكبرى وللعلاقات والروابط الاجتماعية هى التفسيرات التى تتقبلها الجماهير عن طيب خاطر . ولعل خير مثال للترابط الدينى بين سكان الولايات العربية إبان الحكم العثمانى ماحدث فى مصر عند ما هبطت الحملة الفرنسية أرضها عام ١٧٩٨ بقيادة بونابرت .

وكانت هذه الحملة أول غزو عسكرى مسيحى أوروبى لولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية فى الشرق الإسلامى فى التاريخ الحديث . أعلن السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) الجهاد الدينى ضد الفرنسيين . والجهاد الدينى فى الفقه الإسلامى هو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر على حمل السلاح ، واستجاب لدعوة الجهاد الدينى العرب فى الحجاز والشام وشمالى إفريقية .. فمن الحجاز خرجت جموع من العرب بقيادة رجل ثرى يسمى محمد الكيلانى . ويقول الجبرتى فى حوادث شهر شعبان عام ١٢١٣ (٨ من يناير - كانون ثان- إلى

(١) يرى الأستاذ أنيس صايغ أن العلاقات بين الأكثرية المسلمة السنية فى الولايات العربية والأقليات المذهبية والعنصرية فيها قد خلقت مشكلة شائكة ومزمنة فيها بشكل عام وفى كل بقعة فى الولايات العربية بأشكال خاصة . وقال إن عوامل خارجية وداخلية وسياسية ونفسية متعددة قامت بدور بارز فى قيام هذه المشكلة واستفحالها ، وإن فرنسا وبريطانيا قد أسهمتا بنصيب وافر فى توسيع الشقة بين الأكثرية والأقلية وأيدتا أفراد الأقليات بالأموال والأسلحة والتشجيع وحرضتاهم ضد الاختلاط مع الأكثرة أولاً ثم ضد الاندماج فى الفكرة القومية بعد ذلك ، وأكد أن مشكلة العلاقات بين الأكثرية والأقلية تخضع لمؤثرات كثيرة غير عربية أكثر مما تخضع له من مؤثرات عربية . وخلص إلى أن هذه الحقائق لاتحجب حقيقة الأوضاع ، وهى أن أفراد الأكثرية والأقليات كانوا مسئولين معاً مسئولية مباشرة عن ضعف العلاقات ، فنتج عن ذلك أن انكمشت على نفسها الأقليات وهى أقليات لها تراثها ودورها وحقها فى الحياة العربية وعزلت نفسها عن حركتى الوحدة والاستقلال بعد ذلك وطالبت بدلاً منهما بهدفين متناقضين لهما : الارتباط مع دولة أخرى من خارج المنطقة العربية ارتباطاً مشبوهاً يهدد الاستقلال ، والانفصال عن الوحدة الشاملة وتفتيت الدولة الواحدة إلى عدة كيانات سياسية مبعثرة .

انظر : أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ص١٦٤-١٦٥ .

وهذه الآراء صحيحة إلى حد بعيد ، وهى تتناول فترتين : الفترة الأولى الخاصة بالحكم العثمانى للولايات ا لعربية ، والفترة الثانية وتنصب على الفترة التالية بعد سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى . وتغلغل الزحف الاستعمارى الأوروبى فى الشرق العربى الآسيوى وتزاحمه عليه . والفترة الأولى هى التى تخص هذه الدراسة وتحتاج إلى إضافة بعض الحقائق لتكون الصورة أكثر وضوحاً . وسنرجىء بحثنا عنها إلى كتابنا القادم بإذن الله وهو دور الدولة العثمانية فى نشر الإسلام فى أوروبا وموقفها من أهل الذمة فى الدولة » .

(٢) أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥ .

٥ من فبراير – شباط – عام ١٧٩٩) «لما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية ، انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم ... وإن هذا الشيخ (الكيلانى) صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ، ويحرضهم على نصرة الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً فى معنى ذلك . فاتعظ جملة من الناس ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين[١] . وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه»[٢] .

وكان عرب الحجاز خصوماً أشداء للجنرال ديزيه Désaix ، الذى عهد إليه بونابرت بغزو الصعيد والقضاء على قوات مراد بك . وقد صمموا على الظفر بإحدى الحسنيين : الاستشهاد أو الانتصار ، واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية الكريمة «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»[٣] . وتطلق عليهم المراجع الفرنسية المكاويين Les Mecquois أى أهل مكة ، وهذه التسمية تنطوى على خطأ واضح ، لأن أفراد القوة التى جاءت من الحجاز لم يكونوا جميعاً من سكان مكة المكرمة ، بل انضمت إليهم أفواج من المدينة – المنورة والطائف وجدة ونيبع وغيرها [٤] . وتكونت منهم فى الصعيد ومن مسلمى أقاليم الوجه القبلى وبخاصة عرب الهوارة وأهالى النوبة وقوات مراد بك جبهة حربية إسلامية ، فى مواجهة جبهة حربية مسيحية ، كانت تتألف من القوات الفرنسية ، النهرية والبرية ، والفيالق القبطية بقيادة المعلم[٥] يعقوب حنا فى الجيش الفرنسى [٦] .

---

(١) يذكر نقولا ترك أن عددهم كان ثمانية آلاف مجاهد ، وهو رقم مبالغ فيه .
انظر :
مذكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق جاستون ڤييت Gaston Wiet . القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ ، ص٤٨ النص الفرنسى .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج٣ ، ص٤٤ .

(٣) الآية رقم ٤١ ، سورة التوبة .

(٤) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : الوحدة العربية فى التاريخ الحديث والمعاصر . مرجع سبق ذكره ، ص٢٨ .

(٥) «المعلم» لقب لشخص وجيه مثقف مستمد من الإنجيل ، لأن السيد المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب «المعلم» وكان يناديه الناس بالمعلم ورفض أى لقب آخر .

(٦) أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية فى مصر فى تأييد الفرنسيين إسرافاً وصل إلى حد تكوين فرق عسكرية من أبناء هذه الطوائف . وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسى لسد النقص فى عدده ، نتيجة المعارك التى خاضها فى مصر والشام ، وإخماد الثورات الشعبية ، وفتك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين ، وعجز حكومة باريس عن إرسال تعزيزات عسكرية إلى الحملة.
وقد نظر الشعب المصرى إلى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسى لمصر ، وأنه لولا هذا لما أذنت السلطات الفرنسية فى إنشائها وتدريبها وتسليحها . وتزعم هذه الحركة المعلم يعقوب=

كذلك جاء إلى مصر رجل من مدينة درنة بطرابلس الغرب لقب نفسه بالمهدى ، ودعا إلى قتال الفرنسيين ؛ فأقبل عليه الناس أفواجاً وضم إليه رجال القبائل من أولاد على والهنادى

= حنا ، إذ كون فرقاً عسكرية من شباب الأقباط . وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزى الجنود الفرنسيين . وقلده كليبر قيادة هذه الفرق ومنحه رتبة أغا ثم رقى على عهد مينو إلى رتبة لواء Général ومنحه رسمياً لقب «القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسى» . وقد أنشأ للفرنسيين فى حملة الصعيد نظاماً بريدياً دقيقاً على الهجن ارتبطت بفضله فصائل الجيش الفرنسى المتناثرة على طول نهر النيل مابين القاهرة وأسوان . واتخذ من أسيوط مركزه هو والقادة الأقباط لوقوعها فى منتصف المسافة تقريباً بين القاهرة وأسوان ، ولأن أهالى أسيوط كانوا يعرفونه جيداً إذ كان وكيلاً عاماً على إقليم أسيوط لسليمان بك أحد أمراء على بك الكبير . وكان المعلم يعقوب الساعد الأيمن للقائد ديزيه فى حملة الصعيد ضد الجبهة الحربية الإسلامية . ورفض أن تكون مهمته مقصورة على تدبير المال والإشراف على شئون تموين الجيش الفرنسى ، بل اشترك اشتراكاً فعلياً فى الحرب إلى جانب الفرنسيين . وكان يدلهم على بعض المراكز الحربية . ولما انتصر يعقوب فى واقعة «عين القوصية» قلده الجنرال ديزيه فى مساء يوم الانتصار فى حفل أقامه له سيفاً كتب على نصله اسم الواقعة .

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية (٢٠ من مارس آذار - إلى ٢١ من أبريل - نيسان - عام ١٨٠٠) على عهد كليبر كان كبار الأقباط وعلى رأسهم المعلم جرجس جوهرى ، وفلتاوس ، وملطى ، يمدون الثوار المصريين بالأموال والذخائر . ولكن كان المعلم يعقوب ومن سار على شاكلته من الأقباط يصلون الثوار ناراً حامية . وفى هذا يقول الجبرتى (ج٣ ، ص٩٦) إن المعلم يقعوب كرنك (أى عسكر أو رابط) فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى ، واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح ، وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى على عهد بونابرت) فكان معظم حرب حسين بك الجداوى معه» . ولما أسرف كليبر فى استخدام العنف بعد قضائه على الثورة الثانية ، فرض على أهالى القاهرة غرامة حربية كبيرة . وعهد كليبر إلى المعلم يقعوب أن «يفعل فى المسلمين مايشاء» . ومما يذكر أن بطريرك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته . وكثيراً مابذل له النصح بالعدول عن خطته ، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول . وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه . ولم يزدد إلا إمعاناً فى تأييده للفرنسيين . ولما لقى الجنرال ديزيه مصرعه فى موقعة مارنجو فى ذات اليوم الذى اغتيل فيه الجنرال كليبر فى القاهرة وهو يوم ١٤ من شهر يونيو - جزيران - عام ١٨٠٠ ، اتجهت الفكرة إلى إقامة تمثال له فى باريس . وكتب يعقوب خطاباً مؤثراً أملاه عليه وجدانه وأبدى فيه حزنه العميق على فقد «عزيزه» ديزيه الذى حارب بجانبه لإخضاع أرض «طيبة» . وتبرع بثلث قيمة التمثال . ويقول الجبرتى إن يعقوب كان «صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع للفرنسيين» .

ولما تقرر جلاء الفرنسيين عن مصر صمم على الرحيل معهم وحاول أن يصطحب معه عدداً كبيراً من شباب الأقباط الذين كانوا تحت قيادته فرفضوا ولم يخرج معه إلا بعض أقاربه وهم زوجته مريم نعمة الله، وابنته منة ، وأخوه حنين وابنا أخته ولقبها سيداروس واستقل الجميع سفينة إنجليزية تسمى بالاس Pallas وبينما كانت السفينة تشق طريقها أصيب يعقوب بمرض لم يمهله طويلاً فمات فى عرض البحر . واستجاب إدموندز Edmonds ربان السفينة لرجاء أهله فلم يلق بجثته فى البحر بل وضعها فى برميل ملىء بالنبيذ حفظها حتى بلغت السفينة مارسيليا حيث دفنت .

ويحلو لبعض الباحثين أن يقرروا أن المعلم يعقوب قد سافر إلى فرنسا مع الفرنسيين لتحقيق مشروع وطنى خطير ، هو السعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر . والمعلم يعقوب لم تكن له زعامة سياسية فى مصر حتى يتصدى لمثل هذه المهمة . ولم تكن علاقاته طيبة مع كبار الأقباط=

وغيرهم . كما انضم إليه سكان القرى التى مر بها . وسار بهذه الجموع المسلحة حتى بلغ دمنهور فى أبريل – نيسان – عام ١٧٩٩ ، وكانت تعسكر بها حامية فرنسية ، أبادها المهدى

= فضلاً عن المسلمين الذين نظروا إليه على أنه أحد الخونة المارقين الذين يظهرون فى فترات الحكم الأجنبى ويكونون خلالها حرباً على مواطنيهم . وهو لم يبرز فى الميدان السياسى إلا على عهد الحملة الفرنسية عندما تفانى فى خدمة الفرنسيين . وكان نشاطه قبل الاحتلال الفرنسى مقصوراً على الميدان الاقتصادى . وأين هو الوفد الذى رافقه من أجل السعى لتحقيق استقلال مصر ؟ هل هو أهله وعشيرته؟ وماهى أنباء هذا الوفد حين نزل فى مارسيليا ؟ إن الثابت أنه لم يكن لديه تفويض من شيخ الأزهر أو علمائه أو كبار الأقباط . وإنما التفويض الوحيد الذى كان يحمله يعقوب كان من بعض كبار الأقباط لمطالبة الحكومة الفرنسية برد قروض مالية قدموها للجنرال مينو فى أواخر عهد الحملة الفرنسية حين نضبت مواردها المالية . ولكن الحكومة الفرنسية ماطلت أول الأمر فى الدفع ثم رفضت أن تعترف بالدين . وسافر ورثة أولئك الأقباط إلى باريس على عهد نابليون الثالث يبذلون جهودهم لديه لاسترداد تلك القروض ولم تغير الحكومة الفرنسية موقفها وظلت على رفضها الاعتراف بهذه القروض . ومجمل القول إنه لم يفوض أحد فى مصر المعلم يعقوب فى التكلم فى مستقبل مصر السياسى . والحق أن المعلم يعقوب كان من أعوان الاستعمار الفرنسى فى مصر . فلما حمل الاستعمار عصاه ورحل عن البلاد ، كان على هذا الفرع أن يتبع الأصل ويرحل معه . ومن ثم كان هروب يعقوب مع فلول الحملة الفرنسية الفاشلة . ومن حسن حظ مصر أن حركة يعقوب لم تعش طويلاً ولم تجد تأييداً من كبار الأقباط وعقلائهم فإن هذه الحركة لو قدر لها أن تعمر طويلاً لقضت على الوحدة القوية الرائعة بين المسلمين والأقباط ولغرست بذور الانقسام والشقاق فى مصر ولأوجدت هوة سحيقة بين هذين العنصرين وهو أمر جد خطير . وكان الجبرتى يشيد فى أكثر من موطن بوحدة المسلمين والأقباط فى مقاومة الحملة الفرنسية . (ج٣ ص١٥ على سبيل المثال) .

ويصف الأستاذ محمد شفيق غربال الجيش الذى جمعه يعقوب من شباب أقباط مصر أنه أول جيش تكون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة . وقد تناسى أو لعله فاته أن المهمة الأولى والرئيسية للجيش إنما هى الدفاع عن الوطن . وليست دعم احتلال أجنبى عسكرى صارم كالاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨–١٨٠١) . ولعل مما يشفع له فى هذه الكبوة أنه وضع بحثه عن المعلم يعقوب عام ١٩٣٢ ولم يكن قد وصل إلى منصب الأستاذية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية – جامعة القاهرة حالياً – ولم يكن قد اكتمل نضجه العلمى بعد .

عن المعلم يقعوب ، انظر كلاً من :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج٣ ، ص١٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٣٩ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٦٥–٢٦٦ .

نقولا ترك مذكرات النص الفرنسى ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٦ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣، ١١٤ ، ١٣٤ .

أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ ص٢٠٨ .

محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ ، مطبعة المعارف شارع الفجالة مصر ، ١٩٣٢ ، ص٢٠ .

يعقوب نخلة : تاريخ الأمة القبطية ص ص٢٨٩–٢٩١ .

Gaston Homsy, Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Egypte. Marseille, 1921; p. 17, 30-32, 101-102, 115, 120-121, 130-131-133, 134-145.=

عن بكرة أبيها . وكان لانتصار المهدى صدى كبير فى أنحاء البلاد ، فهرع إليه الناس من كل حدب وصوب . ولما علم الجنرال مارمون حاكم الإسكندرية العسكرى بنبأ الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية فى دمنهور ، أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدى ولكنها هزمت ، فأرسل قوات أخرى من رشيد ودارت معركة سنهور ، وكانت من أشد المعارك هولاً ومن أعنف الوقائع التى واجهها الفرنسيون فى مصر ، إذ كانت أشبه بمجزرة بشرية . وكان عدد رجال المهدى خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان . واستمر القتال سبع ساعات . وانتهى بفوز المهدى وارتداد الفرنسيين إلى الرحمانية (١) .

واعترف بونابرت بأهمية العازل الدينى بين الفرنسيين والشعب الإسلامى العربى فى مصر ، وخلص رأياً إلى أن الحرب ضد المسلمين سكان مصر تطلبت تضحيات جسيمة واعتبرها حرب استنزاف للفرنسيين ولم يمكن التغلب عليها (٢) ، وأخفقت سياسته الإسلامية فى مصر التى يطلق عليها الفرنسيون La Politique Musulmane de Bonaparte (٣) إخفاقاً ذريعاً ، كما أكد نقولا ترك – وهو من موارنة لبنان وعاصر أحداث الحملة ، أهمية العازل الدينى فى عبارات صريحة ، فقال إن المصريين وصفوا بونابرت بأنه نصرانى ابن نصرانى(٤)، ومعنى ذلك أن المصريين لم يصفوا بونابرت بأنه أوروبى ابن أوروبى ، ولم يقولوا عنه إنه فرنسى ابن فرنسى ، بل اتخذوا الدين معياراً لتقييم بونابرت . وكانت المظاهرات تطوف فى شوارع القاهرة تطلق هتافات مسجعة ، وتعلن عن ولائها للسلطان .

الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان (٥)

Douin George; L'Egypte Indépendante, Projet de 1801.=
Documents Inédits. Publication de la Société (Royale) de Géographie d'Egypte, Le Caire, 1924, pp. I-XVI.

ويلاحظ أن دوا متعاطف مع حركة المعلم يعقوب ، ويحاول أن يسوق مبررات النشاط وتصرفات يعقوب.

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج٣ ، ص٥٨ .
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، الوحدة العربية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٨ .
عبدالرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ص٥٦–٦٠ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : صور من دير الأزهر الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٦٣-٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ص٦–٦٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ص٦٤-٦٦ .

(٥) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج٣ ، ص٨٨ ، ص٩٣ .

فرط الرمان هو اسم أطلقته الجماهير على رجل يونانى فظ شرس اسمه برتلمى Barthélemy ويرد ذكره فى بعض المراجع الفرنسية باسمه القاهرى Grain de Grenade أى فرط الرمان . عينه الفرنسيون عقب دخولهم القاهرة فى منصب «كتخدا مستحفظان» أى وكيل محافظة القاهرة . وأصبح=

كما صرح كبار علماء الأزهر للجنرال كليبر عقب إخماد ثورة القاهرة الثانية بأن السلطان العثماني «هو سلطاننا وسلطان المسلمين (١) . ولم تكن ثورتا القاهرة والمقاومة الشعبية التي انتشرت في الأقاليم تهدف إلى استقلال مصر ، ولكنها كانت في لحمتها وسداها تستهدف غرضين مزدوجين أو غرضاً واحداً ذا شقين ، هما : إنهاء الحكم الفرنسي المسيحي من مصر ، وإعادة البلاد إلى حكم السلطان المسلم وخليفة المسلمين . يقول الأستاذ غربال «ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين ، وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتيحت لهم الفرصة ... والتاريخ الصحيح لايجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس . ولايمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً ، إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية» (٢) ، ويزيد الرابطة الدينية وضوحاً ماذكره الأستاذ الأمريكي كرستوفر هيرولد Christopher Herold أن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين . والواقع أن الكوارث العسكرية التي نزلت بالمماليك على يد الفرنسيين قد قربت بين المماليك والشعب المصري ، وعلى الرغم من أن المماليك كانوا قد اعتصروا أرزاق الشعب واستنزفوا موارده المالية .. إلا أنهم كانوا أولاً وقبل كل شيء إخوة له في الدين . ولما تدخل علماء الأزهر فأطلق بونابرت سراح أسرى المماليك ، دخل كثير منهم إلى الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرق الممزقة فمكثوا به يأكلون من صدقات المجاورين والمارين . وإن هذا التصرف من القادرين نحو المماليك خلق يعده الإسلام جديراً بالإعجاب العظيم : وهو أن يطعم المظلومون ظالميهم المقهورين، بدافع الشعور بالأخوة أكثر من الرحمة (٣) .

على هذا النحو لم ينظر سكان الولايات العربية إلى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب ، بل نظروا إليه أيضاً على أنه خليفة المسلمين يستظلون بظل خلافته . وكان يطلق عليه «الخليفة الأعظم» ، وخليفة المسلمين ، وحامي الحرمين الشريفين ، ومالك البرين

= من عملائهم العتاة . وكان هذا الرجل معروفاً لأهل القاهرة بقسوته وكراهيته العميقة لهم . وكانت تهفو نفسه إلى المشاجرات والقتل . ولما شغل هذا المنصب برزت هوايته وهي القتل الجماعي للمماليك والمصريين على السواء . وكان يطوف بشوارع القاهرة والسيف مسلول في يده ، وحوله قوة تبلغ المائة من اليونانيين من أفراد الفيالق اليونانية التي كونها بونابرت وألحقها بالجيش الفرنسي .

انظر : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : صور من دور الأزهر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٨٦-٩١ .

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج٣ ، ص١٠٧ .

(٢) محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥ .

(٣) كروستوفر هيرولد : بونابرت في مصر . ترجمة فؤاد أندراوس . الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص١٩٥ .

والبحرين ، والسلطان الغازى [1] ، والسلطان ابن السلطان[2] ، إلى غير ذلك من الألقاب .

وكان السلطان بحكم موقعه كرئيس للدولة يعتبر رئيساً لشيخ الإسلام ، ورئيساً للصدر الأعظم ، وقائداً أعلى للقوات المسلحة العثمانية ، فكان السلطان يجمع بين يديه سلطات الهيئات الدينية والمدنية والعسكرية فى الدولة . وتأسيساً على هذه السلطات الواسعة المخولة له ، كان يرسل إلى كل ولاية عربية حاكماً عربيّاً عامّاً مسلماً ، يطلق عليه الباشا العثمانى أو الوالى العثمانى . وجرت العادة أيضاً على أن يصدر السلطان فرمانات بتعيين كبار الموظفين فى المناصب الكبرى أو القيادية فى الولاية ، مثل : قاضى القضاة ، والدفتردار ، وقادة الفرق العسكرية التى ترابط فى الولاية . ويشكلون مع الباشا وكبار علماء الدين الإسلامى ونقيب الأشراف ديواناً عاماً ، يساعد الباشا فى شئون الحكم والإدارة . ويكون هذا الديوان فى الوقت ذاته رقيباً على تصرفاته ، وكان السلطان يحرص على الاعتراف له بالسيادة على الولاية ، وعلى أن ترسل له جزية سنوية فيما عدا إقليم الحجاز ، وعلى أن يذكر اسمه مقروناً بالدعاء له على منابر المساجد فى خطب أيام الجمعة والعيدين ، وعلى أن تضرب العملة باسمه ، وعلى أن ترابط فى الولاية بعض فرق عسكرية من القوات العثمانية ، يطلق عليها «الأوجاقات» تدافع عن الولاية من أخطار الغزو الخارجي وتحافظ على الأمن الداخلى .

ولم يطلق سكان الولايات العربية على هذه الفرق العثمانية المرابطة فى بلادهم اسم جيش الاحتلال ، بل أطلقوا عليها الحاميات العثمانية أى التى تحمى الذمار ، وهى جملة معبرة تنبثق عن العاطفة الدينية ، التى كانت جياشة فى شتى فئات المجتمعات العربية ؛ إذ كانت السمة البارزة فى تاريخ الولايات العربية وقتذاك أنها كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ماتحمله هذه السمة من معانٍ . ولم ينظر العرب للدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية ، ولم ينظروا إلى الحكم العثمانى على أنه استعمار . وظلت هذه الفكرة السياسية الدينية مسيطرة على أذهان الغالبية العظمى من الجماهير العربية إلى أوائل القرن العشرين ، حين انفجرت بشكل عملى عندما أغارت إيطاليا على ولايتى برقة وطرابلس سنة ١٩١١[3] . ولم تتدخل الدولة فى

---

(١) الغازى كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية غزا ، يغزو ، غزواً فهو غاز . ومعناها فى اللغة التركية المجاهد فى سبيل الله .

(٢) كان لقب «السلطان ابن السلطان» له دلالته ، بمعنى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يتميزون بأنهم سلالة أسرة عريقة كريمة المحتد ذات جذور عميقة فى التاريخ توارثت الحكم عبر قرون متعاقبة .

(٣) اعتبر المصريون أن مصر فى حالة حرب ضد إيطاليا ، لأن مصر كانت لاتزال تحت السيادة العثمانية طبقاً للقانون الدولى العام . وتعترف الدول وفى مقدمتها بريطانيا بهذه السيادة . وفضلاً عن ذلك اعتقد المصريون أن تقديم العون المادى فى شتى صوره وأشكاله إلى الدولة العثمانية والمجاهدين الليبيين أمر واجب بحكم الرابطة الدينية والعروبة والجوار والمصالح المشتركة . وفى مستهل الحرب تحدث وفد من كبار المصريين إلى هربرت كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر بشأن إرسال قوات من الجيش=

شئون الحكم إلا فى نطاق ضيق وبقدر يسير، و اعتبرت نفسها مسئولة عن حماية الولايات العربية ، وتوفير الأمن العام فيها ، وإقامة الشعائر الدينية ، والحفاظ على مبادئ الشريعة الإسلامية ، وتنظيم وحماية قوافل الحج ، سواء قافلة الحج الشامى أو المصرى أو العراقى أو اليمنى ، إلى إقليم الحجاز ، والإشراف على مرفق القضاء ، وجمع الضرائب عن طريق غير مباشر بواسطة شيوخ الطوائف فى المدن والملتزمين فى الأرياف . فكان تدخل الدولة مقصوراً - فى الأعم الأغلب - على هذه المجالات فى الولايات العربية ، وتركت سكانها يعيشون على النحو الذى كانوا يألفون .

إن الوحدة التى هى من نوع خاص وذات طبيعة خاصة ، والتى قامت بين الولايات العربية إبان الحكم العثمانى ، تبدو أكثر إشراقاً إذا قورنت بالتفتيت السياسى الذى اصطنعته الدول الأوروبية الاستعمارية ، عقب استحواذها على معظم هذه الولايات تحت اسم الاحتلال أو

= المصرى إلى ليبيا لمساعدة الدولة العثمانية والمجاهدين الليبيين . ولكنه اعتذر عن عدم قبول هذا الرأى بحجة أنه إذا أرسلت مصر بقوات من جيشها إلى ليبيا ، فإن هذه القوات تترك فراغاً فى الجيش يصعب سده ، وأنه سيضطر فى هذه الحالة إلى أن يطلب من لندن أن ترسل جنوداً بريطانيين حتى تكون فى مصر قوات عسكرية كافية لمواجهة أى عدوان خارجي قد تتعرض له البلاد . ثم طلب عدد كبير من ضباط الجيش المصرى السماح لهم بالتطوع فى الحرب فأبدى لورد كتشنر استعداده للموافقة على طلب الضباط بشرط أن تشغل وظائفهم بغيرهم ، بمعنى إذا عاد الضباط بعد انتهاء العمليات الحربية إلى مصر وجدوا أنهم قد فقدوا وظائفهم . وطلب زعماء البدو من قبيلة أولاد على الصحراء الغربية أن يعبروا الحدود المصرية إلى برقة للاشتراك فى الحرب . ووافق كتشنر على طلبهم ، ولكنه أبلغهم أنه سيدخل تعديلاً فى قانون التجنيد من شأنه إلغاء الإعفاء المقرر لهم من الخدمة العسكرية فى ظل القانون المعمول به وقتذاك .

وإذ كان نفوذ المعتمد البريطانى طاغياً على الحكومة المصرية لجأ المصريون إلى الجهود الذاتية فتألفت فى ١٤ من أكتوبر - كانون أول - عام ١٩١١ لجنة عليا برياسة الأمير عمر طوسن لجمع التبرعات المالية والعينية وإرسالها إلى القوات الإسلامية فى ليبيا . وتفرعت من هذه اللجنة لجان فرعية طافت بأرجاء البلاد لجمع التبرعات . وأقبل الشعب المصرى بجميع طوائفه على البذل والسخاء . وفى إحدى المرات سافر إلى مدينة المنصورة الأمير عمر طوسن مع بعض أعضاء اللجنة العليا وجمع فى أقل من نصف ساعة مائة ألف وستة آلاف جنيه . وفى السنة ذاتها ، تأسست جمعية الهلال الأحمر المصرى بمناسبة اندلاع الحرب الطرابلسية . وكونت مستشفيات ميدان وأرسلت بعثة طبية لمعاونة جرحى الحرب . وتوالى إرسال البعثات الطبية إلى ليبيا فى شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩١٢ . وأقيمت فى حديقة الأزبكية فى ٦ من يناير - كانون ثان - سوق خيرية خصص إيرادها لجمع التبرعات . وعمد الشعب المصرى إلى مقاطعة البضائع الإيطالية ووقف التعامل مع البنك الإيطالى . واضطر التجار الإيطاليون إلى مغادرة البلاد بسبب توقف نشاطهم التجارى .. إلى غير ذلك .

انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : العلاقات بين مصر وليبيا إلخ مرجع سبق ذكره ، الفصل الثامن : الحرب الإيطالية الطرابلسية ، ص ص٤٢-٧٠ .

الانتداب من قبل عصبة الأمم ، أو مناطق النفوذ ، وذلك بعد سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى . وحسبنا أن نشير إلى مثالين صارخين فى هذا الصدد .. فقد أقامت فرنسا من نفسها دولة منتدبة على سوريا ولبنان ، فأنشأت عام ١٩٢١ دولة مستقلة فى مقاطعة العلويين حول اللاذقية ، ثم أعلنت استقلال جبل الدروز فى أبريل – نيسان – عام ١٩٢٢ ، وقسمت سوريا إلى دولتين : دولة دمشق ، ودولة حلب . ومنحت صنجق إسكندرونة(١) – داخل دولة حلب – كياناً خاصاً تمتع بقدر كبير من الاستقلال الذاتى ، واعترفت باللغة التركية لغة رسمية طبقاً للمعاهدة الفرنسية التركية المعروفة باتفاقية فرانكلن بويو Franklin-Boullion الموقعة فى أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩٢١(٢) . أما المثال الثانى فكان إنشاء بريطانيا إمارة شرقى الأردن فى عام ١٩٢١ بعد عام النكبة(٣) ؛ تنفيذاً لأحد قرارات مؤتمر القاهرة البريطانى الذى بدأ جلساته فى اليوم الثانى عشر من شهر مارس – آذار – عام ١٩٢١(٤). وكان إنشاء هذه

---

(١) أطلق على الإسكندرونة منذ شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٩٣٨ اسم هاتاى كإجراء تمهيدى لتنازل فرنسا عنها لتركيا . وقد تم التنازل رسمياً فى إتفاقية وقعت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو – حزيران – عام ١٩٣٩ وكان هذا التنازل يتعارض أشد التعارض مع صك انتداب فرنسا على سوريا ولبنان ، إذ نصت مادته الرابعة على أن «الدولة صاحبة الانتداب سوف تكون مسئولة عن التنازل ، أو تأجير ، أى جزء من أراضى سوريا ولبنان ، أو وضعه بأى شكل تحت إشراف دولة أجنبية . ولكن كان ثمن هذا التنازل هو إبعاد تركيا عن الانضمام إلى الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ، ولذلك وقعت بعد ثمان وأربعين ساعة من الاتفاقية الأخيرة اتفاقية جديدة فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو – حزيران – تحت اسم دبلوماسى هو اتفاقية تبادل المعونة والمساعدة .

انظر :

سيتون وليمز م. ف. بريطانيا والدول العربية . عرض للعلامات الإنجليزية العربية (١٩٢٠–١٩٤٨) ترجمة دكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ص١٠٢–١٠٤ .

(٢) تأكدت هذه الأحكام فى بروتوكول المعاهدة الفرنسية التركية لحسن الجوار المنعقدة فى ٢٠ من مايو – أيار – ١٩٢٦ .

(٣) أطلق العرب على سنة ١٩٢٠ عام النكبة ، ففيه عقد مؤتمر سان ريمو الذى قرر إعلان الانتداب البريطانى على فلسطين والعراق ، والانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان ، وفيه اشتعلت ثورة عارمة فى العراق تحولت إلى حرب دينية مقدسة بعد أن انضم إليها الشيعة . وفيه وزع على أهالى فلسطين بيان رسمى، صادر باسم جورج الخامس ملك بريطانيا ، مكتوب بثلاث لغات هى العربية والإنجليزية والعبرية جاء فيه أن الحكومة البريطانية وطدت عزمها على إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين على مراحل . وفيه وقعت معركة ميسلون فى ٢٤ من شهر يوليو – تموز – واستشهد فيها يوسف العظمة وزير الدفاع . ودخلت القوات الفرنسية دمشق فى اليوم التالى ، وأطاحت بحكومة فيصل العربية فى سوريا ، وغادر فيصل دمشق فى ٢٨ من الشهر ذاته ، وسقطت الملكية التى أنشأها فيصل فى دمشق بعد أربعة أشهر من قيامها . وبدأ عهد الانتداب الفرنسى ، إلى غير ذلك من أحداث دامية فى لبنان وسوريا .

(٤) وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح ونستون تشرشل وزير المستعمرات على عقد مؤتمر بريطانى فى القاهرة للبحث فى الموقف المضطرب فى الشرق العربى الآسيوى . وكانت عضوية المؤتمر مقصورة =

الإمارة ووضعها تحت النفوذ البريطانى أكبر دليل على سوء نية بريطانيا نحو العرب فى تفريق شملهم وتفتيت صفهم ؛ فالإقليم الذى قامت عليه إمارة شرقى الأردن لم يكن له أى كيان مستقل بحدوده الخاصة قبل سنة ١٩٢١ ، فى أى عهد من عهود التاريخ العربى القديم ، وكان يتبع غيره من المناطق المجاورة أو يشكل مع غيره من المناطق المجاورة دولة واحدة أو إقليماً واحداً فى دولة أوسع . كان إقليم شرقى الأردن يتبع الحجاز حيناً ، وباشوية دمشق حيناً آخر ، ويطلق عليه «متصرفية الكرك» ، ثم أدخلته بريطانيا فى المنطقة التى عهدت إلى فيصل بحكمها من دمشق تحت إشراف الحاكم العسكرى العام ، لورد اللنبى ، الذى استغل ضعف الإدارة الفيصلية ، وأدخل إلى شرقى الأردن عدداً من ضباط المخابرات البريطانية للإشراف على الإقليم إشرافاً مباشراً ، ولم يترك لفيصل نفوذاً فعلياً . ولما سقطت حكومة فيصل فى شهر يوليو – تموز – عام ١٩٢٠ ، أصبح شرقى الأردن فى فراغ سياسى وقانونى ، وانتهز سير هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين الفرصة ، وذهب إلى شرقى الأردن وجعل أولئك الضباط البريطانيين خاضعين لإدارته مباشرة ، ووزعهم على عدد من الألوية ، وأسس لكل منهم حكومة فى اللواء الذى هو فيه . وكانت كل حكومة منفصلة عن الحكومات الأخرى المزيفة تمام الانفصال . وكان عددها عشر حكومات (١) .

وقبيل انعقاد مؤتمر القاهرة البريطانى كان الأمير عبدالله ، وهو الابن الثانى للحسين بن على ملك الحجاز ، قد وصل من المدينة المنورة على رأس قوة صغيرة إلى معان فى الجزء الجنوبى من شرقى الأردن ، وكان يصر على أن هذا الإقليم يتبع الحجاز . وأعلن أنه يعتزم الزحف على دمشق لطرد الفرنسيين منها والثأر لأخيه فيصل (٢)، ثم ارتحل شمالاً من معان إلى عمان ليؤكد إصراره على تنفيذ وعيده . وأدرك أعضاء مؤتمر القاهرة خطورة الموقف ، إذا التحم عبدالله فى قتال مع الفرنسيين ؛ فإنه سيلقى هزيمة منكرة لاشك فيها ؛ خاصة وأنهم استعدوا حربياً فحشدوا قوات كبيرة فى درعا وعلى امتداد حدود حوران وأنشأوا الخنادق . وتوقع

=على كبار العسكريين والمدنيين الإنجليز . وجاء تشرشل من لندن إلى القاهرة ليحضر جلسات المؤتمر، كما جاء من العراق سير برسى كوكس المندوب السامى البريطانى فى بغداد ، ومن القدس جاء سير هبربرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين . كما حضره عربى واحد ويهودى واحد، أما العربى فهو جعفر العسكرى أحد عملاء بريطانيا وكبير المناصرين لفيصل ، أما اليهودى فكان ساسون حزقيال .

(١) كانت هذه الحكومات العشر هى : عجلون ، البلقاء ، الكرك ، الطفيلة ، جرش ، إربد ، الكورة ، مؤاب ، السلط ، عمان .

(٢) أذاع عبدالله منشورات وجهها إلى أهالى سوريا ، قال فيها إنه جاء إلى معان لمحاربة الفرنسيين من أجلهم وأنه لن يترك الميدان إلا بعد أن يسترجع سوريا ، وأعلن نفسه نائباً لملك البلاد أى والده ، ثم أخذ يلقب نفسه فى منشوراته باسم صاحب الجلالة منقذ سوريا ومحررها . وأسس فى معان جريدة تدعو له اسمها «الحق يعلو» وأرسل دعاته إلى رؤساء العشائر للانضمام إليه فى حربه المقدسة .

الإنجليز أن الأمر سينتهى باحتلال فرنسا لشرقى الأردن وضمه إلى سوريا مما يؤدى إلى قيام أزمة خطيرة بين بريطانيا وفرنسا ، لأن بريطانيا كانت قد قررت أن يكون إقليم شرقى الأردن منطقة نفوذ بريطانى يشرف عليها المندوب السامى فى فلسطين . ورأى الإنجليز ضرورة صرف عبد الله عن مشروعه ، وأن يعرضوا عليه تعيينه أميراً على إقليم شرقى الأردن. وسافر تشرشل إلى القدس فى أواخر مارس – آذار – عام ١٩٢١ وكان قد سبقه إليها عبد الله من عمان بيوم واحد ، وتم الاتفاق بينهما . على أساس تبادل المنافع ، فيعين عبد الله أميراً على إقليم شرقى الأردن فى مقابل امتيازات هائلة، ظفرت بها بريطانيا وخدمت أهدافها السياسية والعسكرية فى المنطقة (١).

---

(١) تقرر أن يتنازل عبدالله عن مطالبه الخاصة بسوريا والعراق وعن عرشيهما ، وأن يعترف بأخيه فيصل ملكاً على العراق ، وبالانتداب البريطانى على فلسطين والعراق ، وبالانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان ، وبهربرت صموبل مندوباً سامياً على فلسطين وشرقى الأردن ، وأن يسترشد عبدالله بالآراء التى يقدمها له موظف بريطانى كبير يقيم فى عمان ، التى اختيرت عاصمة للإمارة ويكون لقبه «المقيم البريطانى» The British Resident ، وأن ترسل بريطانيا للإمارة خبراء إنجليز يعرفون اللغة العربية ويعملون فى مجالات الدفاع والشرطة والقضاء والميزانية ، وإنشاء قواعد عسكرية بريطانية ، وفتح الجسور بين الأردن وفلسطين ، وعدم الأخذ بنظام التجنيد الإجبارى ، وعدم نزع السلاح من الأهالى على أن يمنع نقله إلى فلسطين . وتعهدت بريطانيا بتقديم معونة مالية سنوية بدأت بمائة وثمانين ألف جنيه ، تضاعفت اثنين وسبعين مرة فى خلال ثلث قرن ، كما تعهدت بالسعى لتحسين العلاقات بين عبدالله والفرنسيين . وهكذا دخلت شرقى الأردن رسمياً وباعتراف أسرة الملك الحسين بن على تحت الحماية البريطانية ، وألحقت بالمندوب السامى البريطانى فى فلسطين ، وأصبحت الرابطة بين شرقى الأردن وفلسطين رابطة رمزية تتمثل فى شخص المندوب السامى البريطانى .

ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا كانت قد أدمجت شرقى الأردن فى فلسطين ، وذلك فى صك الانتداب الذى قدمته إلى عصبة الأمم ، ووافق عليه مجلس العصبة فى ٢٤ من يوليو – تموز – عام ١٩٢٢ فشل الانتداب البريطانى إقليم شرقى الأردن . ولما كان صك الانتداب ينص على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود طبقاً لتصريح بالفور ، أرسلت الحكومة البريطانية فى ١٦ من سبتمبر – أيلول – عام ١٩٢٢ مذكرة رسمية إلى عصبة الأمم ، باستثناء إقليم شرقى الأردن من هذا الوعد . وحددت الحكومة البريطانية تحديداً دقيقاً حدود هذا الإقليم ، فجعلته يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط ممتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادى عربة والبحر الميت ونهر الأردن حتى المنطقة التى يلتقى بها هذا النهر بنهر اليرموك ، فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية . وقد استجابت عصبة الأمم لتلك المذكرة .

انظر بخصوص نشأة شرقى الأردن كلاً من :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ص٣-١٦ .

أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ص٢١٥-٢٣١ .

أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ص٩٣-٩٤ .

خير الدين الزركلى : ما رأيت وماسمعت ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص٢٥ .

Alec S. Kirkbride (Sir); A. Crackle of Torns, London, 1956, p. 20.

وكان إنشاء إمارة شرقى الأردن تفتيتاً جديداً للوطن الواحد ؛ إذ لم يكن إنشاؤها نتيجة حركة شعبية أو وعى قومى . وكان هذا الكيان السياسى الجديد أضعف الأقاليم العربية اقتصادياً وكانت عاصمته عمان قرية صغيرة ، ومما هو جدير بالذكر أن المقيم البريطانى لم يجد فيها داراً واحدة تصلح لسكناه مؤقتاً . وأمام هذه الخيمة ألقى سير هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين وشرقى الأردن خطبة سياسية ، عند أول زيارة رسمية ، قام بها لعمان فى ١٨ من أبريل – نيسان – عام ١٩٢١ .

وهكذا عملت بريطانيا على تفرقة شعوب الأمة العربية فى الشرق العربى الآسيوى، وإلهاء هذه الشعوب عن مقاومة الاستعمار الأوروبى خلافاً لما وعدت به فى مباحثات الحسين ابن على فى سنتى ١٩١٥-١٩١٦، مقابل إعلان الثورة العربية على الدولة العثمانية . وفى خلال سنة واحدة فصلت بريطانيا شرقى الأردن عن فلسطين ، وفصلت شرقى الأردن وفلسطين عن سوريا ، وفرقت بين سوريا والعراق ، واعترفت بعبد العزيز آل سعود سلطاناً مستقلاً على نجد ، وبيحيى إماماً مستقلاً على اليمن .. فلا غرو إذا نهجت فرنسا نهجها فى تفتيت سوريا ولبنان كما سبق أن ذكرنا . أما مصر وأقاليم شمالى إفريقية .. فقد أبقى الاستعمار على التفتيت السياسى ، الذى كان قائماً بينها قبل الحرب العالمية الأولى تحت الاستعمار البريطانى والإيطالى والفرنسى والإسبانى . وظهرت الأحقاد والمطامع الشخصية بين معظم الملوك والرؤساء العرب منذ ذلك الوقت؛ مما عرقل مسيرة الاستقلال والوحدة العربية . فكانت الصراعات من أبرز سمات تاريخ الحقب السياسية التى مرت بالعالم العربى فى تاريخه الحديث والمعاصر .

رابعاً : أبعاد الزحف الاستعماري على الوطن العربي طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون

ظلت الولايات العربية زهاء فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون ، من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين ، بمنأى عن الزحف الأوروبى الاستعمارى عليها مابقيت الدولة العثمانية قوية مهيبة الجانب . فلما دخلت الدولة فى دور الاضمحلال ، ووضح للدول الأوروبية أن القوات العثمانية المسلحة لاتستطيع الصمود بنجاح للهجوم الاستعمارى .. بدأ العالم العربى يتعرض للغزو الأوروبى المسيحى الاستعمارى ، كما تعرضت لهذا الغزو أقاليم أخرى إسلامية وغير إسلامية ، خارج عن نطاق الدولة العثمانية فى إفريقية وآسيا والإقيانوسية وغيرها . وكانت فرنسا من أسبق الدول الأوروبية فى الزحف والسيطرة على الأقاليم العربية ؛ فنجحت فى احتلال نيابة الجزائر عام ١٨٣٠ ، وإن كانت قد احتلت من قبل مصر وجنوبى بلاد الشام سنة ١٧٩٨ .. إلا أن الاستعمار الفرنسى العسكرى لمصر لم يطل أمده أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر [(١)] ، بينما استطال الاحتلال الفرنسى للجزائر زهاء مائة وإحدى وثلاثين سنة .

---

(١) سبق أن احتلت فرنسا أيضاً بيروت فى أغسطس - آب - عام ١٨٦٠، ورابطت الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال دى بوفور دوتبول Général de Beauftort d'Hautpoul فى جهات متعددة فى لبنان ، وذلك على أثر الفتنة الدينية التى اندلعت بين الموارنة والدروز، ثم تطورت إلى فتنة عامة بين المسيحيين والمسلمين. وكان بروتوكول باريس الموقف ٥ من أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ قد قرر أن تقوم الدول الخمس الموقعة على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ - عدا سردينيا - بإرسال قوة حربية قوامها ١٢ ألف رجل إلى الشام، وحددت مدة وجود القوات الأوروبية فيها بستة أشهر . ولما كانت فرنسا تعطف على الموارنة وتلقبهم «فرنسيو لبنان» Les Français du Liban ، فقد وافقت على أن ترسل فوراً نصف هذه القوة ، وأن تتقدم إلى أماكن الاضطرابات دون إبطاء ، وأن ترسل الدول الأخرى فيما بعد - إذا تطلب الموقف ذلك - نصف القوة على أن يتم الاتفاق عليها وقتئذ . وحدث أن ماطلت فرنسا فى الجلاء عن لبنان بعد انقضاء الفترة المحدودة . وخشيت بريطانيا أن يكون مرد تسويف فرنسا إلى ازدياد التفاهم بين الروسيا وفرنسا بخصوص المسألة الشرقية ، فتتغاضى الروسيا عن الاحتلال الفرنسى للبنان فى مقابل تدخل الروسيا فى بلغاريا . وأمام الضغط البريطانى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن لبنان فى ٥ من يونيو - حزيران - عام ١٨٦١، بعد احتلال استمر تسعة أشهر .

انظر كلاً من :

Hanotaux Gabriel; Histoire de La Nation Française., t. VIII. Histoire Militaire et Navale. 2ème volume. Du Directoire à la Guerre de 1914, par le Maréchal Franchet d'Esperey, Paris, 1937, pp. 383-384.

Poujoulat Baptism; La Vérité sur la Styrie et l'Expédition Francaise. Paris, 1861,pp. 16-21.=

ولاشك أن من أهم العوامل التى شجعت فرنسا على احتلال الجزائر ، أن الدولة العثمانية كانت قد فقدت أسطولها قبل ذلك بأقل من ثلاث سنوات فى معركة نڤارين البحرية (٢٠ من أكتوبر – تشرين أول – ١٨٢٧) . ولما كان اقتطاع فرنسا للجزائر بصفة الأخيرة إقليماً إسلامياً عربياً من أقاليم الدولة العثمانية سابقة خطيرة، قد تحتذيها دولة استعمارية أخرى تجاه الوطن العربى .. لم تستلم الدولة العثمانية لانتزاع الجزائر منها . وحاولت بالطرق الدبلوماسية أولاً استردادها ، وبذلت مساع مكثفة لدى بريطانيا والنمسا والروسيا ولدى فرنسا أيضاً تؤكد حقها فى بقاء هذا الإقليم فى رحاب الدولة ؛ تأسيساً على أن السيادة العثمانية عليه معترف بها من المجموعة الدولية وأن الجزائريين هم رعايا السلطان . ولم تجد الدولة العثمانية تأييداً من بريطانيا فى موقفها بسبب التغيير الأساسى ، الذى حدث فى السياسة الدولية فى أوروبا فى ذلك الوقت . فقد وقع انقلاب يوليو (تموز) – أغسطس (آب) عام ١٨٣٠ فى فرنسا ، وأطاح بملكية شارل العاشر ملك فرنسا (١٨٢٤–١٨٣٠) ، وهروبه إلى إنجلترا فى ١٦ من أغسطس – آب – فى السنة ذاته، وانتخاب لوى فيليب ملكاً على فرنسا ونظرت الدول الأوروبية الكبرى إلى هذا الانقلاب على أنه نقض للتسوية الأوروبية العامة ، التى تمت سنة ١٨١٥ عقب إسقاط حكم نابليون الأول وإعادة الحقوق إلى ذويها كما زعم المتحالفون [١] ، ثم التقارب الذى حدث بين الملكيات ذات الحكم المطلق وهى الروسيا وبروسيا ، والنمسا ، بعضها من بعض ضد خطر الانقلابات وبقيت بريطانيا وحيدة .. فاعترفت بالنظام الجديد فى فرنسا . ولما أكثرت الدولة العثمانية من اتصالاتها الدبلوماسية المكثفة مع بريطانيا التماساً لتأييدها فى موقفها من احتلال فرنسا

Hansard's Parliamentary Debates:=
Vol. 159, pp. 1648, 1652-1654.
Vol. 160, pp. 617-618, 627, 641, 696-697, 1816.
Vol. 161, pp. 1540-1541, 2154.
Miller W.; op. cit., pp. 300-303.

محمد كرد على : خطط الشام ، ج٣ ، ص ص٨٢–٩٢.

(١) كان منشأ قضية بلجيكا قيام حركة وطنية قوية ، تبتغى الاستقلال عن هولندا ، ومساعيها الدائبة للحصول على السلاح من مصادر أوروبية شتى . ولم تلبث أن نشبت الثورة فى بروكسل فى ٥ من أغسطس – آب – عام ١٨٣٠، وتبعتها بقية المقاطعات وأحرزت قوات بلجيكا انتصارات متلاحقة وأعلنت لجنة الدفاع الوطنى أن بلجيكا تعتبر نفسها مستقلة منذ ٤ من أكتوبر – تشرين أول – عام ١٨٣٠ ، ووقع صراع سياسى متشعب بين الدول الأوروبية حول الاعتراف باستقلال بلجيكا .

أما مسألة البرتغال فكان مردها إلى تصارع أخوين على عرشها ، أحدهما من المحافظين والآخر من الأحرار ، وهما : دون بدرو Don Pedro الذى تنازل عن العرش لابنته ماريا ، دون مجويل Don Miguel ، واقترن هذا التصارع بنزاع دستورى وتدخل بريطانيا وفرنسا فى شئون البرتغال للاستئثار بالنفوذ فيها . وأصبحت بريطانيا وفرنسا فى صراع سياسى ، انتهى بحل وسط هو جلوس ماريا على العرش بوصاية دون مجويل .

للجزائر، أجابت الحكومة البريطانية أنها لاتستطع مفاتحة الحكومة الفرنسية فى القضية الجزائرية دون تسوية مسألتى بلجيكا والبرتغال [١] ، والواقع أن بريطانيا كانت فى شغل شاغل بالانقلاب النيابى الذى وقع فيها فى ذلك الوقت . وكانت النمسا منصرفة إلى إخماد الثورة التى اندلعت عام ١٨٣٠ فى شبه جزيرة إيطاليا[٢] ، وكانت الروسيا وبروسيا مشغولتين بالثورة التى اشتعلت فى بولندا فى أواخر السنة ذاتها .

(١) مرجع سبق ذكره .

(٢) قامت الثورة فى الولايات البابوية وفى الدوقيات الشمالية ؛ حيث أقامت جمعية الكاربونارى مركزها العام .

الحرب الباردة بين الدولة العثمانية وفرنسا لاسترداد الجزائر

لما أخفقت الدولة العثمانية فى اتصالاتها الدبلوماسية مع الدول الأوروبية ، حاولت التظاهر برغبتها فى استخدام القوة لاسترداد الجزائر من فرنسا . وكان مما شجعها على التلويح بالإلتجاء إلى الحرب أن فرنسا لم تكن قد وطدت نفوذها فى الجزء الشرقى من الجزائر ، وفى الأقاليم الداخلية مثل قسنطينة ، وأن الدولة كانت قد فرغت من تسوية مشكلاتها مع محمد على والى مصر فى سنة ١٨٣٢ ، عقب حرب الشام الأولى بعقد صلح كوتاهية (٨ من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٣٣) . ولكن فرنسا كانت تعلم تماماً أنه ليس فى مقدور الأسطول العثمانى أو الجيش العثمانى خوض معارك ضد قواتها المسلحة . وفى هذه الحرب الباردة بين الدولتين نجحت الدولة العثمانية فى إنهاء حكم أسرة القرمانلى فى طرابلس عام ١٨٣٥ ، وإعادة هذه النيابة إلى الحكم العثمانى المباشر . واستغلت الدولة هذا الوضع الجديد فى نيابة طرابلس فتظاهرت ، فى عملية جس نبض لفرنسا ، بعزمها على إرسال قوات برية من الأناضول إلى طرابلس تزحف فى الداخل عبر الأراضى التونسية إلى الجزائر ؛ للاشتراك فى الدفاع عن قسنطينة ، التى كان يدافع عنها الحاج أحمد باى قسنطينة .

وبات معروفاً للجميع أن الدولة لاتستطيع إرسال أسطولها إلى ساحل الجزائر لضرب مراكز الفرنسيين ، أو إنزال قوات برية فى الجزائر للتوغل فى الداخل . وإمعاناً من الدولة فى الحرب الباردة ، طلبت الدولة من باى تونس تسهيل مرور القوات العثمانية البرية عبر أراضيها من طرابلس إلى الجزائر . كما أراد الباب العالى منح رتبة الباشوية لأحمد باى قسنطينة لتوطيد مركزه تجاه الفرنسيين وليزداد أهل الجزائر التفافاً حوله .. فتلقى الباب العالى مذكرة من الحكومة الفرنسية ، جاء فيها أن منح الحاج أحمد هذا اللقب سيؤدى إلى عواقب وخيمة ، وطلبت أن يكف الباب العالى فوراً عن تدخله فى موضوع قسنطينة ، وكان الجيش الفرنسى قد رد الحاج أحمد مدحوراً عن أسوار هذه المدينة فى أواخر شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٨٣٦ ، كما أبلغت فرنسا الحكومة العثمانية أن باريس لن تغض الطرف عن تعيين والى معاد لها فى تونس ، وإذا أرسلت الحكومة العثمانية قوات عسكرية إلى باى قسنطينة ، فإن فرنسا تعتبر نفسها فى حالة حرب مع الدولة العثمانية .

وعلى الرغم من هذه التهديدات الفرنسية المتلاحقة ، دخلت الدولة فى تجربة جديدة ومحدودة ، فأرسلت بعض وحدات من أسطولها بقيادة فوزى باشا إلى ميناء طرابلس فى أواخر شهر يوليو – تموز – عام ١٨٣٧ ، ثم يواصل زيارته إلى ميناء تونس ؛ وردت الحكومة الفرنسية

بتوجيه أسطولها فى سبتمبر - أيلول - إلى ميناء تونس ؛ بحجة حماية مصالحها فى حوض البحر المتوسط ، وكان من المقرر أن يجرى فوزى باشا اتصالات مع مصطفى باشا باى تونس . ولكن تهرب الأخير من مقابلة مندوبيه ، وخشى السلطان محمود الثانى أن يتحرش الأسطول الفرنسى بالأسطول العثمانى ، على الرغم من أن الأسطول العثمانى ظل رابضاً فى مياه طرابلس وتجنب الاقتراب من المياه التونسية ؛ ولذلك لم تطل مدة مكث الأسطول العثمانى فى مياه طرابلس ، فزار مالطة ثم أقلع فى سبتمبر - أيلول - عام ١٨٣٧ إلى إستانبول ، وظل الأسطول الفرنسى يقتفى أثره حتى مضيق الدردنيل .

ولم يكف أحمد باى قسنطينة طوال هذه الأحداث عن مطالبة الباب العالى بإرسال نجدات عسكرية ؛ ليستمر فى الدافع عن المدينة أمام القوات الفرنسية ،التى كانت تتدفق على أسوارها . ولكنه لم يظفر من إستانبول إلا بخطابات تشجيع وتقدير لموقفه ،وقنعت الدولة بإبداء تمنياتها الطيبة له فى التوفيق فى دفاعه ؛ لأنها كانت أعجز من إرسال تعزيزات عسكرية له ، وقنعت بهذه الحرب الباردة . أما أحمد باى قسنطينة.. فقد ضرب أروع الأمثال فى البطولة والفدائية والولاء للدولة العثمانية ، وكان يحارب كممثل للحكومة العثمانية قوات فرنسية جرارة تفوق قواته عدداً وعدة . ويعد فى نظر بعض المؤرخين المعاصرين أنه أكبر وأبرز الشخصيات المغربية التى ظهرت فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر [١]. وفى إحدى المرات أجاب عن اقتراح القائد العام الفرنسى فى الجزائر ، بأن يعترف به حاكماً للجزائر وأن يدفع جزية سنوية ، بأنه يحكم البلاد باسم السلطان العثمانى فقط . وفى ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٨٣٧ سقطت قسنطينة فى أيدى جحافل الفرنسيين ، وانسحب أحمد باى إلى جبال الأوراس فى الجنوب [٢] .

وبعد الاحتلال الفرنسى للجزائر الذى بدأ فى عام ١٨٣٠ ، توقف الزحف الأوروبى

---

(١) دكتور عبدالجليل التميمى فى تعليقه على بحث دكتور أرجمند كوران ، الذى قدمه إلى المؤتمر التاريخى الخامس ، الذى عقد فى أنقره فى الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل - نيسان - ١٩٥٦ ، وكان عنوان هذا البحث «أحمد باى قسنطينة المدافع عن الجزائر» . وقد نشر الدكتور التميمى هذا البحث معرباً فى نهاية رسالة دكتور كوران ص ص٧٨-٨٥ .

وانظر أيضاً :

دكتور عبدالجليل التميمى : الحاج أحمد باى قسنطينة بتاريخ ولاية الجزائر الشرقية من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٧، رسالة أجيزت لدرجة دكتوراة الدولة فى التاريخ الحديث .

(٢) استقينا المادة العلمية لموضوع محاولات الدولة العثمانية لاسترداد الجزائر من الرسالة التى حصل بها الأستاذ أرجمند كوران على درجة الدكتوراة فى التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة إستانبول عام ١٩٥٣ . وقد اعتمد فيها على محفوظات الصدارة العظمى ووزارة الخارجية فى إستانبول . وهو يشغل حالياً منصب عميد كلية العلوم الاجتماعية والإدارية بجامعة حجتبة فى أنقرة ، وقد ترجمها إلى العربية دكتور عبدالجليل التميمى ، وسبق أن أشرنا إليها فى مواطن سابقة فى حواشى هذه الدراسة .

الاستعمارى على الولايات العربية مدة ناهزت الخمسين عاماً ؛ بسبب اشتداد حدة التنافس بين الدول الأوروبية على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتوزيعها أسلاباً فيما بينها ، وما صحبت هذا التنافس من حروب ومؤتمرات ومعاهدات ، ازدحم بها تاريخ الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وانتهجت هذه الدول سياسة التعويض Compensation Policy وسياسة المصالحة Conciliation Policy على حساب الدولة العثمانية فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، وبسطت فرنسا حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ . وكان قد سبق فرض الحماية والاحتلال على هذين البلدين العربيين الإسلاميين انتهاج سياسة التغلغل السلمى Pacific Penetration ، وكان من مظاهر هذه السياسة التدخل فى الشئون المالية لحكومتى تونس والقاهرة ، وتقديم قروض أوروبية ضخمة ومتعاقبة لها بحيث عجزتها عن سداد القروض وفوائدها ، ثم تدخلت الدولتان سياسياً ، وأعقب هذا التدخل الغزو العسكرى لكل من تونس ومصر فى سنتين متعاقبتين .

ولما طلبت الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ من الحكومة المصرية استرداد السودان [١] اشتركت بقوات رمزية ، واتخذت من هذا الاشتراك الحربى الرمزى فى حملة السودان ذريعة لإقامة حكم ثنائى Condominium بريطانى مصرى فى السودان عام ١٨٩٩ ، وكان هذا الحكم الثنائى فى لحمته وسداه فصلاً فعلياً بين شطرى الوادى واستئثاراً من بريطانيا بالانفراد فى حكم السودان[٢] ، وما لبثت أن عصفت بالمظهر الشكلى لهذا الحكم الثنائى .. ثم احتلت بريطانيا طرابلس وبرقة فى عام ١٩١١ . وفى مطلع الحرب العالمية الأولى، احتلت القوات البريطانية العراق ؛ إذ أبحرت أول فرقة بريطانية من بمباى فى اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩١٤ بقيادة الجنرال دلمان Delmain W.S. ، وأطلق على هذه الفرقة التى هى قسم من جيش الهند رمز D ، وهو أول حرف من اسم هذا القائد .

وفى يوم ٢٣ وصلت إلى البحرين ، وفى اليوم الثانى من نوفمبر – تشرين ثان –

(١) عن الأسباب التى جعلت الحكومة البريطانية تطلب من الحكومة المصرية استرداد دنقلة أولاً ثم بقية السودان ، انظر :

دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٨٢٠–١٨٩٩) . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ، ص ص٤٧٣–٥١٨ .

(٢) انظر تحليلاً علمياً لاتفاق الحكم الثنائى المنعقد فى ١٩ من شهر يناير – كانون ثان – عام ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا فى المرجع السابق ، ص ص٥٧٤–٥٩٣ .

وانظر النص الرسمى لهذا الاتفاق ، الذى أطلق عليه لفظ «الوفاق» فى مجموعة الوثائق الرسمية التى نشرتها رياسة مجلس الوزراء المصرى تحت عنوان :

السودان من ١٣ فبراير – شباط – سنة ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير – شباط – سنة ١٩٥٣ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ ص ص٥–٩ .

وصلت إلى بندر بوشهر – الميناء البحرى الرئيسى لفارس على الساحل الشرقى من الخليج – وفى اليوم الثالث منه صارت أمام شط العرب . وفى ساعة متأخرة من اليوم السادس أطلقت مدافع الباخرة أودين Odin قنابلها على حصن الفاو الواقع على ضفاف شط العرب ثم تلاها نزول جماعة من الجيش بقيادة الضابط روشر Rocher .. فكانت أول قدم إنجليزية تهبط أرض العراق غازية معادية ، طامعة فى بسط السيطرة البريطانية العسكرية والسياسية والاقتصادية على هذا الإقليم العربى من أقاليم الدولة العثمانية [١] ، ثم دخلت القوات البريطانية بغداد فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس – آذار – عام ١٩١٧ وتقدمت شمالاً وغرباً واحتلت الموصل، وأتمت احتلال العراق كله ، بعد أن تكبدت فى العمليات الحربية خسائر فادحة فى الأنفس والأموال ، تقدر بمائة ألف بين قتيل ومفقود وجريح ومائتى مليون من الجنيهات الإسترلينية[٢]، ونجحت بريطانيا فى استقطاب الشريف الحسين بن على أمير مكة المكرمة.. فانضم ضد الدولة العثمانية ، وكان هذا الشريف تلفه غفلة الصالحين ، فانساق وراء بريطانيا معتمداً على وعودها. وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى بسقوط الدولة العثمانية حتى تقاسمت الدول الأوروبية ماتبقى من أقاليم عربية – عدا اليمن والحجاز ونجد – وبعد أن كانت أقاليم العربية تشكل كتلة عربية بصورة غير رسمية فى نطاق الدولة العثمانية .. أصبحت أقاليم تحت الانتداب ، أو تحت الاحتلال ، أو تحت الحماية ، وغدت هذه الأقاليم العربية تواكب السياسة الأوروبية فى خدمة مصالحها العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وتحكم بقرارات تصدر من عواصم أوروبا ، مثل : لندن ، وباريس ، وروما.

---

(١) دكتور محمد بديع الشريف : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة (بالاشتراك مع زميليه) ، مرجع سبق ذكره ، ٢٦٩-٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

خامساً : الدولة تضفى الهدوء والاستقرار على الولايات العربية

أضفت الدولة العثمانية على ولاياتها العربية نوعاً من الهدوء والاستقرار السياسى . كانت بلاد العرق والشام فى حالة إعياء ، وتعانيان كثيراً من الفوضى والاضطراب والتخريب من آثار غزوات المغول المدمرة ، والتى نجحت مصر فى صدها عندما أوقعت بالمغول هزيمة حاسمة فى معركة عين جالوت ، شتتت شملهم ، وأنقذت أقاليم الشرق والمغرب العربى من شرورهم .

أخلد السكان فى الولايات العربية إلى السلبية والخضوع للعثمانيين .. فقد كان العثمانيون مسلمين مثلهم ، وكانوا يعتنقون المذهب السنى مثلهم ، ويحرصون على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويحافظون على الشعائر الدينية مثل الاحتفال برؤية هلال رمضان واحترام صيامه وغير ذلك ، وتنظيم قافلة الحج وحراستها وهى فى طريقها إلى الحجاز ، وما إلى ذلك من أعمال استهوت أفئدة جماهير ، كانت تعيش فى مجتمعات دينية إسلامية متزمتة .

وكان الحكم العثمانى حكماً غير مباشر ، ولم تضيق السلطات العثمانية الخناق على الجماهير ، بل تركتهم لشيوخ طوائفهم التى ينتمون إليها ، ولم تتدخل السلطات العثمانية - كما ذكرنا - إلا فى نطاق ضيق ومحدود للغاية ، لم يتجاوز مجالات معينة هى توفير الأمن وجمع الضرائب والإشرف على القضاء . وتركت للجماهير شئون التعليم والصحة والمواصلات وغير ذلك من المرافق ، التى تعتبر فى الوقت الحاضر من صميم واجبات الحكومات . وعلى سبيل المثال ظلت معاهد التعليم ومراكز الثقافة العليا ، الدينية والعربية - سواء فى العراق أو الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو شمالى إفريقية - تمارس نشاطها على النحو ، الذى كان سائداً قبل دخول الولايات العربية تحت السيادة العثمانية . وكان كبار العلماء - إلى جانب نشاطهم العلمى المتعدد الجوانب - يمارسون زعامة شعبية على الجماهير ، لم تحاول السلطات العثمانية أن تنال منها ، بل كانت توقرها بل وتخشاها وتعمل على الإفادة منها عند وقوع انتفاضة شعبية أو أزمة طارئة .

ومجمل القول إن السلطات العثمانية تركت الجماهير العربية تحيا على النحو ، الذى ألفته من قبل دون تغيير جوهرى يمس حياتهم . ولذلك يرى فريق من المؤرخين والباحثين أن الحكم العثمانى فى مصر والشام كان امتداداً لحكم دولة المماليك ، أما فى العراق.. فقد اقترن الحكم العثمانى بالهدوء والاستقرار وهدوء الصراع المذهبى بين الشيعة والسنيين ، فيما عدا

الحروب التى كانت تنشب بين الدولة العثمانية وفارس ، ولكن لم تتعرض الجماهير العراقية لمذابح أو عمليات تخريبية . وفى الحجاز أبقى العثمانيون على حكم الأشراف الذى ينتسبون إلى الدوحة النبوية الكريمة ، وأبقوا على الامتيازات الخاصة بأهل الحجاز مثل الإعفاء من التجنيد والجزية . وكانت الدولة تحرص حرصاً شديداً على إرسال حصيلة الأوقاف والاعتمادات المالية المرصودة على الأشراف وفقراء الأماكن المقدسة وإصلاح الحرمين الشريفين ، كما كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين الأشراف .

أما فى اليمن.. فلم يكن الحكم العثمانى مستقراً لفترات طويلة بسبب اختلاف المذهب الدينى ، فقد كان أهل اليمن شديدى التمسك بأن يكون حكامهم من أتباع مذهب الإمامية الزيدية ، وانتهى الأمر باتفاق بتعيين حاكم منهم يعترف بالسيادة العثمانية على اليمن وما تستتبعه هذه السيادة من التزامات . وفى منطقة الخليج العربى كان الحكم العثمانى واهناً شاحباً.. تركت الدولة سكان المناطق التى امتد إليها الحكم العثمانى يزاولون نشاطهم التقليدى دون تدخل منها ، وكان فيهم السنيون وفيهم الشيعة . أما فى النيابات الثلاث فى شمالى إفريقية فكانت السيادة العثمانية عليها سيادة إسمية . وكان الدايات والبايات والولاة [١] يرسلون الجزية إلى الباب العالى أحياناً ويمنعونها أحياناً أخرى ، ولكن الجهاد الدينى البحرى الإسلامى الذى مارسه سكان شمالى إفريقية مع حكامهم ضد القوى المسيحية الأوروبية كان يشدهم شداً إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ، وأن سلطانها هو خليفة المسلمين .

ومع ذلك تعرضت بعض الولايات العربية لهزات سياسية وسط الهدوء ، الذى كانت تعيش فى ظلاله الوارفة ؛ إذ كان يجتاح الولايات العربية من وقت إلى آخر نوعان من الاضطرابات .

أولاً : انتفاضات شعبية . ومن الخطأ وصفها ثورات . وكان يقوم بها سكان مدينة أو حى من أحيائها ضد الحكام المحليين عندما يتجاوزون المدى فى ظلمهم للمحكومين ، ولكن لم تكن هذه الانتفاضات موجهة ضد السلطان العثمانى لأن الولاء له أمر مسلم به ، لاتتطرق الثورة عليه إلى أذهان مجتمعات دينية إسلامية . وكان القائمون بهذه الانتفاضات يتهددون حاكميهم ، برفع الأمر إلى السلطان فى إستانبول .

ثانياً : حركات سياسية عسكرية يقوم بها أفراد طموحون ذوو عصبيات فى الولايات العربية . ولم تكن هذه الحركات تبغى الانفصال عن الدولة ، ولكن كان القائمون بها يبغون الانفراد بحكم الولاية أو بقسم منها داخل نطاق الدولة العثمانية ، مع الاعتراف بالسيادة

---

(١) الدايات جمع داى ، لقب يطلق على حاكم الجزائر . البايات جمع باى ، لقب يطلق على حاكم تونس . وكان حكام طرابلس وبرقة يطلق عليهم ولاة .

العثمانية ، ومايتبعها من سك العملة باسم السلطان العثمانى الحاكم والدعاء له على منابر مساجد فى صلاة الجمعة والعيدين ، ومع ذلك لم تظفر قيادات هذه الحركات باستجابة من الجماهير ولم تتعاون معها ، بل لم يحدث لقاء فكرى بينها وبين زعماء هذه الحركات . ومن الأمثلة على هذا النوع : حركة على بك الكبير فى مصر ، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين .

سادساً : الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعى إلى ولاياتها العربية

إن هذا الموضوع ذو حساسية لأهل الشيعة ، ولذلك فإننا نمسه بحذر وبقدر؛ احتراماً منا لمشاعرهم (١) . من المعروف أن المذهب الرسمى للدولة العثمانية ، كان المذهب السنى واعتبرت نفسها حامية لهذا المذهب . وتأسيساً على هذه الحقيقة .. فإنها منعت انتشار المذهب الشيعى إلى ولاياتها العربية فى آسيا وإفريقية ، ويشذ العراق عن هذه القاعدة العامة ؛ لأن الدولة العثمانية لما فتحت هذا الإقليم العربى.. وجدت أن الدولة الصفوية فى فارس كانت قد سبقتها إلى نشر المذهب الشيعى فى أرجائه ؛ حيث لجأ الشاه إسماعيل الصفوى إلى أساليب العنف بل والإرهاب فى نشر المذهب الشيعى، وقام بقتل أئمة السنة ، على الرغم من أن المذهب الشيعى كانت له جذور عميقة فى قطاعات مهمة وكبيرة فى المجتمع العراقى ؛ نظراً لوجود العتبات المقدسة فى النجف وكربلاء وسامراء وغيرها من الأماكن التى توجد فيها مقابر أئمة الشيعة ؛ بحيث أصبح أهل الشيعة وأهل السنة قوتين متوازيتين تقريباً من حيث تعدادهم . وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فاحترمت مشاعر أهل الشيعة واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة ويسرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان وغيرها على النحو الذى بسطناه من قبل . وقد وجدت الدولة العثمانية أقليات شيعية فى أجزاء من بعض الولايات العربية ، فأبقت عليها مثل طائفة العلويين والدروز فى لبنان . وكان أهل اليمن يعتنقون مذهباً شيعياً هو الإمامية الزيدية ، ووصلت إلى إتفاق بينهم يجمع بين الاعتراف بمذهبهم ومقتضيات السيادة العثمانية ، على أنها أسدت خدمة جليلة بحصر المذهب الشيعى فى فارس ؛ بحيث لم تسمح بتسربه إلى الأقاليم العربية التى دخلت تحت السيادة العثمانية . ولاتزال إيران إلى اليوم هى المعقل الأول للشيعة فى العالم الإسلامى .

* * *

---

(١) لاينطبق هذا الموضوع على عنوان الفصل الحالى وهو «خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة» لأن أهل الشيعة مسلمون . وإذا كانت الدولة نجحت فى منع انتشار المذهب الشيعى إلى ولاياتها العربية بصورة عامة ، فقد جاءت هذه السياسة – فيما جاءت به – فى مصلحة أهل السنة وأضرت بأهل الشيعة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نبرز هذه الحقيقة وهى أن أتباع المذهبين مسلمون . وكانت الدقة فى الصياغة اللفظية لعنوان هذا الموضوع تقتضى أن يكون «خدمات الدولة لأهل السنة» ولكن لما كان هذا الموضوع مقصوراً على هذه الناحية فقد أدرجناه تحت العنوان العام وأرجأناه إلى نهاية الفصل مع التمهيد له بهذه الحاشية الضرورية .

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٣)

سابعاً : الدولة تمنع اليهود من استيطان سيناء

لما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ ، أصدر فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء . وواضح من صدور هذا الفرمان أن اليهود كانوا يبغون الهجرة إلى هذا الإقليم المصرى واستيطانه ، على أساس أنه يضم الوادى المقدس طوى ، الذى كلم الله سبحانه وتعالى فيه موسى عليه السلام تكليماً . ومن ثم أصدر السلطان سليم الأول الفرمان ، الذى سد الطريق فى وجوه اليهود . ولما تولى ابنه سليمان المشرع عرش الدولة عام ١٥٢٠ أصدر فرماناً لاحقاً أكد فيه ماجاء فى الفرمان السابق[١] ؛ مما يدل على أن الخطر اليهودى كان لايزال مائلاً من حيث رغبتهم فى استيطان سيناء أو بمعنى آخر استعمارهم لها ؛ الأمر الذى كان يقلق الدولة العثمانية .

واستطال حكم سليمان زهاء ستة وأربعين عاماً (١٥٢٠-١٥٦٦) ، ولم يجرؤ اليهود على تنفيذ ماكانوا يبيتون . فلما جاز إلى ربه جاء بعده ابنه السلطان سليم الثانى السكير ، وكان منحرفاً خلقيّاً (١٥٦٦-١٥٧٤)، ومنذ حكمه بدأت النذر الأولى لاضمحلال الدولة ، وخلفه سلاطين على شاكلته وكان أولهم مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) .

وتنفس اليهود الصعداء وأدركوا أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم روادهم طويلاً ، فنزحوا فى هجرات متقطعة ، وعلى فترات متقاربة إلى سيناء لاستيطانها ، وكانت خطتهم تقوم فى المراحل الأولى على تركيز إقامتهم فى مدينة الطور. وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً ؛ فهذه المدينة – وهى تقع على الساحل الشرقى لخليج السويس – لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية . وكانت تقصده سفن قادمة من ينبع وجدة وسواكن والعقبة والقلزم والسويس . كما كانت المدينة ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة والفرما[٢] . وبذلك كان يسهل على

---

(١) دكتور عبداللطيف إبراهيم : من وثائق التاريخ العربى . بحث منشور فى مجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم . العدد الثانى عام ١٩٧١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة : الطور .

ومما يذكر أن مدينة الطور جعلت عاصمة لمحافظة جنوبى سيناء بعد تحريرها من الاحتلال الاسرائيلى . وكانت مدينة سدر عاصمة مؤقتة لها ، ثم انتقلت إلى مدينة الطور، اعتباراً من يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٩٧٩ .

اليهود إيجاد اتصالات خارجية ، فلايصبحون فى عزلة عن العالم ، بل تستطيع السفن أن ترسو فى ميناء الطور تحمل أفواجاً من اليهود الجدد قد يقدمون من بلاد مجاورة .

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودى تطلق عليه وثائق ذلك العصر إبراهام اليهودى ، استوطن الطور مع أولاده وسائر أفراد أسرته . وكان من المحتمل أن تمر سنوات ذات عدد ، دون أن تدرى السلطات العثمانية سواء فى القاهرة أو فى إستانبول عن هذه التحركات اليهودية المريبة شيئاً ، لولا أن اليهود لما استقر بهم المقام فى سيناء تعرضوا بالأذى لرهبان دير سانت كاترين ؛ مما حمل الأخيرين على إرسال شكاوى مكتوبة تارة ، أو الذهاب إلى القاهرة والمثول أمام ديوان الباشا فى قلعة الجبل تارة ثانية ، أو التحدث إلى المسئولين فى مقابلات خاصة يشتكون من إيذاء اليهود لهم تارة ثالثة .

وكانت شكايات الرهبان تقوم على الأسانيد الآتية :

أولاً : إن دير سانت كاترين هو مكان مقدس ، يجب ألا يتعرض رهبان منقطعون فيه للعبادة إلى الإيذاء من اليهود أو من غيرهم . ومن الأمور الجديرة بالتسجيل هنا أن الدولة العثمانية كانت تهتم برعاية أهل الذمة ، كما أن طلب رهبان دير سانت كاترين كان يتماشى مع منطوق الآية القرآنية الكريمة «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون» (١) .

ثانياً : ليس لليهود حق فى أن يسكنوا مدينة الطور على الإطلاق .

ثالثاً : إن رهبان دير سانت كاترين يحتفظون فيه بفرمان شريف وأمر خنكارى (٢) ، يؤكدان منع اليهود من استيطان سيناء ومن الإقامة فى الطور ومن التعرض للدير ، ومن إيذاء رهبانه.

رابعاً : إن اليهود ينزحون إلى منطقة سيناء بما فيها مدينة الطور فى جماعات كبيرة بقصد إيقاع الفتن .

خامساً : إن اليهود أصبحوا يتوطنون مدينة الطور بنسائهم وأولادهم ، ويحصل منهم غاية الضرر.

سادساً : دأب اليهود على مخالفة الشرع والتقاليد والعادات القديمة المتبعة ، ومنها إذا كانت لهم حاجة ضرورية .. فيتوجه منهم شخص أو شخصان لقضاء هذه الحاجة والعودة فوراً.

---

(١) سورة المائدة ، الجزء الأخير من الآية رقم ٨٢ .

(٢) أمر خنكارى أى أمر سلطانى . ولفظة خنكارى مشتقة من خنكار ، وهو لقب من ألقاب سلاطين الدولة العثمانية .

وقد اهتمت السلطات العثمانية فى القاهرة ، على أثر تلقيها شكايات رهبان دير سانت كاترين ، اهتماماً زائداً بمنع هجرة اليهود إلى سيناء ومنع استيطانهم بها ، وصدرت فى هذا الصدد ثلاثة فرمانات ديوانية (١) ، وكان صدورها كلها إبان حكم السلطان مراد الثالث : أصدر حسن باشا الخادم الوالى العثمانى فى مصر (٢) فرمانين متلاحقين فى خلال سنتين ، يحمل أولهما رقم ١٤٩ ، وتاريخه أوائل جمادى الأول عام ٩٨٩ (أوائل شهر يونيو - حزيران - ١٥٨١) ويحمل ثانيهما الرقم ١٥١ ، ومؤرخ فى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر عام ٩٩١ (الثالث والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٥٨٣) ، أما الفرمان الثالث فقد أصدره سنان باشا (الثانى) الوالى العثمانى فى مصر (٣) فى اليوم العشرين من شهر ذى الحجة ٩٩٣ (الثالث عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٨٥) ويحمل رقم ١٦٠ .

وتتفق هذه الفرمانات الثلاثة فى أنها موجهة إلى «فخر الناب ، ومجرى الحق بالصواب، نايب الشرع بالطور(٤) ، والأقران الشادية (٥) ، والدزدارية (٦) ، والحكام ، وأصحاب الإدراك ، وولاة الأمور بالطور عامة» ، وتضمن كل فرمان من هذه الفرمانات الثلاثة موضوع الشكوى التى تقدم بها رهبان دير سانت كاترين . وصدرت فيها أوامر السلطات العثمانية بالقاهرة مشددة بإخراج إبراهام اليهودى وزوجته وأولاده ، وسائر اليهود من سيناء ، ومنعهم فى قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة الطور والإقامة فيها أو السكنى فيها . ونبهت الفرمانات الثلاثة على أرباب الوظائف الذين ورد ذكرهم والذين وجهت إليهم هذه الفرمانات بضرورة تنفيذ الأوامر تنفيذاً فورياً «وألا يتأخروا يوماً واحداً» ، كما نبهت عليهم بالوقوف على الأمر الشريف السلطانى السابق صدوره للرهبان فى هذا الصدد «واعتماد مضمونه والعمل به وعدم العدول عنه» ، وفى نهاية كل فرمان جاءت هذه العبارة «امتثلوا

---

(١) الفرمانات الديوانية هى التى تصدر عن ديوان الباشا العثمانى ، الذى يحكم الولاية ، ويكون نائباً عن السلطان فى حكمها ويرأس حكومتها . وفى الحالة التى نتكلم عنها يقصد بالفرمان الديوانى الفرمان الذى يصدر عن ديوان الباشا فى قلعة الجبل بالقاهرة . أما الفرمانات السلطانية فيعدها الصدر الأعظم بعد عرضها على الديوان الإمبراطورى (الهمايونى) ، ثم يعرضها على السلطان فإذا وافق عليها وضع الصدر الأعظم عليها خاتم السلطان ، والفرمانات السلطانية منها ماهو خاص بولاية معينة ؛ ومنها ماهو عام يطبق فى جميع ولايات الدولة .

(٢) تولى حكم مصر من جمادى الأولى ٩٨٨ حتى ربيع آخر ٩٩١ (يونيو - حزيران - عام ١٥٨٠ حتى أبريل - نيسان - عام ١٥٨٣) .

(٣) تولى حكم مصر من شوال ٩٩٣ حتى جمادى الآخرة ٩٩٥ (سبتمبر - أيلول - عام ١٥٨٥حتى مايو - آيار - عام ١٥٨٧) .

(٤) نايب الشرع أى نائب الشريعة المطبق أحكامها . وهو القاضى .

(٥) الشادية مصطلح تاريخى ، مفرده شاد ، بمعنى مفتش فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين.

(٦) الدزدارية مصطلح تاريخى ، مفرده ، دزدار ، وهو أحد العسكريين الذين يرأسون قوة عسكرية فى إحدى القلاع .

بالأوامر العالية وقابلوها بالسمع والطاعة» .

وكان كل فرمان يحمل الخاتم الخاص باسم الوالى العثمانى الذى أصدره .

ويدل صدور هذه الفرمانات الثلاثة ومحتوياتها على عدة حقائق ، نذكر من بينها :

أولاً : حرص الدولة العثمانية حرصاً بالغاً على منع اليهود من استيطان شبه جزيرة سيناء بما فيها مدينة الطور ، وتخوفها من تجمعاتهم فيها .

ثانياً : إن أطماع اليهود فى سيناء كانت أطماعاً قديمة . وإن أرض مصر لم تكن فى يوم من الأيام خارجة عن نطاق التفكير اليهودى ، وإن تفكيرهم اتجه فى زمن مبكر إلى سيناء وهى متاخمة لفلسطين . ووقفت الدولة العثمانية فى وجه أطماع اليهود فى سيناء ، منذ بداية الحكم العثمانى ، ولم تحد عن سياستها طوال هذا الحكم ، سواء الحكم المباشر أو غير المباشر تحت حكم محمد على وخلفائه إلى الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ .

ثالثاً : رغبة الدولة العثمانية فى إشعار اليهود بقوتها ويقظتها لأغراضهم من استيطانهم سيناء .

رابعاً : العلاقات الطيبة والوطيدة بين السلطات العثمانية ورهبان دير سانت كاترين ، عندما لقى الأخيرون موافقة فورية لطلباتهم .

خامساً : إن استيطان اليهود سيناء كان يقلق رهبان الدير . وكانت السلطات العثمانية حريصة على توفير أسباب الراحة لهم وتأمينهم على أرواحهم وأملاكهم وأوقافهم (١) .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وتحولت السيادة العثمانية إلى سيادة اسمية واهية إلى أبعد الحدود ، وأصبحت الكلمة العليا فى الحكومة المصرية لسلطات الاحتلال .. عاودت اليهود أطماعهم فى سيناء ، بعد أن رفض السلطان عبدالحميد الثانى فتح أبواب الهجرة أمامهم إلى فلسطين . وكان تيودور هرتزل قد أطلق على سيناء اسماً معبراً هو فلسطين المصرية ؛ ليتخذ منها فى قابل الأيام نقطة وثوب إلى فلسطين الآسيوية أو فلسطين بمعناها المتعارف عليه . ورأى هرتزل أن يبدأ أنصاره الصهيونيون استطيان منطقة العريش أى فى شمالى سيناء بدلاً من جنوبيها ؛ أى على عكس مافعل اليهود عام ١٥٨١ ، عندما حاولوا استيطان منطقة الطور ودير سانت كاترين . ولذلك دخل هرتزل فى مفاوضات سنة ١٨٩٨ مع بعض أعضاء الوزارة البريطانية ؛ خاصة جوزيف تشمبرلين Joseph Chamberlain وزير المستعمرات ، ولورد لانزدون Lansdowne وزير الخارجية من أجل توطين اليهود فى سيناء على أساس إقامة دولة يهودية فيها ، تتمتع بالحكم العثمانى فى نطاق الإمبراطورية . ووافق الوزيران(٢) على الاقتراح من حيث المبدأ نظراً للمكاسب التى تعود على

(١) دكتور عبداللطيف إبراهيم ، مرجع سبق ذكره .

(٢) كان هذان الوزيران عضوين فى وزارة لورد سالزبورى الثالثة ، التى تكونت فى عام ١٨٩٥ وشغلا المنصبين نفسيهما فى الوزارة التالية ، وهى وزارة بالفور التى تشكلت فى عام ١٩٠٢ .

بريطانيا . وكان من بين هذه المكاسب ضمان حماية الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعزل مصر عن الولايات العربية فى غربى آسيا ، وإضعاف الدولة العثمانية ، ورد عملى على التقارب الذى حدث بين برلين وإستانبول ، وإقامة دولة فى وسط العالم العربى تسير فى ركاب الاستعمار البريطانى(١).

وبعد مفاوضات مضنية وضافية ، تكونت فى سنة ١٩٠٢ لجنة قوامها ثمانية أعضاء تقول دائرة المعارف اليهودية إنهم يمثلون الحكومة المصرية (٢) ، ولكن ليس من بين أسماء أعضائها مصرى واحد ، بل كانوا جميعاً أجانب بحيث يصعب تحديد الأسماء اليهودية والأسماء الإنجليزية من غير اليهود . وكانت أهداف اللجنة دراسة المشروع على الطبيعة ، وإنشاء إدارة يهودية فى العريش ، وتكوين مجالس بلدية يهودية فى أنحاء سيناء لاستغلال الأراضى وتنظيم توطين اليهود وغير ذلك من مسائل . وغادرت اللجنة القاهرة فى أول سنة ١٩٠٣ وعادت فى آخر مارس - آذار - وانتهت رأياً إلى أن سيناء تصلح لاستيطان اليهود ، وأوصت بأن تكون العريش هى المرحلة الأولى لتنفيذ المشروع على أسس علمية وتخطيط مسبق ، يوضع بعناية باستقدام خبراء زراعة ومهندسين ومن إليهم من الفنيين لتمهيد الطرق ومد الخطوط الحديدة وإنشاء الموانىء وتقسيم الأراضى واستصلاحها وزرع السكان اليهود فيها . واشترطت اللجنة شرطين : ألا تكون الدولة المقترحة تحت حكم مصر وإنما تحت حكم بريطانيا ، وأن يسمح لها بجلب ماء نهر النيل إلى سيناء .

ويعلق الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد على هذا الحادث بقوله إن حكومة مصر ، بلغ بها التساهل إلى حد السماح لبعثة صهيونية أن ترتاد شبه جزيرة سيناء ، وأن تبحث وتنقب فى العريش(٣) . والواقع أنه لم يكن فى استطاعة الوزراء أن يعترضوا على قرارات سلطات الاحتلال ، التى ابتدعت تعبيراً دبلوماسياً مهذباً هو سياسة النصائح البريطانية ؛ بمعنى أن الأوامر البريطانية تأخذ شكل نصائح ، فإذا لم يقبل رئيس الوزراء المصرى أو أحد من الوزراء المصريين تنفيذها كان يعد متنحياً من منصبه (٤) .

وعلى كل حال جاء الرفض من جانب لورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ؛ لأنه

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢ .

(2) The Jewish Encyclopedia. Vol. 12, p. 678.

(٣) دكتور محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص١٢٢ .

(٤) كانت الوزارة القائمة بالحكم فى ذلك الوقت هى وزارة مصطفى فهمى باشا ، المشهور بولائه العميق للاحتلال البريطانى . وقد بقيت وزارته فى الحكم ثلاثة عشر عاماً (نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٥ حتى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٨) ، كانت كلها خضوعاً للإنجليز واستسلاماً لطلباتهم .

رأى أن المشروع يتطلب تحويل مقادير هائلة من مياه النيل إلى سيناء مما يؤثر على كميات المياه اللازمة للزراعة المصرية ، وأن تنفيذ المشروع الصهيونى يزيد من متاعب الإنجليز فى حكم مصر ، وأن الإنجليز يواجهون المشكلات وليس من الحكمة إضافة جديد إليها . يضاف إلى ذلك أن الرأى العام فى مصر كان يعارض المشروع معارضة شديدة ، كما اعترض السلطان عبدالحميد الثانى على هذا المشروع . وأثار الباب العالى آراء فقهية تقول إن الفرمانات الصادرة من السلطان إلى ولاة مصر من أسرة محمد على لاتخول لهم الحق فى المرافقة على توطين جماعات من السكان أغراب عن البلاد ، ومنحهم الحكم الذاتى فى المنطقة التى ينزحون إليها ويقيمون فيها . وقد أرسلت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة مؤرخة فى اليوم التاسع عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٠٣ إلى هرتزل ، قررت فيها أنه يتعذر عليها أن تمضى فى بحث مشروع توطين اليهود فى سيناء ، ثم أردفت هذه المذكرة بمذكرة أخرى مؤرخة فى اليوم السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٣ ، قالت فيها إنها قررت بصفة نهائية ترك مشروع سيناء ووضعه على الرف[1] .

(1) Stein Leonard, The Balfour Declaration. London, 1961, p. 26 & f. no. 93.

ثامناً : الدولة تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين

الدولة العثمانية تعاصر مولد ونشأة الحركة الصهيونية :

تطلع اليهود -على مر العصور التاريخية- إلى فلسطين كإقليم ، يجمع شتاتهم وينشئون فيه دولة ، متذرعين بادعاءات دينية وتاريخية ليست هذه الدراسة موطناً لعرضها . وكانت أصواتهم تعلو حيناً وتخفت حيناً آخر تبعاً للملابسات التى أحاطت بهم ، وتبعاً لظروف الدولة التى كانت تمارس سيادة فعلية على فلسطين . ولكن لوحظ أن أصواتهم ازدادت ارتفاعاً بل ضجيجاً ، وعلى فترات متقاربة منذ الثمانينيات فى القرن التاسع عشر . وتنادوا إلى تهجير اليهود المشتتين فى أنحاء العالم إلى فلسطين ، وإنقاذهم من الاضطهاد الذى يتعرضون له فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وطالبوا بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وأطلقوا على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة ؛ تأكيداً لإصرارهم على إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين .

وشقت هذه الحركة طريقها بما توفر لها من قيادات سياسية على أعلى المستويات العلمية ، ووسائل الدعاية والإعلام ، والتنظيم الدقيق ، والتمويل الرتيب ، وما إلى ذلك من عناصر القوة . وأنشأت الحركة منظمات أو أجهزة صهيونية ، تتولى اتخاذ الخطوات التى تؤدى فى النهاية إلى تحقيق هدفها المنشود ، ونجحت فى استقطاب الدول الكبرى إليها عطفاً وتأييداً وبذلاً . ولئن كانت فلسطين تعتبر فى نظر اليهود أرض الميعاد تشدهم دينياً إليها ، فقد أصبحت أيضاً أرض الخلاص ، تجذبهم سياسياً إليها ، يقيمون فيها دولة يتفيأون فى ظلالها الأمن بعيداً عن الاضطهادات الدينية ، وتعيد إليهم مجداً سياسياً تألق فى فترة قصيرة موغلة فى القدم ، ثم ذوى أعصراً وأدهاراً وعاشوا على ذكرياته يبكون ويتباكون .

وكان على الدولة صاحبة السيادة وقتذاك على فلسطين -وهى الدولة العثمانية - أن تخوض دفاعاً عن فلسطين صراعاً سياسياً مريراً ضد القوى الصهيونية والدول الأوروبية المناصرة لها ، ونجح الصهيونيون فى توقيت حركتهم نجاحاً باهراً ، فاختاروا فترة عصيبة من فترات الاضمحلال التى كانت تمر بها الدولة العثمانية . واتضح للمراقبين السياسيين فى ذلك الوقت مدى التدهور الذى أصابها فى مواجهة الزحف الاستعمارى الأوروبى على ممتلكاتها بحيث أصبح سقوطها وشيكاً ، فلم يعد للدولة الوزن السياسى أو الثقل العسكرى الذى كانت تتمتع به على عهد سلاطين الفترة الأولى ، ولذلك فلم يكن فى مقدورها أن تخوض بنجاح صراعاً سياسياً رهيباً ضد الصهيونية والدول الأوروبية ، فعملت فى حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

الدولة ترفض طلب يهود الروسيا الهجرة إلى فلسطين :

تعرض اليهود فى الروسيا لموجة من المذابح وغيرها من صور الاضطهادات ، على أثر اتهامهم بالاشتراك فى تدبير مؤامرة اغتيال إسكندر الثانى قيصر الروسيا سنة ١٨٨١ ، وآثرت أعداد كبيرة منهم الهجرة إلى فلسطين . ويلاحظ أن يهود الروسيا كانوا أكثر يهود العالم ميلاً إلى الهجرة إلى فلسطين بالذات ، وتفضيلها على أى إقليم آخر يستقرون فيه . فبالإضافة إلى الاعتبارات الدينية والتاريخية التى كانت تشدهم فى زعمهم إلى فلسطين – وهى اعتبارات يشترك فيها كافة اليهود – كانوا يعتقدون كيهود شرقيين أن المعيشة فى فلسطين كإقليم فى الشرق أكثر ملاءمة لهم من الحياة فى دول غربى أوروبا أو فى الولايات المتحدة . وكان بطء حركة تحرير يهود الروسيا من الاضطهاد من ناحية ، وتعرضهم فى كل حين وآن لاضطهاد منظم من السلطات الحاكمة الروسية من ناحية ثانية ، قد جعلا يهود الروسيا أشد رغبة فى الهجرة لينشدوا الخلاص من الاضطهاد فى مهجر جديد .

وقد طلبت بعض الشخصيات اليهودية وأعضاء حركة محبى صهيون [1] Lovers of Zion من القنصل العثمانى العام فى ثغر أودسا منح هؤلاء اليهود تصريحات لدخول فلسطين والاستقرار فيها . وتلقى القنصل العثمانى رداً من حكومته فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٨٢ ، علق نسخة منه خارج دار القنصلية ،

---

(١) هى هيئة تكونت فى أودسا باسم Chibbath Zion ، أى محبى صهيون . ومن أودسا انتشرت فروع لها فى معظم المدن الروسية ، وفى دول شرقى أوروبا مثل رومانيا وبلغاريا ، ثم فى غربى وشمالى أوروبا مثل فرنسا وإنجلترا ولتوانيا . واستهدفت هذه الهيئة تشجيع الهجرة إلى فلسطين ، وإنشاء مستعمرات زراعية فيها ، تكون فى الوقت ذاته مراكز للإشعاع الثقافى اليهودى عن طريق تعلم اللغة العبرية وجعلها لغة حية، ونشر التاريخ اليهودى والأدب اليهودى . وكان أعضاء هذه الهيئة يجتمعون برياسة شخصيات متحمسة قوية من بين رجال العلم والزعماء الاشتراكيين والخامات . وكان من بين هذه الشخصيات ليون پنسكر Leon Pinsker وأحد هاعام Achad Ha-am . وقد نجحت جماعة محبى صهيون فى إنشاء المستعمرات الصهيونية الأولى فى فلسطين ، ومهدت الطريق أمام الحركة الصهيونية لتواصل السير فى الاتجاه نفسه. وإذا كانت حركة محبي صهيون قد أفسحت الطريق للحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال الأول ، فلم يكن هناك تعارض بين الحركتين ، لأن أهداف حركة محبى صهيون كانت أهدافاً إقليمية ، تتعلق بالتوطن غير الرسمى فى فلسطين وأهدافاً ثقافية بجعل فلسطين مركزاً ثقافياً لليهود ، وأهدافاً اقتصادية بإنشاء مستعمرات زراعية فى فلسطين . وهذه الأهداف تقترب إلى حد كبير من الأهداف الصهيونية وتعتبر مقدمة لها .

انظر كلاً من :

Stein Leonard, op. cit., p. 13 & 62.

Weizmann Chaim, Trial and Error, London, 1950, p. 28, 38 & 42.

دكتور محمد حافظ غانم : المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولى . القاهرة ، ١٩٦٥ ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ص ص٢٠-٢٢ .

جاء فيه أن الحكومة العثمانية تبلغ جميع اليهود الراغبين فى الهجرة إلى فلسطين أنه من غير المسموح لهم الاستقرار فيها . ولكنهم يستطيعون الانتقال إلى أقاليم أخرى فى الدولة العثمانية بشرط أن يكونوا فى أعداد قليلة ، وبشرط أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية ؛ أى يشترط أن يصبحوا من رعايا الدولة ، أو أن يقبلوا الالتزام بتنفيذ قوانينها واحترام تقاليدها وعاداتها .

كان هذا القرار صدمة أليمة لليهود ، ولكن لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم ، فاتجهت وفود منهم إلى إستانبول فى مايو – آيار – ويونيو – حزيران – عام ١٨٨٢ للتأكد من أن هذا الإعلان هو صورة حقيقية لرد الباب العالى ، وأنه يتماشى مع سياسة الدولة إزاء هجرة اليهود إلى فلسطين ، فإذا كان الأمر كذلك –فإن هذه الوفود تلتمس من الباب العالى أن يأذن لليهود فى الاستقرار فى فلسطين ، نظراً للملابسات التى تحيط بهم فى الروسيا ، وقد انضم وفدان من رومانيا وبلغاريا لهذه الوفود . وبمساعى لويس والاس Lewis Wallace السفير الأمريكى فى إستانبول ، وتدخل بعض الشخصيات اليهودية فى العاصمة استطاعت هذه الوفود مقابلة وزيرى الحربية والداخلية . وقد أكدا لأعضاء هذه الوفود أن الإعلان الذى علقه القنصل العثمانى خارج دار القنصلية فى أودسا صحيح فى مضمونه ، وأنه يتماشى نصاً وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية ، وهى منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وقد تحدث والاس السفير الأمريكى فى اليوم التالى مع سعيد باشا وزير الخارجية فتلقى منه الإجابة ذاتها .

اليهود ينتهجون سياسة التحدى للباب العالى :

وعلى الرغم من الموقف الواضح والمعلن ، الذى اتخذته الحكومة العثمانية بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين .. فإنهم رأوا جرياً على سياستهم أن ينتهجوا سياسة التحدى ، ووضع الباب العالى أمام الأمر الواقع . فأبحر بعض اليهود المتحمسين والمتجمعين فى إستانبول إلى يافا فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو – حزيران – عام ١٨٨٢ ، وإزاء هذا التصرف أبرق الباب العالى فى اليوم ذاته إلى حاكم القدس يأمره بألا يسمح لأى يهودى قادم من الروسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يهبط أرض فلسطين ، كما اتخذ إجراءات المنع ذاتها فى حيفا وبيروت واللاذقية وغيرها من موانىء الساحل الشامى (١) .

وبعد حوالى ستة أشهر ، أرسل الباب العالى مذكرة رسمية فى الحادى والعشرين من شهر يناير – كانون ثان – عام ١٨٨٣ إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية فى إستانبول بنص قرار مجلس الوزراء العثمانى بمنع استيطان اليهود الروس فى فلسطين . وأمام ضغط الدول الأوروبية

---

(١) دكتور محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص٨٢ .

أصدر الباب العالى سنة ١٨٨٤ تعليمات جديدة بالإذن لليهود فى دخول فلسطين ؛ من أجل زيارة الأماكن المقدسة ، بشرط ألا تطول إقامتهم عن ثلاثين يوماً .

مؤتمر كاتوويتز :

عقد أعضاء جماعة محبى صهيون مؤتمر كاتوويتز Kattowitz فى مدينة يسنك فى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٤ حضره أربعة وثلاثون عضواً ورأسه ليون بنسكر ، وكان افتتاح المؤتمر فى العيد المئوى لسير موسى مونتيفيور[1] Sir Moses Montefiore وقرر المؤتمر إنشاء «اتحاد مونتيفيور لترقية الزراعة بين اليهود ؛ خاصة لمعاونة المستعمرات اليهودية فى فلسطين» . وأعلن رئيس المؤتمر أن الأرض الوحيدة التى تصلح لهدف اليهود وتحقيق آمالهم هى فلسطين .. واتفق على مساعدة المستعمرات بالأموال ، وعلى إيفاد مندوبين إلى إستانبول لأخذ تصاريح بالعمل فى المستعمرات اليهودية ، دون أن تقام فى وجه سكانها عقبات من السلطات الحاكمة فى فلسطين ، وانتخب بنسكر رئيساً للاتحاد الجديد ، وأنشىء المركز الرئيسى فى أودسا حيث كان بنسكر رئيساً لجماعة محبى صهيون المحلية أيضاً .

ويلاحظ أن أعضاء المؤتمر لم يطالبوا بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وكانت مناقشاتهم تدور حول تيسير الهجرة إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات فيها والمسائل الثقافية . وهى أهداف كانت تمهد فى نهاية المطاف إلى إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ؛ لذلك يرى زعماء الصهيونية أن مؤتمر كاتروويتز يعتبر من الناحية التاريخية البداية المنظمة للحركة الصهيونية[2] .

الدولة العثمانية تطيل مدة إقامة اليهود فى فلسطين إلى ثلاثة أشهر :

ظلت العواصم الأوروبية المتعاطفة مع اليهود تضغط على الباب العالى ضغطاً لاهوادة فيه للتخفيف من ذلك الشرط الزمنى لإقامة اليهود فى فلسطين ، ورأى الباب العالى فى سنة ١٨٨٧ إطالة المدة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلاً من شهر واحد . ومعنى هذا القرار الجديد أن الحكومة العثمانية كانت لاتزال عند رأيها ، وهو منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، أو على أسوأ الفروض الحد من تدفق اليهود عليها ومنع استقرارهم فيها تحت ذريعة الأغراض الدينية ، ثم اتخذت فى السنة ذاتها قراراً هاماً يعتبر مكملاً للقرار الأول ، وهو تغيير الوضع الإدارى لبيت المقدس .

(١) هو إحدى الشخصيات الإنجليزية ، التى اهتمت اهتماماً بالغاً بتوطين اليهود فى فلسطين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وزار فلسطين سبع مرات فى الفترة من سنة ١٨٢٧ ، إلى سنة ١٨٧٤ . وكان فى هذه السنة فى التسعين من عمره . وقد قدم مبالغ كبيرة متتابعة للنهوض باليهود اجتماعياً واقتصادياً فى فلسطين .

(2) Weizmann Chaim, op. cit., p. 38.

الوضع الإدارى لبيت المقدس قبل السلطان عبدالحميد الثانى :

كان العثمانيون بعد أن فتحوا بلاد الشام عام ١٥١٦ ، جعلوا بيت المقدس صنجقية تتبع باشا دمشق الذى كان يطلق عليه أيضاً باشا الشام . وأظهر العثمانيون فى هذا الوقت المبكر تقديراً خاصاً لأهمية بيت المقدس ، فكان يحكمها أحياناً حاكم بلقب ميرمران أى أمير الأمراء وهو باشا بطوخين . ويتولى حكمها أحياناً أخرى أحد الوزراء وهو باشا بثلاثة أطواخ ، وكانت الدولة تكتفى أحياناً ثالثة بحاكم يلقب متسلم يرسله باشا الشام . وكان عليه أن يرسل مالاً معيناً إلى الباشا فى دمشق ، مما يجمعه من ضريبة الأرض أو «الميرى» ومن الجزية على أهل الذمة ومن العوائد المختلفة . وكانت تتبع صنجقية بيت المقدس ثلاث مدن ، هى : أريحا وتقع إلى الشمال الشرقى ، ثم بيت لحم والخليل وتقعان فى الجنوب . أما مدن نابلس ، وعجلون ، وغزة ، فكانت كل منها صنجقية قائمة بذاتها تتبع باشا دمشق ، وكانت يافا تتبع غزة – ميناء بيت المقدس[١] .

عبدالحميد يدخل تعديلاً على الوضع الإدارى لبيت المقدس :

رأى السلطان عبدالحميد الثانى أن أبصار اليهود فى أنحاء العالم قد ازدادت شخوصاً نحو بيت المقدس بفعل الحركة الصهيونية ، التى كانت تغذى هذا التركيز على بيت المقدس ، بل إن لفظة صهيونية مشتقة من «صهيون» ، وهو جبل يقع على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة ، والحركة الصهيونية بمعناها العام هى عودة اليهود المشتتين فى أنحاء العالم إلى بيت المقدس وتأسيس دولة يهودية فى فلسطين .. فقرر عبدالحميد إدخال تغيير جذرى على الوضع الإدارى لبيت المقدس فجعلها سنة ١٨٨٧ «متصرفية» خاصة تتبع الباب العالى رأساً[٢] .

---

(١) دكتور أحمد عزت عبدالكريم : *التقسيم الإدارى لسورية فى العهد العثمانى . الباشويات العثمانية والعصبيات الإقطاعية* ، بحث منشور فى حوليات كلية الآداب ، جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس حالياً) ، المجلد الأول ، سنة ١٩٥٠ ، ص١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٨٣ .

ويقرر دكتور محمد محمود الديب أن متصرفية القدس كانت فى سنوات الحكم العثمانى الأخيرة كانت متصرفية مستقلة ، وتضم أربعة أقضية هى : بئر السبع ، والخليل ، وغزة ، بالإضافة إلى بيت لحم وأريحا اللتين كانتا ناحيتين ، أما شمال فلسطين فكان يتبع لواءين :

(أ) لواء نابلس . ومن أعماله طولكرم ، وجنين ، وطوباس ، وبيسان .

(ب) لواء عكا . ومن أعماله صفد ، وطبرية ، والناصرية ، وحيفا .

انظر : دكتور محمد محمود الديب : *حدود فلسطين . دراسة تحليلية لوثائق الانتداب* . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص٨ .

وقد استقى دكتور الديب هذه المادة العلمية من :

وزارة الدفاع الوطنى – الجيش اللبنانى ، الأركان العامة ، الشعبة الخاصة ، مؤسسة الدراسات=

والمتصرفية في التنظيم الإدارى العثمانى عبارة عن منطقة تلى الولاية ، تريد أن تقرر لها الدولة وضعاً متميزاً أو كياناً خاصاً فتجعلها قسماً إدارياً قائماً بذاته تابعاً للباب العالى رأساً، أسوة بالولاية، وإن كانت المتصرفية أقل مساحة من الولاية . ومن الأمثلة على المتصرفيات التى من هذا النوع المتميز : متصرفية لبنان ، ومتصرفية القدس الشريف . ومتصرفية دير الزور على نهر الفرات(١) . وكان هدف السلطان عبدالحميد الثانى من رفع الوضع الإدارى لبيت المقدس من صنجقية إلى متصرفية مستقلة وجعلها تابعة رأساً للباب العالى في إستانبول، هو إحكام مراقبة الدوائر العليا فى حكومة إستانبول على الحد من حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

وأصدر السلطان عبدالحميد الثانى فرماناً بتعيين محمد شريف رءوف باشا متصرفاً على بيت المقدس ، وكان حازماً نزيهاً يسارع إلى طرد الحجاج اليهود من فلسطين بمجرد انقضاء الثلاثة شهور المسموح بها لهم ، كما كان يمنع قدر استطاعته بيع الأراضى لليهود . وقد ظل فى منصبه حتى عام ١٨٨٩ ، ثم ضعفت رقابة الدولة على تنفيذ هجرة اليهود بضع سنين، وهال عرب فلسطين تفاقم التسلل اليهودى إلى بلادهم . وأرسل أعيان بيت المقدس فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٩١ شكوى إلى الباب العالى ، يطلبون فيها اتخاذ إجراءات فعالة وفورية لمنع دخول اليهود الأجانب وشرائهم الأراضى . وكانت جماعة بنى موسى(٢) قد أنشأت عام ١٨٩١ مستعمرة ديشوفوت ، كما قامت بنشاط واسع فى الحقل التعليمى ، فأنشأت أول مدرسة عبرية للبنات فى يافا ، ثم مدارس عبرية فى القرى الزراعية . وقد استجاب الباب العالى لهذا النداء ، وجدد القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين فى السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٩١ ، ثم أصدر فى آخر العام التالى (اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٢) قانوناً يحرم بيع

= الفلسطينية ، *القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى* ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ص٤٥-٤٧ . هذا وطبقاً للكادر الإدارى فى الدولة العثمانية ، كانت الولاية يرأسها وال ، والولاية مقسمة إلى ألوية، على كل منها لواء أو متصرف ، واللواء مقسم إلى أقضية وعلى كل منها قائمقام ، والقضاء إلى نواحٍ ، والناحية تنتظم عدداً من القرى .

(١) يلاحظ أن بعض الولايات من ناحية أخرى كانت تتبعها عدة متصرفيات : كولاية حلب التى كانت تتبعها متصرفيات : ألرها ، ومرعش ، ودير الزور فى بعض الأوقات ، ثم أصبح يطلق على بعض المتصرفيات اسم «اللواء» ، ويدير اللواء «متصرف» .

(٢) أنشأ جماعة بنى موسى أحد هاعام . وكان عدد كبير من أعضاء هذه الجماعة من قادة حركة محبى صهيون . وزار آحد هاعام فلسطين مرتين . وقد تمت أول زيارة له فى سنة ١٨٩١ نيابة عن لجنة أوديسا ، ثم زارها مرة أخرى فى سنة ١٨٩٣ . وكان من أشد المتحمسين لشراء أراضٍ عربية فى فلسطين ، وتوطين اليهود فيها ، كما نادى بالتركيز على الأعمال الثقافية . ولم تعش جماعة بنى موسى طويلاً ؛ إذ حلت سنة ١٨٩٦ بسبب تضارب الآراء والنزاع بين شخصياتها .

أراضى الحكومة إلى اليهود بكافة جنسياتهم ، حتى ولو كانوا رعايا عثمانيين (١) .

المستعمرات الصهيونية الأولى :

على الرغم من الحظر الذى فرضه السلطان عبدالحميد الثانى على هجرة اليهود إلى فلسطين ، استطاع عشرون شاباً من يهود الروسيا الوصول إليها عام ١٨٨٢ ، كانوا رواداً فى ميدان التوطين والاستغلال . وكانت أول مستعمرة تدعى «ريشون لوزيون» Richon Le Zion أى الأولى فى صهيون ، ثم تعاقب إنشاء مستعمرات مشابهة بجوار يافا ، ثم قام يهود روسيون آخرون بإقامة مستعمرة «بتاح تكفا» أى باب الأمل فى ذات المنطقة (٢) ، وفى الوقت ذاته أسس يهود من رومانيا مستعمرين زراعيتين إحداهما فى «ريش بتاح» (الحجر الأساسى) بالقرب من صفد ، والأخرى فى سامارين على طريق حيفا ، وقام بعض يهود من بولندا بإنشاء مستعمرة بيسود حمالاه (أساس الصعود) بالقرب من الحولة . وعلى هذا النحو استقر اليهود فى وقت قصير فى أربع مناطق : يهودا ، والسامرة (٣) ، وشمال الجليل وجنوبيه حيث تجمعت فيها أغلب المستعمرات اليهودية ، ولم يكن أمراً سهلاً إنشاء هذه المستعمرات وبقاؤها لأن هؤلاء اليهود وغالبيتهم من دول أوروبية لم يعتادوا الجهد البدنى ، الذى تتطلبه فلاحة الأرض وموالاة العناية بها ، كما كان الجو الحار نسبياً عائقاً لهم ، وكانوا يتعرضون لهجمات العرب من وقت لآخر كإجراء مضاد للنشاط اليهودى .

التمويل المالى الأوروبى للمستعمرات :

كان من المحتمل أن يفشل مشروع المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر ، لأنها -بجانب هذه العوامل المعوقة - كان المشروع فى حاجة ماسة إلى جهات مالية تقوم بتمويله . وقد وجد أولئك اليهود مساعدات مالية من ثرى يهودى فرنسى هو البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥-١٩٣٤) ، الذى ظل يوالى هذه المستعمرات بتقديم منح سخية طيلة خمسين عاماً ، كما أسس مستعمرة تدعى عكرون فى الضفة الغربية لنهر الأردن ، أسكن فيها بعضاً من اليهود الذين تسللوا من جنوبى الروسيا . وقد أظهر هؤلاء اليهود وفاءهم لكرم هذا الثرى فغيروا اسم مستعمرتهم إلى زكرون يعقوب تخليداً لذكرى والد البارون إدموند . وفى الوقت ذاته ، قام تسعة من أعضاء ريشون لوزيون بإنشاء مستعمرة جديدة ،

(١) دكتور محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص٨٤ .

(٢) كان يهود القدس قد أسسوا هذه المستعمرة قبل ذلك بعدة سنوات ، ولكنهم غادروها لظهور الملاريا بها ، ثم عادوا إليها بعد ذلك .

(٣) يهودا مصطلح عبرى معناه الجزء الجنوبى من فلسطين ، وسامرا مصطلح عبرى أيضاً معناه الجزء الشمالى منها . ويرد هذان المصطلحان فى بعض المراجع : يهودية وسامرية .

سميت قطرة Katra أو جدارة Gederah فى يهودا ، وجعلوها ذات اكتفاء ذاتى (١) .

ومضى البارون إدموند دى روتشيلد فى تمويل عمليات التسلل اليهودى إلى فلسطين؛ ابتغاء توطين اليهود فيها ، على الرغم من الحظر الذى أقامه الباب العال يعلى دخول اليهود إلى فلسطين . وفى الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٥ تم إنشاء خمس مستعمرات أخرى ، وكانت مستعمرة حبديرا هى أهم هذه المستعمرات ، وكانت المنطقة التى أنشئت فيها فى السامرة مليئة بالمستنقعات ومات كثيرون من اليهود بسبب الملاريا . وقام المهاجرون بتخفيف المستنقعات وغرسوا فيها عدداً كبيراً من شجر الكافور ، وأصبحت صالحة للزراعة واستغلت الأراضى فى زراعة القمح وأنتجت محاصيل وفيرة منه ، كما زرع عنب النبيذ الفرنسى بإشراف خبراء .

وفى الجليل زرعت البساتين وأشجار توت دودة القز وأقيمت عدة مخابئ كثيرة للنبيذ لتعتيقه فى مستعمرة ريشون لوزيون ، وكان البارون إدموند دى روتشيلد يشترى فى معظم الأحوال النبيذ كله لحسابه ، وأنشأت جماعة من محبى صهيون شركة نبيذ الكرمل سنة ١٨٩٦ ونجحت نجاحاً بعيداً فى تسويقه فى أوروبا وأمريكا وبلاد الشرق . والواقع أن معظم المستعمرات كانت تركز نشاطها الزراعى فى إنتاج الكروم ، ولم تكن المعونات المالية التى كان يقدمها البارون إدموند دى روتشيلد مقصورة على الإسكان ، بل شملت أيضاً بناء المعابد والمدارس والمستشفيات والملاجئ للطاعنين فى السن (٢) .

تفسير قيام المستعمرات الصهيونية الأولى :

وكان مما ألهب قلوب اليهود حماساً لقضيتهم وتصميماً على الهجرة إلى فلسطين نداء بعنوان «التحرر الذاتى Auto-Emancipation ، وجهه سنة ١٨٨٢ ليون بنسكر Leon Pinsker ، وهو طبيب روسى من أودسا صور فيه الإذلال والبؤس واليأس ، الذى تعرض له يهود الروسيا عقب مقتل إسكندر الثانى قيصر الروسيا عام ١٨٨١ ، وقال فى ندائه إن حالة الانحطاط التى تدهور إليها اليهود ، إنما ترجع إلى أن الشعب اليهودى لم يعد شعباً حياً ، بل أصبح اليهود أجانب أينما حلوا ، مشتتين فى كل مكان حتى أنهم غدوا محتقرين . ورأى أن العلاج الصحيح الوحيد هو إنشاء قومية يهودية فى أرضها الخاصة بها . وهذا هو التحرر الذاتى لليهود ، تحررهم كافة بين الأمم بتجميع اليهود فى دولة خاصة بهم ، واشترط – لكى يظلوا فى دولتهم الجديدة أبد الآبدين ؛ حتى لايضطروا إلى الإنتقال من مهجر إلى مهجر – أن تكون الدولة المرتجاة من الاتساع وتعدد الموارد الطبيعية والاقتصادية فيها بحيث تكفى جموع اليهود.

وفى هذه الدولة يتعاون رجال العلم والمال والسياسة على النهوض بها قدماً ، وكان

(١) دكتور حسن صبرى الخولى ، رسالة دكتوراة تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٢٩-٣٠ .

(2) Cohen Israel, A Short History of Zionism, London, 1951, p. 28.

بنسكر مشدوداً بعقله وعاطفته إلى فلسطين كى تكون الدولة القومية المنشودة ، واقترح تكوين شركة يهودية تجمع بين أعضاء مجلس الإدارة وأثرياء اليهود ، تشترى مساحات شاسعة من الأراضى فى فلسطين ، ثم تقسم قطعاً صغيرة وتباع بثمن أغلى من ثمنها الأصلى بقدر قليل تشجيعاً لليهود على شرائها وتقديم تسهيلات لهم ، وتستخدم المبالغ المتحصلة من بيع الأرض مضافاً إليها التبرعات المالية التى يقدمها أثرياء اليهود ، ويتكون من حصيلة هذه وتلك صندوق لإسكان المهاجرين الفقراء .

وبجانب هذه الوسائل العملية .. اتجه التفكير السياسى لدى بنسكر إلى إيجاد نوع من الحصانة السياسية للدولة اليهودية ، المرتجاة عن طريق موافقة الحكومات الأوروبية وغير الأوروبية على إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ، ثم قيام هذه الحكومات بتقديم المساعدات فى شتى صورها وأشكالها إلى الدولة اليهودية فى فلسطين [١]. وكان هذا النداء بما تضمنه من حلول عملية وآراء سياسية خطة عمل لزعماء الصهيونية وحافزاً ليهود العالم على تركيز الهجرة اليهودية إلى فلسطين على الرغم من وقوف السلطان عبدالحميد الثانى فى وجهها، كما أن هذا النداء يفسر قيام المستعمرات الصهيونية الأولى فى فلسطين بما عرف عن اليهود من تعدد الوسائل والحيل والموارد والأنصار والتحايل على القانون لتحقيق أهدافهم .

المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ :

على هذا النحو عاصرت الدولة العثمانية مولد ثم نشأة الحركة الصهيونية . وقد اشتد ساعد هذه الحركة بعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بال بسويسرا الذى تنادى إلى عقده تيودور هرتزل Theodor Herzel الصحفى النمساوى اليهودى .

واستمرت جلسات المؤتمر ثلاثة أيام هى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من شهر أغسطس – آب – عام ١٨٩٧ ، وحضره ما يقرب من مائة وخمسين مندوباً من اليهود جاءوا من مختلف أنحاء العالم. واتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة يطلق عليها برنامج بال ، ويتضمن إنشاء دولة يهودية فى فلسطين تجمع شتات اليهود من أنحاء العالم ، وإنشاء المنظمة الصهيونية العالمية وتقوية الروح القومية اليهودية ، والاهتمام بتدريس ونشر اللغة العبرية بين جميع يهود العالم ، وإنشاء معهد عال للدراسات العبرية فى بيت المقدس أو يافا يهتم بدراسة الأدب العبرى والتاريخ العبرى .

وفى هذا المؤتمر ، وضع شعار العلم الرسمى للدولة اليهودية المرتجاه ونشيد قومى لها، كما تقرر أن يدفع كل يهودى يعتنق مبادئ الحركة الصهيونية مبلغاً زهيداً كل سنة ، حددت قيمته بشكل واحد [٢] . وبعد عقد المؤتمر الصهيونى الأول توالى عقد المؤتمرات الصهيونية

---

(١) دكتور حسن صبرى الخولى ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٢٦-٢٨ .

(٢) الشيكل Shekel عملة يهودية كانت تعادل شلنين وستة بنسات . وتستخدم هذه اللفظة أيضاً للتعبير عن وحدة فى الموازين فى المجتمع اليهودى ، وهى تعادل نصف رطل ، والكلمة مشتقة من اللفظة العبرية «شكال» .

بصفة رتيبة سنوياً أول الأمر ثم مرة كل سنتين . وسرعان ما اتسع نطاق الحركة الصهيونية واشتد ساعدها ، ودخل زعماؤها وأقطابها فى اتصالات مختلفة الصور والأشكال مع الحكومات الأوروبية لمساندتها فى تنفيذ برنامج بال، وهكذا تطورت أطماع اليهود : فبعد أن كانوا يتطلعون إلى الإقامة فى فلسطين والاستقرار تحت الحكم العثمانى .. قفزت أطماعهم إلى الاستيلاء على فلسطين وإقامة دولة عنصرى فيها ، وجاء مؤتمر بال الأول فرفع آخر حجاب عن وجه اليهود(١) .

السلطان عبدالحميد يواجه زعيماً صهيونياً خطيراً :

كان من نتائج المؤتمر الصهيونى الأول أن وجد هرتزل نفسه يتزعم قولاً وعملاً حركة سياسية عنصرية هى الحركة الصهيونية ، وقد نصبه هذا المؤتمر رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية (٢) .Z.W.O . وكان على السلطان عبدالحميد أن يواجه فى خلال الثلاث عشرة سنة التى تبقت له فى الحكم منذ عقد مؤتمر بال الأول ، حتى تم عزله (١٨٩٧-١٩٠٩) المؤامرات الصهيونية والمنظمات الصهيونية لتهويد فلسطين كخطوة أولى لإقامة الدولة اليهودية فيها . ولذلك .. فإن دراسة موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ هذا السلطان ، الذى تصدى لها بكل ما أوتى من عزيمة ودبلوماسية ؛ مما أضاف إلى أعبائه فى الحكم وفى مواجهة الزحف الاستعمارى الأوروبى على ممتلكات الدولة أعباء ثقالاً جديدة فى مواجهة الصهيونية العالمية .

كان هرتزل من أخطر زعماء الصهيونية فى العالم .. تميز تفكيره السياسى بالمرونة والحصافة ، وتعدد الجوانب فضلاً عن حذقه التضليلى والخداع والنفاق . كان إذا سد فى وجهه طريق سلك طريقاً آخر ، وإذا تخلت عنه دولة أوروبية كبرى كان يعلق عليها آمالاً كباراً فى مساعدة الحركة الصهيونية اتجه إلى دولة أخرى من الدول العظمى . وكان يسعى سعياً حثيثاً لحشد أكبر عدد ممكن من الدول لمناصرة حركته أو العطف عليها أو عدم الوقوف منها موقفاً سلبياً ، وفوق هذا كله وضع فى مخططه الاتصال بالسلطان عبدالحميد الثانى . وكان يظهر فى تفكيره السياسى أخلاق اليهودى القح .. فهو يتخذ من المال وسيلة لإغراء السلطان على الإذن فى إنشاء الدولة اليهودية المرتجاة فى فلسطين ، زاعماً له أن الحركة الصهيونية هى دعوة إنسانية سلمية لاتنطوى على أى أخطار تهدد الدولة العثمانية . وأكد له كذباً وزوراً أن الصهيونيين يكنون ولاء للدولة العثمانية ولسلطانها ، وأن المنظمة الصهيونية اعترضت على كل تسلل يهودى ،مهما كان ضئيل الحجم إلى فلسطين دون موافقة السلطة صاحبة السيادة على البلاد وهى الدولة العثمانية . وأكد له أن فوائد جمة ستجنيها الدولة العثمانية ، إذا أذنت لليهود فى إقامة دولة ذات حكم ذاتى فى فلسطين ؛ لأن اليهود عنصر نشيط دءوب على العمل يحترم

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢ .

(٢) تستخدم هذه الحروف الثلاثة من قبيل الاختصار بديلاً لهذه العبارة

Zionist World Organization.

القانون ، له خبرات واسعة وعميقة فى شتى ميادين العلم ومجالات العمل . كما أن أثرياء اليهود على استعداد لسحب رءوس أموالهم من البلاد ، التى يقيمون فيها ونقلها إلى فلسطين لاستخدمها فى استغلال موارد البلاد الاقتصادية . وفى ثنايا الحديث ، عرض على السلطان تقديم معونات مالية ضخمة ،تساعد على تدعيم المركز المالى للحكومة العثمانية ، فى وقت كانت موازنة الدولة تعانى عجزاً يعكس أزمات مالية عنيفة تهدد بانهيار الاقتصاد العثمانى .

اتساع نطاق الحركة الصهيونية :

اتسع نطاق الحركة الصهيونية فى خلال سنة واحدة - وهى الفترة التى انقضت منذ عقد مؤتمر بال الأول إلى اجتماع مؤتمر بال الثانى : أغسطس - آب ١٨٩٧ وأغسطس ١٨٩٨ - وكانت سكرتارية المؤتمر الأول قد نشرت كتيبات باللغات الأوروبية توضح أهداف الحركة الصهيونية ، كما نشرت نسخاً منها باللغات العربية والعبرية والفرنسية لتوزيعها على يهود الشرق . وسرعان ما أسست فى هذه الفترة جمعيات صهيونية جديدة ، بلغ عددها سبعمائة وثمان وثلاثين جمعية فى الدول الأوروبية ، وأسس يهود مصر جمعيتين ويهود أمريكا خمسين جمعية . وكان يهود الروسيا أكثر يهود أوروبا تقبلاً للحركة الصهيونية ، وكان يليهم يهود النمسا ثم يهود رومانيا .. أما فى أمريكا فكانت نيويورك معقلاً للحركة الصهيونية منذ هذا الوقت المبكر؛ إذ تأسست فى هذه المدينة وحدها ست وعشرون جمعية صهيونية ، كما تكونت فى شيكاجو ثمانى جمعيات ، وتوزعت بقية الجمعيات على سائر المدن الأمريكية .

ومن أهم المؤتمرات الصهيونية (١)، المؤتمر الصهيونى الخامس فى مدينة بال، وقد عقد فى الفترة من ٢٦ إلى ٣٠ ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٠١ ، وتم فيه إقرار قانون النظام الأساسى للمنظمة الصهيونية . وبمقتضى هذا القانون أصبح عقد المؤتمرات الصهيونية يتم مرة كل سنتين بدلاً من اجتماعها السنوى ، على أن تستمر اجتماعات اللجان المنبثقة عن المؤتمرات الصهيونية ، كما تقرر جواز إنشاء جمعيات صهيونية فى أى منطقة؛ إذا طلب ذلك خمسة آلاف صهيونى ممن يدفع كل منهم شيكلاً واحداً وهو الاشتراك السنوى .. وقرر هذا المؤتمر تقديم إعانة مالية لدار الكتب القومية اليهودية فى بيت المقدس .

وقد زخرت هذه المكتبة بعديد من المصادر والمراجع والدوريات ، وأصبحت فيما بعد نواة المكتبة العامة للجامعة العبرية فى بيت المقدس والتى شيد لها مبنى خاص عند إنشاء مبانى الجامعة . كما قرر المؤتمر الشروع فى وضع دائرة معارف يهودية وإنشاء مكتب لشئون الإحصاء ، وقرر أيضاً أن تعليم الشعب اليهودى على أسس قومية هو أحد العناصر الرئيسية فى البرنامج الصهيونى . وأهاب المؤتمر بجميع الصهيونيين أن يعمل كل منهم فى دائرته ؛ لتحقيق هذه الغاية .

(١) دكتور حسن صبرى الخولى ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٧٥ .

تجديد فرض القيود على هجرة اليهود إلى فلسطين عام ١٩٠٠ :

وصل إلى علم السلطان عبدالحميد أن أفواجاً من اليهود لاتزال تتعاقب على فلسطين ؛ إذ كان قناصل بعض الدول الأوروبية فى فلسطين يتدخلون لصالح اليهود ، مستغلين قيام نظام الامتيازات الأجنبية ، ولأن اليهود كانوا يصطنعون بعض الوسائل للتحايل على القانون . ورأى السلطان منع هذا التدفق اليهودى على فلسطين ؛ فأصدر فى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٠ ، فرماناً يحدد إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لاتتجاوز ثلاثة شهور . وعلى الرغم من أن السلطان كان قد أصدر فرماناً على غراره سنة ١٨٨٧ ، ثارت ثائرة اليهود على فرمان عام ١٩٠٠ ودفعوا بعض الحكومات الأوروبية وغيرها إلى الاحتجاج عليه لدى السلطان . فأبلغت الحكومة الإيطالية الباب العالى أنها لاتميز بين رعاياها المسيحيين ورعاياها اليهود ، ومن ثم فهى تحتج على صدور هذا الفرمان . وتلاها السفير الأمريكى الذى قدم فى اليوم الثامن عشر والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٩٠١ احتجاجاً مماثلاً باسم حكومته ، وكذلك نهجت الحكومة البريطانية هذا النهج . وكان رد الباب العالى أن فرمان سنة ١٩٠٠ ليس أمراً جديداً فهو تجديد لفرمان سابق مماثل .

ورأى السلطان عبدالحميد كى يخفف من حدة هذه الاحتجاجات ، أن يقابل فى قصره هرتزل زعيم الحركة الصهيونية . وتمت المقابلة فى اليوم السابع عشرمن شهر مايو - آيار - عام ١٩٠١ ، وكان معه اثنان من أقطاب الحركة الصهيونية ثم قابله السلطان مرتين أخريين ، وعرض هرتزل على السلطان مشروعاً صهيونياً خطيراً . ويلاحظ أنه كان يتلاعب بالألفاظ ليخفى حقيقة أغراضه .. اتبع السياسة المرنة فكان يتكلم تارة عن الدولة اليهودية فى فلسطين ، وتارة أخرى عن الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، وتارة ثالثة يتكلم عن الكيان اليهودى فى فلسطين ؛ مما يدل على أنه كان كاذباً مخادعاً منافقاً يتبع الازدواجية فى أسلوب العمل .

مشروع صهيونى يعرضه هرتزل على السلطان :

وصلت المباحثات بين السلطان عبدالحميد الثانى وهرتزل إلى جوهر الموضوع . فعرض الأخير أن يصدر السلطان فرماناً بالسماح لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين والتوطن فيها ومنحهم قسطاً وافراً من الحكم الذاتى ، وأن يدفع اليهود -عند صدور الفرمان- مبلغاً كبيراً من المال قدر بثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقدرته بعض المراجع بمليونى جنيه . ثم يقومون بعد ذلك بدفع جزيرة سنوية للدولة . وكان المشروع الصهيونى يقوم فى خطوطه الأساسية وفق النظام المعمول به فى جزيرة ساموس (١)، وهى جزيرة يونانية من جزر إيجة كان قد أسهم عدد

---

(١) بلغ عدد سكان هذه الجزيرة فى الحرب العالمية الأولى ٤٨,٦٠٠ نسمة .
دكتور حسن صبرى الخولى ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٧٤ .

كبير من سكانها فى الكفاح المسلح ، الذى خاضه اليونانيون من أجل استقلال بلادهم عن الدولة العثمانية فى العشرينيات من القرن التاسع عشر . ولما قررت بريطانيا وفرنسا والروسيا فى سبتمبر – أيلول – عام ١٨٣١ منح اليونان الاستقلال التام ، وأن تمتد حدود المملكة اليونانية من خليج آرتا Arta إلى ڤولا Vola ، ظلت جزيرة ساموس خارجة عن نطاق المملكة اليونانية المستقلة الوليدة . وبناء على تدخل بريطانيا وفرنسا والروسيا أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً فى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر – كانون أول – عام ١٨٣٢ ، قرر فيه منح سكان جزيرة ساموس الحكم الذاتى ، ونص الفرمان على أن يتولى حكمها أمير مسيحى له جيشه الخاص وعلمه الخاص ومجالس الإدارة المحلية ، على أن يدفع هذا الحاكم اليونانى للدولة العثمانية جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف قرش (١) .

كان السلطان عبدالحميد الثانى أدهى من أن يستجيب لهرتزل ، وكان فى خلال مقابلاته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً . وكان يرخى لهرتزل فى حبال الكلام ليجعله يصرح بكل مافى جعبته من آراء ومشروعات ومطالب ، ويتظاهر العاهل العثمانى بمسايرته مما جعل هرتزل يعتقد أنه على وشك النجاح فى مهمته ، ثم يتبين له فى نهاية الأمر أنه فى جهوده مع السلطان عبدالحميد يسير فى طريق مسدود . سئل مرة جمال الدين الأفغانى عن رأيه فى هذا السلطان وكان يجالسه كثيراً ، فقال «إن السلطان عبدالحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصاً فى تسخير جليسه ... ولاعجب إذا رأيناه يذلل مابقاء فى ملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته مقتنعاً بحجته ، سواء فى ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ...» (٢) .

وبعد أن استقبل السلطان هرتزل ثلاث مرات رفض أن يقابله بعد ذلك وأنعم عليه بالنيشان المجيدى ، ويعترف هرتزل بأنه هو الذى التمس من السلطان أن يمنحه وساماً من رتبة رفيعة . وكان هدفه من هذا الالتماس هو خداع الذين يتصلون به ، فقال فى يومياته «إذا رفض السلطان أن يستقبلنى فليعطنى على الأقل دليلاً مرئياً على أنه بعد أن استمع إلى اقتراحى ورفضه ، فإنه لايزال يريد أن يبقى على نوع من العلاقة بيننا : مثلاً وساماً من رتبة عالية يبرهن على هذا ... إنى لم أهتم يوماً بالأوسمة ، ولا أهتم بها الآن . ولكنى أريد شاهداً أمام من

(١) يذكر ثقيل برير أن هرتزل عرض على السلطان تقديم مبلغ كبير من المال ، فى مقابل أن يصدر السلطان فرماناً لشركة أراض يهودية للاستيطان فى فلسطين وتطوير الزراعة فيها تمهيداً لإقامة جمهورية أرستقراطية على غرار جمهورية البندقية السابقة ، انظر :

Nevil Barbour, Nisi Dominus, A Survey of the Palestine Controversey, London, 1946, pp. 45-48.

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، الطبعة الثالثة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص١٢٥ .

أتعامل معهم فى لندن على أننى حزت قبولاً لدى السلطان» [١] .

ومع ذلك فإن للصبر حدوداً . وضاق السلطان عبدالحميد ذرعاً بالضغط المتواصل الذى مارسه هرتزل على الحكومة العثمانية ؛ من أجل فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية . وكان هرتزل قد عهد إلى أحد عملائه واسمه نفلنسكى Newlinsky بأن يعرض على السلطان رشوة بمبلغ مليونى جنيه مقابل الحصول على فلسطين [٢] ، فأراد السلطان أن يحسم الموقف بصفة قطعية .. فأدلى إلى هذا الوسيط بتصريح كان من القوة والصد والخطورة ماجعل هرتزل يدونه فى مذكراته ، وكان مما جاء على لسان السلطان «انصحوا هرتزل بألايتخذ خطوات جدية فى هذا الموضوع . إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض . فهى ليست ملك يمينى ، بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم . وإذا مزقت إمبراطوريتى يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلاثمن ، أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتى .. وهذا أمر لايكون ، إنى لاأستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة» [٣] .

لقد كان فى حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان عبدالحميد لإغراءات الصهيونيين المالية ؛ لأن مثل هذه الاستجابة تتعارض تعارضاً جذرياً مع سياسة الجامعة الإسلامية ، التى تنادى إليها واحتضنها وغدت تشكل ركناً أساسياً فى سياسته الإسلامية واستهدف منها استقطاب العالم الإسلامى؛ للوقوف إلى جانبه فى وجه الزحف الاستعمارى الأوروبى على الدولة .. فإن خضوعه للإغراءات المالية التى يلوح بها الصهيونيون له كان يعد انتحاراً سياسياً لعبد الحميد وتناقضاً صارخاً لسياسة الجامعة الإسلامية .

عقد أول مؤتمر صهيونى فى فلسطين سنة ١٩٠١ :

ومن أخطر المجالات التى امتد إليها النشاط الصهيونى فى عام ١٩٠١ اجتماع أول مؤتمر صهيونى فى فلسطين ، وكان الهدف منه أن يكون صورة أخرى من صور مؤتمر بال . وقد أعد له مناجم أوسسكين Ussikkin Menachem Mendel (١٨٦٣–١٩٤١) ، وهو أحد أقطاب الصهيونيين روسى المولد والنشأة ، وأقام بعض الوقت فى ثغر أودسا ، وكان هذا الثغر مقرّاً لنشاط صهيونى مكثف .

---

(١) دكتور أحمد طربين : فلسطين فى خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧–١٩٢٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ص٥٦–٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٩ .

(٣) صالح مسعود أويصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن . رسالة ماجستير فى التاريخ الحديث تحت إشرافنا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٣١ .

اجتمع المؤتمر فى مستعمرة «زخرون يعقوب» ، واستهدف تنظيم وتوحيد صفوف يهود فلسطين، بعد أن لوحظ أن الانقسام بين أفراد الطائفة اليهودية كان حاداً وعنيفاً . وقد وضع المؤتمر تنظيماً يضم جميع يهود فلسطين ممن بلغ كل واحد منهم الثامنة عشر عاماً ، وأن يدفع كل عضو اشتراكاً سنوياً حدد بفرنك واحد ، وأن يجتمع المؤتمر مرة كل سنة ، وأن يتم اختيار أعضاء المؤتمر بالانتخاب ، فتقوم كل مجموعة من السكان قوامها خمسون يهودياً بانتخاب مندوب عنها يمثلها فى المؤتمر ، وقسمت فلسطين إلى ستة أقسام (١) ، وتقرر تشكيل عدة لجان تنبثق عن المؤتمر وتعمل طوال العام بصفة رتيبة .

الدولة تمنع عقد مؤتمرات صهيونية فى فلسطين :

كان عقد هذا المؤتمر الصهيونى فى فلسطين بمثابة عملية جس نبض ، قام بها الصهيونيون ليتبنوا موقف الدولة العثمانية من فكرة عقد مؤتمرات صهيونية فى فلسطين بدلاً من العواصم الأوروبية . ولاشك أن عقد هذه المؤتمرات داخل فلسطين كان يعد كسباً معنوياً للحركة الصهيونية ، وشداً لليهود قاطبة إلى فلسطين بصفتها أرض الميعاد التى تجذبهم دينياً ، وبصفتها أرض الخلاص التى تستقطبهم سياسياً لإقامة دولة فيها تقيهم شرور الاضطهاد ، وفيها أيضاً قضاء على مايسمى «البديل الإقليمى» Territorial Alternative ؛ أى طالما كانت الدولة العثمانية تضع العراقيل أمام هجرة اليهود إلى فلسطين .. فلا مناص من اختيار إقليم بديل يكون موطناً للدولة اليهودية المرتجاة ، وكان من بين الأقاليم البديلة : سيناء ، أو قبرص ، أو المحمية البريطانية فى شرقى إفريقية ، أو الأرجنتين ، أو إكوادور ، أو بيرو ، أو أستراليا ، أو غينيا الجديدة ، أو جزيرة مدغشقر .

تنبه الباب العالى إلى أنه أمام امتحان سياسى خطير ؛ فالصهيونيون يمدون نشاطهم فى عقد المؤتمرات إلى داخل فلسطين ، وكان عقد مؤتمرهم الأول فيها سنة ١٩٠١ سابقة يدرجون عليها فى السنوات التالية . ولذلك قرر الباب العالى وقف هذا النشاط الصهيونى السياسى الدولى فى فلسطين ، فلم ينعقد المؤتمر بعد ذلك فى فلسطين ولم تجتمع لجانه ، وإن ظل الصهيونيون يواصلون عقد مؤتمراتهم فى عواصم أوروبا .

---

(١) كانت هذه الأقسام الستة على النحو التالى :
(أ) بيت المقدس ، والخليل ، ومتسة ، وعرطوف .
(ب) المستعمرات حول الرملة .
(جـ) يافا ، بتاح تكفاه .
(د) الناصرة ، وطبرية ، والمستعمرات القائمة فى هذه المنطقة .
(هـ) الحضيرة ، وزخرون يعقوب ، وحيفا .
(و) صفد ، ومستعمرات الجليل .

مشروعات صهيونية لغزو فلسطين مالياً وبشرياً :

على الرغم من جهود السلطان عبدالحميد للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، مضت الحركة الصهيونية ، تمارس وضع خططها فى أوروبا لتنفيذها فى أرجاء فلسطين بإنشاء أجهزة ، تتولى عمليات شراء الأراضى العربية وتمويل عمليات الشراء وتوزيع الأراضى على فقراء المهاجرين ابتغاء زيادة كثافة السكان اليهود . ولم تعبأ بقيود السلطان عبدالحميد ؛ إذ كانت تعلم علماً يقينياً بالمشكلات التى تثيرها فى وجهه الدول الأوروبية والشعوب المسيحية الخاضعة للدولة ، وكأن هذه الدول والشعوب كانت على اتفاق وموعد مع أقطاب الحركة الصهيونية لتصعيد الأزمات أمام السلطان ، حتى تستطيع الحركة الصهيونية التسلل بأجهزتها ومشروعاتها إلى فلسطين فى غفلة عن السلطان . وكان من بين الأجهزة الصهيونية التى تسللت لواذاً إلى فلسطين : منظمة الاستعمار اليهودى فى فلسطين ، وقد أنشأها المليونير اليهودى إدموند روتشيلد سنة ١٨٨٢ ، ولكنها لم تعلن رسمياً إلا فى عام ١٩٠٠ ، وكانت تقدم الأموال لليهود الراغبين فى الهجرة إلى فلسطين ، وتشترى لهم الأراضى وتنشىء المستعمرات ، وقد أنشأت اثنتين وأربعين مستعمرة هى أقدم المستعمرات اليهودية فى فلسطين .

وأنشىء فى عام ١٩٠١ الصندوق القومى اليهودى - كيرن كايمت - Keren Hayesod ، ويتكون رأس ماله من التبرعات والإعانات والصدقات ، ووزعت صناديق التبرعات بكثرة ملحوظة فى معابد اليهود وأنديتهم ومدارسهم ومكاتبهم فى جميع أنحاء العالم.

وتأسس سنة ١٩٠٢ بنك أنجلو - فلسطين فى لندن ، وأنشىء أول فرع له فى القدس سنة ١٩٠٣، ثم امتدت فروعه إلى أكثر مدن فلسطين . وعلى الرغم من أنه بنك صهيونى ، لم يكشف عن طابعه الصهيونى مما ساعده على القيام بدور هام لخدمة الصهيونية ، وكان يمد المستعمرات والشركات والمؤسسات الصهيونية بالأموال والقروض ، ويتلاعب باقتصاديات العرب ، وهو اليوم البنك الرئيسى لإسرائيل (١) .

عبدالحميد يرفض إنشاء جامعة عبرية فى فلسطين :

وقف السلطان عبدالحميد الثانى فى وجه مشروع صهيونى سياسى ، أضفت عليه الصهيونية ثوباً ثقافياً هو إنشاء جامعة عبرية فى بيت المقدس ، استهدفت منه استقطاب عدد كبير من الأساتذة اليهود فى جامعات العالم والباحثين اليهود إلى فلسطين لتكون هذه الجامعة دعامة علمية للدولة اليهودية المرتجاة فى فلسطين ، ووسيلة للتسلل الثقافى الصهونى على أعلى المستويات إلى فلسطين .

---

(١) دكتور حسن صبرى الخولى ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ص١٠٢-١٠٤.

كان تيودور هرتزل قد تقدم إلى السلطان عبدالحميد الثانى بمذكرة مؤرخة فى اليوم الثالث من شهر مايو – آيار – عام ١٩٠٢ ، طلب فيها أن يأذن له فى إنشاء جامعة عبرية فى بيت المقدس ، تفتح أبوابها للطلبة العثمانيين ، بدلاً من إيفادهم فى بعثات علمية إلى الجامعات الأوروبية ، وصور للسلطان دافعين شريفين يكمنان وراء هذا المشروع .. كان أحدهما دافعاً سياسياً وكان الآخر دافعاً إسلامياً . أما الدافع الأول فكان حرص هرتزل الصهيونى على عدم تعريض الطلاب العثمانيين فى أوروبا لأخطار الغوايات السياسية ، فيعتنقون آراء ثورية قد يطالبون بتطبيقها فى الدولة بعد عودتهم من أوروبا ، وتكون الدولة أمام أحد أمرين : إما تعريض الطلبة العثمانيين لأخطار هذه الاتجاهات السياسية الثورية وإما أن تحول بينهم وبين مناهل العلم فى أوروبا .

أما الدافع الثانى .. فإن الطلبة العثمانيين قد يبتعدون عن التقاليد الإسلامية ؛ بمعنى أن الحياة الخلقية الماجنة التى تسود مدن أوروبا قد تفتنهم ، ومضى هرتزل يقول فى مذكرته «إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً فى الحياة الجامعية فى جميع أنحاء العالم ، والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان ، كما أن هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين فى جميع الحقول التعليمية . لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية فى إمبراطوريتكم ، ولتكن فى القدس مثلاً، وعندئذ لن يضطر الطلاب العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج ، بل يبقون فى بلادهم ويتلقون فيها أفضل التدريب ، وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها . والجامعة اليهودية تقوم بتقديم أفضل ماتقدمه أحسن الجامعات ومدارس التدريب المهنى ومدارس الزراعة ، ولن تقدم مثل هذه المؤسسة إلا ماهو الأفضل ، وبذلك تقوم بدورها فى خدمة العلم والطلاب والبلاد» (١) .

والواقع أن هرتزل لم يكن يهدف إلى فتح آفاق جديدة للتعليم الجامعى والمهنى أمام الشبان العثمانيين ، بقدر ماكان يطمع فى استدراج السلطان عبدالحميد ؛ كى يأذن فى إنشاء جامعة عبرية تضفى عليها الدولة العثمانية صبغة شرعية ، وتغذيها الحركة الصهيونية بأساتذة صهيونيين وأموال صهيونية كى تغدو مركز إشعاع سياسى ثقافى صهيونى فى فلسطين . ولهذا رفض السلطان عبدالحميد المشروع الصهيونى جملة وتفصيلاً ؛ لأنه رأى فيه تمكيناً للحركة الصهيونية فى فلسطين .

وإذا كان هرتزل قد توفى فى اليوم الثالث من شهر يوليو – تموز – عام ١٩٠٤ ، فقد ظلت فكرة إنشاء جامعة عبرية فى بيت المقدس حية فى نفوس أقطاب الحركة الصهيونية من بعده .. فاستطاعوا أن يضعوا الحجر الأساسى لمبانى هذه الجامعة ، قبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى حين وفدت إلى فلسطين البعثة الصهيونية فى شهر أبريل – نيسان – عام

(١) انظر نص هذه المذكرة فى : وزارة الإرشاد القومى ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ملف وثائق فلسطين . جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ج١ ، وثيقة رقم ٥١ ، ص١٣٩ .

١٩١٨ لاتخاذ الخطوات العملية لإنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ؛ تنفيذاً لتصريح آرثر جيمس بالفور Arthur James Balfour بتشجيع الهجرة اليهودية ، وإنشاء الجامعة العبرية ، وإقامة مستعمرات جديدة لتوطين المهجرين اليهود وغير ذلك من خطوات تهويد فلسطين . وكان بالفور قد أدلى ، بصفته وزيراً للخارجية بتصريح خطير فى مجلس العموم البريطانى بجلسة ١٩ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٧ جاء فيه «ترجو حكومة حضرة صاحب الجلالة أن يكون إنشا وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين من بين نتائج الحرب الحالية (الحرب العالمية الأولى)» .

"His Majesty's Government hope that the establishment in Palestine of National Home for the Jewish people will result from the present War (1).

وقد نجح حاييم ويزمان Haim Weizman رئيس البعثة ا لصهيونية فى الحصول على موافقة بالفور على أن تضع البعثة حجر الأساس لمبانى الجامعة العبرية ، على أرض شاسعة تقع على جبل سكوبس Mount Scopus ، واشترط وزير الخارجية أن تحصل البعثة على تصريح من السلطات العسكرية البريطانية فى فلسطين بإقامة مبانى الجامعة فى هذا المكان . ولما فاتح رئيس البعثة فى شهر مايو - آيار - عام ١٩١٨ الجنرال اللنبى Allenby القائد العام للقوات البريطانية فى هذا الموضوع .. لم يجده متحمساً لهذا الموضوع ، أو بتعبير أدق لهذا التوقيت على أساس أن الحرب كانت تجتاز فترة حرجة بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . وكان الألمان قد أحرزوا انتصارات عسكرية واقتربوا من باريس ، ولم تنجح محاولات حاييم ويزمان فى زحزحة القائد العام عن موقفه المعارض.. إلا بعد أن أبرق الأخير إلى لندن يطلب تعلمياتها، . وأبرقت له بالموافقة .

وأقيم فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٨ الاحتفال بإرساء الحجر الأساسى فى مبانى الجامعة . وقد وضعت أساساتها من اثنى عشر حجراً بعدد أسباط بنى إسرائيل ، وافتتحت الجامعة رسمياً فى أول أبريل - نيسان - عام ١٩٢٥ فى حفل عالمى رأسه بالفور صاحب التصريح المشهور ، وأنشئت بها تباعاً مدرسة الدراسات الشرقية ومعهد للميكروبات ومعهد للكيمياء الحيوية وأصبح المعهدان الأخيران نواة لكلية العلوم . وأنشىء أيضاً معهد للدراسات اليهودية .. وحول مستشفى روتشيلد الكبير فى بيت المقدس إلى معهد للبحوث الطبية ، ثم تحول إلى كلية للطب ، وكانت هناك محطة للتجارب الزراعية يعمل فيها عدد من الاخصائيين.. فجعلت هذه المحطة التجريبية كلية للزراعة ، وتتابع إنشاء ا لكليات والمعاهد وسائر مرافق الجامعة ، وتدفقت عليها التبرعات المالية والعينية مثل الأجهزة العلمية والمراجع والكتب والدوريات .

(1) Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 99, 1917, House of Commons, Session of Nov. 19th, 1917, p. 383.

وتطاولت آمال اليهود واعتقدوا أن الجامعة العبرية ستصبح عما قليل نداً لأكبر جامعات الغرب مثل كمبردج ولندن وباريس وهارڤارد فى أمريكا ، وقد ظفرت هذه الجامعة بالحرية التامة والتأييد المطلق من سلطات الانتداب البريطانى فى فلسطين ، بعد أن توارت الدولة العثمانية التى حالت بكل ثقلها دون تنفيذ هذا المشروع الصهيونى ، الذى يشد من أزر الحركة الصهيونية فى الوقت الذى حاربت سلطات الانتداب إنشاء جامعة عربية فى القدس ، وكان إنشاؤها حلماً رواد الشعب العربى فى فلسطين ، وناقشته المؤتمرات العربية التى عقدت تباعاً فى القدس وحيفا ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينية . وكان من أهمها المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى القدس ليلة الإسراء (٢٦ من رجب عام ١٣٥٠ أى فى شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٣١) ، ورأى ضرورة إنشاء جامعة عربية يطلق عليها جامعة المسجد الأقصى تقف بجانب الجامعة العبرية . وتكونت لجنة لجمع التبرعات ، كان من بين أعضائها وزير مصرى سابق هو الأستاذ محمد على علوبة باشا، ويذكر أن اللجنة جاست خلال البلاد العربية ثم استقلت الباخرة من ميناء البصرة إلى كراتشى فى الهند .. فبلغتها فى اليوم الخامس عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٩٣٣ ، وتألفت لجان من مسلمى الهند تتولى جمع التبرعات وإرسالها إلى بنك فى فلسطين ، ووعد الأمراء والوزراء بتأييد هذا العمل ودعيت اللجنة إلى مآدب رسمية أقامها نائب الملك فى الهند وحكام الأقاليم الإنجليز . ثم لاحظت اللجنة بعد إقامة استطالت خمسة أشهر فى فصل الصيف شديد القيظ أنه لم يتم شيء من الوعود التى بذلت . ويقول الأستاذ علوبة إن مسئولاً كبيراً أطلعه على خطاب رسمى سرى من الحكومة البريطانية إلى المسئولين فى الهند، جاء فيه إن رجال الوفد الفلسطينى من علية القوم ، وأنه يجب حسن استقبالهم والحفاوة بهم ، ولكن جمع المال لمشروعهم يتعارض وسياسة الحكومة البريطانية فى فلسطين [١]. ومعنى ذلك أن إنشاء جامعة عربية فى فلسطين - وهو مشروع حضارى إنسانى- كانت بريطانيا تراه معارضاً لسياسة انتدابها على فلسطين ، وكان موقفها هذا مظهراً آخر لتحيزها الصارخ لليهود ورغبتها فى وأد أو خنق أى مشروع يدعم الكيان العربى والقومية العربية فى فلسطين .

* * *

تلك هى معالم سريعة لبعض مظاهر النشاط الصهيونى الذى واجهته الدولة العثمانية، وكان هذا النشاط يتجه أساساً إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية إليها واستيطانها والسيطرة على اقتصادياتها بشراء أراض زراعية وإقامة مشروعات صناعية وتجارية ، فضلاً عما يتطلبه هذا الاستعمار الاستيطانى اليهودى من إنشاء أجهزة للحكم المحلى والإدارة المحلية ، وقيام مؤسسات تعليمية وثقافية ؛ حتى يتم صبغ فلسطين بصبغة يهودية وصولاً إلى تأسيس الدولة

(١) محمد على علوبة : *فلسطين والضمير الإنسانى* . القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ص١١٩-١٢٠ .

اليهودية فيها .

وقد وقفت الدولة العثمانية فى وجه الهجرة اليهودية ما وسعتها المقدرة على مقاومة هذه الهجرة . ولكنها لم تنجح تماماً فى منع هذه الهجرة أمام ضغط بعض الدول الأوروبية الكبرى التى التحمت مصالحها الاستعمارية مع مصالح الصهيونية ؛ ولأن الدولة العثمانية لم تكن على درجة من القوة المادية والأدبية فى المجال الدولى بحيث يتسنى لها وقف الهجرة وقفاً تاماً ، ولكنها كانت هجرة محدودة نسبياً . وكان هذا العرض التاريخى المجمل حريصاً على بيان مدى نجاح الدولة ومدى إخفاقها فيما يتصل بالحد من الهجرة اليهودية ، فقد نجح اليهود فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى إنشاء مستعمرات ، ويلاحظ أن هؤلاء اليهود وفدوا من دول أوروبية مثل الروسيا ورومانيا وبولندا وغيرها . وقامت بتنظيم هجراتهم ومساندتها وتمويلها هيئات صهيونية عالمية ذات نفوذ واسع فى الدول الأوروبية الكبرى ، كما أن بعض هذه الهجرات كانت غير مشروعة أى غير قانونية ، إما بتهريب نفر من المهاجرين عبر الحدود واجتناب نقط الحراسة أو رشوة الرقباء ، وإما عن طريق النزول ببواخر نزولاً غير قانونى ، وإما بدخول البلاد دخولاً قانونياً ثم البقاء فيها بعد المدة المؤقتة المسموح لهم بالمكث فيها ، وإما عن طريق الزواج بيهوديات فلسطينيات أو يهوديات مقيمات إقامة دائمة ولسن بفلسطينيات .

نقطة الضعف فى سياسة عبدالحميد تجاه المسألة الفلسطينية :

إن نقطة الضعف التى تسجلها هذه الدراسة على السلطان عبدالحميد الثانى ، تجاه المسألة الفلسطينية ، أنه أصدر فرمانات جزئية لصالح بعض اليهود ، وأذن لهم بمقتضاها فى شراء بعض مساحات محدودة من الأرض الفلسطينية . وقد استغل اليهود على عادتهم هذه الفرمانات فأقاموا عدة مستعمرات ، أشرفت عليها أجهزتهم المالية والفنية لتمويل الهجرة اليهودية إليها وتأسيس المستعمرات فيها واستصلاح أراضيها واستغلالها اقتصادياً [١] . وليس فى مكنة المؤرخ أو الباحث المحايد أن يجد تفسيراً أو تبريراً لموافقة السلطان على إصدار هذه الفرمانات الجزئية بالقول بأن السلطان تعرض لضغوط دول أوروبية كبرى لم يقو على الوقوف فى وجهها ؛ فإن هذه الفرمانات كانت سنداً قوياً فى يد الصهيونية للتوسع فى شراء مزيد من الأراضى الفلسطينية سواء بطرق مشروعة أو غير مشروعة .

كما لايمكن القول بأن عبدالحميد لم يكن يتوقع أن موافقته على بيع أراض محدودة فى فلسطين لليهود تكون بداية لتهويد فلسطين ، فإن مثل هذا التفسير يعد تجريداً للسلطان من صفات السياسى الحصيف المحنك بعيد النظر . وقد أجمع جمهرة المؤرخين على أنه كان على

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣ .

حظ موفور من هذه السجايا ، وعلى الرغم من هذه «السقطة» التى وقع فيها عبدالحميد.. فإنه نجح فى الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ويتضح هذا النجاح فى أنه لما احتلت بريطانيا والجيش العربى بقيادة فيصل فلسطين فى سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٨ ، وأخضعتها للحكم العسكرى البريطانى [١] ، ثم طبقت عليها نظام الانتداب البريطانى كان اليهود يشكلون أقلية عددية بالنسبة لسكانها العرب ؛ إذ كان عدد الأولين خمسين ألفاً ، بينما كان عدد العرب ستمائة وخمسين ألفاً [٢]. ومعنى ذلك أن يهود فلسطين كانوا يمثلون أقل من ١٠ ٪ من سكانها العرب، وكانت هذه النسبة العددية الضئيلة لليهود ثمرة من ثمار سياسة السلطان عبدالحميد .

وفى عهد الحكم البريطانى حدثت الزيادة الرهيبة للهجرة الجماعية الضخمة إلى فلسطين حيث تكاتفت بريطانيا والصهيونية على إغراق فلسطين باليهود ، دون أن تقيم هاتان القوتان العاتيتان وزناً لمبدأ الاستيعاد الاقتصادى الذى يجعل حجم الهجرة اليهودية مرتبطاً بقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد ، وكانت القنصليات البريطانية فى أنحاء العالم تمنح اليهود تأشيرة دخول إلى فلسطين . وأصدرت السلطات البريطانية فى فلسطين قانوناً لتيسير تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين ، وبدأت فى تنفيذه سنة ١٩٢٠ ، قبل أن تصدر

---

(١) فاجأت بريطانيا العالم العربى بوضع فلسطين كلها تحت إدارة عسكرية بريطانية ، أطلق عليها O. E. T. A. South وهذه الأحرف اختصار لعبارة Occupied Enemy Territory Administration South أى الإدارة الجنوبية لبلاد العدو المحتلة ، يحكمها مدير عام ، مقره فى بيت المقدس ، ويخضع للورد اللنبى القائد العام لقوات بريطانيا وحليفاتها فى الشرق . وكانت هذه الإدارة تحكم المنطقة الممتدة من الحدود المصرية جنوباً حتى خط الناقورة غرباً ، فنهر الأردن شرقاً . وتضم لواء القدس ، ولواء نابلس، ولواء عكا.

ثم أنشأت «الإدارة الشرقية لبلاد العدو المحتلة» O.E.T.A. East، وتضم داخل سوريا من معان جنوباً حتى حدود تركيا الجنوبية شمالاً مع أقضية أدلب ، وجسر الشغور والباب غرباً والفرات شرقاً . وتركت بريطانيا إدارة هذه المنطقة فى أيدى رجال الثورة العربية ، وعلى رأسهم الأمير فيصل بن الحسين.

ولم يدع الفرنسيون الفرصة تفوتهم ، فطالبوا الإنجليز بتمكينهم من أخذ نصيبهم فى أقاليم الشرق العربى الآسيوى . ودارت اتصالات سياسية متعثرة ، لم يشترك فيها العرب ، ولم يؤخذ فيها رأيهم ، وانتهت باتفاق ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٨ وتقرر إنشاء «الإدارة الغربية لبلاد العدو المحتلة» O.E.T.A. West وتشمل : جبل لبنان ، ولواء طرابلس ، ولواء اللاذقية ، وقضاء أنطاكية ، وقضاء إسكندرونة . وهذان القضاءان من ولاية حلب . ووضعت هذه المنطقة بأكملها تحت نفوذ فرنسا مباشرة .

انظر كلاً من :

أمين سعيد ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص١٢ .

جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٨٧-٣٩٠ .

(٢) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص٤٧ .

عصبة الأمم صك الانتداب ، ثم أصدرت تلك السلطات لصالح اليهود قوانين معدلة لقانون الهجرة فى سنوات ١٩٢١ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٣[١]) . وأقامت الصهيونية من جانبها معسكرات لإعداد المهاجرين إعداداً عقائدياً ونفسياً وعسكرياً . وعرفت هذه المعسكرات باسم «الهاخسراه» وأقيمت فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا وبولندا ودول أوروبا الشرقية ، وكان من يتم تدريبه ينضم إلى فرق «الحالوتسيم» ؛ أى الطلائع الذين قام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ثم دولة إسرائيل على سواعدهم .

وقد نشرت حكومة الانتداب فى فلسطين إحصائية فى يناير - فبراير (كانون ثان - شبطا) عام ١٩٤٨ عن عدد السكان منذ عام ١٩٢٢ حتى ٣١ من مارس - آذار - عام ١٩٣٧[٢] ، وقد شملت هذه الإحصائية تعداد السكان المسلمين والمسيحيين واليهود وزيادة الكثافة السكانية فى فلسطين على النحو التالى :

السنة	عدد السكان المسلمين والمسيحيين	عدد السكان اليهود
١٩٢٢	٥٥٧,٣٤١	٨٣,٧٩٠
١٩٣١	٧٨٢,٠٥٤	١٧٤,٦٠٦
١٩٣٥	٨٧٥,٣٧١	٣٥٥,١٥٧
١٩٤٠	١,٠٠١,٨٨٠	٤٦٣,٥٣٥
١٩٤٦	١,٢٢١,٨٤٠	٦٠٨,٢٣٠
مارس-آذار-١٩٤٧	١,٢٣٧,٠٣٢	٦١٤,٢٣٩

وتكشف هذه الإحصائية عن حقيقة مهمة ، هى أنه فى الوقت الذى تضاعف فيه عدد المسلمين والمسيحيين مرة واحدة نتيجة الزيادة الطبيعية فى عدد السكان بالتوالد ، تضاعف عدد اليهود إلى حوالى ثمانية أمثال . ولم تكن هذه الزيادة عن طريق التوالد ، ولكن عن طريق الهجرة إلى فلسطين كنتيجة مباشرة لسياسة الحكومة البريطانية فى فتح أبواب فلسطين على مصاريعها أمام اليهود .

---

(١) صالح مسعود أبو يصير ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٢٢-١٢٥ .
 وملحق رقم٦ ص ص٥٩٢-٥٩٣ .
وملحق رقم٧ ، ص ص٥٩٤-٥٩٧ فى المرجع ذاته .

(٢) صلاح عابدين : فلسطين بين الصهيونية واليهودية . طبع وزارة الخارجية ، الجمهورية العربية المتحدة ، د.ت ، ج١ ، ص٤٩ .

على هذا النحو ، جاءت الخطورة على فلسطين بعد زوال الدولة العثمانية ، وبالذات بعد عزل السلطان عبدالحميد الثانى عام ١٩٠٩ ؛ لأن بعض اليهود نجحوا فى التسلل إلى بعض المراكز فى مجالس جمعية الاتحاد والترقى ، التى سيطرت على تقاليد الحكم فى الدولة بعد غياب السلطان عبدالحميد . وقد لمس السفير البريطانى فى إستانبول تفوق مركز اليهود فى دوائر الحكومة العثمانية ، وذكر هذه الحقيقة فى صراحة تامة فى مذكرة بعث بها فى شهر أغسطس – آب – عام ١٩١٠ إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وكان مما جاء فيها «إن لجنة الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها الداخلى تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً ؛ فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ، ويمدها اليهود بالعقل المدبر ، وبالمال ، وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوروبا ... إن اليهود الآن فى موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلى للدولة» [1] . وقد نجم عن وجود اليهود فى بعض مراكز القوى فى العهد الجديد ، أن تراخت رقابة الدولة على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، بالنسبة إلى ماكان عليه الحال أيام السلطان عبدالحميد . ومع ذلك .. لم يطل أمد حكم رجال الاتحاد والترقى إلا سنين عددا ؛ إذ مالبثت أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان من نتائجها أن تمت تصفية الدولة على أيدى الاتحاديين ، وانفسح المجال أمام بريطانيا والصهيونية لتهويد فلسطين .

ومجمل القول إن الدولة العثمانية بمحاولاتها المكررة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد اقتحمت هذه المشكلة ، ولكنها لم تستطع عبورها ، ونجحت فقط فى الحد منها ، ونجحت فى الحفاظ على عروبة فلسطين وعلى وحدة الصف العربى بين مسلميها ومسيحييها ، ولكنها أخفقت فى منع التسلل اليهودى إلى فلسطين .

* * *

---

(١) وزارة الإرشاد القومى . ملف وثائق فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ج١ ، وثيقة رقم ٥٨ ، ص١٥٥ .

آراء محايدة

فى حكم السلطان عبدالحميد الثانى (١)

إسفاف فى إلصاق التهم بعبدالحميد :

حكم السلطان عبدالحميد الثانى زهاء أربعة وثلاثين عاماً (١٨٣٦-١٩٠٩)، فكان من أطول سلاطين الدولة العثمانية حكماً، وكان فى زمانه ولايزال ملء الأسماع . ولكنه تعرض لحملات إعلامية شرسة من خصومه السياسيين تناولوا فيها حياته العامة والخاصة بكل نقيصة؛ فهو السلطان السفاح ، والسلطان الأحمر ، والسلطان الديكتاتور ، والسلطان المنافق الذى كان يتظاهر بالتقوى والصلاح والزهد والتقشف أمام رعاياه ، ويحرص حرصاً بالغاً على التظاهر بأداء الشعائر الدينية ، ويحيط نفسه بعلماء الدين ويستخدمهم فى توزيع الصدقات من قبيل الدعاية له ، وهو فى الوقت ذاته السلطان المسرف فى شهواته النسائية ، وقد جمع حوله من نسائه وجواريه مائتين وخمسين سيدة ، كن آيات فى جمال الوجه وامتشاق القوام والرقة البالغة وما إلى ذلك من عناصر الأنوثة الطاغية . ثم أضاف خصومه إلى كل هذه المثالب أنه نشر فى أنحاء الدولة شبكة من الجاسوسية ، بلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف شخص ، على غرار شبكة الجاسوسية الروسية القيصرية المعاصرة له.. إلى غير ذلك من أساليب التهجم عليه .

وتلقف الحاقدون على الدولة وعليه عناصر هذه الحملات وانطلقوا يعطون صوراً مشوهة عنه وعن حكمه . وفى غمرة هذه الحملات الإعلامية فسر الخصوم والحاقدون ، ومنهم عرب ، كل مشروع إصلاحى تعهده عبدالحميد تفسيراً تعسفياً . ففى رأيهم كان هدفه الخفى والأوحد من بعض هذه المشروعات ، هو أن تشتد قبضته على الولايات العثمانية ليحكمها بيد من حديد إرضاء لنزعته الاستبدادية . وأن هدفه من بعض المشروعات ا لأخرى كان إحاطة نفسه بهالة من القدسية ، تجعله بمنأى عن كل نقد يوجه إليه من رعاياه . وليس الهدف من الفصول الأربعة التى وضعناها عن السلطان عبدالحميد ، هو وضع تاريخ شامل لحكمه ، فإن هذا التاريخ يتطلب وضع أضعاف مضاعفة من هذا العدد ، وإنما الهدف منها هو توضيح الملابسات ، التى أحاطت به عند تولية العرش وإبراز بعض المعالم الرئيسية فى حكمه؛ ليسترشد بها الباحثون عن الحقائق المجردة .

الانقلاب الدستورى :

وقد نجحت هذه الحملات الإعلامية ونجحت الجمعيات العلنية والسرية ، التى كانت تعمل لتفويض حكم عبدالحميد ، وباشرت نشاطها المعادى فى أقاليم تابعة للدولة حيناً ولكنها بعيدة عن العاصمة ، وفى دول أوروبية حيناً آخر . وبلغ نجاحها القمة حين قامت «عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى» أى «جمعية الاتحاد والترقى العثمانية» بثورة عسكرية فى شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٨ ، وأصدر عبدالحميد على أثرها فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر ذاته قراراً بإعادة العمل بالمشروطية [١] أى الدستور - وهو الدستور الذى سبق أن أصدره فى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٦ ، وأطلق على هذه الثورة العسكرية تعبير مهذب هو الانقلاب الدستورى . واستأثرت الجمعية بالنفوذ وغدا السلطان عبدالحميد فى الظل . وكانت جمعية الاتحاد والترقى منظمة سرية أنشأها بعض أعضاء جمعية «تركيا الفتاة» [٢] ، واستقر بها المطاف فى النهاية فى مدينة سالونيك ، وضمت أخلاطاً شتى من

---

(١) تكتب فى اللغة التركية مشروطيت .

(٢) جمعية تركيا الفتاة جمعية سرية أنشأها الأتراك العثمانيون سنة ١٨٦٥ وحضر أول اجتماع لها عقد فى شهر يونيو - حزيران - من السنة ذاتها ستة من الأحرار ، كان من بينهم نامق كمال ، وآية الله بك . وقد أحضر الأخير معه فى الاجتماع كتابين أحدهما عن جمعية الكاربونارى Carbonari ، والآخر عن جمعية سريفة فى بولندا . وكانت جمعية الكاربونارى جمعية إيطالية تأسست فى نابولى عام ١٨٠٧ من المشتغلين بحرق الأخشاب . وكان هدفها طرد الفرنسيين والنمساويين من شبه جزيرة إيطاليا وتوحيدها وتأسيس حكومة دستورية بها . وانضم إلى جمعية تركيا الفتاة فى وقت مبكر الأمير مصطفى فاضل وهو أخ الخديو إسماعيل من أبيه . وأصبح من أقطاب الجمعية . وكان من بين دوافعه حقده على السلطان عبدالعزيز الذى أصدر فرماناً فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - أيار - عام ١٨٦٦ بجعل وراثة الحكم فى مصر تؤول إلى أكبر أبناء الوالى الحاكم ومن هذا إلى أكبر أبنائه وهكذا . ونجم عن هذا الفرمان إقصاء الأمير مصطفى فاضل عن حكم مصر وكان ولياً للعهد حتى سنة ١٨٦٦ ، ثم فقد الأمل فى تعيينه صدراً أعظم كتعويض عن حرمانه من وراثة الحكم . وقد صفى مصطفى فاضل أملاكه فى مصر وغادرها للإقامة فى فرنسا ، حيث لحق به فريق من أعضاء الجمعية ، واتجه فريق آخر إلى لندن وعاشوا جميعاً منفيين . وقد بذل الأمير مصطفى فاضل نفوذه وشطراً كبيراً من أمواله فى دعم الجمعية . وأرسل من باريس خطاباً مفتوحاً إلى السلطان عبدالعزيز باللغة الفرنسية شرح فيه التدهور الذى انحدرت إليه الدولة العثمانية ، واقترح للنهوض بها إدخال عدة إصلاحات ، وكان من بينها إصلاحات دستورية . وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية بمعرفة ثلاثة من الأحرار كان من بينهم نامق كمال وطبعوه ونشروه فى نطاق واسع ، فكانت له أصداء واسعة . وفى فبراير - شباط - عام ١٨٦٧ نشرت جريدة بلجيكية اسمها Le Nord أى الشمال ، أنباء تقول إن الأمير مصطفى فاضل قد أنشأ مؤسسة مصرفية فى الدولة العثمانية . فأرسل الأمير إلى الجريدة تكذيباً لهذا النبأ وأشار إلى أنه من مؤيدى جمعية تركيا الفتاة La Jeune Turquie، وقد أعادت نشر هذا التكذيب جريدة Courriet d'Orient التى تصدر فى بيرا ، وهى إحدى ضواحى إستانبول - وكان رئيس تحريرها على علاقة طيبة بأحرار الدولة . وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية . وجاء اسم الجمعية فى الترجمة التركية على هذا النحو=

عناصر ذات جنسيات مختلفة وديانات متعددة . ولكن كانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك العثمانيين يليهم اليهود ثم بعض العرب ، وكان معظمهم من ضباط الجيش . ولكن كان العسكريون العثمانيون الذين من أصل تركى هم العناصر البارزة فى مجالس الجمعية . وكان هدفهم القضاء على حكم السلطان عبدالحميد .

الانقلاب العسكرى :

ولم يقنع هؤلاء العسكريون من رجال الاتحاد والترقى بالانقلاب الدستورى ، فقاموا فى العام التالى (١٩٠٩) بانقلاب عسكرى متذرعين بقيام حركة مضادة بدأت فى ليلة ١٢-١٣ من شهر أبريل - نيسان - من السنة ذاتها ، وتزعمها الدراويش وأئمة المساجد وفريق من علماء الدين الإسلامى وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش «الآلايلية» ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند بناء على خدمتهم الطويلة وخبراتهم العملية . ولقيت هذه الحركة استجابة من جماهير العامة ، وتنادوا إلى إلغاء الدستور بحجة أن مبادئ الشريعة الإسلامية باتت فى خطر . وطافت المظاهرات فى شوارع إستانبول تهتف «باشا سون شريعة محمدية» أى فلتعش الشريعة المحمدية(٢) .

وفى غمرة هذه الهتافات نادى الضباط الآلايلية بتسريح ضباط الجيش خريجى الكليات والمعاهد العسكرية ، وكان يطلق عليهم الضباط «المكتبية» . وامتدت الحركة بسرعة من

= «يكى عثمانلى لر» ومعناها «العثمانيون الجدد أو الشبان»» . ومنذ سنة ١٨٦٧ حين انتقل مركز نشاط الجمعية السياسية إلى أوروبا بسبب إبعادهم أو نفيهم ، حرص الأوروبيون على إطلاق اسم La Jeune Turquie أى تركيا الفتاة عليها . وفى اللغة التركية لايرد الاسم إلا فى صيغته الفرنسية المستعارة «جون ترك» . وقد نمت الجمعية بسرعة وأصبح عدد أعضائها فى وقت من الأوقات ٢٤٥ عضواً.

وتمثل حركة تركيا الفتاة حركة قومية علمانية ، تستند أساساً على قطاع المثقفين . وكانت تستهدف تحقيق أربعة مبادئ ، هى : الحرية الفردية ، قيام النظام الدستورى ، والقضاء على الإقطاع ، والتحرر من السيطرة الأجنبية . ولذلك ارتبطت الحركة القومية فى مبدأ نشأتها بحركة تركيا الفتاة . واتخذت الحياة الثقافية والأدبية أول الأمر طريقاً للتعبير عن اتجاهاتها . وكان قيام الجمعية دليلاً على أن الطبقة المثقفة التركية الأصل قد صحت عزيمتها على إيجاد قوة من العناصر الوطنية ، تفرض الإصلاح على السلاطين فرضاً ، كما كانت تعنى بداية إحساس الطبقة المثقفة بقوتها الذاتية وحاجتها إلى التعبير عن نفسها .

وكان لهذه الجمعية اليد الطولى فى عزل السلطان عبدالعزيز ، وتولية السلطان مراد الخامس ، ثم عزله وتعيين عبدالحميد الثانى مكانه وقام مدحت باشا بدور بارز فى إصدار دستور عام ١٩٧٦ .

انظر كلاً من :

(أ) Lewis Bernard; op. cit., pp. 152-174.

فى جزء من فصل عنوانه The Seeds of Revolution بذور الثورة .

(ب) دائرة المعارف الإسلامية بحث بعنوان جمعية «الإمبراطورية العثمانية» بقلم Rustow D.A. .

(٢) انظر فى هذه الدراسة الفصل الرابع ، الجزء الأول .

إستانبول إلى أنحاء الأناضول خاصة فى إقليم أضنة حيث قام متعصبو المسلمين بذبح الأرمن . وكان قد أرسل منشور بتاريخ ١٥ من أبريل – نيسان – عام ١٩٠٩ إلى جميع الحكام العثمانيين يطلب منهم المحافظة على مبادئ الشريعة الإسلامية . ويبدو أن متعصبى المسلمين فى أضنة فسروا هذا المنشور بذبح الأرمن ، وأسرع رجال الاتحاد والترقى إلى تجريد قوات عسكرية أطلق عليها بعض المؤرخين الأوروبيين «جيش الإنقاذ» [1] ، وأطلق عليه فى اللغة التركية «حركت أوردسو» أى «جيش الحركة» ، وقد زحفت هذه القوات من سالونيك على إستانبول واحتلتها فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل – نيسان – عام ١٩٠٩ بعد قتال مرير . ونجح رجال الاتحاد والترقى فى خلع السلطان عبدالحميد ، وإخراجه من العاصمة فى صورة غير كريمة منفياً فى سالونيك . وأقاموا بدلاً منه أخاه الأمير رشاد ، الذى تسمى باسم محمد الخامس . وكان فى الرابعة والستين من العمر ، يستجيب لما يؤمر به . وخلا الجو لرجال الاتحاد والترقى ، وحولوا جمعيتهم من منظمة سرية إلى حزب سياسى علنى فى شهر أبريل – نيسان – عام ١٩٠٩ ، فى بيان أذاعته الجمعية فى الصحف ، وانفردوا بالحكم إذ سمح لهم السلطان العجوز أن يحكموه وأن يحكموا باسمه [2] . وقد أطلق عليه أحد المؤرخين «السلطان الأبله» [3] ، وهى تسمية ظالمة لأنه لم يكن له من الأمر شىء . وقد ارتضى هذا الوضع حفاظاً على السلطنة العثمانية وعلى الخلافة الإسلامية إلى أن جاز إلى ربه عام ١٩١٨ فى السنة ذاتها، التى لقى فيها السلطان المعزول عبدالحميد الثانى ربه . وأصبحت لرجال الاتحاد والترقى السيطرة المطلقة على أعنة الحكم منذ عزله حتى تصفية الدولة ماعدا فترة قصيرة الأمد .

وسائل الإرهاب التى لجأ إليها عبدالحميد :

من البديهيات أن لكل حاكم – أياً كان لقبه إمبراطوراً أو سلطاناً أو ملكاً أو أميراً – مزايا وعيوباً . وقد انطوى حكم هذا السلطان على مثالب ، وهذه حقيقة لامراء فيها مثل مذابح الأرمن ، وسنتكلم عنها فى فصل قادم ، وتعطيل أحكام الدستور فترة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة ، على الرغم من أن بعض الباحثين ساقوا تفسيرات شتى لهذه الفترة الزمنية الطويلة . ولكن من الثابت أيضاً أن حكم هذا السلطان قد حفل من نواحٍ أخرى بمزايا ، بل وبمفاخر لاسبيل إلى التشكك فيها أو التقليل من أهميتها .

لجأ عبدالحميد إلى إعدام أو إبعاد أو اعتقال بعض خصومه السياسيين ولكن ليس معنى

---

(1) Lewis B.; op. cit., p. 216.
Loc. Cit.

وانظر أيضاً : ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٢ .

(٢) أنطونيوس جورج ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨٠ .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٢٥٠ .

هذه الإجراءات أنه خصب أرض الدولة بدماء هؤلاء الخصوم ، أو أنه ملأ السجون بالمعتقلين ، أو أنه جند جيشاً من الجواسيس، بلغ تعداده حداً خرافياً هو ٣٠,٠٠٠ شخص . ومن المبادئ المقررة فى كل دولة وفى جميع العصور أن كل حكومة تنتظم أجهزة للحفاظ على أمن الدولة الداخلى والخارجى مثل المباحث العامة والمخابرات الحربية - الاستخبارات - وما إليها من أجهزة أمن الدولة العليا . كان عبدالحميد يعلم علماً يقينياً أنه توجد جمعيات سياسية مدنية وعسكرية ، تعمل فى السر للتخلص منه أو للتآمر على الدولة .

حادث قصر چراغان :

وقد ظلت ماثلة فى ذهن السلطان عبدالحميد الأحداث التى وقعت فى اليوم العشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، والأيام التالية ، ولم يكن قد مضى عامان على ارتقائه العرش، فقد اقتحمت فى صباح ذلك اليوم جموع المتآمرين قصر چراغان ، وهو قصر يقع على الساحل الأوروبى للبوسفور بين بشكطاش وهى إحدى ضواحى إستانبول وقرية أورتاكدى (١) ، وكان محتجزاً فيه السلطان المخلوع مراد الخامس ، فى محاولة للمناداة به سلطاناً بدلاً من عبدالحميد الثانى ، أخيه الأصغر .

استأجر أو أغرى خصوم السلطان شخصاً حاقداً عليه ، اسمه على سعاوى أفندى . كان قد وفد من بخارى إلى إستانبول طلباً للعلم ، وأصاب نجاحاً بعيداً فى دراسة اللغة العربية فأصبح متمكناً منها وخطيباً مفوهاً . ولكنه كان يميل بطبيعته إلى بث الدسائس وإثارة الفتن ، فنفاه السلطان عبدالعزيز عام ١٨٦٧ خارج الدولة ، ومكث تسع سنوات فى منفاه ، ثم عاد إلى إستانبول بمساعى مدحت باشا على عهد السلطان عبدالحميد ، الذى عينه ناظراً على المكتب السلطانى الذى يتعلم فيه أنجال عبدالحميد . ولكن مالبث أن عزله لعدم تغير طباعه ولتدخله فى الشئون السياسية .

واستغل خصوم السلطان انشغاله ببحث الموقف الناجم عن عقد معاهدة سان ستفانو ، التى فرضتها الروسيا على الدولة فى ٣ مارس - آزار - عام ١٨٧٨ ، ووجود زهاء مائة وخمسين ألف مسلم فى إستانبول ،هاجروا إليها من البلاد التى احتلتها القوات الروسية بخيولها فى الحرب . وكان من بين هؤلاء المهاجرين المسلمين أعداد ساخطة على الأوضاع القاسية التى ترديوا فيها نتيجة هزيمة الدولة أمام الروسيا ، فدبر خصوم السلطان مؤامرة لخلعه عن العرش . وقد بدأت خيوط المؤامرة بإعلان ظهر فى جريدة «بصيرت» أى البصيرة فى عددها الصادر فى ١٩ من مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، وكان هذا الإعلان باسم على سعاوى أفندى ،

---

(١) انظر معانى كلمة چراغان وبعض معلومات عن هذا القصر ، فى ثبت المصطلحات التركية ، فى نهاية هذه الدراسة ، الجزء الرابع ، تحت لفظة چراغان .

قال فيه إنه ستظهر له مقالة فى الجريدة ذاتها فى اليوم التالى عن أسباب ضعف الدولة ووسائل إصلاحها . واتضح أن هذا الإعلان كان بمثابة تحدى ساعة الصفر لتنفيذ المؤامرة بخلع السلطان عبدالحميد والمناداة بمراد الخامس سلطاناً على الدولة . ففى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى احتشد زهاء خمسمائة من المتآمرين أمام قصر چراغان . وكان معظمهم من المهاجرين وإن كانوا جميعاً قد تزيوا بزى المهاجرين ، وكان يقودهم على سعاوى أفندى . وانقسموا فريقين : هاجم فريق القصر من ناحية البر بقيادة على سعاوى أفندى ، وهاجم فريق آخر القصر من ناحية البحر بقيادة صالح بك . واقتحم الفريقان القصر وقتلوا أفراد الحرس وانطلقوا فى أرجاء القصر ، بحثاً عن السلطان المخلوع إلى أن عثروا عليه منزوياً فى حجرته وسلموه «طبنجة» . وقد أسرعت قوات الحرس السلطانى من قصر يلدز حيث كان يقيم السلطان عبدالحميد ، وحاصرت القصر براً وبحراً وقتل فى هذا الحادث عشرون من المتآمرين ، كان من بينهم على سعاوى أفندى وجرح ثلاثون . وقدمت الحكومة المتهمين للمحاكمة أمام محكمة عسكرية أصدرت حكماً واحداً بإعدام أحد المتهمين ، ولكن استبدل السلطان عبدالحميد السجن مدى الحياة بالإعدام ، كما أصدرت المحكمة على المتهمين الآخرين أحكاماً بالنفى . وكانت هذه هى أول مؤامرة أو محاولة لخلع السلطان عبدالحميد من العرش ، وقد باءت بالإخفاق . وقد أضير فيها السلطان المخلوع مراد الخامس ؛ إذ صدرت الأوامر بنقله إلى سرداب مظلم فى جناح مالطة بقصر يلدز حيث كان يقيم عبدالحميد [1] .

إحراق الباب العالى :

لم تمر أيام ذات عدد على حادث قصر چراغان حتى قام فريق جديد من المتآمرين بإحراق الباب العالى فى اليوم الثالث والعشرين من ذات الشهر . وأتت النيرات على دار الأحكام العدلية ووزارة الداخلية ودائرة شورى الدولة ودار التشريفات وغيرها من مبان ، والتهمت جميع ماكان بها من أثاث ومفروشات وأوراق رسمية .

من ذيول حادث قصر چراغان :

استطاع مراد الخامس من سجنه فى جناح مالطة تهريب رسالة إلى أحد معارفه ، وهو رجل يونانى يقيم فى إستانبول يسمى كليانتى سكاليرى Cleanthi Scalieri كان رئيس أحد المحافل الماسونية . وعن هذا الطريق كانت المعرفة بينهما ، وجاء فى خطاب مراد إلى سكاليرى «إذا لم تنقذنى من هذا المكان فإن جناح مالطة سيكون مقبرتى» .

وكان مركز هذا اليونانى كرئيس لمحفل ماسونى قد أتاح له عديد الفرص لإيجاد صلات مع كبار الماسونيين الأوروبيين فى إستانبول. وما كاد يتلقى سكاليرى خطاب مراد

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٤١-٤٤٢ .

الخامس حتى تحرك لإنقاذه ، فكتب خطاباً مفتوحاً باللغة الإنجليزية إلى السلطان عبدالحميد وبعث به إلى جريدة إنجليزية تصدر فى إستانبول اسمها Eastern Express ، وأرفقه بطلب لنشره فى الجريدة وقد انطوى خطابه على تهديد لرئيس التحرير . فأحال الأخير الخطاب المفتوح والطلب إلى سعيد باشا مستشار قصر يلدز .. فما كان منه إلا أن هز كتفيه وقال : انشره إذا شئت . وكان لنشره وقع سيء فى نفس عبدالحميد الذى اتخذ إجراءات صارمة مع الجريدة ورئيس تحريرها وسعيد باشا . ولكن جاء هذا الخطاب بنتيجة واحدة بالنسبة لمراد الخامس ؛ إذ صدرت الأوامر بإخراجه من سجنه فى جناح مالطة وإعادته إلى قصر چراغان(١) .

محاولة أخرى للقيام بانقلاب :

لم يترك سكاليرى وأصدقاؤه الماسونيون الموضوع يقف عند هذا الحد .. فقد علم عبدالحميد من تقرير عرض عليه أنهم بذلوا محاولة لدى المحفلين الماسونيين البريطانيا والألمانى ، وكان يرأسهما ولى عهد بريطانيا وإمبراطور ألمانيا ، كى يتدخل السفيران البريطانى والألمانى فى إستانبول لدى عبدالحميد ، ويبدو أن الحكومتين البريطانية والألمانية قد أحجمتا عن التدخل فى هذا الموضوع ، وانضم سكاليرى إلى خصوم عبدالحميد وكونوا لجنة عرفت باسم لجنة سكاليرى – عزيز بك . وكان الأخير أحد كبار موظفى الأوقاف . وضمت هذه اللجنة عدداً من خصوم السلطان عبدالحميد . وكان هدفها عزل عبدالحميد وإعادة مراد الخامس إلى العرش . وأقسم أعضاء اللجنة على ألايدخروا جهداً لتدبير انقلاب Coup d'Etat لتحقيق هدفهم ، ولما وقف عبدالحميد الثانى على تفاصيل هذه المؤامرة الجديدة أمر بمحاصرة مقر اللجنة وهو دار عزيز بك وقبضت قوات الشرطة على الحاضرين . واستطاع بعض الأعضاء ومنهم سكاليرى الإفلات من قبضة السلطات العثمانية وسافروا إلى الخارج ، أما الباقون فقد قدموا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية ،أصدرت عليهم أحكاماً تتراوح بين السجن مدداً مختلفة والنفى فى إحدى القلاع النائية(٢) . وهكذا فشلت هذه المحاولة الجديدة التى خططت لها لجنة سكاليرى وعزيز بك لخلع السلطان عبدالحميد كما أخفقت من قبل محاولة على سعاوى أفندى ، ولم يكن لهاتين المحاولتين من نتيجة سوى أنهما جعلتا السلطان عبدالحميد يتخذ احتياطات أمن للحذر من خصومه . وجدير بالذكر أن هاتين المحاولتين وعملية إحراق الباب العالى قد تعاقبت، وكان الجيش الروسى لايزال يحاصر إستانبول معسكراً فى ضواحيها يهدد باقتحامها .

وكان عبدالحميد يعلم كذلك أن للدول الأوروبية عملاء من جنسيات شتى منتشرين فى إستانبول وأمهات المدن فى طول البلاد وعرضها ، لأن هذه الدول لم تقنع بما حصلت عليه فى

(1) Lewis B.; op. cit., p. 176.
(2) Lewis B.; op. cit., p. 176-177.

مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ وبعده من مكاسب إقليمية هائلة ، وإنما كانت تتطلع إلى مزيد من الأقاليم والامتيازات ، ودبرت المؤامرات لتحقيق أهدافها . وفى سنة ١٨٨٥ نجحت بلغاريا فى ضم روم إيلى شرق - ولاية الرومى الشرقية - إليها بموافقة بريطانيا والنمسا والمجر خلافاً لما نصت عليه معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ بتقسيم بلغاريا الكبرى . وردت الروسيا فى العام التالى بتحويل باطوم إلى ميناء حربى ، أقامت فيه تحصينات عسكرية بدلاً من جعله ميناء حراً كما نصت معاهدة برلين ، ونشبت حرب بين الدولة العثمانية ومملكة اليونان التى ضمت إليها أقاليم عثمانية .

وفى عام ١٩٠٣ تفجر صراع دموى رهيب بين سكان مقدونيا المسيحيين . وتكونت جمعيات إرهابية مسيحية من البلغاريين والصرب والرومانيين واليونانيين ، وظفروا بالمساعدات المالية والأسلحة والعتاد والحماية من قناصل بعض الدول . وسنشير إلى هذه المنظمات الإرهابية عند كلامنا عن مثيلاتها الأرمنية فى الجزء الثالث من هذه الدراسة . وفرضت الدول رقابة إدارية مختلطة على سالونيك ، وقوصوه ، ومناسر . وأنشئت شرطة دولية . واستغلت النمسا الفرصة لدعم نفوذها على كل الأراضى التى تصلها ببحر الأرخبيل، وحصلت على امتياز سكة حديدية تمر بنو فى بازار (١) Noyibazar . وردت الروسيا عليها بمشروع مضاد (٢) ، وعلى هذا النحو كانت الأخطار الخارجية الجسيمة تحيط بالدولة من يمين وشمالى : اقتطاع ممتلكاتها رقابة دولية رسمية على شئونها المالية والإدارية ، تصاعد نفوذ سياسى أوروبى ، تغلغل اقتصادى متخذاً أشكالاً شتى ؛ فضلاً عن أخطار داخلية كان من بينها مؤامرات لإنهاء حكم السلطان عبدالحميد .

ولايعاب على حاكم أن يحتاط لنفسه ، وأن يحافظ على الدولة والعرش معاً من أن يتعرضا لهزات عنيفة تنشأ عن اعتقاله أو عزله . وقد أثبتت الأحداث التى تعاقبت على الدولة بعد عزله عام ١٩٠٩ رأيه الثاقب وحصافته السياسية ، وكان لكل قضية سياسية من قضايا

---

(١) أعلن أهرنتال Aehrenthal ، وزير خارجية النمسا الجديد سنة ١٩٠٨ ، عن مشروع تزمع النمسا إنشاءه، يقوم على مد خط حديدى ويمر بصنجق نوفى بازار Novi Bazar ، ويتصل بنهاية الخطوط العثمانية عند متروفيكا Mitrovica ، وبهذا تتصل فيينا مباشرة بثغر سالونيك على بحر إيجه ، كما يزداد الجبل الأسود انفصالاً عن الصرب . ويلاحظ أن الروح العدائية ضد الروسيا كانت كامنة وراء هذا المشروع النمساوى.

(٢) وضع هذا المشروع إزفولسكى Izvsolsky وزير خارجية الروسيا الجديد ، ويقوم على إنشاء خط حديدى، يمتد من الحدود الشرقية للصرب على نهر الدانوب إلى سان چيوفانى دى مدوا San Giovanni di Medua فى ألبانيا . ومن شأن هذا المشروع أن يكون هناك اتصال حديدى من الصرب إلى ألبانيا على البحر الأدريانى المؤدى إلى البحر المتوسط . ويواجه فى الوقت ذاته المشروع النمساوى الذى ينتهى بثغر سالونيك على بحر إيجه المؤدى إلى البحر المتوسط .

خصومه ظروفها وملابساتها .. أما تعميم الحكم على جميع القضايا فليس من العدالة فى شيء. وهنا سؤال يفرض نفسه فرضاً على الباحث المحايد إذا أنحى جانباً هذا التعداد الخيالى لعدد الجواسيس وهو ٣٠,٠٠٠ لماذا هذا الإصرار على تسميتهم «جواسيس» بدلاً من رجال المباحث أو المخابرات أو الاستخبارات أو غير ذلك من المسميات ؟ الجواب عن هذا التساؤل معروف ، فكلمة جواسيس تنفر منها النفس وتوحى إلى الذهن بالجو الرهيب الذى كانت تحياه الدولة على عهده . فتكون الصورة عن حكم عبدالحميد فى الذهن والنفس معاً أشد ظلاماً وأعمق إيلاماً وأكثر بشاعة . لقد لجأ السلطان عبدالحميد إلى إعدام بعض خصومه أو إبعادهم خارج الدولة إلى أوروبا أو اعتقالهم ولجأ أيضاً إلى مراقبة خصومه . ولكن لم تكن هذه الوسائل بالحجم الرهيب الذى صورته حملات التشهير بهذا السلطان .

مناقشة أسر الشريف الحسين وعائلته فى إستانبول :

وإلى جانب وسائل الإعدام والإبعاد والاعتقال ، كان عبدالحميد إذا شعر بخطورة من أحد كبار خصومه السياسيين استمالة إلى المجيء إلى إستانبول ليكون على مقربة منه ويأمن شره .. فكان يوجه إلى دعوة رقيقة لاستضافته فى العاصمة وينزله فى قصر رحيب تحيط به الحدائق الوارفة الظلال . ويسبغ على ضيفه مظاهر التكريم ، ويقوم على خدمته حشد من الأتباع والخدم ، ويتيح له أسباب الحياة الرغدة . وكان من هؤلاء «الضيوف» الشريف الحسين ابن على أمير مكة المكرمة فيما بعد[1] .. تلقى دعوة رقيقة من عبدالحميد ليذهب مع أسرته إلى إستانبول ، ويقيم فيها بعض الوقت ، فوصلها عام ١٨٩٣ وكان فى نهاية العقد الرابع من عمره ، ومعه زوجته وأولاده الثلاثة الذين كانوا قد بلغوا سن الالتحاق بالمدارس وهم على (ملك الحجاز فيما بعد) ، وعبدالله (ملك المملكة الأردنية الهاشمية فيما بعد) ، وفيصل (ملك العراق باسم فيصل الأول فيما بعد) .

وكان من مظاهر تكريم السلطان للشريف الحسين أنه خصص له ولأسرته داراً ساحلية تطل على البوسفور ، وعينه عضواً فى مجلس شورى الدولة وفى عدد من المجالس الفخرية . وقد ظلت هذه الأسرة فى إستانبول معززة مكرمة زهاء خمسة عشر عاماً أمضتها فى حياة هادئة ،وظفر أفرادها بإنعامات سلطانية كثيرة . ووطد الشريف الحسين وابنه عبدالله علاقتيهما بالسفير البريطانى فى إستانبول ؛ مما يدحض قول عبدالله فيما بعد إن الأسرة كانت فى حالة أسر وإبعاد ونفى [2] .

يقول الأستاذ أنيس صايغ إن نقل الحسين من مكة المكرمة إلى إستانبول كان «تقليداً

---

(١) عين فى هذا المنصب فى سبتمبر – أيلول – عام ١٩٠٨ .

(٢) عبدالله بن الحسين (الملك) : مذكرات الملك عبدالله . نشر أمين أبى الشعر ، عمان ، ١٩٦٥ ، ص ص٢٣–٢٤ .

مألوفاً ، سار عليه السلاطين وطبقوه على أمراء مكة منذ قرون ، حاولوا بواسطته أن يأمنوا جانب الأمراء الذين كانوا يصرفون وقتهم وجهودهم على المشاغبة ضد بعضهم بعضاً . ولم يمر يوم واحد فى قرون الحكم العثمانى لم يكن نصف الأمراء المتنازعين فى مكة ، على الأقل، فى ضيافة السلطان فى العاصمة . كان الحسين مكرماً فى الآستانة ومقرباً من السلطان.. كان وعائلته ضيوف شرف على الخليفة ، وقد حصلوا على إنعامات سلطانية كثيرة . وعين عميد العائلة عضواً فى عدد من المجالس الاستشارية والفخرية ، وعين ابنه فيصل سكرتيراً للسلطان»[١] .

والواقع أن السلطان عبدالحميد كان يتوجس خيفة من الشريف الحسين ابن على ، ويرى فيه رجلاً ذا أطماع سياسية واسعة ، وأنه إذا ظفر بمنصب أمير مكة المكرمة .. فإنه لن يقنع بهذا المركز الرفيع ، بل إنه سيتطلع فى قابل الأيام إلى حكم العرب أجمعين ثم إلى منصب الخلافة الرسلامية . كانت هناك منافسة حادة على منصب أمير مكة بين الشريف الحسين وعمه الشريف عون الرفيق الذى ظفر بالإمارة فى عام ١٨٨٢ ، وامتلأ قلب الحسين حقداً وحسداً وتوالت شكاياته إلى السلطان عن المظالم التى ينزلها عمه بالحجاج وابتزاز أموالهم وتقاعسه عن الضرب على أيدى العربان الذين كانوا يقتلون الصحة[٢] ، ولكن عبدالحميد التزم جادة الحق والحكمة السياسية فأرسل بعثة برياسة أحمد رابت باشا لتقصى الحقائق ، وجاء تقريرها فى مصلحة الشريف عون الرفيق ، وألقت تبعة ماحدث من فتن واختلال الأمن على والى الحجاز حسين جميل باشا ؛ فأصدر السلطان فرماناً بعزله وتعيين راتب باشا مكانه . وظل عون الرفيق أميراً على مكة المكرمة . واستدعى السلطان إلى إستانبول الشريف الحسين مع أسرته . ولما جاز عون الرفيق إلى ربه الشريف سنة ١٩٠٥ ، رفض السلطان تعيين الشريف الحسين أميراً على مكة ، وعين فى هذا المنصب ابن أخ الشريف المتوفى ، وهو على بن عبدالله بن محمد بنو عون الذى كان من أصدقاء السلطان عبدالحميد .

ولم تكد تمر ثلاث سنوات حتى وقع حادث لم يكن فى الحسبان ، وهو حدوث الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ونجاح رجال الاتحاد والترقى فى حمل السلطان على إصدار المشروطية، الدستور ، وفيه حددت اختصاصات السلطان . وكان الشريف على بن عبدالله أمير مكة من خصوم رجال الاتحاد والترقى بحكم صلاته الوثيقة بالسلطان ، فخشى أن ينتقموا منه فغادر

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٧-٢٨ .

(٢) دكتور فايق بكر الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز فى الفترة مابين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ (١٨٧٦-١٩١٦م) . مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٨ رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . ص ص٨٦-٩٤ .

الحجاز مسرعاً إلى مصر لاجئاً سياسياً . وانتهز رجال الاتحاد والترقى هذه الفرصة وعزله من منصبه وعينوا مكانه الشريف عبدالإله وكان طاعناً فى السن مات بعد يومين من تعيينه . ويقال إنه مات من شدة الفرح بتعيينه فى هذا المنصب(١) .

ونجحت الجهود المكثفة التى بذلها الشريف الحسين وابنه عبدالله لدى السفارة البريطانية فى إستانبول ولدى رجال الاتحاد والترقى ، الذين كان لهم النفوذ الأعلى فى الدولة لاستصدار فرمان سلطانى بتعيين الحسين بن على أميراً على مكة (١) . ولما وقّع السلطان عبدالحميد الثانى على هذا الفرمان ، عبر عن مخاوفه من أطماع الحسين قائلاً : «لقد خرجت الحجاز من يدنا ، واستقل العرب ، وتشتت ملك آل عثمان بتعيين الشريف الحسين أميراً على مكة المكرمة . وياليته يقنع بإمارة مكة المكرمة وباستقلال العرب فقط ، ولكن سيعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة لنفسه»(٢) .

وقد تحققت مخاوف السلطان عبدالحميد وصحت نبوءاته . فقد أعلن الشريف الحسين بن على الثورة فى الخامس من شهر يونيو – حزيران – عام ١٩١٦ على الدولة العثمانية منضماً إلى بريطانيا ، ونادى به أعيان الحجاز فى الثانى من نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٩١٦ «ملكاً على البلاد العربية» . ولكن اعترفت به بريطانيا وفرنسا فى الثالث من يناير – كانون ثان – عام ١٩١٧ «ملكاً على الحجاز» ، وتربع أولاده الثلاثة على ثلاثة عروش عربية، صدرت بشأنها قرارات من مقر رياسة الوزارة البريطانية – ١٠ داوننج ستريت فى لندن – ثم كانت خاتمة نشاطه السياسى ، حين أعلن نفسه خليفة على العالم الإسلامى فى عمان حيث كان فى زيارة ابنه عبدالله أمير شرقى الأردن فى ذلك الوقت ، منتهزاً فرصة إقدام الجمهورية التركية على إلغاء الخلافة فى الثالث من شهر مارس – آذار – عام ١٩٢٤(٣) .

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٦–٣٧ .

(٢) محمد طاهر العمرى الموصلى : تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ٣ مجلدات ، بغداد ، ١٣٤٣هـ–١٩٢٥م، المجلد الأول ، ص١٧٧ .

(٣) مرت مساعى الحسين للظفر بالخلافة الإسلامية بمرحلتين رئيسيتين : كانت المرحلة الأولى حين طلب بصفته شريف مكة وأميرها من بريطانيا فى اليوم الرابع عشر من شهر يوليو – تموز – عام ١٩١٥ أن توافق على إعلانه خليفة على المسلمين ، ضمن طلبات أخرى فى مقابل تحريك ثورة عربية ضد الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى . وجاءه الرد المؤرخ فى اليوم الثلاثين من شهر أغسطس – آب – عام ١٩١٥ من سير آرثر ماكماهون Sir Arthur Me Mahon ، المندوب السامى البريطانى فى القاهرة، يقول «وإننا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى بيت عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة» . وعلق عليها «الشريف» الحسين فى رده على المندوب السامى بقوله «أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها» .

أما المرحلة الثانية فكانت فى أثناء وجود «الملك» الحسين فى عمان التى كان قد وصلها فى اليوم الثامن من شهر يناير – كانون ثان – عام ١٩٢٤ قادماً من مكة المكرمة للتفاوض مع زعماء فلسطين فى=

ويتحقق نبوءات السلطان عبدالحميد الثانى ، دل هذا السلطان على أنه كان سياسياً محنكاً من الطراز الأول بعيد النظر ، ذا حصافة سياسية ، حريصاً على المحافظة على استقلال الدولة وعلى تماسك ممتلكاتها . ولكن الملابسات السياسية والقوى الأوروبية كانت أقوى من الدولة لتقف فى وجهها وهى تقترب من فترة الاحتضار ، أو بعبارة أكثر دقة ، وهى تجتاز فترة الاضمحلال وبخاصة بعد عزله عام ١٩٠٩ .

أهداف حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد :

والرأى الراجح أن التشهير العنيف والواسع النطاق الذى اقترن بسيرة السلطان عبدالحميد الثانى ا ،ستهدف بعد عزله تحقيق أربعة أغراض . كان الغرض الأول هو الدفاع عن أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، حين أقدموا على خلع عبدالحميد عام ١٩٠٩ ، فأرادوا تبرير تصرفهم بأنهم – وهم فى زعمهم حماة الدولة – لم يكن أمامهم سوى طريق واحد هو إنهاء حكمه كى تستعيد الدولة مكانتها وتسترد ولاياتها السلبية ، التى انتزعتها منها الدول الأوروبية على عهده .

وكان الغرض الثانى هو تغطية فشلهم الذريع فى حكم الدولة ، سواء فى شئونها الداخلية أو الخارجية كى يعتقد الرأى العام فى الدولة وفى خارجها أن حكمهم لم يكن أسوأ من حكم عبدالحميد ، الذى لم يكن فيه الفر يتمتع بحريته أو يأمن على حياته ، وأن البلاد فى ظل هذا السلطان كانت محرومة من الحياة الدستورية خاضعة تماماً للسيطرة الأجنبية .

ومن الثابت تاريخياً أن رجال الاتحاد والترقى حين استأثروا بالنفوذ ، ثم انفردوا بالحكم انقلبوا حكاماً طغاة مستبدين من الطراز الأول ، أو كما يسميهم الأستاذ محمد شفيق غربال «رجال الطغيان العسكرى»[(١)] ؛ فقد لجأوا إلى أساليب استفزازية دلت على الحماقة والجهالة

= مستقبل بلادهم ، كما أجرى مفاوضات مع وفد صهيونى أنتدبته اللجنة التنفيذية الصهيونية . وفى أثناء إقامته فى عمان جاءت الأنباء بأن الجمهورية التركية قد ألغت الخلافة . فاغتنم هذه الفرصة واتفق مع ابنه عبدالله ، أمير شرقى الأردن ، على اتخاذ الترتيبات لإجراء بيعة الملك الحسين بالخلافة . وتم لهما ما أرادا . وجرت البيعة فى اليوم الثانى عشر من شهر مارس – آذار – عام ١٩٢٤ فى عمان ، دون الرجوع إلى ملوك ورؤساء وقادة الفكر فى العالم العربى والإسلامى ؛ مما أسخط عليه الجميع وعدوه مستغلاً نهازاً للفرص ، يعمل لتحقيق مصالحه الشخصية . وقد غادر الخليفة والملك الحسين عمان فى اليوم العشرين من شهر مارس – آذار – عام ١٩٢٤، يحمل لقباً جديداً هو الخلافة فى وقت كان عرشه يهتز اهتزازاً عنيفاً أمام هجوم قوات «السلطان» عبدالعزيز آل سعود . واضطر إلى التنازل عن العرش لابنه على فى اليوم الرابع من شهر أكتوبر – تشرين أول – من العام ذاته . وسرعان ما انهارت الدولة الهاشمية وغادر الملك على الحجاز ونودى فى اليوم الثامن من شهر يناير – كانون ثان – عام ١٩٢٦ بالسلطان عبدالعزيز سعود ملكاً على البلاد الحجازية ، انظر :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ص١٧٤–٢٢٠ .

جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ص ص٦–١٣ .

(١) بحث مزيد وضعه الأستاذ محمد شفيق غربال لاستيفاء المادة العلمية عن الأتراك العثمانيين ، فى دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، مادة «الأتراك» .

بأصول الحكم ، وأثاروا مزيداً من الفرقة بين العناصر التركية الأصل والعناصر المسيحية والإسلامية غير التركية ، فكانت هذه العناصر طرائق قددا اشتعلت بينها العدواة والبغضاء .

وكان «التنسيق» من أبسط وأولى هذه الوسائل الاستفزازية ، والتنسيق يقابل فى شكله الظاهرى التطهير فى بعض الدول العربية فى التاريخ المعاصر .. فقد عمد رجال الاتحاد والترقى بعد أن استتب لهم الأمر إلى طرد عدة آلاف من الموظفين العرب والألبانيين والأكراد من مناصبهم الحكومية ، بحجة أنهم وصلوا إليها إبان الحكم الحميدى عن غير طريق الكفاءة والاستحقاق (١) . ولاتثريب على رجال الاتحاد والترقى، إذا قاموا بحركة التنسيق مستهدفين الصالح العام وتأمين حركتهم وحكمهم ، ولكن اتضح بما لايدع مجالاً للشك أن حركة التنسيق كانت فى لحمتها وسداها حركة عنصرية ؛ لأنهم عينوا موظفين طورانيين أى من الأتراك العثمانيين فى جميع المناصب ، التى خلت بطرد شاغليها سواء كانوا عرباً أو ألبانيين أو أكراداً .

ولكى يضفى رجال الاتحاد والترقى طابعاً قانونياً على حركة التنسيق ، ألفوا فى عاصمة كل ولاية لجنة خاصة على أن تتبع هذه اللجان لجنة عليا فى وزارة الداخلية ، ووضعوا لها قواعد تهتدى بها ذراً للرماد فى الأعين . وكانت الدولة إبان حكمهم الذى استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى تفقد كل عام أقاليم هامة فى أوروبا وإفريقية وآسيا ، وكانت الصعوبات الداخلية والأخطار الخارجية التى واجهتهم بعد عزل عبدالحميد جعلتهم يزدادون تمسكاً بمقاليد الأمور بحيث أصبح بقاؤهم على كراسى الحكم هو عندهم غاية الغايات . ولضمان هذا الهدف الأسمى فى نظرهم قبضوا على البلاد بيد من حديد واعتمدوا على سياسة «الحزب الواحد» وهو حزب الاتحاد والترقى، وهى سياسة ثبت فشلها الذريع فى التاريخ المعاصر سواء فى بعض الدول العربية أو الأوروبية ؛ حيث ساد الكبت والرهبة والتمزق والحكم الاستبدادى العنيف وفرض الرقابة على الصحف وحل الجماعات وتشريد القادة وإنشاء المحاكم العسكرية تصدر أحكاماً قاسية متفقاً عليها من قبل ، وتوزيع المناصب على الأنصار ومن إليهم من أهل الثقة وما إلى ذلك من عيوب نظام «الحزب الواحد» .. فلما قامت هذه الحرب عام ١٩١٤ لم يتبق للدولة من ممتلكاتها فى أوروبا سوى جزء صغير هو تراقيا الشرقية .

ووجد رجال الاتحاد والترقى فى نشوب هذه الحرب «مغامرة قد يكسبونها ، فإذا تم لهم ذلك نسى مواطنوهم إخفاق حكامهم فى كل ماحاولوه منذ أن استولوا على مناصب الحكم» وكان هذا الإخفاق ظاهراً شاملاً . فالحكم الدستورى كان اسمياً ، والوحدة العثمانية التى تجلت مظاهرها إبان الانقلاب الدستورى (١٩٠٨) تلاشت سريعاً وحلت محلها خطة عصبية تركية، أخذت الشعوب غير التركية بالحديد والنار . وكان رجل الدولة ينعون على السلطان عبدالحميد

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٤ .

انفراط عقد الدولة فى أيامه وتفريطه فى صيانة ولايات الدولة ، وهاهم أنفسهم لم يقووا – وقد حلوا محله – على منع مافقدته الدولة فى حروبه ...» [١] فزج أولئك العسكريون بالدولة فى أتون الحرب فى مستهل شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٩١٤ إلى جانب دولتى الوسط – ألمانيا ، والنمسا والمجر – وانتهت الحرب بهزيمة الدول الثلاث وحليفاتها الأخريات . وتمت على أيدى رجال الاتحاد والترقى تصفية الدولة العثمانية ، أما الدولتان الأخريان .. فقد تم تفتيتهما إلى دول من الصف الثانى أو الصف الثالث .

أما الغرض الثالث من حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد الثانى فكان إبراز صورة وضيئة ناصعة البياض لعهد مصطفى كمال – كمال أتاتورك [٢] ومشايعيه ، إذا قورن حكمهم بحكم السلاطين العثمانيين بعامة والسلطان عبدالحميد بخاصة ؛ إذ كان أقربهم إلى أذهان الجماهير التركية لقرب عهدهم به ، ولأنه كان من أشهر السلاطين ، وإن كانت شهرته قد لوثتها الدعاية ضده ، وكانت دعاية موجهة . كما كان من أهداف كمال أتاتورك وأنصاره – على غرار أهداف رجال الاتحاد والترقى – تبرير تصرفاتهم حين ألغوا نظام السلطنة العثمانية (أول نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٩٢٢) ، ثم أنشأوا النظام الجمهورى وأعلنوا قيام الجمهورية التركية (٢٩ من أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩٢٣) ، ثم ألغوا الخلافة الإسلامية (٣ من مارس – آذار – عام ١٩٢٤) ومضوا فى سياستهم فأنكروا الصفة الإسلامية والصفة الشرقية للجمهورية التركية ، ولم يهتموا إلا بالطابع التركى المتزمت والطابع غير الدينى المتحرر ، وجعلوا قوانينهم كلها مدنية صرفة منقولة عن القانون السويسرى مما كان له أفدح النتائج؛ فألغوا نظام تعدد الزوجات ، كما أصبح من حق التركية أن تتزوج رجلاً مسيحياً أو يهودياً ، وقرروا الأخذ بنظام الزواج المدنى وتقرير حقوق متساوية للزوج والزوجة ، وتخويل كل شخص بالغ الحق فى تغيير عقيدته الدينية حسب رغبته . وفرضوا أجهزة مدينة كافية لمواجهة مهمة تسجيل الزواج بعد أن أصبح مدنياً ؛ كى يصبح زواجاً قانونياً لاتعرف الدولة بسواه ، وتعترف الدولة بنتائجه من ثبوت حقوق الإرث وما إلى ذلك ، وشهروا حرباً على الحجاب بالنسبة للسيدات ، وعلى الأزياء القديمة بالنسبة للرجال الذين كان عليهم أن يرتدوا الملابس الأوروبية والقبعات [٣] ، ومنعوا أئمة المساجد ، من ارتداء العباءة خارج المساجد ، وحولوا عدداً كبيراً من

---

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال . بحث سبق ذكره .

(٢) أسقط من اسمه الكلمة العربية الصحيحة مصطفى ، وهى من أسماء النبى صلوات الله وسلامه عليه، واكتفى بالاسمين كمال وأتاتورك . ومعنى الاسم الأخير : والد الأتراك . واشتهر بالاسم الأخير فقط .

(٣) صدر فى شهر مارس – آذار – عام ١٩٢٦ بيان عن «رياسة الشئون الدينية الإسلامية فى المملكة المصرية» يندد بحمل الأتراك المسلمين على ارتداء القبعات . وقد وقع على هذا البيان شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية .

انظر :

Lewis B.; op. cit., pp. 269-270.

المساجد الكبرى والصغرى عن أغراضها الدينية إلى أغراض مدينة .

من الأمـثلة الصـارخـة التى تساق فى هذا الصـدد المسـجـد الذى كـان فى أول أمـره كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية ، ثم حولها السلطان محمد الفاتح أو أبو الفتوح عقب فتح هذه المدينة مباشرة إلى مسجد ليكون المسجد الجامع الرئيسى فى العاصمة الجديدة ، التى أطلق عليها اسماً إسلامياً هو إستانبول أى دار الإسلام، كما سبق أن ذكرنا ، ثم جاء الكماليون فحولوا هذا المسجد إلى متحف وطنى . ولم يشيد الكماليون أى مسجد جديد فى أنقره عاصمة الجمهورية . وجعلوا الأجازة الأسبوعية الرسمية فى وزارات الحكومة ومصالحها يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة ، وأصبحت الأجازة تبدأ من الساعة الأولى من بعد ظهر يوم السبت إلى صباح يوم الإثنين ، وأبطلوا كتابة اللغة التركية بالحروف العربية واتخذوا لها حروفاً لاتينية ليسهل نطقها باللغة التركية ، وتيسيراً للقراءة والكتابة على المتعلمين وتوثيقاً للاتصال باللغات الأوروبية مفاتيح العلوم الحديثة ... هذه هى الذرائع التى ذكرها غربال(١) . أمـــا المؤرخ الإنجليزى برنارد لويس ..فقد قرر أن الكماليين استندوا إلى أن الاتحاد السوفيتى قد اتخذ قراراً مماثلاً فى الأقاليم السوفيتية التى يتكلم سكانها لغات تركمانية .. فكان هذا القرار مثالاً يحتذى ودافعاً لحكومة الجمهورية التركية على إصدار قرار على غراره(٢) ، وأهم من هذه الإجراءات كلها ، وفوق هذه الإجراءات كلها ألغى الكماليون منصب شيخ الإسلام ووزارة الأوقاف والمؤسسات الخيرية ، وأنشأوا إدارتين جديدتين إحداهما للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزارة فى أنقرة ، والأخرى للمؤسسات الخيرية (٣) ، وألغوا أيضاً التعليم الدينى فى جميع مراحل التعليم . وكانت جميع هذه الإجراءات تنبثق من نظرة الكماليين إلى الإسلام ، وهى نظرة تمثلت فى أنه عقيدة دينية فقط ، فلم يكن الإسلام فى نظرهم نظاماً سياسياً أو اجتماعياً، وتأسيساً على هذه النظرة .. جردوا الجمهورية التركية من صفاتها الدينية ، ومن ثم اتخذوا هذه الإجراءات التى وصفها الأستاذ غربال بأنها كانت عملية «هدم عنيف» .

وفى الوقت ذاته ، عمل الكماليون على تتريك العبادة Turkicization of Worship ، فأذان الصلاة يجب أن يكون باللغة التركية من مآذن المساجد ، وأن يتلى القرآن الكريم باللغة التركية وأمروا بترجمته إلى اللغة التركية ترجمة رسمية معتمدة من الحكومة وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة واعتمدوا مبالغ كبيرة لهذا الغرض . وأن تكون الصلاة باللغة التركية ، وأن يرتدى أئمة المساجد قبعة من نوع الطاقية (Un Beret) حتى يكون فى مكنة الأئمة السجود، ولكن منعوهم من ارتداء العباءة خارج المساجد . وكان ارتداؤها مقصوراً على الأئمة ونفر من علماء الدين .

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال ، البحث السابق .

(2) Lewis Bernard; op. cit., p. 277.

(٣) انظر فى هذه الدراسة الفصل الرابع عشر ، الجزء الأول .

هذه الإشارة السريعة والعابرة لبعض الإجراءات ، التى اتخذها الكماليون تبدو على طرف نقيض من تصرفات السلاطين السابقين .. فبينما ولت الجمهورية التركية وجهها شطر أوروبا تقتبس منها العلوم والثقافة ونظم التعليم والقوانين المدنية والجنائية والتجارية والبحرية ونظم الحكم والإدارة وما إلى ذلك بعيداً عن مبادئ الشريعة الإسلامية والقاعدة الإسلامية والشرقية ، التى أقام عليها أجدادهم السابقون دولة مترامية الأطراف اكتسحت جيوشها لأول مرة فى التاريخ أقاليم فى شرقى ووسط أوروبا ، نجد أن السلاطين - محمود الثانى ، وعبدالمجيد الأول ، وعبدالعزيز ، وعبدالحميد الثانى(١) .. كان لهم تحفظات فى كل ما اقتبسوه من الحضارة الغربية ، وقد حروا على هذه التحفظات حتى لاتفقد الدولة طابعها الإسلامى البارز وطابعها الشرقى . وعلى سبيل المثال احتاطوا فى النقل عن القوانين الأوروبية، فاحتفظوا لحياة الأسرة ؛ أى لكيان الأمة الاجتماعى ، بأساسها الشرعى الإسلامى (٢) ، وفى التزيى بالأزياء الأوروبية أنكروا القبعة ، بينما اعتبر الكماليون عدم استخدام القبعة والإصرار على لبس الطربوش جريمة يعاقب عليها القانون .

أما الغرض الرابع والأخير من حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد الثانى .. فكان رغبة القائمين على الحركة الصهيونية فى تدمير سيرته ، انتقاماً منه لسياسته المعادية لأهدافهم فى فلسطين . وقد عرضنا بعض معالم هذه السياسة فى الفصل السابق ، ونضيف هنا حقيقتين تتصلان بالأيام الأخيرة بل وبالساعات الأخيرة من حكم هذا العاهل المسلم العثمانى .

الحقيقة الأولى :

أسهم الصهيونيون - بتعاون قليل أو كثير مع بريطانيا- فى تأليب أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الناقمين على حكم السلطان عبدالحميد ، وقد تلاقت دوافع الفريقين.. فالصهيونيون يحقدون على السلطان لسياسته الرامية إلى الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ويحقدون عليه لأنه اتخذ من بعض كبار العرب مستشارين له فى حاشيته مثل عزت العابد وأبى الهدى الصيادى وغيرهما ، وكانوا قد بلغوا شأواً بعيداً فى النفوذ ، وشجعوا السلطان على المضى فى معارضته للحركة الصهيونية .

أما بريطانيا فكانت تحقد على السلطان ، لأنه ولى وجهه شطر برلين واتخذ من الإمبراطور الألمانى ولهلم الثانى سنداً له فى السياسة الأوروبية ، واستقدم إلى إستانبول عدداً

---

(١) كانت سنوات حكم هؤلاء السلاطين على التوالى : ١٨٠٨-١٨٣٩ ، ١٨٣٩ - ١٨٦١ ، ١٨٦١-١٨٧٦ ، ١٨٧٦-١٩٠٩ .

(٢) غربال ، بحث سبق ذكره .

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٢٢-٢٣ .

كبيراً من الخبراء الألمان العسكريين والمدنيين من رجال المال والهندسة ، وقاموا بتنفيذ مشروعات شتى فى أنحاء الدولة ، بعد أن تبين للسلطان أن بريطانيا وفرنسا تتسابقان على اقتطاع ممتلكات الدولة . وكما تلاقت دوافع الصهيونية وبريطانيا التحمت أيضاً أهدافهما فى التخلص من حكم السلطان عبدالحميد .. أراد الصهيونيون حاكماً من طراز آخر يبعد المستشارين العرب من ناحية ، ويتيح عديد الفرص أمام الصهيونيين لتحقيق أهدافهم فى فلسطين من ناحية أخرى ، وأرادت بريطانيا حاكماً جديداً يعيد إليها مكانتها ، التى كانت لها فى إستانبول قبل أن تتبوأ ألمانيا مكان الصدارة على سائر الدول فى العاصمة العثمانية .

ولهذه الأهداف وتلك الدوافع ، رحب الصهيونيون بالانقلاب الدستورى عام ١٩٠٨ ثم بالانقلاب العسكرى عام ١٩٠٩ ، وحدث ماكانوا يشتهون . فقد تغلغل الصهيونيون فى مجالس جمعية الاتحاد والترقى التى تولت الحكم ، وكانوا من حيث النفوذ يجيئون فى الجمعية بعد الأتراك العثمانيين . وبرز منهم عدد ليس بالقليل فى الدوائر العليا فى حكومة إستانبول ، ونذكر منهم على سبيل المثال طلعت باشا والذى شغل منصب وزير الداخلية ، وهو يهودى اعتنق الإسلام [١] ، ويطلق عليه وعلى أمثاله فى التاريخ العثمانى الدونمة .

وقد استطاع الصهيونيون فى السنة ذاتها التى تم فيها الانقلاب الدستورى تأسيس وكالة صهيونية A Zionist Agency فى إستانبول ، وعينوا رئيساً لها ڤيكتور چاكوبسن Victor Jacobson (١٨٨٩-١٩٣٤) وهو يهودى ، روسى المولد ، تعلم فى ألمانيا واكتسب الجنسية العثمانية . وكان نشاط الوكالة الصهيونية ، وتقصى أنباء نشاط العرب فى العاصمة العثمانية وموافاة الهيئة التنفيذية الصهيونية بالاتجاهات العربية نحو الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتمليك اليهود لأراضيها ، كما كان عليها الإسهام فى التمويل المالى لصحيفة Le Jeune Ture - التركى الشاب - وكانت تصدر فى العاصمة العثمانية وتساند سياسة رجال الاتحاد والترقى فى الحكم[٢] .

واستطاع ڤيكتور چاكوبسن أن يتصل ببعض رجال السياسة العرب والصحفيين العرب فى محاولات مكرورة ؛ لإقناعهم بأنه من الخير للقومية العربية أن يكف العرب عن معارضتهم للنشاط الصهيونى فى فلسطين لأنه فى استطاعة الصهيونيين ، إذا أقلع العرب عن معارضتهم ، أن يساعدوهم على تحقيق آمانيهم القومية[٣] واستمرت هذه الاتصالات قائمة حتى شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٤ ، ولكنها لم تسفر عن نتيجة إيجابية ، ويقول شتاين إنه

---

(١) المرجع السابق .

(2) Stein Leonard; op. cit., p. 36, 92, 93 & 206-207.

(3) Loc. Cit.

لما حوكم بعض زعماء العرب فى سنة ١٩١٥ أمام «دواوين عرفية» (١) فى بيروت ودمشق بتهمة الخيانة العظمى وجدت السلطات العثمانية فى أوراق بعض المتهمين مايثبت قيام اتصالات بينهم وبين رجال الوكالة الصهيونية فى إستانبول ، وإن هذه الأوراق قد أثبتت أن الزعماء العرب لم يستمعوا لعروض الصهيونيين ، وأن هؤلاء الزعماء قد خلصوا رأياً إلى أنه ليس فى مقدور الصهيونيين مساعدة القضية العربية على حساب ولائهم للدولة العثمانية (٢) .

وقد أسهم مع ڤيكتور جاكوبسن فى نشاطه بين العرب لفيف من الشبان الصهيونيين أصبحوا فيما بعد من زعماء الحركة الصهيونية ، كان من بينهم ديفيد جرين (بن جوريون) ، وبن زفى ، وموسى شرتوك (شريت) . وقد ذاع خبر هذا النشاط الصهيونى فى صفوف العرب وناقشته جمعياتهم فى استفاضة وعمق ووقفت ضده وحذرت الجماهير العربية منه . وقد نجحت هذه الجمعيات بفضل تيقظ أعضائها فى إحباط محاولة ، قام بها جاكوبسن لشراء أراض عربية فى فلسطين بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه(٣) ، وأسس الصهيونيون أيضاً فى كبرى مدن بعض الولايات العربية بعد عزل السلطان عبدالحميد ماعرف باسم «المكتب الفلسطينى للمنظمة الصهيونية The Palestine Office of the Zionist Organization ، وكان يشرف على هذه المكاتب الدكتور آرثر روبين Dr. Arthur Ruppin كبير الخبراء الصهيونيين فى الشئون العثمانية . وكانت مهمته إيجاد جو من الثقة بين العرب نحو اليهود ، وتبديد مخاوف العرب من أن اليهود سيغتالون حقوقهم إذا استوطنوا فلسطين .

الحقيقة الثانية :

وجد الصهيونيون فى القرار الذى أصدره مجلسا الأعيان – الشيوخ ، والمبعوثان – النواب – فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل – نيسان – عام ١٩٠٩ بعزل عبدالحميد عن العرش فرصة لايجود الزمان بمثلها ، فأرادوا التشفى من هذا السلطان . وقد حمل قرار العزل إلى السلطان وفد قوامه ثلاثة أعضاء(٤) كان أحدهم يهودياً اسمه قره صو أفندى كان يكن العداوة والبغضاء للسلطان ، لأن الأخير كان قد طرده من قصره حين حاول التأثير عليه لقبول

---

(١) دواوين عرفية . جمع ديوان عرفى . وهو محكمة عسكرية عليا ، من اختصاصاتها محاكمة المتهمين بتهمة الخيانة العظمى ، وإصدار أحكام الإعدام عليهم ، ويصدق وزير الحربية على أحكامها . ويتكون الديوان العرفى من هيئتين : هيئة تحقيق وهيئة قضاة ، ويرأس كل هيئة ضابط ، وجميع أعضاء الهيئتين من الضباط .

(2) Stein Leonard.; op. cit., pp. 93-94.

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤ .

(٤) يذكر الأستاذ برنارد لويس أن عدد أعضاء الوفد ، الذى حمل قرار البرلمان إلى السلطان كان يتكون من أربعة أعضاء : اثنين عن مجلس الأعيان ، واثنين عن مجلس المبعوثان .

Lewis B.; op. cit., p. 217, fn. 28.

تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها . ويعلق أحد الباحثين العرب على ما أسماه موقف الشماتة فيقول «وإنه لمنظر مليء بالشماتة والحقد ، أن يخلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ، وأن يحمل له بلاغ الطرد أحد أبناء اليهود الذين حرم عليهم فلسطين ...»[1]. فلم يكن أمراً عجاباً أن أسهمت الحركة الصهيونية بأجهزتها الإعلامية والسياسية في حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد ، الذي لم تلن له قناة أمام المخططات والمؤامرات الصهيونية لتهويد فلسطين .

* * *

(١) صالح مسعود أبويصير ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٢-٣٣ .

الفصل التاسع

آراء محايدة

في حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٢)

حقيقتان هامتان :

ولدراسة تاريخ السلطان عبدالحميد الثانى دراسة موضوعية محايدة ، يجب أن توضع فى الاعتبار حقيقتان هامتان :

الحقيقة الأولى :

عاصر حكم السلطان عبدالحميد الزحف الاستعمارى الأوروبى فى أعنف مراحله على ماتبقى من أقاليم ، لم يكن قد وصل إليها الاستعمار بعد فى آسيا وإفريقية والإقيانوسية . كان لدى الدول الأوروبية فائض سكانى كنتيجة من نتائج الانقلاب الصناعى فى أوروبا ، وعملت أوروبا على تصدير هذا الفائض إلى أراض جديدة تستعمرها . فأصبح الزحف على تملك المستعمرات ظاهرة بارزة فى السياسة الدولية فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر ، وزاد عدد المستوطنين الأوروبيين فى شتى المستعمرات وسارت فى ركابهم البعثات التنصيرية . وكان مما ساعد على اتساع نطاق حركة الزحف الاستعمارى شق قناة السويس (١٨٦٩) والتقدم المذهل فى وسائل المواصلات ، مثل : بناء السفن الحديدية التى تسير بالبخار والتوسع فى مد الخطوط الحديدية ، وعلى سبيل المثال الخط الحديدى الذى أقامته الروسيا عبر سيبريا فى محاولة للتوسع على حساب الصين ، وأطلق عليه الخط الحديدى عبر سيبريا Trans Siberian Railway ويبلغ طوله ٦,٦٠٠ كيلو متراً ، وينتهى عند ڤلاديڤستوك ، وهو الميناء الحربى الذى أقامته الروسيا على المحيط الهادى ، واستغرق مد هذا الخط الحديدى السنوات من ١٨٩١ إلى ١٩٠١ .

نظريتان استعماريتان فى السياسة الدولية :

وجدير بالذكر أن نظريتين استعماريتين أصبحتا فى ذلك الوقت قاعدة أساسية ركنت إليهما السياسة الدولية ؛ فظهرت النظرية البيولوجية السياسية . وكان من مبادئها أن للدول الكبرى حقاً فى التهام الدول الصغرى ، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تموت أو أن تفنى أمام الدول الكبرى ، وقد لقيت هذه النظرية تأييداً وانتشاراً واسعين فى القرن التاسع عشر ؛ تبريراً لضراوة الزحف الاستعمارى الأوروبى على أقاليم شتى فى أنحاء العالم .

وأصبحت هذه النظرية البيولوجية السياسية نظرية استعمارية أخرى ، أطلق عليها Res Nullius ؛ أى الأرض التى لاصاحب لها ويترجمها بعض الباحثين ترجمة حرة غير حرفية على هذا النحو : الملك المباح ، وقد تنادى إليها غلاة المستعمرين . ومن مبادئها إباحة استعمار الأقاليم التى تسكنها شعوب متخلفة أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة وغير مسيحية وخارج القارة الأوروبية .. فإن هذه الأقاليم التى تسكنها أمثال هذه الشعوب أو القبائل تعتبر فى حكم المناطق المهجورة التى لايعرف لها صاحب ، وتصبح هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع بقواتها المسلحة أو ببعض أفراد منها أن ترفع علمها فوق ربوعها . وقد وضع مؤتمر برلين الإفريقى (١٨٨٤-١٨٨٥) عدة شروط لهذا الاستيلاء ؛ حتى يحدث جميع آثاره القانونية فى المجال الدولى(١) .

الروسيا تبتلع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز :

كانت الروسيا فى خلال عشرين سنة بعد حرب القرم قد نجحت فى ابتلاع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز.. فمنذ سنة ١٨٦٤ ، كان التوسع الروسى الإقليمى مستمراً فى تركستان(٢). وفيما بين سنتى ١٨٦٥ ، ١٨٦٨ استولت الروسيا على تركستان الشرقية بما فيها طشقند وسمرقند ، وهى المدينة الشهيرة التى كان يحكم منها جنكيزخان وتيمورلنك إمبراطوريتهما الشاسعة ، وأصبحت بخارى إمارة تابعة لسان بطرسبرج ، وتوغلت فى تركستان الغربية سنة ١٨٨٠ . وفى هذه السنة التقت الإمبراطوريات الثلاث : البريطانية والروسية والصينية عملياً فى مكان واحد ؛ لأن البريطانيين اندفعوا فى آسيا غرباً بقدر سرعة الروس فى الاندفاع شرقاً ، ولم يكن هناك حاجز بين أراضى كل منها إلا جبال أفغانستان وصحراء فارس.

---

(١) كان من أهم هذه الشروط :

(أ) شرط الحيازة . (ب) شرط الإدارة .

أما شرط الحيازة فهو العنصر المادى ، إذا ماوضعت الدولة يدها فعلاً على الإقليم سواء برفع أعلامها عليه ، أو بإصدار إعلان يحمل هذا المعنى ، بشرط أن تترك الدولة على الإقليم مايكفل لها العمل على احترام سلطة العلم أو تنفيذ الإعلان . ولاضرورة للإنفاق مع سكان الإقليم الأصليين على هذا الأمر ؛ إذ إن هذا الأمر - حتى فى حالة انعقاده - لايرتب أثراً قانونياً .

أما الشرط الثانى - وهو شرط الإدارة - فلابد أن يتوفر فيه أمران : أولهما ثبوت النية على أن الدولة تعتزم إدخال الإقليم فى ولايتها . وثانيهما هو إقامة إدارة - فى صورة ما - على الإقليم لإظهار أن الدولة التى تحوز الإقليم تعتزم إدارة هذا الإقليم الذى أدخلته فى ولايتهما . وقد أضيف هذا الشرط الأخير لتفادى النتائج التى قد تترتب على الحيازة الرمزية .

انظر :

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٧٠٨-٧١٦ .

(٢) التركستان بوجه عام هى البلاد الواقعة إلى الجنوب من الروسيا الأوروبية وسيبيريا ، وإلى الشمال والغرب من فارس (إيران) وأفغانستان .

وأصبح تهديد الروسيا للهند تهديداً مباشراً ، بعد أن كان فى حرب القرم تهديداً غير مباشر بتهديد المواصلات البريطانية إلى الهند .

الروسيا تحتل بعض الأراضى الأفغانية :

وأعدت الروسيا خطة لغزو الهند برّاً ، وكانت أفغانستان دولة حاجزة Un Etat Tampon تعتمد على بريطانيا . وفى عام ١٨٨٥ احتلت القوات الروسية بعض الأراضى الأفغانية على الحدود ، وفزع جلادستون رئيس الوزارة البريطانية من هذ التحرك العسكرى الروسى . وطلب من البرلمان فتح اعتماد مالى إضافى قدره أحد عشر مليون جنيه ، واتهم الروسيا بالعدوان على دولة صغيرة دون استفزاز منها ، وكادت الحرب تندلع بين بريطانيا والروسيا .. لولا أن استبان على الطبيعة استحالة مرور الوقت المسلحة فى ممرات جبال الهمالايا . فولى قيصر الروسيا وجهه شطر الصين ، وهى إمبراطورية شاسعة كان قد دب الوهن والانحلال فى أوصالها ، وكان يطلق على إمبراطورها «ابن السماء» . ولكن أدت محاولته إلى هزيمة ساحقة لقيتها الروسيا على يد دولة فتية هى اليابات عان ١٩٠٥ ، واعترفت فى معاهدة بورث سموث Portsmouth المنعقدة فى اليوم الخامس من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٩٠٥ بتنازلها لليابان عن بورت آرثر Port Arthur ، ومنشوريا ، وكوريا والنصف الجنوبى من جزيرة سخالين Sakhaline .

تقسيم فارس إلى منطقتى نفوذ روسى وبريطانى :

وقام صراع حاد بين الروسيا وبريطانيا حول فارس .. أرادت كل منهما الانفراد حيناً والاستئثار بأكبر قسط من النفوذ فيها حيناً آخر ، وكان النفوذ الروسى قد تسلل إلى فارس وتفاقم فيها نتيجة حالة الفساد والانحلال والفوضى التى انحدرت إليها فارس . واستطاعت الروسيا أن تدخل فى حرس الشاه ضباطاً من الروس إلى جانب ضباط وجنود القوزاق ، وأن تنشىء طرقاً وتمد خطوطاً حديدية ، ويقول إنزور Ensor إنه لو لم تكن بريطانيا دولة عظمى لاستطاع قيصر الروسيا ضم فارس إلى إمبراطوريته ، والوصول عن طريق الخليج العربى إلى المياه الدافئة[1] . ويلاحظ أنه كانت لبريطانيا مصالح تجارية فى الخليج ولكن مصالحها الرئيسية كانت مصالح عسكرية ، وفى ٣١ من أغسطس – آب – عام ١٩٠٧ عقدت اتفاقية بين الروسيا وبريطانيا تناولت ثلاث مشكلات رئيسية ، هى : فارس ، وأفغانستان ، والتبت . وتم بمقتضاها تقسيم فارس إلى منطقتى نفوذ : إحداهما فى الشمال للروسيا ، والأخرى فى الجنوب لبريطانيا ، وبينهما منطقة وسطى محايدة تركت لفارس ، مع اعتراف الدولتين بسيادة الشاه على

(1) Ensor R.C.K.; op. cit., pp. 402-403.

المنطقتين الروسية والبريطانية(١) .

وبخصوص أفغانستان تعهدت الروسيا بألا تقيم معها علاقات سياسية إلا عن طريق بريطانيا ، فى مقابل تعهد بريطانيا بعدم إحداث أى تغيير فى الوضع السياسى لأفغانستان أو اتخاذ أى إجراء ينطوى على تهديد للروسيا . أما بخصوص التبت .. فتعهدت الدولتان بعدم التدخل فى شئون هذا الإقليم وألا تبعثا بممثلين لهما إلى لاسا Lhasa عاصمة التبت ، وألا تدخلا معها فى مفاوضات إلا عن طريق إمبراطور الصين صاحب السيادة على التبت .

محاولة الروسيا إنشاء مستعمرة لها فى شرقى إفريقية :

وامتدت الأطماع الاستعمارية للروسيا فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى إنشاء محطة للفحم لسفنها على ساحل إفريقية الشرقى ؛ أى على خطوط المواصلات البحرية إلى منطقة الخليج العربى والهند والشرق الأقصى ؛ على أمل أن تطور هذه المحطة فيما بعد إلى قاعدة بحرية روسية لتنتهى بإنشاء مستعمرة لها على غرار المستعمرات ، التى أنشأتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فى شرقى إفريقية . وتكلمت الصحف الروسيف عن مشروع «أول مستعمرة روسية فى إفريقية» (٢) ، وارتبط هذا المشروع فى أذهان الدوائر العليا فى الروسيا بفرض نوع من الحماية الدينية على مسيحيى الحبشة .. فكان هذا ا لمشروع الروسى الاستعمارى مزيجاً من أهداف متشعبة عسكرية وسياسية ودينية واقتصادية .

واتخذت الروسيا خطوات تمهيدية لتنفيذ مشروعها . ففى اليوم العاشر من شهر ديسمبر – كانون أول – عام ١٨٨٨ أبحر أتشينوف Atchinoff ، وهو كاهن قوقازى ، ومعه وفد يتكون من مائتين من الرهبان والعسكريين والصناع والنساء والأطفال الروس من ميناء أودسا على ظهر إحدى السفن الروسية وسط شعور فياض من الحماس متجهاً إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس ، ولما بلغت السفينة مصوع رفضت السلطات الإيطالية السماح لأفراد الوفد بالنزول ، فواصلت السفينة رحلتها جنوباً إلى ميناء تاجورة فى يناير – كانون ثان – عام ١٨٨٩ ونزل جماعة من الوفد فى ساجالو Sagallo ، وهو ميناء مهجور يتبع مستعمرة أوبوك الفرنسية ، وقام أعضاء الجماعة على الفور برفع راية البحرية الروسية على الميناء .. مما دل على أن أتشينوف أراد اتخاذ هذا الميناء قاعدة لعملياته سواء فى ذلك الوقت أو فى الزمن الآجل ؛ مما أزعج

---

(١) تعرضت المواد الخاصة بفارس لنقد شديد فى كل من الروسيا وبريطانيا ؛ ففى الروسيا هاجمها الكونت ويت Witte الذى تولى رياسة الوزارة فيما بعد ، قائلاً إن الاتفاقية تقف عقبة فى سبيل تقدم الروسيا جنوباً فى فارس . بينما هاجمها لورد كرزون Curzon نائب الملك فى الهند ، على أساس أن منطقة النفوذ التى أعطيت للروسيا تضم إحدى عشرة مدينة من اثنتى عشرة مدينة ، من أمهات المدن الفارسية.

(٢) دكتور السيد محمد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرقى إفريقية ، وتأسيس مستعمرتى إريتريا والصومال . مطبعة جامعة القاهرة ، عام ١٩٦٠ ، ص٢٩٨ .

السلطات الفرنسية فى أوبوك وأمرت فى اليوم السابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٨٩ إحدى السفن الفرنسية بإطلاق مدافعها على ساجالو بحجة أن وفد أتشينوف غير مكلف رسمياً من الحكومة الروسية بالنزول فى هذا الميناء . وقد اضطر أتشينوف إلى طلب التسليم بعد أن قتل من الوفد الروسى عشرة رجال . وعندئذ سمحت السلطات الفرنسية للرهبان الروس من جماعة أتشينوف بالسفر إلى داخل الحبشة ، وأعادت أتشينوف والأعضاء العسكريين الروس إلى السويس حيث استقلوا سفينة روسية عادت بهم إلى بلادهم(١) .

وعلى الرغم من هذا الإخفاق مضت الحكومة الروسية فى مشروعها ، فانتهزت فرصة اعتلاء النجاشى منليك الثانى العرش فى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٩ عقب موت النجاشى يوحنا لكى تحصل من العاهل الحبشى الجدى على موقع فى شرقى إفريقية . وتأسست فى الروسيا عام ١٨٨٩ جمعية تهدف إلى تأسيس مستعمرة روسية على ساحل الحشبة تكون بمثابة محطة بحرية للفحم على الساحل الشرقى لإفريقية . وأرسلت الحكومة الروسية فى ذات السنة الضابط ماشكوف Machkoff فى سفارة خاصة إلى الحبشة للدعاية الروسية وإظهارها بمظهر الدولة المتعاطفة معها والحانية على رعاياها المسيحيين والوقوف على جانبهم ضد الأطماع الإيطالية الرامية إلى تحويل هؤلاء الرعايا من المذهب الأرثوذكسى إلى المذهب الكاثوليكى . وظفر هذا المبعوث الروسى باستقبال طيب من النجاشى منليك الثانى الذى كان يطمع فى الحصول على تأييد الروسيا للحبشة فى نضالها ضد إيطاليا . وعلى ذلك كانت الحكومة الروسية متفقة مع حكومة النجاشى فى ذلك الوقت على هدم النفوذ الإيطالى فى الحبشة . ثم رأت الحكومة الفرنسية فى أوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر أن تنسق سياستها مع الروسيا والحبشة من أجل مصالحها الاستعمارية فى تقويض التسلل الإيطالى إلى الحبشة حتى تستطيع تحطيم الحصار الذى فرضته إيطاليا على المستعمرة الفرنسية أوبوك (٢) فتصل إلى أعالى النيل والسودان عن طريق شرقى إفريقية وتنافس بريطانيا فى السيطرة على وسط إفريقية . ولكن كان تشجيع بريطانيا للوجود الإيطالى فى شرق إفريقية كفيلاً بتبدد آمال الروسيا وفرنسا والحبشة معاً .

خصائص استعمار إفريقية :

والحق أنه فى استعمار إفريقية تبدو ثلاث خصائص ، هى : البداية المتأخرة ، والزحف

(١) المرجع السابق ، ص ص٢٩٨-٢٩٩ .

(٢) انتقلت السلطات الفرنسية عام ١٨٩٠ من مقرها فى أوبوك إلى چيبوتى ، وهى ميناء أسسته على رأس چيبوتى ؛ نظراً لأن الموقع الجديد يسيطر على طرق القوافل من هرر والحبشة . وأصبحت چيبوتى عاصمة المستعمرة ، وهجر التجار الفرنسيون أوبوك واتجهوا بقوافلهم إلى العاصمة الجديدة .

الكاسح ، والاستعمار قصير الأمد نسبياً (١) . ففى آسيا بدأ الاستعمار فى مناطقها المدارية بصورة فعلية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بينما تأخر الاستعمار الفعلى الحقيقى فى إفريقية حتى القرن التاسع عشر أى بنحو قرنين من الزمان .

وقد مر استعمار إفريقية بمرحلتين أساسيتين : مرحلة أولى طويلة الأمد استطالت نحو ثلاثة قرون من القرن ١٥-١٦ حتى القرن ١٩ ، وهى مرحلة الاستعمار الساحلى .. مرحلة مواطىء الأقدام ، ظلت القوى الاستعمارية فيها تتأرجح طويلاً أمام السواحل ، دون أن تتمكن من التغلغل إلى الداخل وذلك بسبب الجغرافية الطبيعية «للقارة - الكتلة» لوجود الأنهار الحبيسة والصحارى الشاسعة والغابات الكثيفة . ولهذا السبب كان الاستغلال الاستعمارى مقصوراً على أخف وأغلى السلع الساحلية وهى تجارة الرقيق ؛ ولهذا كان استعمار إفريقية فى المرحلة الأولى استعماراً ديموجرافياً . وكان نزيفاً بشرياً رهيباً أصاب إفريقية بفقر الدم والضمور ، وانتزع عشرات الملايين من أبنائها ، منهم من نقل حياً ، ومنهم من مات فى الطريق .

أما منذ القرن التاسع عشر وخاصة بعد مؤتمر برلين الإفريقى (١٨٨٤-١٨٨٥) .. فقد توغل الاستعمار فى قلب إفريقية واستعمر الأرض لا الإنسان فحسب ، وحل الاستعمار الجغرافى محل الاستعمار الديموجرافى . وكما كان الاستعمار الديموجرافى نزيفاً بشرياً كان الاستعمار الجغرافى نزيفاً اقتصادياً رهيباً ، وهكذا لم يبدأ الاستعمار الجغرافى فى إفريقية إلا فى القرن التاسع عشر على الرغم من أن إفريقية كانت أقرب إلى أوروبا من آسيا ، وعلى الرغم من أن المستوى الحضارى والمادى والتنظيم السياسى لآسيا المدارية .. كان أعلى وأشد قوة منه فى إفريقية البدائية نسبياً .

أما الخصيصة الثانية للزحف الاستعمارى على إفريقية ، وهى أنه كان كاسحاً ، فمردها إلى أن سيطرة أوروبا لم تحدث تدريجياً أو على فترة طويلة ، بل تمت فى شكل موجة فجائية سريعة انتظمت كل القارة واكتسحتها فى بضعة عقود من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث كانت القوى الاستعمارية الأوروبية قد وصلت إلى أقوى درجات النمو ووسائل الحرب الحديثة المدمرة ، واستطاعت أن تغتصب لنفسها ما استطاعت أن تستولى عليه تحت ستار الملك المباح تارة ، والمجال الحيوى lebensrum تارة أخرى .

أما الخصيصة الثالثة ، وهى قصر مدة الاستعمار الإفريقى ، فترجع إلى أن تحرير معظم أقطار إفريقية بدأ فى القرن العشرين فى الوقت ذاته تقريباً الذى بدأ فيه تحرر آسيا ؛ فتحرير القارتين يكادان يتعاصران على الرغم من الحقيقة التى سبق أن أشرنا إليها ، وهى أن

(١) دكتور جمال حمدان : إفريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافية السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص٢١-٢٩ .

الاستعمار فى آسيا كان أسبق منه فى إفريقية . ولكن بدأ تحرر معظم أجزاء القارتين عقب الحرب العالمية الثانية ؛ لأن روح العصر كانت روحاً تحررية ، ولأن قوى سياسية كبرى جديدة كسرت احتكار الدول الاستعمارية الكبرى القديمة . ونخلص من هذا العرض إلى أن السلطان عبدالحميد الثانى عاصر حركة التدافع الاستعمارى الأوروبى الجنوبى على إفريقية ، فانتزعت من الدولة ولايات عربية إفريقية على عهده .

الاستعمار البريطانى :

حركة الجامعة البريطانية فى إفريقية :

ظهرت حركة الجامعة البريطانية (١٨٨٤-١٩٠٢)، وهى مشروع استعمارى استهدف إنشاء إمبراطورية إفريقية بريطانية ، تمتد من رأس الرجاء الصالح ويخترق القارة الإفريقية من جنوبها إلى شماليها ، والعمل على «تلوين معظم خريطة القارة الإفريقية باللون الأحمر البريطانى» ، وتفرع عن هذا المشروع مد خط حديدى يصل بين مدينتى الكاب والقاهرة .

وقد تنادى إلى حركة الجامعة البريطانية فى إفريقية سيسيل رودس Cecil Rhodes (١٨٥٣-١٩٠٢)، وهو أحد رواد الاستعمار البريطانى ، ومن أنشط رجال المال والسياسة الإنجليز .. قضى شطراً طويلاً من حياته فى جنوبى إفريقية ، وترك بصماته قوية فى ميدانى السياسة والمال . أسس سنة ١٨٩٠ شركة إفريقية الجنوبية على غرار شركة الهند الشرقية القديمة ، فأيدتها الحكومة البريطانية فى غزو الأقاليم الغنية فى حوض نهر زمبيزى ، وإنشاء مستعمرة روديسيا عام ١٨٩٠ . والواقع أن بريطانيا كانت قد اندفعت كالأخطبوط فى مستعمرة الرأس شمالاً وشرقاً وغرباً ، وكان سكان مستعمرة الرأس فلاحين هولنديين عرفوا باسم البوير[1] Boers، وقد ضاقوا ذرعاً بالحكم الاستعمارى البريطانى وأساليبه فنزحوا فى جماعات كثيفة العدد شمالاً إلى نهر فال Vaal ، وأسسوا فى شماليه وجنوبيه جمهوريتى الترنسفال وأورانج الحرة . وحدث أن ازدادت أهمية هاتين الجمهوريتين فى نظر بريطانيا عقب اكتشاف الذهب عام ١٨٨٥ فى الترنسفال والماس فى الأورانج ، وتدفق عليهما جمهور من البريطانيين في

---

(١) البوير تعنى الفلاحين الهولنديين الذين استوطنوا جنوبى إفريقية ، واشتغلوا أساساً بالزراعة . وكان الهولنديون قد نزحوا إلى جنوبى إفريقية فى القرن السابع عشر . وظلت هولندة صاحبة السيادة على مستعمرة الرأس إلى أن تخلت عنها لإنجلترا ، أثناء حروب نابليون ، لقاء ستة ملايين من الجنيهات كتعويض لها .

وكلمة بوير مشتقة من اللغة الهولندية ومعناها الفلاح الذى يعمل فى فلاحة الأرض ، وأصبحت كمصطلح تاريخى تعنى المستوطنين الهولنديين فى جنوبى إفريقية . أما فى معناها العام ، فأصبح الإنجليز يطلقونها على الشخص الشرس اللفظ الغليظ القلب ، وهى تكتب فى اللغة الإنجليزية Boer تارة Boor تارة أخرى .

طلب الثروة وأنشأوا الخطوط الحديدية ، وقامت فى وسط المناطق التعدينية فى الترنسفال مدينة جوهانزبرج Johannesburg الغنية الرحيبة ، والتى غدت أعظم مركز لاستخراج الذهب فى العالم . وخاف البوير أن يطغى عليهم سيل المهاجرين المغامرين ، الذين ازدادوا عتواً بعد أن بسط سبسيل رودس السيطرة البريطانية على روديسيا . وأرسل حملة بريطانية بقيادة جيمسن Jameson فى ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٥ ؛ لضم جمهورية الترنسفال إلى المستعمرات البريطانية لوكنها منيت بهزيمة منكرة فى يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٦ أمام كروجر Kruger الزعيم والقائد الجمهورى البويرى ، واكفهر الجو بين البريطانيين والبوير . ومما زاد الموقف اشتعالاً أن ولهلم الثانى إمبراطورألمانيا أرسل فى اليوم الثالث من الشهر ذاته ، عشية هزيمة الحملة البريطانية برقية تهنئة إلى كروجر ، جاء فيها «أهنئكم بإخلاص أنتم وشعبكم على نشاطكم الذى قمتم به ، دون طلب المساعدة من الدول الصديقة ضد الجموع الرحل المسلحين المعكرين للسلام الذين اقتحموا بلادكم ، وأهنئكم على نجاحكم فى إعادة الأمن والمحافظة على استقلال بلادكم من هجوم خارجى» [١] .

وكان لهذه البرقية أصداء بعيدة فى الرأى العام البريطانى ، أثارت فيه مشاعر الحنق والأسى ، وفسرها بأنها نوع من الشماتة والتدخل الألمانى المنطوى على الشر ودليل على النوايا الخطيرة لألمانيا تجاه بريطانيا . ودارت اتصالات سياسية على جانب كبير من الخطورة بين ألمانيا وفرنسا والروسيا لتنسيق خططها الرامية إلى الاستفادة من متاعب بريطانيا فى حرب البوير [٢] ، وظفر البوير بعطف الشعوب الأوروبية التى نظرت إلى هذه الحرب على أنها صراع محتدم بين الحرية والاستعمار . وكان كل نصر يحرزه البوير يستقبل فى أوروبا بحماس هادر ، وكل هزيمة تحل بهم تقابل بالحزن [٣] ، واستعد البريطانيون والبوير لجولة حربية أخرى لحسم الموقف .

ونشبت الحرب بعد قرابة ثلاث سنوات ، فى أكتوبر - تشرين أول - عام ٢٨٩٩ ، وزحف إليها المتطوعون من كل فج عميق من فجاج الإمبراطورية للوقوف إلى جانب بريطانيا الأم .. وانتصر البوير فى المراحل الأولى للحرب وأظهروا صلابة فى محاربة قوات بريطانية مدربة كثيفة العدد ، ولكن نجح القائدان الإنجليزيان روبرتس Roberts Frederick ووكتشنر Kitchener Herbert فى استرداد ماكان البريطانيون .. فقد خسروه فى أول الحرب وأخذوا

(1) Ensor R.C.K.; op. cit., p. 232.
(2) Taylor A.J.P.; op. cit., pp. 387-389.
(3) Fisher H.; op. cit., p. 1068.

عاصمة الترنسفال[١] وعاصمة أورانج الحرة [٢] ، واستخدم البريطانيون فى محاربة البوير «طرقاً متبربرة» على حد تعبير كامبل بانرمان [٣] ؛ إذ عمدوا إلى إحراق بيوت البوير وحشدوا النساء والأطفال فى نقط عسكرية كانوا يموتون فيها من الجوع والبرد والأمراض وأوهنوا مقاومتهم . وانتهت الحرب بعقد معاهدة فيرينيجنج Vereeniging (٣١ من شهر مايو - آيار - عام ١٩٠٢) وبمقتضاها ضمت بلاد البوير إلى الممتلكات البريطانية وجعلت اللغة الإنجليزية لغة رسمية وأجيز استخدام اللغة الهولندية فى المحاكم وكذلك فى المدارس إذا أراد آباء التلاميذ ذلك .. وهكذا أسدل الستار على حرب البوير ، وكانت حرباً استعمارية ضارية عاصرت حكم السلطان عبدالحميد الثانى ، واستنفدت كثيراً من موارد الإمبراطورية البريطانية ، وتحملت بسببها خسائر فادحة فى الأرواح والأموال[٤] .

ومن أجل تحقيق فكرة حركة الجامعة البريطانية فى إفريقية ، استولت بريطانيا على مديرية خط الاستواء ، بعد أن طردت منها أمين باشا [٥] مدير المديرية فى أوائل سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المديرية هى المنطقة الوحيدة التى لم يستطع المهدى وخلفاؤه أن يبسطوا نفوذهم عليها [٦] ، واستولت بريطانيا أيضاً على أقاليم شتى فى غربى وشرقى إفريقية . ففى غربى القارة استعمرت نيجيريا ، وساحل الذهب ، وسيراليون ، ومصب نهر غمبيا . وفى شرقى القارة استعمرت أوغندة وكينيا [٧] والصومال ، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم رحلت عنها بمقتضى إتفاقية ١٩ يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٩ .

والحق أن حكم الملكة ڤيكتوريا شهد نشاطاً واسعاً فى ميادين الاستعمار والتسلط . واستطال حكمها أكثر من ثلاثة وستين عاماً (١٨٣٧-١٩٠١) ، وأطلق عليه العصر الڤيكتورى

---

(١) بريتوريا Pretoria .

(٢) بلويمفونتين Bloemfontein .

(٣) Methods of Barbarism وكان هنرى كامبل باترمان Sir Henry Campell-Bannerman من أعلام حزب الأحرار فى مجلس العموم ، ألف وزارته الأولى والوحيدة فى ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٠٥ وظلت فى الحكم إلى أن قضى نحبه فى ٢٢ من أبريل - نيسان - عام ١٩٠٨ ، وخلفتها فى الشهر ذاته وزارة أسكويث Asquith الأولى . ومما يذكر أن كامبل باترمان أعطى - وهو رئيس وزارة - .حكومة مسئولة للترنسفال وأورانج الحرة سنة ١٩٠٨ .

(٤) بلغت خسائر بريطانيا فى حرب البوير ٥,٧٧٤ قتيلاً ، ٢٢,٨٢٩ جريحاً ، وأكثر من ١٦,٠٠٠ ماتوا بالحمى ، وتكبدت ٢٢٢ مليون جنيه .

(٥) هو طبيب ألمانى عمل حيناً فى خدمة الدولة العثمانية ، ثم اعتنق الإسلام ، واختار لنفسه اسم محمد أمين الحكيم .

(٦) عبدالرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومى منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢) ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ ، القاهرة ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ص ص١٤٥-١٥٣ .

(٧) اغتصبت بريطانيا من أملاك مصر الجنوبية أوغندة ، وأونيورو ، ومنطقة البحيرات ، والجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء القديمة .

The Victorian Age ، وأضيف فى عام ١٨٧٦ إلى ألقابها لقب جديد هو «إمبراطورة الهند» على عهد وزارة دزرائيلى الثانية رغبة فى إيجاد مزيد من علائق التبعية بين شبه القارة الهندية ، ودولة تقبع فى جزيرة كبيرة نائية فى أقصى الطرف الشمالى الغربى من أوروبا [١] .
وكان للعصر الڤيكتورى خصائصه فى الاستعمار البريطانى المتعدد القارات ، والسياسة الخارجية المحسوبة بحساب دقيق ، والإصلاحات الداخلية المتعددة ، كما ازدان مجموعة من أعلام الفكر، تركوا بصماتهم قوية فى مسيرة الحضارة الإنسانية .

الاستعمار الفرنسى :

انطلقت فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، تؤسس لها مستعمرات واسعة وعديدة فى إفريقية وآسيا ، بالإضافة إلى المستعمرات التى كانت لها قبل ذلك التاريخ[٢] ، ولنا عدة ملاحظات، على حركة التوسع الاستعمارى الفرنسى ، نذكر منها :

أولاً : إن كارثة سيدان (٢ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠) التى تعرضت لها فرنسا فى الحرب السبعينية لم تؤثر على سياستها التوسعية الاستعمارية ، بل على النقيض ازدادت هذه السياسة نشاطاً ابتغاء دعم مركز الجمهورية الثالثة فى نظر الرأى العام الفرنسى؛ حتى لايتهمها بأنها استكانت للهزيمة العسكرية وأصبحت تؤثر السلامة والانكماش الإقليمى . وكانت حكومة الجمهورية تجد تشجيعاً من ألمانيا على توجيه طاقاتها العسكرية نحو الاستعمار ، بدلاً من توجيهها إلى استعادة الألزاس واللورين من ألمانيا . وكان فى انطلاق فرنسا إلى ميادين الاستعمار خارج أوروبا ؛ إرضاء لكبريائها ووسيلة لتستعيد مكانتها كدولة كبرى فى السياسة الدولية .. ولذلك كان من المعالم الهامة فى تاريخ السياسة الاستعمارية لفرنسا أن الغالبية الساحقة من مستعمراتها الكبرى قد تأسست بعد كارثة سنة ١٨٧٠ ، وكان الشعار الذى تردد على ألسنة الجماهير الفرنسية هو "La France se renaîtra" ؛ أى ستولد فرنسا من جديد .

ثانياً : إن اختيار فرنسا قد وقع على إفريقية لتكون الميدان الأساسى للاستعمار الفرنسى ، وقد بدأت غزوها من الشمال وتوغلت فى جوف القارة ، وامتدت إلى شرقيها وغربيها .

ثالثاً : إن نهمها الاستعمارى امتد إلى ممتلكات الدولة العثمانية. قبل منتصف القرن التاسع

---

(١) انظر أسانيد دزرائيلى رئيس الوزارة البريطانية فى مواجهة المعارضة العنيفة ، فى مجلس العموم واللوردات ، عند النظر فى قانون إضافة لقب إمبراطورة الهند إلى ألقاب ملكة إنجلترا .
Ensor R.C.K., op. cit., pp. 38-39.

(٢) كانت فرنسا قد فقدت معظم مستعمراتها فى القرن الثامن عشر ، خصوصاً فى الهند وأمريكا ، وأصبحت لاتملك فى سنة ١٨١٥ إلا بعض بقايا المستعمرات القديمة ، وسهنيجال ، وجزيرة رينيون ، وجويان ، وجوديلوب ، ومارتنيك ، ومدائن الهند الخمس .

عشر، ثم بعده إبان حكم السلطان عبدالحميد الثانى (الجزائر ١٨٣٠ ، وتونس ١٨٨١).

رابعاً : وكما أن بريطانيا تنادت إلى حركة «الجامعة البريطانية» فى إفريقية – كما مر بنا – وماتفرع عن هذه الحركة من محاولات لمد خط حديدى يخترق القارة الإفريقية اختراقاً طولياً من مدينة الكاب إلى مدينة القاهرة .. سعت فرنسا منذ أوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر لتنفيذ مشروع استعمارى على شاكلته، أطلق عليه «مشروع البحر الأحمر – المحيط الأطلنطى» ، ويقوم على مد خط حديدى يخترق القارة الإفريقية اختراقاً عرضياً من الساحل الغربى للبحر الأحمر إلى ساحل إفريقية المطل على المحيط الأطلنطى ، بالزحف من الشرق والغرب معاً صوب حوض النيل الأعلى . وكان لفرنسا مستعمرات على سواحل خليج تاجورة المطل على خليج عدن – مستعمرة الصومال الفرنسى – وكانت تمتلك أيضاً مستعمرات واسعة فى إفريقية الغربية . وكانت أهداف فرنسا من هذا التوسع الاستعمارى فى جوف إفريقية هو الوصول إلى منابع النيل من الحبشة ، عن طريق نشر النفوذ الفرنسى فيها على أنقاض النفوذ الإيطالى[1] من ناحية، وإرسال حملات عسكرية من الممتلكات الفرنسية الإفريقية إلى حوض النيل ابتغاء الاستيلاء على إقليم بحر الغزال على وجه الخصوص ؛ استناداً إلى أن هذا الإقليم تنطبق عليه نظرية «الملك المباح» ، منذ أن أخلى المصريون السودان وللاستيلاء على فاشودة، ورفع العلم الفرنسى عليها من ناحية أخرى[2] .

خامساً : أن زحفها الاستعمارى على إفريقية واستغلال مستعمراتها اقتصادياً وعسكرياً وإنشاء خطوط للمواصلات البحرية للأسطول الفرنسى ومحطات آمنة له .. كل ذلك واكب زحفها على آسيا لذات الأغراض ، وقد نجحت فى كلتا القارتين نجاحاً بعيداً[3] .

---

(١) كان النفوذ الإيطالى فى الحبشة قد تعرض الكارثة ؛ نتيجة الهزيمة الساحقة التى نزلت بالقوات الإيطالية على يد الأحباش فى واقعة عدوة فى أول مارس – آذار – عام ١٨٩٦ ، وبلغ عدد القتلى الإيطاليين أربعة آلاف وعدد الأسرى ألفين . ونتج عن هذه المعركة استقلال الحبشة استقلالاً كاملاً ورسمت الحدود بين إريتريا والحبشة عند الخط النهرى «مارب – بيليسا – مونا» Mareb - Belesa - Mona .

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى كل من :
دكتور محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٤٤–٥٣٧ دكتور السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ص١٢٩–١٥٨ ، ١٦٥–٢٢٢ .
دكتور محمد رياض ودكتورة كوثر عبدالرسول : إفريقيا ؛ دراسة لمقومات القارة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ص٢٨–٣٦ .

(٣) أنشأت فرنسا مستعمرة فرنسية واسعة فى وادى الكونغو – الكونغو الفرنسية – (١٨٧٦–١٨٨٥) بجانب دولة الكونغو الحرة وسميت هذه المستعمرة (إفريقية الاستوائية الفرنسية) . وبسطت حمايتها بعد سنة ١٨٨٠ على أراضى واسعة فى حوض النيجر ، وامتد نفوذها حتى بحيرة تشاد ، وسميت المنطقة الجديدة السودان الفرنسى (١٨٩٠–١٨٩٨) . واحتلت فى سنة ١٨٩٣ تومبوكتو – وهى من المدن الإسلامية =

سادساً : اتخذت فرنسا من بعض جزرها التالية فى الإقيانوسية ، مثل : كالدونيا الجديدة Nouvelle Caledonie ، وإيريد الجديدة Nouvelles Hebrides منفى لزعماء الجزائر الوطنيين، ومثوى لأرباب السوابق الفرنسيين لتطهير المجتمع الفرنسى من شرور الأخيرين .

نزول ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار :

أولاً : الاستعمار الألمانى :

وفى أثناء حكم السلطان عبدالحميد ، نزلت ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار . كان بسمارك المستشار الألمانى يصرح طوال السنوات الأولى عقب قيام الاتحاد الألمانى أنه لايتطلع إلى الاستعمار ، وأنه ينظر إلى المستعمرات على أنها من قبيل الكماليات بالنسبة لدولة ناشئة مثل ألمانيا ، وأن الجهود يجب أن تتضافر لتنظيم البناء الداخلى والذى شيده بالحديد والنار . ومن أقواله فى هذا الصدد «إنى لست رجلاً استعمارياً ، ولست فى حاجة إلى مستعمرات على الإطلاق ؛ لأنها تثير القلاقل والمشكلات .. إن مثل المستعمرات لنا نحن الألمان ، كمثل الملابس الحريرية التى يرتديها الشريف البولندى وليس تحتها ملابس داخلية يستر بها عورته». ولكنه تراجع عن هذه السياسة أمام ضغط الرأى العام الألمانى ، فانتهج سياسة استعمارية نشيطة معللاً إياها بقوله «إن للضرورة أحكاماً» . ففى سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ غدت ألمانيا تملك مستعمرات بلغت مساحتها فى إفريقية وحدها بضعة ملايين من الأميال المربعة من الأرض؛ فضلاً عن قواعد فى آسيا وجزر فى الإقيانوسية ، اتخذتها محطات لها [1] .

= الشهيرة بتجارتها وبموقعها على رأس خط قوافل شمالى إفريقية – وسيطرت فرنسا على جزء كبير من الصحراء ، التى تفصل الجزائر عن السنغال وسائر الممتلكات الفرنسية على خليج غينيا . وأعلنت حمايتها سنة ١٨٩٣ على داهومى وساحل العاج وغانة . وأنشأت فى عام ١٨٩٥ ماعرف باسم إفريقية الغربية الفرنسية . وربطت السلطات الفرنسية ساحل العاج وداهومى بالنيجر والسودان الفرنسى ، وربطت ممتلكاتها فى شمالى إفريقية بممتلكاتها فى إفريقية الغربية عن طريق الصحراء وموريتانيا (١٩٠٠–١٩١٠) . واستولت سنة ١٨٨٢ على الصومال الفرنسى ، عند باب المندب وأخذت تتوغل فى إقليم بحر الغزال واستولت على جزيرة مدغشقر عام ١٨٩٥ . أما فى شمالى إفريقية ، فكانت قد احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ ثم بسطت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ واقتسمت بعد عزل السلطان عبدالحميد مراكش مع إسبانيا، عقب منافسة حادة للغاية بينها وبين ألمانيا على هذا الإقليم الوحيد ، الذى بقى مستقلاً فى شمالى إفريقية حتى عام ١٩١١ . أما فى آسيا فكانت قد بسطت حمايتها على كمبوديا سنة ١٨٦٢ ، واحتلت كوشن صين سنة ١٨٦٧ ثم دخلت فى حرب ضد الصين التى تنازلت لها فى سنة ١٨٨٢ عن منطقة تونكان ، واعترفت بحمايتها على ولاية أنام Annam (فيتنام) .

(١) أعلنت ألمانيا فى شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٨٤ الحماية على كل جنوبى غرب إفريقية ، فيما عدا خليج والفش Walfisch Bay ؛ أى من حدود أنجولا البرتغالية حتى الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس . وفى شهر يوليو – تموز – من السنة ذاتها ، ضمت الخط الساحلى فى الكمرون فضلاً عن توجولاند . وبد=

ولكن يلاحظ من ناحية أخرى أن المكاسب التى عادت على ألمانيا من مستعمراتها كانت ضئيلة نسبياً على الرغم من تعدد هذه المستعمرات ومساحاتها الشاسعة . فقد كانت مستعمراتها ، باستثناء إفريقية الشرقية الألمانية ، فقيرة نسبياً فى المواد الخام وغير منتجة المواد الغذائية ، كما فشلت الحكومة الألمانية فى توطين المستعمرين الألمان فى مستعمراتها ، فضلاً عن أن المستعمرات الألمانية كانت بعيدة عن ألمانيا؛ مما كان يعرضها لأخطار جسيمة فى حالة نشوب حرب ؛ إذ كان فى مكنة بريطانيا أن تعزلها تماماً عن ألمانيا (١) .

ثانياً : الاستعمار الإيطالى :

مكافحة الإجرام من أسباب الاستعمار الإيطالى :

أما إيطاليا فإن انتشار موجات الإجرام فى جنوبى البلاد ؛ خصوصاً بعد إتمام الوحدة الإيطالية ، كان بداية التفكير فى انتهاج سياسة نشيطة للاستعمار فيما وراء البحار لإنشاء مستعمرات إيطالية تعمل فيها الحكومة على استعلاء Sublimation طاقات المجرمين من قطاع الطرق والقتلة واللصوص ، ومن إليهم من محترفى الإجرام ، واستبدال Substitution العمل الشريف بعملهم الإجرامى ، ولهذا رأت الحكومة الإيطالية نبذ سياسة العزلة من المحيط الدولى بما تحمله من معانى الاستكانة داخل حدود الوطن الإيطالى Stay-at-hom policy كى تنطلق إلى حياة أفضل ، وفى مجالات رحبة فسيحة فى ميادين الاستعمار .

= التنافس بين ألمانيا وبريطانيا على شرقى إفريقية ، وأسس الألمان فى عام ١٨٨٥ «شركة إفريقية الشرقية الألمانية» Deutache Ost Afrike Kompagnie ورد الإنجليز عليهم بتأسيس «شركة إفريقية الشرقية البريطانية» Bitish East African Association ، وعقدت الحكومتان الألمانية والبريطانية فى ٢٩ من أكتوبر – أول نوفمبر (تشرين أول وتشرين ثان على التوالى) عام ١٨٨٦ أول معاهدة بينهما لتحديد مناطق نفوذهما فى شرقى إفريقية ، على حساب سلطنة زنجبار ، التى انكمشت حدودها إلى شريط ساحلى ضيق ، بعد أن استأجرت الشركتان الأراضى اللازمة لهما من زنجبار . وسميت الأقاليم التى استولت عليها ألمانيا فى شرقى إفريقية «إفريقية الشرقية الألمانية»، وكانت تحدها من الشمال إفريقية الشرقية البريطانية ، ومن الجنوب إفريقية الشرقية البرتغالية ، ومن الغرب دولة الكونغو الحرة ، ومن الجنوب الغربى روديسيا.

وفى آسيا انتهزت ألمانيا فرصة قتل اثنين من المنصرين الألمان فى الصين ، فاحتلت خليج وميناء كياو – شو Kiao - Shaw فى نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٨٩٧ ، ثم توغلت فى شانتنج Shantung .

وفى الإقيانوسية أسست ألمانيا عام ١٨٨٤ شركة غينيا الجديدة الألمانية ، وبعد نزاع طويل مع بريطانيا قسمت غينيا الجديدة إلى قسمين : الشمالى لألمانيا ، والجنوبى لبريطانيا ، كما استولت على عدد من الجزر الأخرى فى الإقيانوسية .

(١) دكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤– ١٩١٤) ، القاهرة ، د.ت ، ص٢٠٨ .

عوامل أخرى دفعت إيطاليا إلى الاستعمار :

كما واجهت الحكومة الإيطالية مشكلات داخلية أخرى ، دفعتها إلى الاتجاه إلى الاستعمار، كان من بينها : الأزمات المالية المتلاحقة ، وتدهور مستوى معيشة السكان ، وهبوط قيمة العملة ، وارتفاع الأسعار ، وكثرة تغيير الوزارات ، وتزايد عدد السكان تزايداً رهيباً ، ثم كانت هناك الأحلام التاريخية ، التى كانت تداعب خيال الإيطاليين بإنشاء إمبراطورية شاسعة الأطراف ، على غرار الإمبراطورية الرومانية القديمة وكانت عاصمتها روما ، وذهبت أحلام الإيطاليين إلى محاولة جعل البحر المتوسط ، أو حوضه الشرقى على الأقل ، بحيرة إيطالية(١). وظهرت أطماع إيطاليا فى الدولة العثمانية ، بعد أن استقامت الوحدة السياسية فى سنة ١٨٧٠ لهذه الدولة الوليدة ، التى كان يطلق عليها «كبرى الدول الصغرى» حيناً و«صغرى الدول الكبرى» حيناً آخر (٢) . وحدث تسابق بينها وبين فرنسا على امتلاك تونس ، وبذلت إيطاليا محاولتين لانتزاع تونس من الدولة العثمانية .

وكانت المحاولة الأولى سنة ١٨٧٠ عقب انهيار فرنسا نتيجة الكارثة ، التى نكبت بها بهزيمتها فى معركة سيدان فى اليوم الثانى من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٨٧٠ أمام بروسيا وانفجار الثورة فى باريس وإعلان الجمهورية الثالثة فى اليوم الرابع من ذات الشهر ، وجاءت المحاولة الثانية فى أعقاب مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، وازدياد نفوذ النمسا والمجر فى البحر الأدرياتى والبلقان، بعد أن احتلت هذه الإمبراطورية الثنائية الولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك فى غربى البلقان .

ولكن ساندت بريطانيا دبلوماسياً فرنسا لبسط حمايتها على تونس ، ولم تكن إيطاليا تملك القوة أو النفوذ لمنع فرنسا من بسط حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، ثم وقع حادث هام أدى إلى نشاط محموم فى حركة الاستعمار الأوروبى وهيأ لإيطاليا ميداناً رحيباً للتوسع الاستعمارى، وأتاح فى الوقت ذاته فرصة أمام بريطانيا لإرضاء المطامع الإيطالية فى الاستعمار والكيد لفرنسا . كانت بريطانيا قد احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم ضغطت على الحكومة المصرية سنة ١٨٨٤ لإخلاء السودان وسحب الجيش المصرى من أرجائه . ووجدت بريطانيا عميلاً من عملائها يقبل هذا الأمر أو النصيحة ، وهو نوبار باشا بعد أن رفض شريف باشا رئيس الوزارة الاستجابة لرغبة بريطانيا ، وألف نوبار وزارته الثانية فى ١٠ من يناير – كانون ثان – عام ١٨٨٤ (٣) على أساس إخلاء السودان . وحدث تسابق بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبشة بل

---

(١) انظر عرضاً رائعاً لمشكلات إيطاليا الداخلية بعد الوحدة فى رسالة دكتوراه السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٥–٢٥ .

(٢) دكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥٤ .

(٣) ألف نوبار باشا وزارته الأولى على عهد الخديو إسماعيل فى ٢٨ من أغسطس – آب – عام ١٨٧٨، وظلت فى الحكم حتى ١٩ من فبراير – شباط – عام ١٨٧٩ .

وبلجيكا على الاستيلاء على الممتلكات المصرية التى أصبحت فى نظر هذه الدول وطبقاً للنظرية الاستعمارية ملكاً مباحاً ؛ فأنشأت بريطانيا مستعمرة الصومال البريطانى وتطل على خليج عدن ، وأسست فى الداخل على أنقاض مديرية خط الاستواء محمية أوغنده . وأنشأت فرنسا مستعمرة الصومال الفرنسى عند باب المندب وأخذت تتوغل فى إقليم بحر الغزال ، واستولت الحبشة على هرر ، واستطاع ليوبولد الثانى ملك بلجيكا تعديل حدود «دولة الكونغو الحرة» ، على حساب قسم من أملاك مصر فى مديرية خط الاستواء[١] .

أما إيطاليا ، وقد كان لها نشاط تجارى ملحوظ فى البحر الأحمر ، فقد تطلعت إلى تأسيس مستعمرات لها على أنقاض أملاك مصر [٢] ، ولقيت تشجيعاً من بريطانيا فى هذه السياسة الاستعمارية ، لسببين : أولهما ، أن فرنسا كانت تعارض بريطانيا منذ أن احتلت الأخيرة مصر وبذلت قصار جهدها لإنهاء الاحتلال البريطانى لمصر بينما كانت إيطاليا تؤيد بريطانيا قلباً وقالباً ، فأرادت أن تكافىء إيطاليا على موقفها الودى . وثانيهما اشتداد التنافس بين بريطانيا وفرنسا على استعمار إفريقية ، فأرادت بريطانيا أن تتخذ من الوجود الإيطالى فى شرقى إفريقية سداً منيعاً فى وجه فرنسا ، ومشروعاتها التوسعية للوصول من مستعمرة الصومال الفرنسى إلى منابع النيل وأصقاع شتى من إفريقية الوسطى . وهكذا كانت بريطانيا تصانع إيطاليا وتتخذ منها كما قيل «كلب الجنايني» [٣] أى الكلب الذى يحرس لسيدته بريطانيا أملاكها. وقد رحبت بهذا التشجيع البريطانيا الوزارة الإيطالية التى كان يرأسها ديريتيس Agostino Depretis ، وكان وزير الخارجية فيها مانشينى Pasquale Stanislao Mancini الذى ينسب إليه القول المشهور «إن مفاتيح البحر المتوسط توجد فى البحر الأحمر[٤]»، وقد استطاعت إيطاليا أن تؤسس عدداً لابأس به من المستعمرات ، كان معظمها على حساب الممتلكات المصرية فى إفريقية ، وعلى حساب الدولة العثمانية فى طرابلس الغرب وولاية برقة[٥] .

---

(١) بخصوص توسع بلجيكا صوب حوض النيل ، انظر تحت عنوان حاجز لادو Lado Enclave كتاب دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٦٠-٤٦٤ .

(2) El-Sayed Ragab Harraz; Italy and the Beginnings of Her Colonial Empire in East Aftica. Cairo. 1959, pp. 33-51.

(٣) دكتور محمد صبرى : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ص١٦٤-١٦٥ .

(٤) دكتور السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٤-٤٥ .

(٥) استولت إيطاليا فى عام ١٨٨٢ على عصب ، الواقعة على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، عند خليج عصب عن طريق امتلاك أراض واسعة ، كانت قد اشترتها شركة روباطينو Rubattineo الإيطالية للملاحة من زعماء ومشايخ هذه المنطقة سنة ١٨٨٠ لاستخدامها فى الأغراض التجارية ، ثم استطاع منصر إيطالى اسمه سابيتو Sabitto أن يعقد فى عام ١٨٨٠ اتفاقيات باسم الشركة الإيطالية مع مشايخ المنطقة ، تعهد فيها نيابة عن الشركة بأن تقوم الحكومة الإيطالية بحماية ومساعدة هؤلاء الحكام =

ثالثاً : الاستعمار البلجيكى :

مؤتمر برلين الإفريقى (١٨٨٤-١٨٨٥) :

كان من مظاهر النهب الاستعمارى وتنظيمه بإرضاء الطابع القانونى والطابع الدولى عليه اجتماع مؤتمر برلين الإفريقى ، خلال الفترة من شهر أكتوبر تشرين أول - عام ١٨٨٤

= وخلفائهم من بعدهم ، مقابل تعهدهم بعدم التنازل عن شىء من أراضى بلادهم لدولة غير إيطاليا . ثم عقدت الحكومة الإيطالية مع شركة روباطينو اتفاقاً فى مارس - آذار - عام ١٨٨٢ ، تنازلت فيه للحكومة الإيطالية عن حقوقها فى خليج عصب مقابل ٤١٧,٠٠٠ ليرة إيطالية ، تدفعها الحكومة على ثلاثة أقساط . ووافق مجلس النواب الإيطالى فى ٥ يوليو - تموز - عام ١٨٨٢ على هذا الإتفاق ، وانتقلت ملكية إقليم عصب من هذه الشركة إلى الحكومة الإيطالية ، وأصدر مجلس الوزراء قانوناً فى اليوم ذاته بتحويل عصب إلى مستعمرة أطلق عليها مستعمرة عصب Colonia di Assab .

واحتلت إيطاليا فى ٢٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٥ ثغر بيلول ، الواقع شمالى عصب ، ثم احتلت فى ٥ من فبراير - شباط - عام ١٨٨٥ ثغر مصوع ، وأعلنت فى ٢٥ من يوليو - تموز - عام ١٨٨٨ سيادتها عليه بحجة أن الحكومة المصرية قامت بإخلاء السودان ، وسحبت القوات المصرية من أرجائه مما جعل مصوع ملكاً مباحاً . ثم زحفت القوات الإيطالية بعد أسابيع قليلة من احتلالها مصوع على بعض المواقع الداخلية فاستولت على مونكولو Monkullo وأوتمولو Otumlo ، وفى ١١ من أبريل - نيسان - عام ١٨٨٥ احتلت إيطاليا أرافالى Arafali الواقعة على خليج أنسلى وأركيلو ، وزولا ، وميدر Meder ، وإيد Edd ، وجزر حوافيل Hawakil . وعلى هذا النحو مدت إيطاليا نفوذها الاستعمارى على ساحل البحر الأحمر الإفريقى من رأس قصار - جنوبى سواكن - شمالاً إلى حدود مستعمرة أوبوك الفرنسية جنوباً . وأصدر ملك إيطاليا مرسوماً فى أول يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٠ بتوحيد الممتلكات الإيطالية على الساحل الإفريقى ، المطل على البحر الأحمر تحت اسم مستعمرة إريتريا Eritrea ، وهذا الاسم مشتق من التسمية اللاتينية التى كان يطلقها الجغرافيون الرومان على البحر الأحمر ، وهى البحر الإريترى Mare Erythraeum .

ووجهت إيطاليا أنظارها أيضاً إلى الساحل الإفريقى المطل ، على المحيط الهندى من رأس غردافوى شمالاً حتى مصب نهر جوبا جنوباً . وبدأت بإنشاء علاقات صداقة مهدت لعلاقات تجارية أول الأمر مع الزعماء المحليين ، الذين يطلق عليهم «سلاطين» ، ثم أخضعت سلطنة أوبيا Obbia للحماية الإيطالية عام ١٨٨٩ ، وتعهد سلطان أوبيا بعدم إبرام أى معاهدة مع أى حكومة أخرى إلا بموافقة الحكومة الإيطالية ، ثم خطت خطوة توسعية أخرى فعقدت فى ٧ من أبريل - نيسان - عام ١٨٨٩ معاهدة مع سلطان ميجورتين Migertin ، وافق فيها على بسط الحماية الإيطالية على كل بلاده وممتلكاته . وتضمنت المعاهدة النص التقليدى بتعهد السلطان بالامتناع عن إبرام أى معاهدة مع أى حكومة أخرى . وكانت تعمل من ناحية أخرى على بسط نفوذها على الحبشة ، ونجحت فى عقد معاهدة أوتشيالى فى ٢ من مايو - أيار - عام ١٨٨٩ ، ثم تطلعت إلى فرض الحماية الإيطالية على ساحل الصومال الجنوبى ، ويطلق عليه ساحل بنادر - وهو يقع جنوبى سلطنتى أوبيا ، وميجورتين ، لأن ساحل بنادر يضم عدداً من الموانىء تمد الحبشة بمنافذ هامة على المحيط الهندى . ولجأت الحكومة الإيطالية إلى الحكومة البريطانية؛ لمساعدتها على امتلاك ساحل بنادر ، وكان من ممتلكات سلطان زنجبار ، لأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا فى شئون سلطنة زنجبار ، لأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا فى شئون سلطنة زنجبار، بعد أن أصبحت هذه السلطنة منذ سنة ١٨٩٠ تحت الحماية البريطانية . ونجحت الحكومة البريطانية فى ١٢ من=

إلى شهر فبراير – شباط – عام ١٨٨٥ ، وقد اشتركت فى عضويته ثلاث عشرة دولة أوروبية[١] . وكان هدفه تنظيم الزحف الاستعمارى على إفريقية Scramble for Africa، وكان من أهم الموضوعات التى بحثها المؤتمر تطوير مؤسسة الكونغو (١٨٧٨-١٨٨٤) التى أنشأها ليوبولد الثانى ملك بلجيكا .. فقد أثار تطورها مخاوف فرنسا والبرتغال بشكل عنيف ، مما أدى إلى عقد هذا المؤتمر . وكانت اتفاقية برلين التى وقعتها الدول الأوروبية عام ١٨٨٥ تقضى بتسليم حوض نهر الكونغو الشاسع إلى منظمة جدية ، أطلق عليها دولة الكونغو الحرة Congo Free State أو دولة الكونغو المستقلة Independent State of Congo ، ويحكم الملك ليوبولد الثانى بنفسه شخصياً بمقتضى هذه الاتفاقية دولة تترامى أطرافها إلى مليون ميل مربع. ومنعاً للنزاع ، الذى قد ينشأ عن تنافس الدول على إفريقية الوسطى ، أعلن المؤتمر أنه لايجوز لدولة أن تبسط حمايتها على إقليم من الأقاليم ، قبل أن تبلغ هذا النبأ إلى حكومات الدول الأخرى . وقرر المؤتمر أيضاً ألا تفرض حكومة حمايتها على إقليم إلا إذا كان رعايا هذه الحكومة قد استوطنوه فعلياً ورفعوا عليه أعلام دولتهم . ونجح الملك ليوبولد الثانى فى تحويل الرقابة الدولية عليها إلى رقابة بلجيكية ، واستطاع أن يمنع أى دولة كبيرة أو صغيرة من الاعتداء على حدود هذه الممتلكات الشاسعة التى حصل عليها . وفى النهاية أورثها لبلاده[٢] .

وإلى جانب النشاط الاستعمارى المكثف فى الساحة الدولية للروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولنده ، كان للبرتغال وجود استعمارى فى إفريقية . فإلى جانب مستعمرتها الشاسعة فى غربى إفريقية وهى أنجولا ، كانت لها مستعمرة كبيرة تتمثل فى إفريقية الشرقية البرتغالية تجاه جزيرة مدغشقر ، وكانت لها أيضاً مستعمرة غينيا البرتغالية التى أسستها عام ١٨٨٥ ، وأنشأت إسبانيا فى العام ذاته مستعمرة ريو دى أورو Rio d'Oro على الساحل الإفريقى المطل على المحيط الأطلنطى شمال غربى مستعمرة إفريقية الغربية الفرنسية. وكان لها أيضاً غينيا الإسبانية .

= أغسطس – آب – عام ١٨٩٢ فى الحصول على تنازل من سلطان زنجبار للحكومة الإيطالية عن مدن وموانىء ساحل بنادر وهى براوة ، وميركا ، ومقديشيو ، وأرشيخ ، وعلى الأراضى المجاورة لهذه الموانىء إلى مسافة عشرة أميال بحرية إلى الداخل بالنسبة للموانىء الثلاثة الأولى، وخمسة أميال بالنسبة للميناء الرابع . وهكذا أسست إيطاليا حمايتها على ساحل الصومال الجنوبى، المطل على المحيط الهندى مثلما فعلت فى ساحل الصومال الشمالى ، مستعينة بالوسائل الدبلوماسية وبالاتفاق مع بريطانيا وتحريضها . أنظر كلاً من :

دكتور سيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٩٠-٥٠٢ ، ٥١٠-٥١٩ .

دكتور رياض ودكتورة كوثر ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤٩-٥٢ .

(١) هى بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا – المجر ، والروسيا ، والدولة العثمانية ، وبلجيكا ، وإسبانيا ، والبرتغال ، وهولندا ، والدانمرك ، والسويد ، والنرويج .

(2) Grant A.J. & Temperley H.; op. cit., pp. 320-321.

التنافس الاستعمارى على منطقة الخليج العربى :

كانت منطقة الخليج العربى بساحليها العربى والفارسى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مسرحاً لتنافس استعمارى دولى حاد ، نشبت بسببه أزمات دبلوماسية عنيفة بين بريطانيا من ناحية ، وكل من الروسيا وفرنسا وألمانيا والدولة العثمانية من ناحية أخـرى (١). أردات الروسيا إنشاء ميناء حربى فى منطقة الخليج ، وأرادت فرنسا إنشاء قاعدة بحرية لها فى ميناء مسقط وفرض الحماية عليه تحت ستار إنشاء محطة للفحم فى هذا الميناء؛ لتكون فى خدمة السفن الفرنسية التى ترفأ إلى موانىء الخليج . وأرادت ألمانيا مد نفوذها الاقتصادى والسياسى إلى منطقة الخليج بتنفيذ مشروع ب. ب. ب ، وهو الخط الحديدى الذى يبدأ من برلين ويمر ببيزنطة – إستانبول – وينتهى فى بغداد ، كمقدمة لها مابعدها من أهداف عسكرية بعيدة بمد هذه الخط الحديدى بعد ذلك إلى البصرة ثم إلى الفاو ثم إلى الكويت . وكانت الدولة العثمانية تقف وراء هذا المشروع ، وقد منح السلطان عبدالحميد الثانى امتياز هذا الخط لألمانيا عقب زيارة ولهلم الثانى إمبراطور ألمانيا له عام ١٨٩٩ . وكان العراق من ولايات الدولة العثمانية . وكان لهذه الدولة نفوذ فى الأحساء وشط العرب والكويت وقطر والبحرين والقصيم وغيرها ، ولكن هذا النفوذ كان ضعيفاً لم تأبه به بريطانيا كثيراً أول الأمر، ووقفت بريطانيا بكل عنف فى وجه تلك المحاولات الروسية والفرنسية والألمانية والعثمانية .

كانت بريطانيا تنظر إلى منطقة الخليج على أنه البوابة الكبرى إلى الهند من ناحية ، وإلى العراق وفارس من ناحية أخرى . وكانت لاتطيق أن يكون البريطانى والقوات البريطانية . وبعبارة أخرى كانت تريد السيادة السياسية والسيطرة العسكرية على منطقة الخليج ، دون غيرها من الدول ، وعلى مايحفظ تلك السيادة وهذه السيطرة من البر.. حتى تستطيع أن تتصرف وفق مصالحها .

ولتحقيق هذا الغرض المزدوج ، عقدت بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر – كما مر بنا – سلسلة من الإتفاقيات مع مشايخ الإمارات العربية فى منطقة الخليج ، تعهدوا فيها بألا يتخلوا أو يؤجروا أو يرهنوا بأى شكل من الأشكال ولأى سبب من الأسباب قسماً من أراضيهم إلا بإذن بريطانيا ، التى تعهدت فى مقابل ذلك بحماية إمارات الخليج ومشيخاته . واشتهرت هذه الاتفاقيات باسم المعاهدات المانعة Exclusive Treaties ، وكانت من أولى الإتفاقيات باسم المعاهدات التى عقدتها بريطانيا فى هذا ، الصدد اتفاقية سنة ١٨٨٠ مع الشيخ عيسى بن على آل خليفة حاكم البحرين (١٨٧٠–١٩٢٤) ، تعهد فيها بألا يتفاوض أو يعقد اتفاقيات مع دول

(١) عن النشاط الدولى المعادى لبريطانيا فى منطقة الخليج ، انظر : لوريمر ج. وج ، مرجع سبق ذكره القسم التاريخى ج١ ، ص ص٦٢٤–٦٢٦ ، جـ٢ ؛ ص ص٨٣٩–٨٤٥ ، جـ٣ ص ص ٨٥٨–٨٦٠ .

أجنبية أخرى دون إذن الحكومة البريطانية ، وألايسمح بإقامة مستودع فى أراضيه دون الرجوع إليها والحصول على موافقتها ، ثم عقدت معه اتفاقية لاحقة فى سنة ١٨٩٢ ، تعهد فيها حاكم البحرين بعدم التنازل أو رهن أو تأجير جزء من أراضيه إلا بإذن الحكومة البريطانية ، وبعدم اعتماد تعيين ممثلين للدول الأجنبية فى بلاده(١) .

وفى السنة السابقة – أى سنة ١٨٩١ – عقدت بريطانيا مع حاكم مسقط ، وهو فيصل ابن على ، اتفاقية تعهد فيها بعدم تأجير أو رهن جزء من أراضيه إلا بعد الرجوع إلى الحكومة البريطانية ، ثم أبرمت فى سنة ١٨٩٢ مع مشيخات الخليج اتفاقيات مماثلة (٢) .

ونورد هنا نموذجاً لإحدى هذه الاتفاقيات ، وهى المعقودة مع الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبى .

(١) إنى لا أدخل أبداً فى قرار ما ولامحاورة مع أحد من الدول سوى الدولة البهية الإنكليزية .

(٢) بغير رضاء الدولة البهية الإنكليزية لاأقبل أن يسكن فى حوزة ملكى وكيل من دولة غير الدولة البهية الإنكليزية .

(٣) أبداً لاأسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطى للتصرف شيئاً من ممالكى لأحد إلا للدولة البهية الإنكليزية .

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات غير محددة المدة التى تسرى خلالها أحكامها فإن بريطانيا اعتبرتها معاهدات أبدية (٣) External Treaties ، ونظرت بريطانيا إلى منطقة الخليج العربى على أنه بحيرة بريطانية (٤) . وشاءت الدبلوماسية البريطانية ، تماشياً مع خطتها فى انتحال مسميات تخفى وراءها أوضاعها الاستعمارية ، أن تطلق على نفوذها فى الخليج المصطلح اللاتينى Pax Britanica أى السلم البريطانى . ولم يكن هذا السلم سوى رغبتها فى الإبقاء على التفكك السياسى بين مشيخات الخليج ، ولتستمر منطقة الخليج حلقة من حلقات المواصلات البريطانية إلى الهند وجنوبى شرق آسيا والإقيانوسية ، وقواعد لأسطولها فى أرجائه ولتقيم من نفسها وصية على إماراته ووسيطاً بين هذه الإمارات فى علاقاتها الخارجية بدول العالم .

---

(1) Aitchison C.U.; A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, 12 Vols., Calcutra, 1892, vol. XI, pp. 335-337.

(٢) عن الاتفاقيات المانعة ، انظر لوريمر ج. ج مرجع سبق ذكره ؛ القسم التاريخى ، ج٢ ، ص٩٦٢ ، ١١٩٣ .

(٣) دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربى . دراسة تاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠–١٩١٤) رسالة دكتوراه فى التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة عين شمس . مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٦٦ ، ص٧٠٦ .

(٤) دكتور صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى . د.ت. القاهرة ، ص١٨٢ .

وتأكيداً لهذه المعانى التى تضمنتها تلك الاتفاقيات ، أدلى لورد لانسدون Lansdowne وزير الخارجية البريطانى فى وزارة آرثر جيمس بالفور بتصريح فى ١٥من مايو – آيار – عام ١٩٠٣ جاء فيه «ويجب علينا أن ننظر إلى إنشاء قاعدة بحرية أو ميناء محصن فى الخليج بواسطة أى دولة أخرى على أنه تهديد خطير جداً للمصالح البريطانية . ويجب علينا بكل تأكيد أن تقاومه بجميع الوسائل التى تحت أيدينا» .

"We should regard the establishment of a naval base or a fortified port in the Gulf by any other Power as a very grave menace to British interests, and we should certainly resist it by all the means at our disposal".(١)

وقام لورد كيرزون .Curzon George N نائب الملك فى الهند بزيارة رسمية إلى منطقة الخليج فى نوفمبر – تشرين ثان – من السنة ذاتها. وزار مسقط ، والشارقة ، وبندر عباس ، وهرمز ، وقشم ، والبحرين ، والكويت ، وبوشهر ، وغيرها ، وكانت ترافق سفينته مجموعة من وحدات الأسطول البريطانى فى الهند فى مظاهرة بحرية . وعقد اجتماعات حضرها مشايخ وأمراء الخليج (٢) واستهدفت بريطانيا من هذه التصرفات تأكيد النفوذ الانفرادى، الذى تدعيه لنفسها فى منطقة الخليج وعزمها الأكيد على الدفاع عن هذا المركز . وسطر كرزون فى كتابه رأيه قائلاً «إن وجود ميناء روسى فى الخليج (الفارسى) ، وهو ذلك الحلم الجميل الذى يداعب أفئدة الوطنيين الروس من نيفّا إلى الفولجا سيكون حتى فى أيام السلم عنصر قلق فى حياة الخليج يزعزع التوازن الدقيق ، الذى أسسناه بعد جهد جهيد . وإذا ما وافقت أية دولة على إعطاء الروس ميناء فى الخليج (الفارسى) ، فإنى اعتبر ذلك إهانة مقصودة لبريطانيا العظمى ، وخرقاً واضحاً للحالة الراهنة واستفزازاً مقصوداً للحرب . وإنى لأتهم الوزير البريطانى الذى يذنب فيوافق على مثل هذا الاستسلام ، واعتبره خائناً لوطنه» (٣).

وكما استهدفت بريطانيا معارضة الروسيا فى إيجاد ميناء حربى لها فى منطقة الخليج ، استهدفت أيضاً معارضة فرنسا فى إنشاء محطة للفحم فى مسقط . أما المشروع الألمانى وهو خط ب. ب. ب ، ومساندة الدولة العثمانية له فقد عارضته بكل عنف بعد أن تبينت أهدافه . حرضت شيوخ القبائل فى منطقة شط العرب على الدولة العثمانية ، وعينت ممثلين لها فى مناطق شط العرب والخليج كانوا أو معظمهم ضباطاً من جيش الهند يعينون من قبل حكومة الهند ولكنهم يتبعون وزارة الخارجية البريطانية . وكان على رأس هؤلاء الممثلين «مقيم عام»

(1) Ensor R.C.K.; op. cit.; p. 382.

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذه المرحلة والاحتفالات والمهرجانات ، التى أقيمت خلالها والخطب السياسية التى ألقيت فيها ، فى لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ؛ ج٧ ، ص ص٣٨٣٢-٣٨٠٤ .

(3) Curzon George N.; Persia and the Persian Question, Vol. 2, P. 465.

مقره بندر بوشهر على الساحل الفارسي في منطقة الخليج، كان يعتبر ملك الخليج غير المتوج[1]. وصرح لورد كيرزون بأن نفوذ ألمانيا يجب أن يقف عند حده بل ويختفي . وقال إن لألمانيا مآرب سياسية واقتصادية وعسكرية في هذا المشروع ، وذهبت الدوائر البريطانية إلى أبعد من ذلك .. فطالبت بأن يكون العراق ملكاً لبريطانيا ومنفذاً طبيعياً إلى الهند . ولم يلبث لورد كيرزون أن ردد هذا الرأى علناً فى خطبة ، القاها فى ١٥ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩١٥ قائلاً «إن الأرض الواقعة شمال الخليج (الفارسى) ليست ملكاً للأتراك .. إنهم دخلاء عليها . وإن من واجب السياسة البريطانية أن تحرر هذه الأرض منهم ، وأن تعود تلك العلاقة الطيبة بين هذه البلاد وبين بريطانيا نتيجة لسياستنا التى اشتغلنا فيها منذ خمسين سنة . وإن نفوذ الألمان يجب أن يأخذ حده ويختفى ، وإن خط حديد برلين - بغداد لن يكون له نفع مالم يكن تحت رقابتنا» .

بوادر تسلل استعمارى أمريكى :

وكان للولايات المتحدة الأمريكية نشاط عسكرى وسياسى واقتصادى فى المحيطين الهادى والأطلنطى فى أواخر القرن التاسع عشر .. فقد احتلت سنة ١٨٩٣ جزر هاواى وهى ذات مركز حربى هام فى المحيط الهادى ، وجعلت منها قاعدة بحرية منيعة فى بيرل هاربر Pearl Harbour . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى نشبت الحرب بينها وبين إسبانيا سنة ١٨٩٨ ودمرت الأسطول الإسبانى تدميراً ، واضطرت إسبانيا فى معاهدة باريس فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٨ إلى التخلى للولايات المتحدة عن بورتريكو فى المحيط الأطلنطى ، والفلبيين فى المحيط الهادى ، ومنحت كوبا استقلالها . ولكن الولايات المتحدة وضعت يدها عليها ، فهى ذات موقع حربى هام ؛ إذ تقع عند مضيق فلوريدا ومدخل خليج المكسيك ، وبذلك تمت لها السيطرة على خليج المكسيك والبحر الكاريبى ، أما فى آسيا فقد استطاعت بسبب امتلاك الفيلبيين ، أن توجد لها منطقة نفوذ بين اليابان والصين والهند الصينية . ومنذ ذلك الوقت بدأت تعمل على بسط سيادتها فى أرجاء المحيط الهادى .

ثم رأت الولايات المتحدة أن تقوم بنفسها بحفر قناة بناما ، واستغلالها بصفة أبدية [2] ؛ إدراكاً منها لأهمية هذه القناة من الناحيتين التجارية والعسكرية ، إذ تختصر المسافة بين الشرق

---

(١) المرجع السابق ، ص ص٢٥٩-٢٦٨ .

(٢) كانت حكومة كولومبيا - التى تقع فى أراضيها قناة بناما - قد منحت شركة فرنسية يرأسها فرديناند دى لسبس ونائبه ابنه شارل دى لسبس امتيازاً فى ١٨ من مايو - آيار - عام ١٨٧٨ لإنشاء قناة بناما . وتعثرت الشركة فى أعمالها ، ولجأ أصحاب الأسهم إلى القضاء الفرنسى . وأصدرت محكمة السين فى باريس حكماً فى ٥ من فبراير - شباط - عام ١٨٨٩ بتصفية الشركة ، وأحيل فرديناند دى لسبس وابنه شارل ، وغيرهما من أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى محكمة الجنايات بتهمة تبديد أموال مساهمى=

الأقصى وأمريكا ، وتفتح الطريق أمام الأسطول الأمريكى بين المحيطين الهادى والأطلنطى . وتداعت إلى أذهانها ذكريات الحرب الأهلية ، التى نشبت بين ولاياتها الشمالية وولاياتها الجنوبية (١٨٦١-١٨٦٥) ، فازدادت إدراكاً لأهمية القناة المقترحة . وبعد اتصالات مكثفة ولكن غير مثمرة بين الولايات المتحدة وبريطانيا [١] ، خلصت الحكومة الأمريكية رأياً إلى أن تنفيذ واستغلال القناة يجب أن يكونا بعيدين عن الدول الأجنبية . وكانت أحداث الحرب القريبة التى اندلعت بين الولايات المتحدة وإسبانيا عام ١٨٩٨ ، جعلت الدوائر العليا الأمريكية ترى ضرورة وضع القناة المستقبلة تحت إشراف الولايات المتحدة وصبغها بصبغة أمريكية بحتة؛ فالقناة يجب أن تكون فى تقديرها «قناة أمريكية على أرض أمريكية مملوكة للأمة الأمريكية»[٢] . وانتهى بها المطاف إلى عقد معاهدة مع حكومة بناما [٣] فى ١٨ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٣ ، عرفت باسم معاهدة هاى بونو [٤] Hay-Bunau ، وبمقتضى هذه المعاهدة خولت جمهورية بناما الحق للولايات المتحدة فى إنشاء القناة واستغلالها بصفة أبدية، واستخدام واحتلال منطقة عرضها عشرة أميال فى اليابسة بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، وتمتد فى مياهها لمسافة ثلاثة أميال بحرية ، وكذلك على الجزر الواقعة فى تخوم هذه المنطقة وأربع جزر صغيرة فى خليج بناما ، واحتكار إنشاء كل وسائل المواصلات فى هذه المنطقة والاحتفاظ بها . وخولت المعاهدة للولايات المتحدة أيضاً

= الشركة ، وصدرت عليهم فى ١٨ من يونيو - حزيران - عام ١٨٩٣ أحكاماً بالسجن والحبس مدداً متفاوتة وغرامات مالية ، وتأسست شركة أخرى تحت اسم «الشركة الجديدة لقناة بناما» ، ثم حلت حكومة الولايات المتحدة محلها ، ودفعت لها أربعين مليوناً من الدولارات كتعويض .

انظر :

دكتور مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . ج٣ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ص٤٩٩-٥٠١ .

(١) استهدفت هذه الاتصالات عقد معاهدات بين الدولتين بخصوص القناة المقترحة ، وكان من بينها معاهدة كلايتون - بلور Clayton-Bulwer فى ١٩ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٠ ، ومعاهدة هاى - بونسفوت Haye-Pauncefote فى ٥ من فبراير - شباط - عام ١٩٠٠ ، ثم معاهدة أخرى تحمل الاسم نفسه فى ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠١ ، وهى خاصة بعدة موضوعات مثل حيدة القناة وعدم فرض الحظر البحرى عليها أو مباشرة أى حق من حقوق المتحاربين ، وفرض رسوم على السفن على قدم المساواة إلى غير ذلك .

(2) Siegfried André : Suez and Panama, Translated from the French by H.H. Hemming and Doris Hemming, Oxford, 1940, p. 228.

(٣) قامت فى بناما حركة انفصالية عن كولومبيا، ونجحت الحركة فى ٣ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٣، وأعلنت بناما نفسها جمهورية مستقلة فتلقفت حكومة واشنطن هذه الفرصة ، وسارعت إلى الاعتراف بها فى ١٣ من الشهر ذاته .

(٤) كان هاى وزير أمريكا . وكان بونو فاريلا Bunau Varrilla هو ممثل جمهورية بناما .

الحق فى الدفاع عن القناة بكافة الوسائل ، وأن تشترى أو تستأجر من أراضى جمهورية بناما مايلزم لإنشاء محطات بحرية ؛ للتمكن من «تنفيذ التزامات هذه المعاهدة على أفضل وجه وحماية القناة بشكل فعال وتأمين حيدتها» والتزمت الولايات المتحدة، فى مقابل كل هذه الامتيازات وغيرها أن تضمن استقلال جمهورية بناما مع دفع تعويض مالى ودخل سنوى)[1].

وقد افتتحت القناة فى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس – آب – عام ١٩١٥ .

والأمر الجديد بالتسجيل فى هذا المقام أن جمهورية بناما كانت تملك اسماً الملكية والسيادة على قناة بناما ، على الرغم من أنها صاحبة الإقليم الذى تمر منه القناة . بينما كانت سلطات الولايات المتحدة طاغية على القناة ، لأن جمهورية بناما أعطتها حق الاستيلاء على منطقة القناة واحتلالها وإدارتها والدفاع عنها وإقامة المنشآت العسكرية وغير العسكرية بالشكل الذى تراه لمدة غير محدودة .

وغدت الولايات المتحدة تباشر فعلاً على هذه المنطقة كل ماتمارسه الدول من حقوق على أقاليمها ، بحيث أصبحت إدارة قناة بناما فى الحقيقة حكومة مصغرة داخل نطاق حكومة الولايات المتحدة [2] . ولم يعد لجمهورية بناما غير مبلغ تتقاضاه سنوياً .

وقع الزحف الاستعمارى البالغ العنف والضراوة على شتى أرجاء الساحة الدولية فى وقت كانت الدولة العثمانية تعانى كثيراً من أسباب الاضمحلال ، وهو اضمحلال كانت أعراضه ومظاهره قد ظهرت قبل تولى عبدالحميد الحكم بأكثر من مائة وخمسين سنة حين عقدت على عهد السلطان مصطفى الثانى (١٦٩٥–١٧٠٣) معاهدة كارلوفتز Karlovitz فى اليوم السادس والعشرين من شهر يناير – كانون ثان – عام ١٦٩٩ ، والقرن السابع عشر يقترب من نهايته.. فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سيئاً للقرن الثامن عشر بالنسبة للدولة العثمانية ، كما كانت أول معاهدة تعقدها مع النمسا ، والروسيا ، وبولندا ، وجمهورية البندقية ، وتتنازل فيها ، كدولة منهزمة ، عن المجر وترنسلفانيا [3] .. أما المجر فكانت تعد الولاية العثمانية الأولى فى الدولة

(١) دكتور عبدالله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٤٩–٣١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص٣٥٥–٣٥٦ .

(٣) أطلق سكان النمسا هذا الاسم على هذا الإقليم ومعناه البلاد الواقعة فيما وراء الغابات ، لوجود غابات كثيفة تفصلها عن النمسا ، وهى من أهم أقاليم النمسا ، وتتميز بكثرة المعادن تحت أرضها ويزيد تعدادها عن ثلاثة ملايين نسمة .

وكانت تليها مصر ، كما وافقت على تنازلات إقليمية أخرى هامة للروسيا ، (١) وبولندا،(٢) وجمهورية البندقية (٣) ؛ ولذلك يرى فريق من المؤرخين أن معاهدة كارلوفتز تعد أول تقطيع لأوصال الدولة العثمانية (٤) The First Dismemberment of the Ottoman Empire ، لأن هذا العمل الذى بدأ فى كارلوفتز قد عملت معظم الدول الأوروبية على استكماله فى غالبية المعاهدات التى فرضتها على الدولة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكان من نوعية هذه المعاهدات على سبيل المثال معاهدة پاساروڤتز Passarovitz kucuk Kaynarca (٢١ من يوليو - تموز - عام ١٧١٨) ، ومعاهدة كتشك كينارجى Kucuk Kaynarca (٢١ من يوليو -

---

(١) تنازلت الدولة العثمانية للروسيا عن مدينة آزوف ببلاد القرم وفرضتها على البحر الأسود ، وكانت قبائل القوزاق تحول بين الروس والبحر الأسود ، وتطلع بطرس الأكبر إلى الاستيلاء عليها لتكون نافذة بلاده على هذا الحر ، وفعلاً استولى عليها ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها فى أكتوبر - تشرين أول - عام ١٦٩٥ ، ولكنها أعيدت إلى الروسيا بمقتضى معاهدة كارلوفتز . وآزوف تقع عند مصب نهر الدون ، وكان يمكن الوصول إليها مائياً من موسكو ، وكان العثمانيون قد أقاموا حصناً عظيماً فى آزوف ، وأصبح تجاور الروسيا مع الدولة العثمانية مصدر أخطار ومتاعب للدولة الأخيرة .

(٢) تنازلت الدولة لبولندا عن كل بودوليا Podolia وأوكرانيا Ukraine ، ويلاحظ أن إقليم بودوليا عبارة عن مساحة شاسعة من الأراضى على امتداد خط تقسيم مياه نهر الدنيستر Deniester، ونهر بوج Bug الذى يصب فى البحر الأسود .

(٣) تنازلت الدولة لجمهورية البندقية عن بلاد المورة وساحل دلماشيا . وكان البنادقة بتشجيع البابوية فى روما وبمساعدة جنود مرتزقة من هانوفر وغيرهم من الألمان ، قد استعادوا دلماشيا وجردوا العثمانيين من المورة وفى معاهدة كارلوفتز ، نص على أن يحتفظ البنادقة بما حصلوا عليه من أسلاب . ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها أكثر من تسعة عشر عاما (١٦٩٩-١٧١٨) ؛ إذ نجح العثمانيون فى استعادتها منهم . وساعدت العثمانيين على ذلك الكراهية الشديدة التى كان يكنها اليونانيون للبنادقة ، واختلاف المذهب الدينى ، فاليونانيون يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، والبنادقة يتبعون الكنيسة الكاثوليكية فى روما . وكانت سياسة الاحتكار التى فرضتها جمهورية البندقية فى خلال التسعة عشر عاماً على التجار اليونانيين فى جزر بحر إيجه ، قد أضرت بمصالحهم وأثارت سخطهم . فكان هذا السخط وذلك الإضرار عاملين ساعدا على طرد البنادقة من بلاد المورة ، وكان اليونانيون يفضلون الحكم العثمانى على الحكم البندقى .

انظر : Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 733-734.

ومما يعد مفخرة للعثمانيين ووصمة عار فى تاريخ جمهورية البندقية ، أن البنادقة فى أثناء هجومهم على أثينا أطلقوا مدفعيتهم على الأثر التاريخى الإغريقى «البارثنون» Parthenon ، وأحدثوا به أضراراً بالغة لم يمكن إصلاحها . وكان العثمانيون فى زحفهم على بلاد المورة قد تجنبوا الإضرار بهذا الأثر التاريخى ، ومع ذلك لاتخلو كتابات معظم الأوروبيين من إلصاق التهم والصفات غير الكريمة بالعثمانيين، ونعتهم بأنهم مسلمون متبربرون ونقمة على الحضارة وما إلى ذلك .

(٤) يرى فريق آخر من المؤرخين أن ارتداد الجيش العثمانى عن اسوار فينا للمرة الثانية عام ١١٦٨٣ يؤرخ البداية الفعلية لانحلال الدولة العثمانية ، وكان قره مصطفى أى مصطفى الأسود يقود الجيش فى هذا الهجوم ، ومن المعروف أن القوات العثمانية سبق لها أن ارتدت عن أسوار فينا للمرة الأولى عام ١٥٢٩ فى عهد السلطان سليمان المشرع ، وكان هو الذى قاد قواته .

تموز – عام ١٧٧٤) ، ثم فى القرن التاسع عشر معاهدة أدرنة (١٤ من سبتمبر – أيلول – ١٨٢٩) ، ومعاهدة سان ستفانو (٣ من مارس – آذار – ١٨٧٨) ، ومعاهدة برلين (١٣ من يوليو – تموز – ١٨٧٨) .

تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية :

لم تكن نزعة التسلط الأوروبى على الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر بأقل فى ضراوتها من مثيلتها فى سائر أنحاء العالم .. فقد تسابقت الروسيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، على اقتسام الولايات العثمانية فى أوروبا وآسيا وإفريقية ، فكان على الدولة أن تواجه خمس دول أوروبية كبرى وقفت موقفاً عدائياً منها .

وكانت الروسيا والنمسا من أسبق الدول فى انتهاج سياسة عدوانية تجاه الدولة العثمانية.

أما الروسيا فكان من أعز أمانيها استيلاؤها على إستانبول ، وفتح مضيقى البوسفور والدردنيل[1] لسفنها الحربية والتجارية دون قيد أو شرط فى زمن السلم أو وقت الحرب للخروج من البحر الأسود إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط وعند عودة هذه السفن إلى البحر الأسود ، وظلت إستانبول منذ زمن مبكر حتى القرن العشرين حلماً جميلاً يداعب أفئدة قياصرة الروس والشعب الروسى ، ومما يذكر فى هذا الصدد أن كاترين الثانية قيصرة الروسيا قامت عام ١٧٨٧ برحلة إلى الأقاليم الجنوبية للروسيا بما فيها بلاد القرم ، وفى الإقليم الأخير أقام لها القائد الروسى زينات وأقواس نصر كتبت عليها عبارة «طريق إستانبول»[2] .

وفى القرن التاسع عشر كانت الروسيا تعمل بوحى من حركة الجامعة الصقلبية Panslavism ، وهى حركة روسية قومية كان من أهدافها جمع صقالبة البلقان الأرثوذكس وتخليصهم من السيطرة العثمانية ؛ ومن هنا كان خطر حركة الجامعة الصقلبية على الدولة العثمانية ، لأن هدفها النهائى كان القضاء على الوجود العثمانى فى أوروبا . أما النمسا فكانت نظرية الأمن الخارجى لديها تقوم على منع أى دولة من تهديدها أو غزوها عن طريق نهر الدانوب من ناحية مصبه فى البحر الأسود ، ولذلك كانت تعمل على مقاومة الدولة العثمانية، التى كانت ولاياتها فى شمالى نهر الدانوب (الأفلاق والبغدان) وفى جنوبيه (بلغاريا والصرب والبوسنة) ، فلما سارت هذه الدولة فى طريق الاضمحلال تلاشى الخطر العثمانى .. ولكن خشيت النمسا من الدولة التى يمكن أن تحل محل الدولة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان وهى الروسيا . وكانت الأخيرة تملك من الأسباب مايجعل كفتها راجحة فى البلقان . فقيصر الروسيا

---

(١) يطلق عليها فى اللغة التركية «آق دكيز بوغازى» ، و«قلعة سلطانية بوغازى» ، و «جناق قلعة بوغازى» ، انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨٤ .

هو الرئيس الرسمى وحامى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية .

وكانت الروسيا هى الدولة الصقلبية الكبرى ، وكان أكثر سكان البلقان من الصقالبة يتحدثون بلغات صقلبية حتى سكان بلغاريا ، الذين لم يكونوا صقالبة تماماً كانوا قد اصطنعوا لأنفسهم لغة صقلبية . وكانت للروسيا مبررات أو ذرائع دينية للتدخل لصالح أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ؛ ولذلك تطلعت النمسا إلى كسب توسعات إقليمية فى البلقان على حساب الدولة العثمانية . وازدادت مطامع النمسا فى الممتلكات العثمانية البلقانية لتعويض خسائرها الإقليمية ، عقب هزيمتها من بروسيا فى موقعة سادوا Sadwa فى الثانى من شهر يوليو من شهر يوليو- تموز - عام ١٨٦٦ وإبرام معاهدة براغ فى الثانى من شهر أغسطس - آب - فى ذات السنة .

ولولا أصالة الدولة وعراقها وشموخها ، لأصبحت هباءً منبثاً وطويت صفحاتها فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، ولكنها ظلت تقاوم عوادى الزمن وتكتلات أوروبية أكثر من قرنين من الزمان . ويهمنا أن نذكر هنا أنه نتيجة لها الزحف الاستعمارى الضارى ، ونتيجة للضعف الشديد الذى انتاب الدولة ، وهو ضعف لم يكن عبدالحميد مسئولاً عنه لأنه ورث العرش كما ورث هذا المرض ، غدت ممتلكات الدولة نهباً بين الدول الأوروبية الكبرى، تستولى على مايروقه منها أو ماتستطيع أن تحصل عليه منها وتجعل توزيع هذه الممتلكات أساساً لتسوية الخلافات بين تلك الدول .. وسنرى أن الزحف الاستعمارى على الأقاليم العثمانية قد اتخذ طابع الصراع الدينى بين أوروبا المسيحية والدولة العثمانية الإسلامية ، وأن الروح الصليبية ظلت متأججة فى نفوس الأوروبيين وإن اتخذت مسميات أخرى . ولم يهدأ بال الدول الأوروبية المسيحية إلا بعد أن نجحت فى الإجهاز على الدولة العثمانية فى أوائل القرن العشرين، عقب الحرب العالمية الأولى .

يتضح من هذا العرض لبعض معالم حركة التنافس الاستعمارى بين الدول إبان حكم السلطان عبدالحميد الثانى عدة حقائق بارزة ، كان من بينها :

أولاً : عدم دقة الرأى الشائع وهو أن الدول الاستعمارية الكبرى كانت قد وصلت إلى درجة التشبع من عمليات النهب والسلب والتسلط فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأن جذوة الاستعمار لديها أخذت تخبو فى القرن التاسع عشر حتى إذا اقترب هذا القرن من نهايته كانت شهوة الاستعمار لديها قد خمدت . والواقع أن نزعة الاستعمار ظلت مشتعلة فى الدول الاستعمارية الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، تبغى مزيداً من المستعمرات بالضراوة نفسها التى عرفت بها من قبل . وظلت أيضاً بعد الحرب العالمية الأولى تحت اسم الانتداب من قبل عصبة الأمم حيناً ،

وتحت اسم الاستعمار أو الاحتلال السافر أو مناطق النفوذ حيناً ثانياً ، أو تحت نظام الوصاية من قبل هيئة الأمم المتحدة حيناً ثالثاً .

ويذكر الأستاذان جرانت ، وتميرلي ، هذه الحقيقة فى صورة أخرى بقولهما إنه فى الثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٠١-١٨٧٥) لم تكن الدول الثلاث الكبرى الاستعمارية [١] ، وهى الروسيا وفرنسا وبريطانيا ، قد استنفدت كل فضاء الأرض[٢] . وأنه بعد سنة ١٨٨٠ دخلت ألمانيا وإيطاليا ميدان الاستعمار ، وأدى هذا الموقف إلى تصاعد الأزمات فى كل مكان ؛ فدب النزاع بين بريطانيا وفرنسا من أجل مصر ، وبين فرنسا وإيطاليا من أجل تونس . واستغلت ألمانيا هذا النزاع لتحصل لنفسها على مستعمرات شاسعة ، ودفع يأس إيطاليا من الحصول على نصيبها فى المستعمرات إلى انضمام إيطاليا إلى التحالف الثلاثى [٣] . وظهر مزيد من الخطورة البالغة فى السياسة الدولية فى التسعينيات من القرن التاسع عشر ؛ إذ كانت كل الأرض الفضاء قد توزعتها الدول الاستعمارية فيما بينها . وكانت مراكش (المملكة المغربية حالياً) هى المملكة المستقلة الوحيدة فى شمالى إفريقية . وكان من الطبيعى أن تهفو إليها أفئدة المستعمرين الفرنسيين والألمان ، وتخلت فرنسا عن إدعاءاتها فى مصر لتضمن تأييد بريطانيا لها فى مراكش . وعلى هذا النحو تأثرت أصول الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وتطوره فيما بعد بالتطورات الاستعمارية فى شمالى إفريقية تأثراً عميقاً . أما فى آسيا فإن الروسيا بعد اقترابها من أفغانستان والهند ، تحولت إلى الصين فى سنة ١٨٩٢ وبذلك أجلت ، ولكنها لم تتجنب ، النزاع مع بريطانيا فى آسيا . ولما وجدت بريطانيا أن ألمانيا غير راغبة فى مساعدتها على وقف التقدم الروسى فى الصين ، قبلت التحالف مع اليابان فى سنة ١٩٠٢ من أجل هذا الهدف ، وأعلنت اليابان الحرب على الروسيا بعد عامين من هذا التاريخ . وهكذا أدى التوسع الاستعمارى فى آسيا إلى تحالف كما أدى إلى حرب ، وأدى التوسع فى إفريقية إلى الاتفاق الودى وربما إلى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤[٤] .

ثانياً : لجأت الدول الاستعمارية إلى أساليب شتى فى سبيل بسط سيطرتها ، وكان من بين هذه الأساليب : القوة الحربية ، مزيج من استخدام القوة والشراء ، كما حدث عندما استولت

---

(١) تجنب المؤرخان الإنجليزيان وصف الدول الاستعمارية بهذا الاسم الحقيقى ، بل قالا عنها : الدول المتوسعة The three great expanding powers .

(٢) يقصد هذان المؤرخان بعبارة فضاء الأرض نظرية الملك المباح ، التى شرحناها فى هذا الفصل .

(٣) تكون تحالف ثنائى من ألمانيا ، والنمسا والمجر ، فى سنة ١٨٧٩، ثم تحول إلى تحالف ثلاثى بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ .

(4) Grant A.J. & Temperley H.; op. cit., pp. 321-322.

الولايات المتحدة الأمريكية على جزر الفيليبين ، رضاء مغتصب من الدولة صاحبة الإقليم كما حدث عندما احتلت بريطانيا جزيرة قبرص ، بحجة تعهدها بالدفاع عن ممتلكات الدولة العثمانية فى آسيا ضد القوات الروسية ، الاستعمار المقنع غير السافر بحيث يكون للدولة نفوذ سياسى شامل ، تنفرد به دون سائر الدول ويقيد حرية البلاد التى تبسط عليها هذا النفوذ مثل مشيخات منطقة الخليج العربى واستئثار بريطانيا بالنفوذ الأوحد ، وإنشاء مناطق نفوذ مثل تقسيم فارس إلى منطقتى نفوذ بريطانية وروسية ، أسلوب الشركات وهو الأسلوب ذاته ، الذى جرى عليه الاستعمار فى مطلع العصور الحديثة ، ويقوم على تكوين شركات اقتصادية تقوم بأعمال استعمارية مثل شراء الأراضى من أصحابها وتوزيعها على المستوطنين المستعمرين وجمع الضرائب والاستيلاء على الإيرادات والإشراف على المرافق العامة .

وفى ظل هذا النظام كانت الدول الاستعمارية تترك شركاتها ترتكب ماتشاء من الفظائع وضروب الوحشية ، فإذا حققت الشركة أهدافها .. تصدر الدولة قراراً بحل الشركة وتتولى الحكومة إدارتها أى حكم الإقليم بعد أن تمنح الشركة تعويضاً سخياً . وهكذا تجئ الدولة الاستعمارية فى صورة المنقذ للشعوب الشرقية من آثام الشركة ، التى أذنت هى فى إنشائها وبذلت لها المعونة والإرشاد . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد : شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) ، والشركة الفرنسية ، والشركة الهولندية ، وشركة إفريقية الشرقية الألمانية ، وشركة روباطينو الإيطالية . وعلى ذلك.. فالاستعمار لم يكن يتم دائماً بواسطة قوات مسلحة تابعة لدولة استعمارية ، وإنما كان يتم أيضاً على أيدى جماعات منظمة من الأفراد فى صورة شركات اقتصادية تبسط النفوذ الاقتصادى أولاً ثم السياسى .

ثالثـــاً : تم تخلى الطريق للدولة لدعم وجودها حربياً ، بعد أن تتقاضى الشركة مكافآت وتعويضات سخية .

ويلاحظ أيضاً أن السيطرة كانت تقع أحياناً على السكان دون الأرض .. فكانت الدول الاستعمارية تترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين فلا تغتصبها منهم ، ولاتطلب منهم الجلاء عنها . وكانت السيطرة تقع أحياناً أخرى على الأرض والسكان معاً ، وأوضح مثال لهذين النوعين من الاستعمار ماحدث فى شرقى إفريقية وغربيها . كانت أراضى شرقى إفريقية مرتفعة عن سطح البحر ، وتصلح لسكنى الأوروبيين فتسلطت بريطانيا فى مستعمرة كينيا على الأرض والسكان معاً . أما أراضى غربى إفريقية .. فهى منخفضة وشديدة الحرارة لاتصلح لسكنى الأوروبيين ، الذين أطلقوا عليها مقبرة الرجل الأبيض The White Man's Grave ، وقد شهد حكم السلطان عبدالحميد هذين النوعين معاً من أنواع الاستعمار .

* * *

آراء محايدة
فى حكم السلطان عبدالحميد الثانى (٣)

الحقيقة الثانية :

تولى عبدالحميد العرش فى ظروف متناهية فى ظلامها وقسوتها . ولم يتحرج المؤرخ البريطانى وليم ميلر – وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة وعلى السلطان عبدالحميد بالذات – من القول بأنه ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار ، التى تعرض لها عبدالحميد الثانى من يمين ويسار ، وهو السياسى الداهية (١) The Astute Diplomatist .

لقد ارتقى عبدالحميد العرش بعد هزات عنيفة ، تعرض لها هذا العرش بخلع السلطان عبدالعزيز فى الثلاثين من شهر مايو – آيار – عام ١٨٧٦ بناء على فتوى صدرت فى اليوم السابق من شيخ الإسلام ، تجيز عزله تأسيساً على تبذيره عجزه عن حكم الدولة . وأعلن الصدر الأعظم والوزراء تعيين ابن أخيه سلطاناً اسم مراد الخامس . ولم تكد تمضى أربعة أيام على توليه العرش حتى أعلنت وفاة السلطان عبدالعزيز ؛ مما قضى على كل أمل فى إعادته للعرش . وعلى الرغم من رحيل عمه ، لم يستمر مراد الخامس فى الحكم إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، ثم عزل بدوره بناء على فتوى من شيخ الإسلام تجيز عزله ، بناء على أنه مصاب باختلال فى قواه العقلية ، وبالتالى فهو لايستطيع تصريف شئون الدولة فى وقت عصيب تحيط بها أخطار جسيمة من كل جانب . وفى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أغسطس – آب – عام ١٨٧٦ ارتقى العرش أخوه الأصغر باسم عبدالحميد الثانى (٢) ، وقبل أن يباشر سلطاته ذهب إلى جامع أبى أيوب الأنصارى حيث تسلم السيف على ماجرت به العادة . وفى أثناء عودته زار مقبرة والده عبدالمجيد ومقابر السلاطين محمد أبى الفتوح ومحمود الثانى ، وعبدالعزيز .

ومنذ اليوم الأول الذى ارتقى فيه عبدالحميد العرش ، وجد أن الثورة هادرة جامحة تعم إقليمى البوسنة والهرسك ، يبغى سكانهما الانفصال عن الدولة أو على الأقل الحصول على مزيد من الامتيازات تكفل لهم حكماً ذاتياً مسيحياً خالصاً . ووجد أن الثورة لاتزال مشتعلة فى

(1) Miller W.; op. cit., p. 368.

(٢) انظر فى هذه الدراسة فتاوى غزل السلاطين ، ص ص٤١٢–٤١٤ .

بلغاريا، ووجد أيضاً أن الصرب والجبل الأسود يحاربان الدولة انتصاراً للثوار بتحريض من الروسيا التى أسهمت فى هذه الحرب إسهاماً غير مباشر ، فأمدت أعداء الدولة بالأسلحة والذخائر والقادة العسكريين ، ورفعت أسماءهم من سجلات الجيش الروسى مؤقتاً للاشتراك فى العمليات الحربية . وكانت الهزات العنيفة التى تعرض لها عرش الدولة أشهراً معدودات مما ساعد على تصعيد الثورات والحروب معاً .

وفى هذا الوقت العصيب أرسل لورد دربى Derby وزير خارجية بريطانيا رسالة مؤرخة فى اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٦ - بعد ارتقاء عبدالحميد العرش بثمانية عشر يوماً - إلى سير هنرى إليوت Sir Henry Elliot السفير البريطانى فى إستانبول ، يطلب منه مقابلة السلطان عبدالحميد شخصياً ويوجه إليه اللوم على ما أسماه المذابح البلغارية ، وتقصير الدولة فى إقرار النظام وتوفير الأمن للمسيحيين ، وأن يطلب من السلطان باسم الملكة ڤيكتوريا تعويض ثوار بلغاريا وإعادة بناء كنائسهم على نفقة الدولة ، وتقديم الغوث لهم عاجلاً ، وإتاحة فرص العمل أمامهم وتوقيع عقوبات رادعة على المسئولين العثمانيين فى بلغاريا وتعيين حاكم مسيحى على بلغاريا ، وأما إذا كان مسلماً فلابد أن يكون له مستشارون مسيحيون ، يركن إليهم السكان البلغاريون المسيحيون إلى آخر الطلبات التى سبق أن أشرنا إليها فى الجزء الخاص من هذه الدراسة عن المذابح البلغارية .

وهكذا واجه عبدالحميد فى أيامه الأولى موقفاً دقيقاً ؛ إذ أصبحت البلقان منطقة ساخنة بلغت فيها ضراوة القتال الذروة ، فاعتدى المسيحيون على المسلمين قتلاً وسلباً وهتكاً للأعراض وتخريباً لبيوتهم . وانطلقت أبواق الدعاية فى أوروبا تذيع أن الدولة العثمانية دولة متبربرة تقتل المسيحيين وتخرب كنائسهم وتهدم بيوتهم وما إلى ذلك من ضروب الزيف . وساعد على رواج هذا التباكى على ما سمى سوء أحوال رعايا الدولة المسيحيين ، أن الجيوش العثمانية كانت فى ذلك الوقت قد اكتسحت جنوبى الصرب ، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً إلى بلغراد عاصمة الصرب .

أما فى الجبل الأسود ، فكانت الحرب سجالاً لأن طبيعة هذا الإقليم لاتسمح لجيوش نظامية أن تخوض معركة فاصلة . وفى اليوم الخامس من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٦ ، طلبت الدول عقد هدنة وإجراء مفاوضات لعقد صلح . ووافق السلطان عبدالحميد الثانى على عقد هدنة ؛ بشرط منع إرسال أسلحة أو ذخائر أو قوات عسكرية إلى ثوار البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود فى أثناء الهدنة ، ورفضت الدول هذا الشرط . وعندئذ تدخلت الروسيا بمفردها وأرسلت فى اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - إنذاراً إلى الباب العالى بضرورة عقد هدنة دون قيد أو شرط من جانب السلطان ، وأن تمنح الدولة استقلالاً إدارياً لبعض الولايات البلقانية ، وأن تضمن الدول الأوروبية حقوق سكانها المسيحيين.

وأمام تهديد الروسيا وافق السلطان على عقد هدنة فى أول نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٦ لمدة شهرين ، مدت بعد ذلك إلى أول مارس - آذار - عام ١٨٧٧ . وكان الباعث للسلطان عبدالحميد الثانى على قبول الهدنة بهذين الشرطين وغيرهما هو رغبته فى كسب الوقت ؛ حتى يستكمل استعداداته الحربية وتصل إليه الإمدادات العسكرية التى طلبها من الولايات العربية ، وحاولت بريطانيا التخفيف من حدة الأزمة خشية قيام حرب بين الدولة العثمانية والروسيا ، التى كانت مصممة على منازلة العثمانيين لتحقيق أطماعها التوسعية فى الدولة العثمانية، تحت ستار الانتصار للشعوب المسيحية فى البلقان . وكان أخشى ماتخشاه بريطانيا امتداد العمليات الحربية إلى مصر بما فيها قناة السويس ، التى كانت تعتبرها الطريق الرئيسى إلى الهند وغيرها من الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، فاقترحت عقد مؤتمر فى الآستانة[1] ، يحضره وزراء خارجية الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ .

دبلوماسية عبدالحميد لإحباط مؤتمر الآستانة ٧٦-١٨٧٧ :

وفى اليوم الخامس من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٦ ، وجه لورد دربى Derby فى وزارة لورد بيكونزفيلد الثانية دعوة لعقد مؤتمر دولى فى الآستانة للبحث فى تحسين أحوال الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية ، وتجنباً لنشوب الحرب بين هذه الدولة والروسيا التى جعلت من نفسها حامية للرعايا المسيحيين العثمانيين . وكانت قد اتخذت من هذه الرغبة «الإنسانية» ستاراً لتغطية غرضها الحقيقى ، وهو خوض حرب جديدة كانت قد استكملت لها استعداداتها العسكرية والسياسية على أوسع نطاق ، ابتغاء إنزال هزيمة تصل إلى حد الكارثة توقعها بالدولة العثمانية .

وقابلت الدول هذه الدعوة أول الأمر بالفتور ، ولكنها مالبثت أن أدركت أن الحرب أصبحت وشيكة الاندلاع ، بعد أن ألقى القيصر خطاباً مثيراً فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٧٦ ، أثنى فيه على استبسال أهل الصرب والجبل الأسود فى حربهم ضد القوات العثمانية ، وبعد أن وصلها منشور بتاريخ اليوم الثالث عشر من ذات الشهر من الحكومة الروسية ، تبلغ فيه الدول أنها أمرت بتعبئة جزئية للقوات الروسية على الحدود لحماية مسيحيى الدولة العثمانية ، قبل أن تستكمل الأخيرة إجراءات حشد قواتها من ولاياتها فى آسيا وإفريقية ، ومن ثم عادت الدول الأوروبية فوافقت على عقد المؤتمر الذى اجتمع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٧٦ فى سراى البحرية برياسة صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية بصفته ممثلاً للدولة المضيفة كما تقضى قواعد القانون

---

(١) الآستانة كلمة فارسية الأصل معناها العتبة العالية ، وقد ظهرت فى بعض الفرمانات السلطانية فى القرن التاسع عشر .

الدولى العام ، وحضر معه أدهم باشا الآلچى [١] العثمانى فى برلين ، كما حضر المؤتمر ممثلون عن فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، والروسيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا .

وقد سبقت عقد المؤتمر بصفة رسمية اجتماعات تمهيدية فى دار السفارة الروسية من اليوم الحادى عشر إلى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - دون دعوة الوفد العثمانى لحضورها . واتضح أنه تم فى هذه الاجتماعات التمهيدية وضع عدة مطالب أو «اقتراحات» قبل عرضها على المؤتمر بصفة رسمية ؛ مما يدل على تحيز أعضاء المؤتمر للروسيا . وفسر صفوت باشا مسلك الوفود بأن المؤتمر لم يدع إلى الانعقاد إلا لعرض طلبات متفق عليها من قبل ولطلب التصديق عليها من المؤتمر [٢] ، وكانت هذه الطلبات فى صالح بلغاريا والصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك . كما تضمنت المطالبة بتشكيل لجنة دولية تراقب لمدة عام تنفيذ ما أسمته وفود المؤتمر «الإصلاحات» .

وشاءت دبلوماسية السلطان عبدالحميد الثانى أن يعلن فى اليوم الأول لانعقاد المؤتمر صدور المشروطية - الدستور[٣] - وتقررت فيه المساواة التامة بين جميع رعايا الدولة أمام القانون ، ونص فيه على أن الدولة جسم واحد لايمكن تجزئته ، وعلى تجريم مصادرة الأموال ، والتعذيب فى التحقيق والسخرة ، كما نص على إنشاء مجلسين نيابيين يطلق على أولهما «مجلس المبعوثان» ويضم مائة وعشرين مبعوثاً أى نائباً منتخبين يمثلون الولايات العثمانية . ويطلق على الثانى «مجلس الأعيان» ويضم خمسة وعشرين عضواً تعينهم الحكومة . ونص أيضاً فى الدستور على وضع موازنة عامة سنوية للدولة ، تعرض على مجلسى المبعوثان والأعيان والتزام الحكومة بتنفيذها ، وتأمين القضاة فى مناصبهم بحيث لايجوز عزلهم إلا بسبب شرعى ، وأباح حرية التعليم والمطبوعات .. وأهم من ذلك حرص الدستور على الإبقاء على الطابع الإسلامى للدولة فقرر أن دينها الرسمى هو الإسلام ، واحتفظ بطابعها القومى فقرر أن اللغة التركية هى اللغة الرسمية ، وأن رعاياها عثمانيون دون تفرقة بين عثمانى تركى الأصل والأرومة أو عربى أو كردى أو غيره ، وبين مسلم أو مسيحى أو يهودى . وغير ذلك من مبادىء أساسية وحيوية وهامة[٤] .

---

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية ومعانيها فى نهاية هذه الدراسة .

(٢) انظر منشور صفوت باشا إلى السفراء العثمانيين لدى الدول الكبرى فى ٢٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٧ .

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص٤١٤ .

(٣) كان السلطان قد أرسل إلى مدحت باشا بعد تعيينه صدراً أعظم بأربعة أيام كتاباً أرفق به الدستور وأمره بنشره ، ثم رأى توقيت إعلانه يوم افتتاح مؤتمر الآستانة .

(٤) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٨٨ .

وشاعت دبلوماسية السلطان ثانياً أن يذاع هذا القرار بصورة عملية وعلنية لأعضاء وفود الدول فضلاً عن جماهير الشعب ، فأمر بأن تطلق كل قلعة ، وكل سفينة حربية إحدى وعشرين طلقة . وفوجيء أعضاء المؤتمر وهم مشغولون بمناقشاتهم بسماع طلقات المدفعية . ولما استفسروا عن هذا الأمر كانت إجابة مندوبي الحكومة سريعة ومعدة من قبل : إنها طلقات المدفعية العثمانية ابتهاجاً بصدور الدستور(١).

وشاعت دبلوماسية السلطان ثالثاً أن يثبت لوفود الدول المشتركة في المؤتمر أنه يستشير كبار رجال الفكر السياسي وعلماء الدين في جميع أمور الدولة ، فدعا إلى اجتماع عقد في اليوم الثامن عشر من شهر يناير-كانون ثان – عام ١٨٧٧ حضره زهاء مائتين من أعيان الدولة ورؤساء الديانات وعرضت عليهم مطالب الدول ، فأجمع الجميع على رفضها . وكان من بينهم وكيل بطريرك الأرمن وحاخام اليهود ، وكانا أكثر الأعضاء تحمساً لرفضها .

وقد أثبتت الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك أن تأييد الأرمن – على الأقل – كان من قبيل الخداع والتضليل بالدولة ، لأنه لما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا بعد ذلك بحوالي شهرين .. قدم الأرمن معاونة صادقة للروس في حربهم في آسيا ضد الدولة العثمانية . ومع ذلك فإن الروسيا ابتلعت شرائح إقليمية من بلادهم سواء أرمينية العثمانية أو أرمينية الروسية ، دون أن تعمل على تحريرهم(٢). وأحاط صفوت باشا أعضاء المؤتمر علماً في جلسة العشرين من الشهر ذاته بأن أعضاء الاجتماع العام من كبار رجال الدولة رفضوا مطالب المؤتمر بالإجماع . وأن السلطان قد رفضها «عملاً برأى كبراء الأمة . ورؤساء المذاهب والديانات ، وحفظاً لكرامة الدولة وصيانة لشرفها» (٣) ، وأبلغهم صفوت باشا في الوقت ذاته أن الحكومة مستعدة للنظر في بعض طلبات المؤتمر ، ولكنها غير مستعدة على الإطلاق للتنازل عن أي جزء من أراضيها سواء للصرب أو الجبل الأسود أو غيرها . وفي مساء اليوم التالي ٢١ من الشهر ذاته أنهى المؤتمر أعماله ، وغادر الأعضاء الآستانة دون أن يقابلوا السلطان ومعهم سفراء دولهم علامة على قطع العلاقات السياسية مع الدولة . ولم يتخلف منهم إلا السفير الروسي، بحجة أن حالة الجو والبحر الأسود لاتسمح لسفينته بالإبحار . والواقع أنه أراد بهذا العذر البقاء في الآستانة ليضع مزيداً من الخطط والمؤامرات لتدمير الدولة العثمانية .

بهذه الصور المتعددة الأشكال من دبلوماسية عبدالحميد ، نجح هذا السلطان في أن يفوت الفرصة على أعضاء مؤتمر الآستانة ، فغادروا العاصمة غير مأسوف على على رحليهم .

---

(1) Miller W.; op. cit., p. 371.

(2) Ensor R.C.K.; op. cit., p. 50.

(٣) مصطفى كامل باشا : المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج١، ص٢٣١ .

عبدالحميد يتلقى إنذاراً من الدول :

وعلى الرغم من أن الدولة عقدت صلحاً مع الصرب ، استمرت المسألة الشرقية مشتعلة، دون أن تسوى تسوية سلمية بسبب أطماع الدول الأوروبية الكبرى فى اقتطاع ولايات عثمانية لحسابها ، وبسبب إصرار الروسيا على خلق أزمات وتصعيدها مستهدفة خوض الحرب حين تستكمل استعداداتها الحربية النهائية . وفى الوقت ذاته ، بذلت هذه الدولة جهوداً دبلوماسية مكثفة لتضمن حيدة الدول الأوروبية الكبرى فى الحرب المقبلة، وأوفدت لهذا الغرض إجناتيف إلى العواصم الأوروبية فزارها عاصمة بعد أخرى ولقى فيها ترحيباً ، وحصل على تأكيدات من حكوماتها بعدم معارضة الروسيا فى شىء . وفى لندن توج جهوده باتفاقه مع رئيس الوزارة البريطانية على عقد مؤتمر دولى فى العاصمة البريطانية ، يحضره سفراء الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، ولم تشترك فيه الدولة العثمانية بطبيعة الحال . وصدر عن هذا المؤتمر ماعرف باسم «بروتوكول لندن» [١] فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر مارس – آذار – عام ١٨٧٧ ، وهو عبارة عن إنذار جماعى من الدول إلى الباب العالى ، طالبت فيه بعقد معاهدة صلح مع الجبل الأسود على أساس منح هذا الإقليم إضافات إقليمية كان يطالب بها ، وإنقاص عدد الجيش العثمانى ، وتحسين أوضاع الرعايا المسيحيين فى الدولة، وإذا لم يستجب الباب العالى لهذه المطالب فى أقرب فرصة ، فإن الدول الأوروبية تتخذ الإجراءات الفعالة ضد الدولة .

وعرض السلطان عبدالحميد هذا الإنذار على مجلس المبعوثان ، فرفضه المجلس فى اليوم التاسع من شهر أبريل – نيسان – وأبلغ الباب العالى فى مذكرة ضافية فى اليوم الحادى عشر الدول الموقعة على بروتوكول لندن رفضه هذه المطالب وأسباب رفضها[٢]، وأصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين يوم وآخر . وأكملت الروسيا استعداداتها الحربية ، وعقدت فى اليوم الرابع والعشرين من ذات الشهر اتفاقاً حربياً سرياً مع رومانيا ، يسمح بمرور القوات الروسية

---

(١) البروتوكول Le Protocole مصطلح فى القانون الدولى العام يطلق على اتفاقيات دولية ، إذا كان الموقف الدولى فى تقدير الدول الأطراف فى هذه الاتفاقيات لايتحمل تأخيراً ، وكان وضع الاتفاقيات أو المعاهدات يتطلب إجراءات يستغرق إتمامها وقتاً طويلاً ، مثل بروتوكول باريس فى ٥ من أغسطس – آب – عام ١٨٦٠ ، بخصوص تدخل أوروبا عسكرياً لإخماد فتنة بلاد الشام إبان الحكم العثمانى .

ويستخدم هذا المصطلح أيضاً كوسيلة تكميلية لتسجيل توافق إرادات الدول ، على مسائل تبعية لما سبق الاتفاق عليه فى المعاهدة المنعقدة بينهما . والأمثلة على ذلك كثيرة منها بروتوكول السودان ، وبروتوكول الجلاء فى مشروع معاهدة صدقى – بيفن . كما يطلق هذا المصطلح على مختلف الاتفاقات الدولية .

انظر : دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠٧ ، حاشية رقم١ .

(٢) نشر محمد فريد بك الترجمة العربية الكاملة لمذكرة الباب العالى نقلا عن مجموعة الجوانب .

انظر : محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٤١٧–٤٢١ .

عبر الأراضى الرومانية فى زحفها على الدولة العثمانية ، مع أن رومانيا كانت لاتزال تحت السيادة العثمانية(١).

الروسيا تعلن الحرب رسمياً على الدولة :

أرسل الأمير غورتشاكوف فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ إلى توفيق بك المكلف برعاية المصالح العثمانية فى سان بطرسبرج كتاباً ، جاء فيه أن سيده قيصر الروسيا رأى نفسه مضطراً بكل أسف إلى الالتجاء إلى الحرب لتنفيذ مطلبه وهو نصرة المسيحيين من رعايا السلطان ، وأن الروسيا تعتبر نفسها فى حالة حرب مع الدولة من هذا التاريخ . وفى اليوم ذاته عبرت القوات الروسية الحدود الأوروبية والحدود الشرقية للدولة ، وبذلك بدأت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا ، وكانت الحرب الرابعة والأخيرة التى نشبت بين الدولتين فى القرن التاسع عشر (٢) . واتخذت الروسيا فى القرم والبحر الأسود خطة الدفاع

---

(١) كانت رومانيا تتكون من ولايتى الأفلاق والبغدان أو مولدافيا وولاشيا ، وقد دخلتا تحت السيادة العثمانية فى أواخر القرن الخامس عشر . وكانت هاتان الولايتان مسرحاً لدسائس الدول الأجنبية وبخاصة الروسيا ، واستقطعت من هاتين الولايتين إقليم بيكوفينا عام ١٧٧٥ وإقليم بسارابيا عام ١٨١٢ . وأعيدت السيادة العثمانية إلى الولايتين بشروط معينة فى معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ (المواد من ٢١ إلى ٢٧) ، غير أن الامتيازات العديدة التى ظفرت بها هاتان الولايتان من الدولة العثمانية بتأييد الروسيا وانبعاث الروح القومية فى الولايتين ، كما انبعثت فى سائر الولايات البلقانية قد أوجدا تياراً قوياً نحو اتحادهما واستقلالهما . وقد أيدت الاتجاه الوحدوى الروسيا وفرنسا ، بينما عارضته كل من الدولة العثمانية وبريطانيا والنمسا . وتصاعدت المشكلة بحيث غدت من أكبر المشكلات التى واجهتها أوروبا بعد عقد معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ . ولحل هذه المشكلة عقد اتفاق باريس فى اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٥٨، وتقرر فيه إطلاق اسم موحد على الولايتين هو «ولايتا مولدافيا وولاشيا المتحدتين» The United Principalities of Moldavia and Wallachia على أن تكون الولايتان تحت السيادة العثمانية وأن تدفعا جزية سنوية للسلطان حددت بمليون ونصف مليون قرش بالنسبة لمولدافيا ومليونين ونصف مليون قرش بالنسبة لولاشيا . وأن يكون لكل ولاية مجلس نيابى ، ولكل منهما حاكم ينتخبه الشعب ويوافق عليه السلطان ، وكون للولايتين معاً لجنة مركزية ، تتكون من ستة عشر عضواً نصفهم من مولدافيا ونصفهم من والاشيا . ومن اختصاصات اللجنة وضع القوانين التى تمس الصالح العام ومحكمة الاستئناف الفيدرالية (الاتحادية) ، وتقرر أن يخضع جيشاً الولايتين لتنظيم واحد ، وأن يتحدا فى وقت الحاجة ، ويكون له قائد واحد ينتخبه أميرا الولايتين بالتناوب ، وأن يكون لكل ولاية علمها الخاص وغير ذلك من تنظيمات . ويعتبر هذا الاتفاق حلاً وسطاً بين الاتحاد والانفصال . وفى الانتخابات التى جرت فى اليوم السابع عشر من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٩ فى ولاية مولدافيا ، وفى اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - أجمع الناخبون على شخص واحد، هو إسكندر كوزا Couza وهو من ولاية مولدافيا ، ودرس القانون وخدم فى الجيش . فكان انتخابه الخطوة الأولى فى سبيل الاتحاد . واتخذ لنفسه اسم إسكندر جون الأول . وفى عام ١٨٦١ استقبل فى إستانبول ، وسميت الإمارة الجديدة رومانيا وعاصمتها بخارست ، مع تأكيد بقاء حق السلطان فى الجزية والسيادة .

(2) Miller W.; op. cit., p. 373.

نظراً لتفوق الأسطول العثمانى (١) ، ومع ذلك لم يستطع العثمانيون استغلال تفوقهم البحرى على الأسطول الروسى ، وعجزوا عن تدميره أو إصابته بهزيمة قاصمة . وجعلت خطتها الهجومية فى جبهة القوقاز وحوض نهر الدانوب وجنوبى البلقان ؛ أى اتخذت من الحرب البرية وسيلتها الرئيسية ، كما أقامت خطتها على الحرب الخاطفة بعبور الجيوش الروسية نهر الدانوب ثم اختراق جبال البلقان وممراته الجبلية ، فإذا تم لها ذلك انسابت سراعاً نحو إستانبول. وبذا تضع نهاية للمسألة الشرقية فى الجزء الأوروبى من أملاك الدولة العثمانية ، وفى اليوم الخامس والعشرين من الشهر ذاته ، أرسل الباب العالى منشوراً بطريق البرق إلى السفراء العثمانيين لدى الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، يبلغهم أن الروسيا أعلنت الحرب على الدولة خلافاً لما نصت عليه هذه المعاهدة فى مادتها الثامنة من ضرورة الأخذ بمبدأ تحكم الدول ، فى حالة وقوع نزاع بين الدولة العثمانية وإحدى الدول الأطراف فى المعاهدة قبل الالتجاء إلى الحرب .

الأحداث السياسية والدينية فى أثناء الحرب :

ولن نخوض فى وقائع الحرب لأنها خارجة عن نطاق هذه الدراسة . ولكن حسبنا أن نشير إلى أهم أحداثها السياسية والدينية والأخطاء التى وقع فيها السلطان عبدالحميد الثانى . دخلت الجيوش الروسية أراضى رومانيا فى طريقها إلى نهر الدانوب لعبوره ، ابتغاء اكتساح الأراضى العثمانية . ورأت الدولة العثمانية أن فى هذا التصرف من جانب رومانيا خروجاً على السيادة العثمانية ؛ فأمرت أسطولها النهرى فى الدانوب بقذف شواطئ رومانيا بالقنابل . وردت رومانيا على هذا القصف بإعلان استقلالها فى اليوم الرابع عشر من شهر مايو – آيار – ١٨٧٧ ، وباشتراكها إلى جانب الروسيا فى الحرب ، وبذلك انضم جيشها البالغ ستين ألف جندى ضد الدولة العثمانية ، ونجم عن هذا الوضع العسكرى الجديد أن استطاع الجيش الروسى بجميع فرقه عبور نهر الدانوب فى اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو – حزيران – وبذلت تغلبت الروسيا على العقبة الطبيعية الأولى أمامها ، وهى نهر الدانوب ، وبقيت أمامها العقبة الثانية والأخيرة، وهى اجتياز هضبة البلقان وممراته الجبلية . ولكن شد أزرها انضمام الجبل الأسود إليها منذ الأيام الأولى للحرب؛ مما اضطر الدولة العثمانية إلى تحويل جزء من قواتها لمحاربة سكان هذا الإقليم بدلاً من توجيه هذه القوات لمحاربة الروسيا فى جبهات البلقان .. ثم دخلت الصرب الحرب إلى جانب الروسيا فى المراحل الأخيرة للحرب .

---

(١) كان السلطان عبدالعزيز لولعه بالسلاح البحرى قد زاد من عدد وحداته وعتاده ورجاله زيادة ، لم تكن تتفق مع الموقف المالى المتدهور للحكومة العثمانية .

انظر : دكتور محمد مصطفى صفوت ، مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠ .

وهكذا وقفت الدولة العثمانية وحيدة تواجه تكتلاً دولياً مسيحياً من الروسيا ورومانيا والجبل الأسود والصرب جهاراً ومن رعايا الدولة المسيحيين فى باقى جهات البلقان سراً . وقد اتخذ هذا الصراع منذ يومه الأول طابع الصراع الصليبى بين المسيحية والإسلام ؛ إذ ركز الحلفاء اهتمامهم على نسف الأحياء الإسلامية فى المدن ، التى اقتحموها وقتلوا سكانها وسلبوا أموالهم وهتكوا أعراضهم وخربوا مساجدهم . واستصدر السلطان من شيخ الإسلام فى إستانبول فتويين مؤرختين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو – آيار – كانت الأول بفرض القتال على كل مسلم بالغ قادر عاقل ، وأن هذا الواجب هو فرض عين (١) ، وكانت الفتوى الثانية خاصة بإضافة لقب غازى لاسم السلطان عبدالحميد الثانى فى الأوامر السلطانية وعلى المنابر؛ بناء على ماجاء فى الحديث الشريف «من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا» . ولكى يضمن السلطان سلامة الجبهة الداخلية ويأمن شر الدسائس الأجنبية ، أعلن الأحكام العرفية فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو – آيار – ولاتثريب عليه فى هذا الإجراء ؛ لأن الدول تلجأ إليه فى حالة الحرب .

تقهقرت الجيوش العثمانية أمام الأعداء الذين استطاعوا احتلال عديد من المدن الهامة فى جبهة البلقان وجبهة القوقاز؛ مما أدى إلى انتشار الذعر فى إستانبول .

من أخطاء السلطان عبدالحميد :

أذاع المرجفون فى العاصمة أن تقهقر القوات العثمانية أمام الجيوش الروسية إنما مرده إلى إهمال أو تقصير أو عدم كفاءة كبار العسكريين ، ومنهم رديف باشا ناظر الحربية ، وعبدالكريم باشا القائد العام للجيش . ووشوا بهما إلى السلطان فعزلهما فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو – تموز – وأصدر فرماناً بتعيين محمد على باشا قائداً عاماً للجيش ، وكان تعيينه فى هذا المنصب الخطير من الأخطاء التى وقع فيها السلطان ؛ لأن محمد على باشا كان روسى الأصل مسيحى الديانة اسمه الروسى شارل دتروا ، ثم اعتنق الإسلام وانخرط فى سلك الجيش العثمانى ، وتدرج فى مناصبه ووصل إلى رتبة فريق . ولما نشبت الحرب فى أبريل – نيسان – ١٨٧٧ رقى إلى رتبة مشير وأرسل إلى الروملى ، ولم تكن تصرفات هذا القائد فوق مستوى الشبهات(٢) . ومن أخطاء عبدالحميد ثانياً أنه عين صهره محمود باشا داماد ناظراً للحربية . وكان يجدر بالسلطان أن يبتعد عن سياسة تعيين الأدانى والأقاصى من أفراد الأسرة

(١) تميز الشريعة الإسلامية الغراء بين فرض الكفاية وفرض العين . أما فرض الكفاية فتعلق بمجموع الأمة فى البلد ، بحيث إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقى ، مثل صلاة الجنازة فهى فرض كفاية يكفى فى أدائها بعض المسلمين . أما فرض العين فمتعلق بجميع الأفراد فرداً فرداً ، وعلى طريق الحصر والشمول ، مثل الصلوات الخمس .

(٢) انظر ماكتبه عنه مصطفى كامل باشا فى كتابه ، ج١ ، ص٢٤١ وج٢ ص٤ .

السلطانية فى المناصب الحساسة ، فى وقت كانت الدولة منصرفة بكافة طاقاتها إلى خوض حرب مصيرية . ولايمكن القول بأن السلطان كان يخشى الخيانة من أهل الخبرة واطمأن إلى إخلاص أهل الثقة .

وقد دلت الأحداث قديماً وحديثاً فى كافة الدول أن سياسة تقديم أهل الثقة وإقصاء أهل الخبرة إنما هى سياسة حمقاء ، أسفرت عن أوخم العواقب ووقوع الكوارث والتمزق . ومن أخطاء عبدالحميد ثالثاً أنه أمر بمحاكمة بعض كبار الضباط ممن نسب إليهم التقصير فى أداء واجباتهم ؛ مما سهل على الجيوش الروسية عبور نهر الدانوب واجتياز جبال البلقان . وصدرت عليهم أحكام بالسجن والنفى إلى جهات مختلفة . وكان من الحكمة الاكتفاء بعزلهم مؤقتاً وإرجاء محاكمتهم حتى تضع الحرب أوزارها .

نجاح الدبلوماسية الروسية فى أثناء الحرب :

من المبادئالمقررة أن الحرب قتال ودبلوماسية معاً ، وهما سلاحان فعالان متوازيان لاغناء عنهما ، بل إنهما مرتبطان بعضهما ببعض بعروة وثقى ، يكمل أحدهما الآخر . فإذا استخدمت الدولة المتحاربة هذين السلاحين بمهارة ، استطاعت تحقيق أهدافها العسكرية والسياسية فى يسر وسرعة ، ووضعت المجتمع الدول أمام الأمر الواقع Le fait accompli وقد استطاعت الروسيا أن تباشر عملياتها الحربية بنجاح ملحوظ . واستخدمت الدبلوماسية بتفوق قبيل الحرب وفى أثنائها .. فقد استطاعت أن تجعل السلطان عبدالحميد يقف بمفرده فى الحرب وأن تعزل حلفاءه التقليديين عنه ، وهم الذين آزروه فى حرب القرم على سبيال المثال . واستطاعت الروسيا – كما رأينا – أن تضم إلى جانبها رومانيا والجبل الأسود وبلغاريا والصرب، وأن تضمن حيدة دولة كبرى مثل النمسا والمجر فى مقابل وعدها لها بتسهيل احتلالها الولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك فى غربى البلقان ، وأن ترضى دولتين كبريين مثل بريطانيا وفرنسا ، حين أكدت لهما أن مصالحهما لن تتعرض للأخطار .

كان أخشى ماتخشاه الحكومة البريطانية أن تمتد العمليات الحربية الروسية من البلقان إلى مصر بما فيها قناة السويس . وكانت قد راجت شائعات تقول إن الروسيا تعتزم إدخال مصر، باعتبارها ولاية عثمانية ، فى نطاق الحرب ، وأنها تنوى فرض الحصار على قناة السويس والسواحل المصرية ، وأنها تبغى الاستيلاء على أرمينية العثمانية .. فأرسل لورد دربى وزير الخارجية البريطانية مذكرة إلى شوڤالوف Peter Shuvalov ، السفير الروسى فى لندن ، ولم يكن من أنصار حركة الجامعة السلافية[١] Pan Slavism . يستوضحه فيها حقيقة موقف الروسيا ، وكان مما جاء فى المذكرة البريطانية أن بريطانيا سوف تضطر إلى الدفاع عن

(1) Taylor A.J.P.; op. cit., p. 229-231 & 243.

مصالحها ، إذا تعرضت حرية الملاحة فى قناة السويس للخطر أو إذا قامت الروسيا بهجوم على مصر ، وأن الروسيا إذا أقدمت على هذا الإجراء .. فإن بريطانيا تعتبره عملاً عدوانياً ضدها . وقد ردت الحكومة الروسية على هذه المذكرة رداً مطمئناً جاء فيه «فبالنسبة لقناة السويس ومصر ، فنحن لن نمسها ، فليست لدينا المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل... ونحن على استعداد للاتفاق مع حكومة لندن على كل المسائل ، وليست لنا مصلحة فى مناوئة بريطانيا فى ممتلكاتها فى الهند أو فى مواصلاتها .. فالحرب الحالية لاتتطلب ذلك»(١) .

وأرسل ديكازيه Decazes وزير خارجية فرنسا إلى لافلو La Elo السفير الفرنسى فى سان بطرسبرج يطلب منه الاستفسار من الحكومة الروسية عن موقفها من قناة السويس ، وعما إذا كانت منطقة القناة تعتبر من الأهداف العسكرية فى الحرب التى تخوضها ضد الدولة العثمانية ، كما طلب من السفير أن يوافيه بنوايا الحكومة الروسية إزاء إستانبول ، وعما إذا كانت تعتزم الاستيلاء عليها . فجاءه رد هذه الحكومة عن طريق السفير الفرنسى فى العاصمة الروسية . وكان مما جاء فى هذا الرد «إن الوزارة الإمبراطورية لاترغب فى فرض الحصار أو تعطيل أو تهديد الملاحة فى قناة السويس ، ولن تدخل مصر فى نطاق العمليات الحربية . أما عن إستانبول.. فإن الوزارة الإمبراطورية دون أن تحكم مسبقاً على سير أو نتيجة الحرب تكرر أن الاستيلاء على هذه العاصمة أمر خارج عن نظر الإمبراطور (القيصر) .

"Le Cabinet Impérial ne veut ni bloquer, ni interrompre, ni menacer la navigation du Canal de Suez et il ne fera entrer l'Egypte dans le rayon des opérations militalres.

"Pour Constantinople, sans pouvoir préjuger la marche ni l'isseue de la guerre, le Cabinet Impérial répete qu'une acquisition de cette capitale est exclue de vues de l'Empereur"(٢)

أمجاد عسكرية حققتها القوات العثمانية :

ولكن لم تكن الحرب كلها هزائم للقوات العثمانية وانتصارات للجيوش الروسية ، فقد تبادل الطرفان فيها الأمجاد العسكرية والنكسات الحربية . وأثبتت الحرب أن الجنود العثمانيين كانوا ليوثاً كاسرة، وسطرت الحرب بطولة مثالية لعدد من القادة العثمانيين، نذكر منهم :

---

(1) Seton-watson R.W., op. cit., p. 172.

(2) Documents Diplomatiques Franssais, Première Série, tome 2.
Decazès au Général La Flo en date du 21 mai, 1877.
General La Flo au Decazès en date du 9 Juin, 1877.

عثمان باشا ، ومختار باشا ، وإسماعيل حقى باشا وسليمان باشا وغيرهم . وقد وقع على عاتق عثمان باشا عبء الدفاع عن مدينة بلڤنا Plevna ، وهى ذات موقع حربى هام للغاية لأنها على ملتقى الطرق الرئيسية الموصلة بين نهر الدانوب وبلغاريا الغربية وممرات جبال البلقان . وأقام عثمان باشا تحصينات منيعة ، حاول الخلفاء مراراً اقتحامها.. فكانوا ينقلبون فى كل مرة على أعقابهم خاسرين . وفى إحدى المرات هاجموا المدينة بقوات جرارة من أسلحة المدفعية والفرسان والمشاة ، وكانت قواتهم تبلغ ثلاثة أضعاف القوة العثمانية ، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن خضبوا أرض المعركة بدماء قتلاهم وملأوا الوديان بجثثهم . ولما بلغت عبدالحميد أنباء هذه البطولة أرسل إلى عثمان باشا برقية، أشاد فيها ببسالته وحسن قيادته وببطولة وشجاعة رجاله . وحضر قيصر الروسيا وولى عهده وأمير رومانيا لبث روح الثبات فى الجنود وتشجيعهم على الاستبسال ، ولما أعيت الخصوم الحيل فى اقتحام حصون المدينة ومعاقلها فرضوا عليها حصاراً محكماً عززته الفرق العسكرية ، التى كان يتوالى إرسالها إلى المدينة ونفدت الذخائر والأقوات من القوات العثمانية ، واضطرت إلى التسليم بعد حصار استطال زهاء ستة أشهر من ٢٠ يوليو - تموز - حتى ١٠ من ديسمبر - كانون أول عام ١٨٧٧ ، وقد أشاد ببطولة عثمان باشا قيصر الروسيا الذى قابله فى مدينة بلڤنا وأظهر له تقديره وإعجابه كما أشاد الخصوم قبل الأصدقاء والمؤرخون الأوروبيون قبل المؤرخين الشرقيين ببطولة عثمان باشا ورجاله . وقد فقد الجيش الروسى فى محاصرة بلڤنا ٢٨,٠٨٠ رجلاً ، وفقدت القوات العثمانية ١٥,٣٠٠ رجلاً .

عبدالحميد يطلب وساطة الدول لدى قيصر الروسيا لوقف إطلاق النار :

بعد سقوط مدينة بلڤنا بيومين طلب السلطان عبدالحميد من الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ التوسط لدى القيصر لوقف إطلاق النار تمهيداً لعقد صلح حقناً للدماء (١) . ولكن الدول تباطأت ولم تبعث بجواب شاف . ولعلها ارتاحت لسير الحرب لمصلحة الروسيا . ولم تحسب حساباً لعواقب سقوط مدينة بلڤنا .. تأكدت الصرب أن الانتصار سيكون فى جانب الروسيا ، بعد أن تدهور موقف القوات العثمانية فى القوقاز باستيلاء الروس على قارص فى اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٧ (٢) ، فلما سقطت بلڤنا فى الشهر التالى أعلنت الصرب الحرب على الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليها ، وذلك فى اليوم ذاته الذى طلب فيه السلطان وساطة الدول . وأرسل أمير الصرب جيشه للانضمام إلى الجيوش الروسية وكان قد تقابل مع قيصر الروسيا ، واتفق معه على المكاسب التى سيظفر بها بعد الحرب نتيجة خيانته للدولة العثمانية . وكان كل مافعله السلطان عبدالحميد أنه أصدر فرماناً

(1) Miller W.; op. cit., p. 376.

(٢) استولت الجيوش الروسية من قبل على أردهان وباطوم .

فى اليوم العشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - بعزل أمير الصرب ، واسمه الأمير ميلان Milan ، كما أرسل منشوراً موجهاً إلى أهل الصرب ، أظهر لهم غدر أميرهم وخيانته للعهود بعد أن عفت عنه الدولة أكثر من مرة ، وقال السلطان فى منشوره إن أميرهم يسوقهم إلى الدمار والخراب ، وأنه عزله من منصبه .

وكان من عواقب سقوط بلڤنا أيضاً أن وجهت الروسيا جميع جيوشها إلى ماوراء جبال البلقان للإغرة على بلغاريا والروملى الشرقية . واحتلت بمساعدة الجيشين الصربى والرومانى الممرات الجبلية الهامة مثل ممر شيپكا Shipka ، واستطاع ثوار الجبل الأسود الاستيلاء على أنتيڤارى Antivari على البحر الأدرياتى ، وتساقطت كأوراق الخريف المدن الهامة تباعاً مثل صوفيا وأدرنة واندفعت الجيوش الروسية فى طريقها إلى إستانبول .. دون أن تجد مقاومة تذكر حتى بلغت ضواحى العاصمة .

مشكلة اللاجئين المسلمين :

ازدادت المتاعب فى هذا الوقت الحرج أمام السلطان عبدالحميد ؛ إذ لم تكد تنتشر أنباء اقتراب الروس من إستانبول حتى قام رعايا الدولة المسيحيون بالانتقام من الدولة فى أشخاص رعاياها المسلمين من قتل ونهب فى الأقاليم التى اكتسحتها الجيوش الروسية . ولذلك هاجر كثير من المسلمين إلى إستانبول هرباً مما كانوا ينتظرونه ووقع فيه فريق منهم ، وتركوا ديارهم وأمتعتهم وقصدوا إستانبول أفواجاً ، وغصت بهم شوارع العاصمة وبلغ عددهم زهاء مائة وخمسين ألف مهاجر .

وأعيت الحيل الحكومة فى تقديم الغوث لهم من ملبس ومأكل ووقود لحمايتهم من زمهرير الشتاء فضلاً عن تدبير أماكن لإيوائهم ، وتكونت عدة لجان لمساعدتهم وجمعت أموالاً وفيرة من الأهالى .. وانتشرت بينهم الأمراض بعامة ووباء التيفوس بخاصة . وانتهز خصوم السلطان عبدالحميد هذه الفرصة ، واستغلوا سوء أوضاعهم واندسوا بينهم واستخدموهم كمخلب قط للإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد ، كما مر بنا فى حادث قصر چراغان وحادث إحراق مبانى الباب العالى . ولولا أن السلطان بادر إلى طلب وقف إطلاق النار وأبرم هدنة مع الروسيا ووزعهم فى أقاليمهم الأناضول لتعرضوا للفناء . وكانوا يرفضون العودة إلى بلادهم التى احتلها الروس وحلفاؤهم وساد فيها المسيحيون رفضاً قاطعاً .

ظهور مشكلتين لم تكونا فى حسبان عبدالحميد :

(١) رغبة اليونان فى دخول الحرب ضد الدولة :

فى هذا الوقت العصيب طفت على السطح مشكلتان ، لم تكونا فى الحسبان ، جعلتا الموقف أمام السلطان عبدالحميد أفدح خطورة وأشد ظلاماً . وتمثلت المشكلة الأولى فى تحرك

سياسى صحبه تحرك عسكرى ، قامت بهما المملكة اليونانية مستغلة متاعب السلطان عبدالحميد من أجل تحقيق توسعات إقليمية وامتيازات على حساب الدولة العثمانية عقب اشتعال الحرب العثمانية الروسية فى عام ١٨٧٧ . ومن المعروف أن اليونان لم تشترك فى هذه الحرب ولكنها لم تكن ، فى أثناء ثورة بلغاريا وحرب الصرب والجبل الأسود الأولى ، دولة متفرجة ولكنها اهتمت اهتماماً زائداً بتتبع أحداثها . ورأت ا لحكومة اليونانية أنه من الحكمة أن تستعد حربياً إذا تطلبت المصلحة القومية أن تتدخل عسكرياً ضد الدولة العثمانية .

وتماشياً مع هذا الاتجاه ، أقدمت الحكومة اليونانية على تعزيز جيشها باستيراد أسلحة وذخائر وزيادة عدد أفراده . وكان هناك فريق من اليونانيين يريدون اغتنام فرصة الحرب العثمانية الروسية ؛ خشية أن تتم تسوية المسألة الشرقية بطريقة تنطوى على إغفال أو تغافل ما أسموه «العامل الهيلينى» The Hellenic Factor ، وأثاروا اضطرابات فى الأقاليم اليونانية الخارجة عن حدود المملكة اليونانية ، والتى كانت لاتزال تابعة للدولة العثمانية . وأجمعت الآراء فى أثينا على ضرورة إزالة أو وقف الخلافات بين الأحزاب ؛ حتى تستطيع البلاد التفرغ لحركة الجامعة الهيلينية Panhellénism ، ويقصد بها جمع شتات الأقاليم اليونانية المبعثرة والخارجة عن حدود المملكة اليونانية وضمها إلى نطاق هذه المملكة، التى كان أنصار هذه الحركة ينظرون إليها على أنها المملكة الأم .

وذهبت الدوائر السياسية فى أثينا إلى أن هذه الحركة الهيلينية أصبحت فى مفترق الطرق ، وعلى البلاد أن تواجهها بقيادة موحدة وعقلية موحدة وتوجيه موحد . وتشكلت فى أثينا فى شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٧ وزارة ائتلافية A coalition cabinet ، سميت The Oecumenical Government ضمت مجموعة من كبار الساسة اليونانيين القدامى ، ويقول عنها ميلر Miller إن مملكة اليونان لم تشهد من قبل ولا من بعد مثل هؤلاء الصفوة من الساسة المحنكين ، يجتمعون فى وزارة واحدة [1] . وأعلن وزير الخارجية فى الوزارة الجديدة - أو «الوزارة العظمى» كما سميت - استعداده لأن يقمع فى حدود استطاعته حركات العصيان بين رعايا الدولة العثمانية اليونانيين ؛ بشرط أن تعترف الحكومة البريطانية ، عندما يحين الوقت لتسوية المسألة الشرقية «بأن هناك مسألة هيلينية أمام أوروبا» . وكان دربى وزير خارجية بريطانيا ميالا إلى إدراج إصلاحات إدارية أو امتيازات لرعايا الدولة العثمانية اليونانيين على غرار الإصلاحات والامتيازات ، التى تتقرر للجنسيات المسيحية الأخرى فى البلقان ، ولكنه لم يكن راغباً فى إعطاء وعود بتأييد منح المملكة اليونانية توسعات إقليمية ، على حساب الدولة العثمانية .

---

(1) Miller W.; op. cit., p. 379.

الروسيا تعرض على اليونان الاشتراك فى الحرب :

وعلى الرغم من أن السلطان عبدالحميد استخدم قوات من الباشى بوزوق الألبانية فى إخماد ثورات الرعايا اليونانيين فى تراقيا ، وعلى الرغم من ضغط جمعية الإخوان اليونانيين لتصعيد حركة المقاومة فى وجه السلطان عبدالحميد ، أخذ معظم أعضاء الوزارة الإئتلافية بنصيحة الحكومة البريطانية ، وهى الاعتذار عن عدم قبول عرض قيصر الروسيا فى أثناء حصار مدينة بلڤنا بأن تدخل اليونان الحرب ضد الدولة العثمانية ، ويضمن لها القيصر المشاركة فى أسلاب الحرب .

كما ترجع أسباب هذا الرفض إلى أن الشعب اليونانى رفض بإباء وشمم أن يزج بقضية القومية الهيلينية مع قضية البلقان . ولكن لما تطورت العمليات الحربية بسقوط مدينة بلڤنا وجاءت الأنباء بزحف الجيوش الروسية على مدينة أدرنة العاصمة السابقة للدولة العثمانية.. قامت المظاهرات الصاخبة فى شتى أنحاء المملكة اليونانية ، تطالب بدخول الحرب ضد الدولة العثمانية .

وحاولت وزارة الائتلاف تهدئة ثائرة الجماهير ، فأعلنت تأييدها للانتفاضات التى قامت فى تراقيا وإبيروس Epirus وجزيرة كريت ، وصرح وزير الخارجية اليونانية فى اليوم الثانى من شهر فبراير- شباط - عام ١٨٧٨ أن الحكومة قررت أن تحتل مؤقتاً بجيوشها الأقاليم اليونانية التابعة للدولة العثمانية . ولكن جاءت الأنباء بوقف إطلاق النار وإبرام هدنة بين الدولة العثمانية والروسيا فأوقفت هذا الغزو ؛ إذ اتضح لأعضاء الوزارة أنه إذا استمرت عمليات الغزو.. فإن المملكة اليونانية ستقف بمفردها فى الحرب أمام القوات العثمانية ، وكان وزير الخارجية اليونانية يرى أن تشترك بلاده فى الحرب البلقانية العثمانية الروسية حتى يضمن لبلاده مقعداً فى مؤتمر الصلح على غرار مافعل كافور Cavour (١٨١٠-١٨٦١) رئيس وزراء بيدمنت، عندما اشترك فى حرب القرم وجلس بجانب مندوبى الدول فى مؤتمر باريس فتسنى له إيصال صوت إيطاليا إلى آذان الدول الكبرى مباشرة . ويبدى ميلر أسفه العميق ؛ لأن المملكة اليونانية لم تنهج نهج بيدمنت ، ولأنها أضاعت وقتاً ثميناً وطويلاً ، ولما أرادت التدخل حربياً جاء قرارها متأخراً(١) .

وكانت القوات اليونانية قد بلغت فى زحفها دوموكوس Domokos، فلما أمرت الحكومة بعودة قواتها إلى قواعدها ، أعلنت فى الوقت ذاته أن المسألة الهيلينية ستناقش فى المؤتمر، ولكن لم يكن لهذا التصريح أثر كبير .. فقد استمرت الثورات ، وعبر المتطوعون حدود المملكة اليونانية نحو إبيروس وتراقية . أما فى إبيروس فقد أخمدت الثورة سريعاً ، بعكس ثورة تراقيا

(1) Miller W.; op. cit., p. 379-381.

فقد أخذت فيها اتجاهاً خطيراً ، إذ أعلن الثوار قيام حكومة مؤقتة ونادوا بالوحدة مع المملكة اليونانية .

ولما أذيعت معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية والروسيا- معاهدة سان استفانو – وتقرر فيها إدماج أجزاء كبيرة من مقدونيا فى ولاية بلغاريا ، قامت ثورة عازمة تنادى فيها اليونانيون إلى ضم جميع أجزاء مقدونيا إلى المملكة اليونانية ، وأخفقت السلطات العثمانية فى السيطرة على الموقف . وتدخلت الحكومة البريطانية فى شهر مايو – آيار – عام ١٨٧٨ ، وأبلغت الثوار أن المصالح الهيلينية لن تضار إذا استمعوا إلى نصيحتها ، وعرضت عليهم مشروعاً للصلح يقضى بصدور عفو عام من الباب العالى عن الثوار ، وإعفاء لمدة سنة من الضرائب ، وإنشاء إدارة منفصلة فى كل من تراقيا وإيبيروس ، وقد وافق الباب العالى على هذه الاقتراحات وألقى الثوار سلاحهم .

(٢) ثورة كريت :

أما المسألة الثانية .. فكانت تتمثل فى ثورة قام بها السكان المسيحيون فى جزيرة كريت فى عام ١٨٧٧ ، وقد استغلوا الأخطار التى تزاحمت على السلطان عبدالحميد إبان الحرب العثمانية الروسية التى نشبت فى تلك السنة . وقد طالب الثوار بإدخال تعديلات على «اللائحة الأساسية» (١) Organic Statute الصادرة فى عام ١٨٦٨ بمنحهم المزيد من الامتيازات. ولما رفض السلطان عبدالحميد الاستجابة إلى مطالبهم عقد زعماء الثوار اجتماعاً فى أثينا ، وقرروا تحريك ثورة ضد الدولة العثمانية ، وهبط المتطوعون اليونانيون الجزيرة وشكل زعماء الثورة جمعية باسم الجمعية العامة للكريتيين ، طالبت بمنح الجزيرة حكماً ذاتياً كاملاً ، وأن تحكم الجزيرة هيئة تنفيذية يرأسها حاكم ينتخبه الأهالى ، وأن تكون الرابطة بين الدولة والجزيرة

---

(١) تقرر بمقتضى هذه اللائحة تقسيم الجزيرة إلى خمسة أقسام ، يطلق على كل منها «متصرفية» ويحكمها «متصرف» . وتنقسم هذه المتصرفيات بدورها إلى تسع عشرة وحدة إدارية ، وأن تقوم فى الجزيرة سلطتان رئيسيتان تتمثلان فى وال و«سر عسكر» أى قائد عام ، ويصح أن يشغل المنصبين شخص واحد. ويكون للوالى مساعدان ، أحدهما : مسيحى يعاونه مجلس إدارة يتكون من أعضاء مسلمين ومسيحيين ، ينتخب بعضهم ، ويعين بعضهم الآخر بحكم مناصبهم ex officio ، وإذا كان المتصرف مسيحياً يعين له «معاون» مسلم وإذا كان المتصرف مسلماً يعين له معاون مسيحى ، وأن تكون اللغتان التركية واليونانية اللغتين الرسميتين فى الجزيرة . وتقرر إنشاء جمعية عامة ، تكلمت اللائحة عن طريقة تشكيلها وتجتمع مرة فى السنة لمدة لاتزيد عن أربعين يوماً ، وتناقش المسائل ذات المنفعة العامة ، أما المسائل الدينية فتناقش فى جلسات خاصة يشترك فيها رجال الدين المختصون ، كما تعرضت اللائحة الأساسية لمسألة الضرائب ، والرسوم المقررة على منتجات الجزيرة والرسوم الجمركية .

انظر :

Miller W.; op. cit., pp. 314-315.

مقصورة على جزية سنوية حددت بنصف مليون قرش ، وأن تضمن الدول الأوروبية الكبرى هذا الوضع السياسى الجديد للجزيرة .

ولما أبطأ عليهم عبدالحميد أعلنوا قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وإعلان الحرب عليها وتصاعدت موجة الحركة الهيلينية - وهى تهدف إلى ضم جميع الأقاليم التى يسكنها يونانيون إلى المملكة اليونانية باعتبارها المملكة الأم - وكان يحلو لرجال الحركة الهيلينية أن يطلقوا على جزيرة كريت «الجزيرة اليونانية الكبرى» ، وكان بعضهم من أنصار ضمها إلى المملكة الأم ، بينما كان البعض الآخر من أنصار اتخادها . وكانوا على استعداد دائماً لمساعدة الجزيرة حربياً بل ومحاربة الدولة فى تحقيق هدفهم ، وقد أعلنت الحكومة اليونانية أن المستقبل السياسى لجزيرة كريت يهمها أكثر من أى دولة أخرى . ومع ذلك لم يمض وقت طويل على نشوب الثورة حتى أعلنت الهدنة لسببين : أولهما أن الدولة العثمانية كانت قد سحبت أجزاء من قواتها فى الجزيرة ووجهتها لمحاربة الجيوش الروسية ، وثانيهما أن الثوار كانت تعوزهم الذخائر والأسلحة والأطعمة .

ولكن لما أرسل السلطان تعزيزات عسكرية إلى الجزيرة، نقض الهدنة واستأنف الحرب من جديد ضد الثوار، وبدأت كفة العثمانيين ترجح كفة الثوار . وتدخلت الحكومة البريطانية نيابة عن مسيحيى الجزيرة لدى الباب العالى، الذى وعد بأنه «سيعمل بالإتفاق مع الحكومة البريطانية على إدخال ترتيبات لنوع جديد من الحكومة فى الجزيرة طبقاً للمطالب الشرعية واحتياجات الجزيرة» ، وشكلت حكومة مؤقتة تتكون من سبعة أعضاء وافقت فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٧ على قبول الوساطة البريطانية ، وإبرام هدنة على أساس القاعدة المعمول بها فى بعض الأحوال ، والتى يطلق عليها فى القانون الدولى العام (١) Uti possidetis وبذلك عاد السلام مؤقتاً إلى جزيرة كريت . ولكن سرعان ماتجدد نشوب الثورات تباعاً فى السنوات المتبقية من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بتحريض وتدخل مملكة اليونان والدول الأوروبية الكبرى عسكرياً ، وكان من بين هذه الدول : الروسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ؛ لتصعيد الأزمات والأخطار فى وجه السلطان عبدالحميد .

---

(١) معنى هذا المصطلح الامتلاك بحق الاحتلال ، فإذا قامت حرب وعقدت هدنة ، فإن كلا من الفريقين المتحاربين يعتبر مالكاً للأرض التى تحتلها قواته . ويستمر هذا الوضع قائماً حتى يحسم على أى نحو من الأنحاء فى معاهدة الصلح النهائية .

وصول القوات الروسية إلى ضواحى إستانبول :
وشروط جائرة فرضتها الروسيا لعقد هدنة :

اقتربت القوات الروسية من مشارف إستانبول فى شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٨ ، وشاهد جنود الجيش الروسى بالعين المجردة مآذن مساجد أكبر عاصمة إسلامية فى العالم وقتذاك ، والتى أصبحت مهددة باقتحام الروس لها ، وكانوا يتحرقون شوقاً لإعادة الصليب إلى مبنى كاتدرائية القديسة صوفيا ، والذى كان السلطان محمد أبو الفتوح قد حوله إلى مسجد جامع منذ أربعمائة وأربعة وعشرين عاماً خلت . وتركت الدولة العثمانية بمفردها تواجه مصيرها . ولما رأى السلطان عبدالحميد أن إطالة مدة الحرب ستجلب على الدولة كوارث محققة طلب من الروسيا وقف إطلاق النار وإبرام هدنة ، واشترطت الروسيا لعقد الهدنة أن تشمل عدة مبادئ أساسية ، منها : استقلال الصرب ورومانيا والجبل الأسود ، وتنازل الدولة لهذه الدول عن بعض الأراضى ، ومنح بلغاريا استقلالاً إدارياً ، وجعل الإدارة فى البوسنة والهرسك مستقلة ، وتقرير غرامة حربية تدفعها الدولة إلى الروسيا . وعقدت الهدنة فى أدرنة فى اليوم الثلاثين من شهر يناير - كانون ثان - على هذه الأسس ، ووضعت الحرب أوزارها بعد قتال استمر تسعة أشهر .

بريطانيا ترسل أسطولها إلى البوسفور :

انتشرت أنباء هدنة أدرنة فى أوروبا ، وكان لها بوجه خاص أصداء بعيدة لدى الحكومة البريطانية ، التى لم تكن تعتقد أن هزيمة الدولة العثمانية تكون بهذا الحجم الرهيب الذى بلغ حد الكارثة المروعة .. فإن انتصار الروسيا الساحق ومرابطة القوات الروسية فى ضواحى إستانبول(١) وفرض هدنة أدرنة ، كل أولئك حمل الحكومة البريطانية على الاعتقاد بأن هذه الحرب جعلت من الدولة العثمانية دولة تابعة للروسيا ، وخشيت حكومة لندن على مصالحها فى الدولة : فى المضايق وقناة السويس والشرق الأوسط ، وعلى نفوذها فى منطقة الخليج العربى والهند .

ووقف الرأى العام فى إنجلترا وراء حكومته فى التخوف من نتائج الهزيمة الأليمة والمنكرة التى لقيتها الدولة العثمانية ، وسرى حماس بالغ لدخول بريطانيا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية ، وذاعت أغنية ترددت فى المسارح ، ذكر مطلعها المؤرخ إنزور Ensor (٢) ،

---

(١) نص فى هدنة أدرنة على أن تحتل مقدمة الجيش الروسى خط بيوك چكمجه وكوچوك چكمجة من ضواحى إستانبول ، وأن تنسحب القوات العثمانية إلى ماوراء هذا الخط ، وقبلت الدولة هذا الشرط منعاً لاحتلال القوات الروسية إستانبول .

(2) We don't want to fight; But by Jingo if we do, We've got the men, we've got the ships, we've got the money too.

انظر :

Ensor R.C.K.; op. cit., p. 48, fn No. 1. =

واتخذت الوزارة البريطانية برياسة بنيامين دزرائيلى اليهودى - وقد غدا اسمه لورد بيكونزفيلد Beaconsfield منذ أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ عقب تعيينه عضواً فى مجلس اللوردات - إجراءات مالية وعسكرية تهديداً للروسيا إذا احتل جنودها إستانبول .

وكان من هذه الإجراءات أن طلبت الوزارة من البرلمان اعتماد ستة ملايين جنيه ، ووافق البرلمان على فتح هذا الاعتماد دون تردد ، وصدرت الأوامر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٨ ، وفى اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - إلى الأسطول البريطانى بالتحرك من مياه خليج بزيكا Besika إلى البوسفور بحجة حماية الرعايا البريطانيين ، ولكن كان الهدف الحقيقى هو مراقبة تحركات القوات الروسية عن كثب ومنعها بالقوة من احتلال إستانبول حفاظاً على المصالح البريطانية بمنع الروس من السيطرة على المضايق ، ومن التوسع نحو البحر المتوسط[1]؛ فلم يكن من أهدافها حماية الدولة العثمانية أو الإبقاء على صداقتها لهذه الدولة ومن المعروف أن من مبادئ السياسة البريطانية أنه ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون ، ولكن لها مصالح دائمة .

وقد طبقت هذا المبدأ فى التاريخ الحديث والمعاصر على الدولة العثمانية وعلى شعوب الأمة العربية ، ومضت الوزارة البريطانية فى إجراءاتها ، فأقصت فى شهر فبراير - شباط - لورد كارنارفون Carnarvon وزير المستعمرات ، كما أقصت فى شهر أبريل - نيسان - لورد دربى Derby وزير الخارجية لتمسكهما بأهداب السلام وعينت مكانهما على التوالى سير هيكس بيـــتش Sir Hicks Beach M. ، ولورد سالزبورى ، وأصدرت الوزارة البريطانية فى اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - قرارين : أولهما باستدعاء الجيش الاحتياطى فوراً، وثانيهما بإرسال قوات هندية ، وقد وصلت إلى مالطة فى شهر مايو - آيار - وكان عددها سبعة آلاف مقاتل .

الروسيا تطلب إرسال أسطولها إلى المضايق ودخول جيشها فى إستانبول :

ولما وصل الأسطول البريطانى إلى مياه البوسفور تصاعد الموقف الحربى .. فقد طلب القائد الروسى من الدولة العثمانية إدخال بعض فرق من المشاة الروس فى إستانبول ، وأرسل الأمير غورتشاكوف فى اليوم العاشر من شهر فبراير - شباط - إلى جميع السفراء الروس لدى الدول الأوروبية الكبرى ، منشوراً جاء فيه أنه لما كانت بريطانيا قد أدخلت وحدات من

= وترجمة هذا المطلع «لانريد أن تحارب ، ولكن إذا حاربنا فنحارب انبثاقاً وانطلاقاً من وطنيتنا الدافقة ، فلدينا الرجال ، ولدينا السفن ، ولدينا الأموال أيضاً» .

ويقـول هذا المؤرخ إن كلمـة Jingo قد دخلت منذ ذلك الوقت فى عداد الكلمات الإنجليزية المنحوتة والدخيلة ، ومعناها : المغالى فى وطنيته ، واشتقت منها كلمة Jingoism أى المغالاة فى الوطنية .

(1) Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1040-1042.

أسطولها فى البوسفور لحماية رعاياها .. فإنها تطلب من الباب العالى السماح لأسطولها بدخول البوسفور ، كما أنها ترى ضرورة تحرك جزء من جيوشها المرابطة حول إستانبول إلى داخل العاصمة لحماية المسيحيين ، واضطربت الحكومة البريطانية من هذا المنشور ، وكتبت إلى سفيرها فى سان بطرسبرج ؛ كى يحتج على ماورد فى هذا المنشور ، وأوضحت أنه لايوجد وجه للمقارنة بين إرسال الأسطول البريطانى إلى البوسفور واحتلال إستانبول عسكرياً بواسطة القوات الروسية. وطلبت من سفيرها إبلاغ الحكومة الروسية بأنها لاتسمح على الإطلاق ، وعلى أى نحو من الأنحاء باحتلال إستانبول ، وأنه لو دخل الجيش الروسى هذه العاصمة .. فإن الحكومة الروسية تكون مسئولة عن الأخطار التى تنجم عن هذا الإجراء العسكرى ، وإزاء إصرار الحكومة البريطانية على موقفها تراجعت الروسيا عن مشروعها ، ولكنها أبدت تحفظاً هاماً هو أن الجيش الروسى لن يدخل إستانبول إلا إذا أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، ومادامت الحكومة البريطانية لاترغب فى ذلك.. فلاخوف على إستانبول من احتلال الروس لها ، وظل الجنود الروس مرابطين خارج العاصمة العثمانية ، لايتعدون الخط الذى حددته هدنة أدرنة (١) .

ضغط مهين مارسته الروسيا على الدولة العثمانية :

بدأت المفاوضات فى أدرنة بين الحكومتين العثمانية والروسية لوضع معاهدة الصلح . وعينت الحكومة العثمانية كلاً من صفوت باشا وزير الخارجية الذى أعيد إلى منصبه ، وسعد الله بك الآلچى العثمانى فى برلين . وعينت الحكومة الروسية كلاً من إجناتيف ، ونليدوف(٢). وقد سبقهما فى الذهاب إلى أدرنة الأمير غورتشاكوف Gortchakov ، وطلب من المندوبين العثمانيين نقل مقر المفاوضات من أدرنة إلى سان ستفانو ، وهى قرية ساحلية صغيرة على بحر مرمرة تبعد عشرة أميال عن إستانبول ولم يكن يسمع بها أحد . وقد اكتسبت شهرة عالمية منذ ذلك الوقت لارتباط اسمها بمعاهدة الصلح، وتوجه العضوان العثمانيان إليها مع مستشاريهما، كما ذهب إليها الأمير غورتشاكوف بصحبة قوة من ألف جندى بمثابة حرس ،

---

(١) عن الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨) ، انظر كلاً من :

Ensor R.C.K.; op. cit., pp. 42-54.

Miller W.; op. cit., pp. 358-398.

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1040-1042.

Grant A.J. & Harold Temperley; op. cit., pp. 300-307.

Taylor A.J.P.; op. cit., pp. 228-254.

(٢) جاء فى ديباجة معاهدة الصلح عن إجناتيف أنه حائز على رتبة أمير اللواء وياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى ، ويحمل وساماً روسياً مرصعاً هو وسام «صان علكساندر نويسكى» وأوسمة أجنبية عديدة . كما جاء عن نليدوف أنه من قرند الدائرة الإمبراطورية ، ومن أعضاء شورى الدولة ، ويحمل وسام «صانت آن» من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به ، وعدداً من الأوسمة الروسية والأجنبية .

ولم تلبث أن زاد عدد أفراد هذه القوة حتى بلغ عشرين ألف مقاتل ، دون أن يكون للدولة العثمانية سبيل لمنعهم ، واتضح أن هدف إرسال هذه القوة هو تهديد الوفد العثمانى لحمله على التوقيع على المعاهدة .

وبعد عدة اجتماعات ، أبلغ إجناتيف المندوبين العثمانيين ضرورة الموافقة على الشروط المعروضة قبل اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٨ ؛ لأن هذا اليوم يوافق عيد قيصر الروسيا ، وإلا فإن هدنة أدرنة تعتبر لاغية ويحتل الجيش الروسى إستانبول . ويقول أحد الباحثين المصريين[١] إنه لم يتسن للمندوبين العثمانيين دراسة شروط معاهدة الصلح دراسة متأنية نظراً لضيق الوقت وتهديد الجانب الروسى . ولكن الحقيقة لم يكن فى مقدور المندوبين العثمانيين الاعتراض على مواد معاهدة الصلح؛ لأنهما كانا يمثلان دولة منهزمة وتجنباً لتعريض إستانبول للاحتلال الروسى .

وفى اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - أقام الأمير غورتشاكوف عرضاً عسكرياً للقوات الروسية فى قرية سان ستفانو ابتهاجاً بعيد ميلاد القيصر . ولما بلغت الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، ولم يأت إليه نبأ عن توقيع المعاهدة توجه إلى قاعة اجتماع الوفدين العثمانى والروسى . وطلب من الوفد العثمانى التوقيع على المعاهدة فى اليوم ذاته ، وإلا فإن القوات الروسية الموجودة فى سان ستفانو ، وكان عددها عشرين ألفاً ، ستشرع فى احتلال إستانبول فى مساء اليوم ذاته . وفى الساعة الخامسة مساء خرج إجناتيف ومعه المعاهدة ، وقد وقع عليها المندوبان العثمانيان ، وسلمها إلى الأمير غورتشاكوف الذى كان فى ساحة العرض يحف به أركان حربه ، فصاح الجنود الروس مستبشرين ، وأقام لهم أحد القسيسين صلاة شكر فى ميدان العرض ، نزل فى أثنائها الضباط والجنود عن ظهور خيولهم وركعوا سجداً لله شكراً له سبحانه وتعالى .

معاهدة سان ستفانو

عرض وتحليل ونقد :

عرفت معاهدة الصلح باسم معاهدة سان ستفانو (الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٨) ، وهى من أكثر المعاهدات ضرراً بالدولة العثمانية ، وتعد فى القانون الدولى العام من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أملتها دولة منتصرة على دولة منهزمة . وعلى قدر حجم الهزيمة كان حجم الخسائر السياسية والعسكرية والمالية ، التى فرضت على الدولة فى معاهدة سان ستفانو . لقد أعلنت الروسيا الحرب على الدولة تحت شعار الانتصار للشعوب المسيحية المعذبة فى البلقان والخاضعة للحكم العثمانى، ثم فرضت على الدولة معاهدة تتشح بروح

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٤٤ .

الاستيلاء على أراضيها وإنشاء كيانات سياسية مسيحية ذات حدود جديدة ، بعد إضافات إقليمية إليها تزيد من رفعتها ومنحها الاستقلال التام أو الذاتى . وفى كلتا الحالتين تدور هذه الدول فى فلك الروسيا التى خولت لنفسها الحق فى احتلالها احتلالاً «مؤقتا» ؛ حتى تستطيع تنظيم شئونها وبناء جيوش وطنية تذود عن وضعها السياسى الجديد . كما استولت الروسيا بمقتضى المعاهدة على أقاليم عثمانية هامة فى أوروبا وآسيا ، ووضعت نظاماً جديداً لمرور السفن فى البوسفور والدردنيل ، روعى فيه تحقيق مصالحها الحربية والتجارية ، وفرضت على الدولة غرامة حربية كبيرة للغاية .

كانت غالبية الشعوب المسيحية البلقانية والروسيا هما الطرفين اللذين حققت لهما المعاهدة أعظم المكاسب .. فقد نصت على إنشاء ما اصطلح رجال السياسة وقتذاك على تسميته «بلغاريا الكبرى» Big Bulgaria ، وأفردت لها مساحات شاسعة فى البلقان ، ذات أربعة أضلاع تتحدد بنهر الدانوب شمالاً ، والبحر الأسود شرقاً ، وبحر إيجه جنوباً ، وألبانيا غرباً .

وقررت المعاهدة أن يكون «مأمورو» الحكومة وجنودها من المسيحيين ، وأن يحكمها أمير ينتخبه الأهالى ، وبشرط ألا يكون هذا الأمير أحد أعضاء الأسرات الحاكمة فى أوروبا . ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأوروبية الكبرى ، الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، وأن يجتمع «مجلس المتعبرين» أى مجلس الأعيان لوضع دستور للبلاد قبل انتخاب الأمير ، وعلى الدولة العثمانية أن تسحب قواتها من بلغاريا ، وعلى الحكومة المحلية أن تهدم القلاع المقامة فى أنحاء البلاد . وأن ترابط القوات الروسية فى بلغاريا لمدة سنتين حتى يتم إنشاء جيش من البلغاريين ؛ بحيث لايكون فى بلغاريا عند انسحاب القوات الروسية سوى الجيش البلغارى، الذى تقرر أن يتكون من ست فرق من المشاة وفرقتين من الفرسان، ويكون تعدادهم جميعاً خمسين ألفاً ، وأن تدفع بلغاريا جزية سنوية للسلطان تودع فى أحد المصارف (البنوك) يختاره الباب العالى بعد الاتفاق مع الروسيا والدول الأوروبية الكبرى .

ويلاحظ أن المعاهدة لم تحدد قيمة الجزية ، بل اكتفت بذكر «مبلغ معلوم» ، وأن يراعى فى تحديده الظروف المالية التى تواجهها الإدارة البلغارية فى مستهل عهدها . وأعطت المعاهدة الباب العالى الحق فى أن تمر القوات العثمانية وذخائرها ومهماتها ، عبر طرق معينة فى داخل بلغاريا إلى الولايات العثمانية الأخرى الواقعة فيما وراء بلغاريا ، وأن يكون مرور هذه القوات مقصوراً على الجنود النظاميين فقط دون قوات الباشي بوزوق والشراكسة والجنود «المعاونة» . وتقرر أيضاً هدم جميع القلاع المقامة على شاطىء نهر الدانوب ، ومنع وجود سفن حربية فى مياه هذا النهر فى مياه بلغاريا ورومانيا والصرب سوى السفن الصغيرة والقوارب، التى تستخدم فى أعمال الشرطة النهرية ، وجعل الملاحة فى نهر الدانوب حرة، ومايتطلبه تطبيق هذا المبدأ من الإبقاء على لجنة الدانوب الدولية المختصة بتنظيم عمليات النقل النهرى

والحفاظ على وضعها القانونى وحقوقها ووظائفها وامتيازاتها . وبذلك أصبحت بلغاريا بما تضمه من مساحات إقليمية واسعة مرتبطة بالدولة العثمانية برباط ضعيف واهن، تمثل فى جزية سنوية وصدور فرمان سلطانى بتعيين أمير للدولة الجديدة بعد موافقة الدول الأوروبية على هذا الأمير ، وحق الدولة فى أن تعبر قواتها الأراضى البلغارية .

وقررت المعاهدة استقلال إقليم الجبل الأسود ، وزيادة مساحته على حساب ألبانيا مع إعطاء الجبل الأسود ثغرين على البحر الأدريانى . وحددت المعاهدة حدود هذا الإقليم ، ومع ذلك .. فقد احتاطت فقررت أن تترك التحديد النهائى للحدود إلى لجنة دولية ، تتكون من مندوبين عن الدولة العثمانية والروسيا والدول الأوروبية الكبرى والجبل الأسود ، وأن يكون لهذا الإقليم الحق فى تعيين ممثلين له فى إستانبول والبلاد العثمانية . وإذا حدث خلاف بين الدولة العثمانية وإقليم الجبل الأسود وتعذرت تسويته .. فإن الروسيا والنمسا تفصلان فيه ، وتقرر أن يتم جلاء جنود الجبل الأسود عن الجهات غير الداخلة فى حدود الإمارة .

ونصت المعاهدة على منح الاستقلال التام لرومانيا ، وأن يضم إليها ثلث إقليم دبروجه – الواقع جنوب مصب نهر الدانوب فى البحر الأسود – وأن يؤخذ منها إقليم بسارابيا – الواقع شمال نهر بروث – لضمه إلى الروسيا .

وقررت المعاهدة منح الصرب استقلالها مع إضافة إقليم نيش إليها ، وحددت حدودها على أن تجتمع لجنة ، تتكون من مندوبين عن الدولة العثمانية والروسيا والصرب ؛ لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى خلال ثلاثة شهور .

وقررت المعاهدة أيضاً وضع ولايتى البوسنة والهرسك – فى غربى البلقان – تحت مراقبة الروسيا والنمسا طبقاً لما طلبته الدول فى مؤتمر الآستانة (ديسمبر – كانون أول – ١٨٧٦) ، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولايتين .

وتعرضت المعاهدة لمسألتى جزيرة كريت وأرمينية .. فقررت بالنسبة للمسألة الأولى أن تتعهد الدولة العثمانية بتنفيذ أحكام اللائحة الأساسية الصادرة عام ١٨٦٨ ، وطبقاً لرغبات سكان الجزيرة . أما المسألة الثانية وهى الخاصة بأرمينية ، فأبدت الروسيا تخوفها من أن يؤدى جلاء القوات الروسية عن أرمينية العثمانية وإعادتها إلى الحكم العثمانى إلى وقوع خلاف . ولهذا قررت المعاهدة أن يتعهد الباب العالى بإجراء إصلاحات ، حسب الاحتياجات المحلية فى المناطق ، التى يسكنها أرمن ، وتأمين المسيحيين من اعتداءات الأكراد والشراكسة . وسجلت المعاهدة تعهد الباب العالى بإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين والمعتقلين والمنفيين .

أما الروسيا فقد قررت لها المعاهدة المكاسب التالية :

أولاً : تقرير حرية المرور فى الدردنيل والبوسفور فى وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية،

التى تريد عبور هذه المضايق إلى الروسيا وفى عودتها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط ؛ بشرط أن تكون حرية المرور مقصورة على السفن التابعة لدول على الحياد زمن الحرب . وليس للباب العالى أن يفرض حصاراً على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الأسود وبحر آزوف .

ثانياً : استيلاء الروسيا على أقاليم هامة فى آسيا ، هى : أردهان ، وقارص ، وباطوم ، وبايزيد ، مع الأراضى الملحقة بهذه المدن إلى جبل صوغانلى ، وبذلك امتدت الأراضى الروسية إلى قرب شمالى العراق وشمالى الشام والأناضول .

ثالثاً : استيلاً الروسيا على أقليم هام للغاية فى أوروبا هو بسارابيا ، ويشمل مصب نهر الدانوب . وكان هذا الإقليم ذو الموقع الممتاز قد أخذ من الروسيا فى معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، عقب هزيمتها فى حرب القرم .

وباستيلاء الروسيا عليه.. تكون الأراضى الروسية قد امتدت إلى مصاب نهر الدانوب فى البحر الأسود .

رابعاً : كان إنشاء «بلغاريا الكبرى» عبارة عن إنشاء ولاية مترامية الأطراف فى البلقان ، تدور فى فلك الروسيا ، وتشكل تهديداً مستمراً لإستانبول وقاعدة حربية ، يمارس منها الروس أعمالهم العدوانية ضد الدولة العثمانية .

خامساً : فرض غرامة حربية فادحة على الدولة العثمانية حددت بمبلغ ١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل ؛ أى ماكان يوازى فى ذلك الوقت ٢٣٥ مليون جنيه ، وهو مبلغ رهيب بالنسبة لقيمة النقد فى ذلك الوقت .

وجاءت مفردات هذه الغرامة الحربية على النحو التالى :

٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل فى مقابل ثمن الأسلحة والذخائر والمهمات الحربية ، التى استهلكت فى الحرب ومصاريف القوات الروسية .

٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل فى مقابل الأضرار التى حدثت فى السواحل الشمالية للبحر الأسود .

١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل فى مقابل الأضرار التى نجمت عن هجوم العثمانيين على القوقاز .

١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل فى مقابل الخسائر التى حاقت برعايا الروسيا المقيمين ، فى ولايات الدولة العثمانية والمنشآت الروسية .

١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠

وقدرت المعاهدة ثمن الأقاليم والأراضى التى انتزعت من الدولة العثمانية وأعطيت للروسيا بمبلغ ١,١١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل ، تخصم من مجموع الغرامة الحربية . وتتفق الدولتان فيما بينهما على طريقة سداد الجزء الباقى من الغرامة ، وهو ثلاثمائة مليون روبل بما يكفل دفعها للروسيا .

سادساً : المحافظة على أوضاع وحقوق وامتيازات القسيسين والرهبان ومن إليهم من رعايا الروسيا والقاطنين فى الدولة العثمانية ، وكذلك الزوار الروس الذين يقيمون أو يتجولون فى الأراضى العثمانية ، سواء الأناضول أو الروم إيلى (الجزء الجنوبى من البلقان) فهؤلاء جميعاً بمختلف طوائفهم وهيئاتهم ونوعياتهم ، يتمتعون بالأوضاع والحقوق والامتيازات ذاتها ، التى يتمتع بها أقرانهم من رعايا الدول الأخرى . ويحمى السفير الروسى فى إستانبول والقناصل الروس فى شتى أقاليم الدولة حقوق أولئك الأشخاص وممتلكاتهم ومؤسساتهم الديرية ، مع مشتملاتها المتعلقة بهم .

وطبقاً لمعاهدة سان ستفانو .. ضاعت بلاد البلقان من الدولة العثمانية ، بحيث لم يبق لها شىء فيها سوى تراقيا ، ومدينة سالونيك ، وتساليا ، وإبيروس ، وجبال ألبانيا . وفضلاً عن ذلك فقد أثارت المعاهدة سخط بعض الدول المسيحية البلقانية ، ونذكر على سبيل المثال مملكة اليونان ورومانيا .. فالدولة الأولى رأت أنها لم تخرج من المعاهدة بغنيمة إقليمية .

وقد مر بنا فى هذا الفصل أن الأحزاب السياسية كانت ترى ضرورة الاشتراك فى الحرب ضد الدولة العثمانية تحقيقاً لأهداف «الحركة الهيلينية» ، وكان من مبادئها ضم الأقاليم اليونانية المبعثرة والخارجة عن حدود مملكة اليونان وضمها إليها ، وزاد من سخطها أن أضافت المعاهدة إلى «بلغاريا الكبرى» الأقاليم المجاورة لمملكة اليونان والتى يسكنها يونانيون، وكانت مساحتها أكبر من مساحة هذه المملكة .

أما رومانيا فكانت تعتقد أنها أسدت خدمات جليلة للروسيا فى أثناء الحرب ، ثم اغتصبت المعاهدة منها إقليم بسارابيا وضمته إلى الروسيا . أما تعويض رومانيا عن فقدها بسارابيا بإعطائها ثلثى إقليم دبروجه فكان تعويضاً تافهاً ، وكذلك نقم الأرمن المسيحيون على المعاهدة؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنهم قدموا خدمات جليلة فى أثناء الحرب للروسيا ولكن تنكرت لهم الأخيرة فى المعاهدة ؛إذ ابتلعت بعض قطاعات من أراضيهم ولم تحرر الأرمن سواء فى أرمينية العثمانية أو فى أرمينية الروسية . وتوالت الاحتجاجات والاستغاثات على الدول الأوروبية الكبرى من اليونانيين والصرب والرومانيين على ماتضمنته المعاهدة من خرق لمبادىء العدالة وامتهان لحقوقهم ، ولم يشذ المسلمون فى آسيا فقد استغاثوا بالملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا بصفتها إمبراطورة للهند ، لها مئات الملايين من الرعايا المسلمين، واحتجوا على

استحواذ الروسيا على باطوم وغيرها [١] .

كانت معاهدة سان ستفانو ضربة قوية ، أصابت السلطان عبدالحميد فى الصميم ، ولم يكن قد أمضى على ارتقائه العرش إلا عاماً وخمسة أشهر ، ولكنه ورث مقدمات الحرب كما ورث العرش .. فكانت المعاهدة استهلالاً سيئاً لحكمه وإذلالاً للدولة وله وللكتلة الإسلامية فى الولايات العربية والتى وقفت بجانبه تشد أزره ؛ إذ أرسل حكامها قوات عسكرية تتألف من الجنود العرب شاركت فى الحرب التى انتهت بعقد هذه المعاهدة . وكان من بينها قوات من الجيش المصرى أرسلها الخديو إسماعيل ، وكان عدد أفرادها اثنى عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، أبحرت بهم السفن المصرية إلى إستانبول ، ومنها إلى ورانه على الساحل الغربى للبحر الأسود . وكان مجلس شورى النواب قد وافق على فرض ضريبة جديدة ، سميت «ضريبة الحرب» قدرها عشرة فى المائة من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة المصرية[٢] .

إخفاق الدبلوماسية الروسية بعد الحرب :

إذا كانت الدبلوماسية الروسية قد أصابت نجاحاً كبيراً قبيل الحرب وفى أثنائها فى تأليب الولايات العثمانية فى البلقان على الدولة من ناحية ، وفى استمالة معظم الدول الأوروبية الكبرى لالتزام الحيدة من ناحية أخرى .. فإنها أخفقت فى مرحلة مابعد الحرب ؛ لأنها فرضت على الدولة العثمانية معاهدة ، انطوت على تمزيق وسلب ممتلكاتها فى البلقان بصورة لم تشهد لها الدولة من قبل مثيلاً ؛مما اعتبر إذلالاً مهيناً لها وعصفاً بمبدأ التوازن الدولى .

اعتراض الدول على معاهدة سان ستفانو :

لذلك لم تكد تذاع تفاصيل معاهدة سان ستفانو ، حتى واجهت الروسيا تكتلاً دولياً ؛ إذ هاجمتها الدول الأوروبية الكبرى هجوماً عنيفاً اعتراضاً عليها . ولم يكن مبعث هذا الاعتراض هو العطف على الدولة العثمانية فى محنتها ، فى مستهل حكم السلطان عبدالحميد ، ولكن لانفراد الروسيا بالمكاسب الهائلة وبالنفوذ العريض فى البلقان والقوقاز ، دون أن تنال الدولة الأوروبية الكبرى نصيباً من الأسلاب .. وكانت الإمبراطورية النمساوية المجرية من أشد الدول اعتراضاً على معاهدة سان ستفانو لأنه لم يرد فيها نص على احتلالها الولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك فى غربى البلقان ، ورأت النمسا فى تصرف قيصر الروسيا أمراً مشيناً لأنه بعد أن تحقق له النصر العظيم على القوات العثمانية نقض وعده لإمبراطور النمسا فى هذا الصدد .

---

(1) Miller W.; p. cit., p. 385.

(٢) عبدالرحمن الرافعى بك ، عصر إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص ص١٩٥–١٩٦ .

وكانت النمسا شديدة الرغبة فى احتلال هاتين الولايتين لتعويض خسائرها فى إيطاليا بعد هزيمتها من روسيا فى معركة سادوا (١٨٦٦) .. أما بريطانيا فعلى الرغم من أن معاهدة سان ستفانو لم تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، إلا أنه أفزعها أن الروسيا غدت صاحبة النفوذ الأول فى البلقان ، وأن بلغاريا الكبرى التى أنشأتها المعاهدة كانت فى لحمتها وسداها ولاية روسية بحرية كبرى ، تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه وتشغل أقاليم واسعة ، وتشكل تهديداً مستمراً لإستانبول وقاعدة عسكرية لهجوم ، تقوم به الروسيا على هذه العاصمة وعلى غيرها من أقاليم فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى قابل الأيام ، فضلاً عن حرية مرور السفن الروسية فى المضايق وصولاً إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط ، وإغلاق المضايق فى زمن الحرب فى وجه السفن التابعة لدول متحاربة مع الروسيا .

واعتقدت أن المعاهدة جعلت من البحر الأسود بحيرة روسية ، كما رأت أن استيلاد الروسيا على أردهان وقارص وباطوم والمناطق الملحقة بها فى القوقاز يجعلها على مقربة من العراق وشمالى بلاد الشام ، وهما إقليمان عثمانيان لها أهمية عسكرية خطيرة لوقوعهما على أحد الطرق المؤدية إلى الخليج العربى والهند . وهو طريق «احتياطى» قد تلجأ إليه بريطانيا ، إذا تعطلت الملاحة فى قناة السويس لسبب من الأسباب .. ولذلك صحت عزيمتها على أن تنتزع من الدولة العثمانية طوعاً أو كرهاً جزيرة قبرص ، كخطوة أولى لاحتلال مصر بما فيها قناة السويس .

المطالبة بعقد مؤتمر دولى لإعادة النظر فى معاهدة سان ستفانو :

طلب الكونت أندراسى مستشار النمسا عقد مؤتمر دولى ، يعيد النظر فى معاهدة سان ستفانو ، ورفضت الروسيا هذا الطلب بمقولة أنه ليس لأوروبا أن تتدخل فى مسائل لاتمسها ، ثم عادت فطلبت أن يحدد بادىء ذى بدء تحديداً دقيقاً نطاق المناقشات ، التى يسمح لأعضاء المؤتمر المقترح أن يخوضوا فيها . ولكن رأى بسمارك المستشار الألمانى عدم تقييد حرية المؤتمر فى المناقشات التى تثار ، وطلب أن يعقد المؤتمر فى برلين بدلاً من ڤيينا أو من أى عاصمة أخرى ، على أساس أن برلين عاصمة دولة محايدة لم تمس معاهدة سان ستفانو المصالح الألمانية مسّاً مباشراً . وقبلت بريطانيا طلب النمسا وألمانيا ؛ لأن معاهدة سان ستفانو من صنع الروسيا وحدها ولأنها تقسيم للمتلكات العثمانية فى البلقان دون استشارة بريطانيا؛ ولأنها وضعت الدولة العثمانية تحت رحمة الروسيا ، ولأنها أوجدت دولة بحرية جديدة هى بلغاريا الكبرى ، وأنه لابد من إنقاص حجمها ؛ ولأن فى المعاهدة تهديداً لسلامة المواصلات البريطانية إلى الهند .

أما فرنسا .. فقد اشترطت لاشتراكها فى المؤتمر أن تكون عضويته مقصورة على الدول

الأوروبية الكبرى الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦، وألا يتعرض المؤتمر فى مناقشاته لمسائل مصر والشام وتونس وحقوق فرنسا فى الأماكن المقدسة فى فلسطين ورفض أى معاهدة تفرض حماية روسية على الدولة العثمانية، أو تثبت مركز الأسطول الروسى فى البحر المتوسط . وارتاحت بريطانيا لهذه الشروط ووافق بسمارك على شروط فرنسا إرضاء لها ، وسايرت الدول الأخرى بسمارك ووافقت على الاشتراك فى المؤتمر .

مؤتمر برلين الأوروبى ١٨٧٨ :

اجتمع المؤتمر فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ فى برلين وبرياسة بسمارك ، وكان قبول الدول الكبرى الاجتماع فى برلين اعترافاً ضمنياً بالمركز السياسى الممتاز ، الذى أصبحت ألمانيا تشغله فى الساحة الدولية ، وبتفوق بسمارك على كل رجال السياسة المعاصرين له .

وكان مؤتمر برلين أكبر تجمع فى صعيد واحد لأقطاب السياسة فى أوروبا ، منذ أن اجتمع مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ لبحث المسألة الشرقية ، وقد سمح لوفود من المملكة اليونانية والصرب ورومانيا والجبل الأسود وفارس ، وعن الأرمن واليهود بالحضور إلى المؤتمر، دون أن يشتركوا فى مناقشاته ، ولكن يسمح لهم المؤتمر بحضور بعض جلساته.. إذا طلب منهم إيضاحاً عن بعض المسائل التى يبحثها ، وكان يمثل الدولة العثمانية - وهى التى سيجرى لها المؤتمر عدة جراحات خطيرة - إسكندر قرة تودرى باشا ، وهو يونانى الأصل ، والمشير محمد على باشا ، وهو جندى ألمانى قديم اعتنق الإسلام(١) . وسعد الله بك الآلچى العثمانى فى برلين . وكان عليهم أن يدافعوا عن حقوق الدولة الإسلامية وسط هذا الجو المسيحى الرهيب . ولم يكن لهم نفوذ ولا احترام .. وكان بسمارك يسىء معاملة محمد على باشا .. وكان لبسمارك الصوت الأعلى والرأى الأول فى المؤتمر ، ويضع حداً للمحاولات العقيمة ، ويتهدد الأعضاء بترك المؤتمر إذا لم يصغ الساسة إلى أوامره .

معاهدة برلين ١٨٧٨ :

كانت معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ - طبقاً لقواعد القانون الدولى العام - معاهدة جماعية بلغ عدد الدول الأطراف فيها سبع دول ، هى: بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، والدولة العثمانية ، وإيطاليا ، بينما كانت معاهدة سان ستفانو معاهدة ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا ، واعتبرت ملغاة بعقد معاهدة برلين .

كان المفروض أن تعيد معاهدة برلين تماسك ولايات الدولة العثمانية ، وتستبعد المواد

(١) تذكر بعض المراجع أنه روسى الأصل ، وكان مسيحى الديانة ، وأن اسمه الأول كان شارل دتروا ، انظر ص ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ فيما سبق .

الجائرة التى جاءت بها المعاهدة الملغاة . ولكن جاءت المعاهدة الجديدة فجعلت موقف الدولة العثمانية أكثر سوءاً من موقفها طبقاً لأحكام معاهدة سان ستفانو ؛ إذ أضافت – بالمواد التى اشتملت عليها وبالاتفاقيات السرية ، التى تمت بين الدول الكبرى والتى سبقت ولحقت عقد المعاهدة الجديدة – خسائر جديدة وفادحة نزلت بالدولة فى أوروبا وآسيا وحوض البحر المتوسط وإفريقية .

أولاً : خسائر الدولة فى أوروبا :

كان من أهم ماقررته معاهدة برلين :

أولاً : أن تحتل الإمبراطورية الثنائية – النمسا والمجر – الولايتين العثمانيتين الهامتين: البوسنة والهرسك فى غربى البلقان احتلالاً «مؤقتاً» ، رغبة من الدول الكبرى فى استرضاء النمسا والمجر، وفى إعطائها نصيباً موفوراً من ممتلكات الدولة العثمانية [١] . ومن مظاهر الضغط المشين على السلطان عبدالحميد الثانى أن المندوبين العثمانيين فى مؤتمر برلين قد وقعوا اتفاقاً سرّياً - فى ذات اليوم الذى تم فيه التوقيع على معاهدة برلين – مع مندوبى النمسا والمجر ، تقرر فيه أن هذا الاحتلال للولايتين العثمانيتين لايعتبر ماساً بحقوق السيادة المقررة للسلطان على الولايتين ، وأن احتلال النمسا والمجر للولايتين إنما هو احتلال مؤقت[٢]. وقد دلت الأحداث على أن هذا الاحتلال المؤقت كان مقدمة لعملية ضم نهائى لممتلكات النمسا والمجر بصفة رسمية ، بعد ثلاثين سنة فى عام ١٩٠٨ .

ثانياً : أن تقيم الإمبراطورية الثنائية – النمسا والمجر – حاميات عسكرية ، وتحتفظ بطرق عسكرية وتجارية فى صنجق نوفى بازار [٣] Novibazar بين الصرب والجبل الأسود، على أن تظل الإدارة العثمانية قائمة فى هذا الصنجق .

ثالثاً : أبقت معاهدة برلين النفوذ الروسى فى شرقى البلقان بتأكيد ماتقرر فى معاهدة سان ستفانو من ضم إقليم بسارابيا إليها ، وبذلك أصبح هناك وجود روسى فى شرقى البلقان ووجود نمساوى فى غربى البلقان [٤] .

---

(١) كان هذا القرار تنفيذاً لاتفاقيات سرية بين الروسيا وبريطانيا واتفاق بين النمسا والمجر وألمانيا .
Miller W.; op. cit., pp. 390-391.

(٢) يرد اسمها فى بعض المراجع يكى بازار .
(٣) كان بسمارك المستشار الألمانى هو صاحب الفكرة فى أن تحتل النمسا والمجر صنجق توفى يانزار ، لأنه رأى أن الروسيا تقف من ألمانيا موقفاً غير ودى فى جلسات مؤتمر برلين ، فأراد أن يكيد لها كيداً بإتاحة الفرصة للنمسا لتوطيد مركزها فى البلقان باحتلال هذا الموقع العسكرى المهم ، الذى يتصل بالمدن الرئيسية فى أنحاء البلقان .

(4) Miller W.; op. cit., 389.

رابعاً : أكدت معاهدة برلين استقلال رومانيا طبقاً للحدود ، التى وضعتها معاهدة سان ستفانو .

خامساً : أكدت المعاهدة أيضاً استقلال كل من الصرب والجبل الأسود ، كما جاء فى معاهدة سان ستفانو ، على الرغم من أن الصرب خرجت منهزمة من الحرب مع الدولة العثمانية وأضافت إليها المعاهدة الجديدة بعض الأراضى العثمانية . وبذلك وضعت الأساس الذى ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة .

سادساً : أنقصت المعاهدة حجم «بلغاريا الكبرى» بتقسيمها إلى قسمين :

(أ) قسم يحتفظ باسم بلغاريا وحددت حدوده ، ويكاد يكون مستقلاً ، وله حكومة مسيحية وقوات عسكرية من أهل البلاد . ويحكمه أمير مسيحى ينتخبه الأهالى انتخاباً حرّاً ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأطراف فى المعاهدة عليه ، ويشترط فى الأمير ألا يمت بصلة القرابة لأى أسرة حاكمة فى أوروبا .. فإذا توفى الأمير عن غير ولد أجريت انتخابات عامة لانتخاب أمير جديد طبقاً للشروط والأصول المقررة . كما تقرر ألا تبقى القوات العثمانية فى بلغاريا ، وأن تهدم الحصون المقامة فى الإمارة على نفقة الحكومة المحلية فى خلال سنة واحدة ، وأن تستولى الدولة العثمانية على الذخائر والأسلحة الموجودة بهذه الحصون ، ولايجوز لحكومة بلغاريا بناء حصون جديدة ، وعلى هذه الحكومة أن تدفع جزية سنوية للدولة العثمانية ، وتكون الحرية الدينية مكفولة للسكان. وتحتفظ القوات الروسية العسكرية فى بلغاريا بمواقعها إلى أن تنتهى الحكومة الجديدة من إنشاء قوات عسكرية لحفظ الأمن والنظام .

ونصت المعاهدة أيضاً على أن يجتمع ، بعد انتخاب الأمير . أعيان بلغاريا لوضع القوانين الأساسية ، وأن يراعى فيها تقرير الحرية الدينية والمساواة السياسية والمدنية لجميع سكان الإمارة . وأن تشكل إدارة مؤقتة تتولى شئون الحكم من مندوبين عن الروسيا إلى أن يتم وضع القوانين الأساسية . ويقوم بمراقبة أعمال هذه الإدارة المؤقتة مندوبون عن الدولة العثمانية والدول الموقعة على المعاهدة . ولاتستمر هذه الإدارة الروسية فى تولى شئون الحكم أكثر من تسعة أشهر تبدأ من تاريخ التوقيع على المعاهدة . وتقرر أيضاً أن تسرى على بلغاريا جميع المعاهدات التجارية والبحرية المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية ، والتى لاتزال سارية المفعول .

(ب) أما القسم الثانى فيقع فى جنوبى البلقان بين مقدونيا وأدرنة ، وتكون عاصمته فيليبوبوليس Philippopolis ، ورفض المؤتمر تسمية هذا القسم بلغاريا الجنوبية وأطلق عليه «روم إيلى شرقى» وتكون إدارته الداخلية مستقلة ، ولايجوز للدولة العثمانية أن ترابط قواتها فى الداخل ، بل يكون لها الحق فى الدفاع عن حدوده البرية والبحرية مع تخويل

الدولة العثمانية الحق فى بناء منشآت عسكرية ترابط فيها قوات عثمانية .. بشرط ألا تكون من «الباشى بوزوق» أى القوات غير النظامى . وتقرر أيضاً أن يحكم هذه الولاية أمير مسيحى ينتخبه الأهالى انتخاباً حراً ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة ا لدول عليه ، وأن يكون تعيينه لمدة خمس سنوات ، وأن يكون تابعاً للدولة من الناحيتين السياسية والحربية .

ورأى بعض المراقبين السياسيين المعاصرين لمؤتمر برلين أن تقسيم بلغاريا الكبرى إلى قسمين كان انتصاراً لوجهة النظر البريطانية بإنقاص حجم بلغاريا الكبرى وهزيمة للروسيا؛ لأنه أدى إلى انكماش نفوذها فى البلقان . ولكن رأى ميلر المؤرخ الإنجليزى أن هذا الرأى كان خاطئاً ؛ لأن هذا الانقسام لم يعمر طويلاً ، إذ انضم القسمان بعضهما إلى بعض بعد سبع سنوات من انقضاء مؤتمر برلين ، وكانت بريطانيا من مؤيدى هذا الانضمام وعارضته الروسيا (١).

ثانياً : خسائر الدولة فى آسيا :

أما فى آسيا .. فقد قررت معاهدة برلين أن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا عن أراضى أردهان ، وقارص ، وباطوم فى شرقى البحر الأسود مع ميناء باطوم ، وعدم إقامة تحصينات عسكرية فيه على أن يكون ميناء حراً ، لاتفرض فيه رسوم جمركية على الصادرات والواردات . وهكذا امتد النفوذ الروسى فى آسيا بعد إخضاع بلاد القوقاز كلها ، وأصبحت حدود الروسيا متاخمة لحدود أرمينية العثمانية . وأصبح فى استطاعة الروس القفز إلى آسيا الصغرى المهاد الأولى للدولة العثمانية وإلى شمالى بلاد مابين النهرين – العراق – وشمالى الشام ، وقررت المعاهدة أيضاً أن تسترد الدولة العثمانية وادى الأكراد ومدينة بايزيد وأن تتنازل لفارس عن مدينة ختر (قطور) وأراضيها ؛ طبقاً لرأى اللجنة البريطانية الروسية ، التى عهد إليها بتعيين حدود الدولتين العثمانية والفارسية .

أما بالنسبة للغرامة الحربية المفروضة على الدولة العثمانية لصالح الروسيا.. فقد قرر المؤتمر اعتبار الروسيا آخر دائنى الدولة ؛ بمعنى أنه لايحق للحكومة الروسية أن تتقدم بالمطالبة بالغرامة، قبل الدائنين السابقين للدولة العثمانية .

---

(١) بالنسبة للأسرة الدولية ، قررت معاهدة برلين حرية المرور فى المضايق على النحو ، الذى ورد فى معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ .
كما قررت المعاهدة الإبقاء على لجنة الدانوب الدولية ، الخاصة بتنظيم حرية مرور السفن فى نهر الدانوب- عن جلسات مؤتمر برلين ومناقشاته ، انظر تقارير وادنجتون وزير الخارجية الفرنسية والمؤرخة فى ١٤ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ يونيو – حزيران – وأول ، ٦ ، ٨ ، ١٤ يوليو- تموز – عام ١٨٧٨ فى :
Documents Diplomatiques Français. I èrie, tome 2.

ثالثاً : خسائر الدولة فى حوض البحر المتوسط :

رأت بريطانيا مدى تدهور الدولة العثمانية ، وهو التدهور الذى كشفت عنه الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨) وأنه لا أمل يرتجى من إنهاضها ، ومن ثم صحت عزيمتها على نبذ سياستها التقليدية ، وهى المحافظة على استقلال الدولة العثمانية وتماسك ولاياتها ؛ فقد ثبت لديها أنها سياسة عقيمة جلبت ضياع الأرواح وتبديد الجهود والأموال والوقت . وكان صاحب هذا الاتجاه الجديد فى السياسة البريطانية هو سالزبورى وزير الخارجية ، ورأى أنه لامناص من أن تخرج بريطانيا من تلك الأزمة العثمانية بنصيب من أملاك الدولة أسوة بالدول الكبرى والشعوب البلقانية الخاضعة للحكم العثمانى ، ولم يكن يتعذر عليه اختلاق التبرير لهذا الاتجاه الجديد فى السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية .. فإن استيلاء الروسيا إبان حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ على أردهان ، وقارص ، وباطوم ، وتمسكها بهذه الأقاليم فى مقابل قبولها تفتيت بلغاريا الكبرى ، كان نذيراً بفتح الباب أمام القوات الروسية لاكتساح سهولة العراق أو الانسياب فى بطاح الشام أو هما معاً[١] .

كان أمام سالزبورى ثلاثة مشروعات : احتلال مصر أو احتلال إحدى الجزيرتين قبرص أو كريت ، ورأى أن استيلاء بريطانيا على مصر يؤدى إلى قيام نزاع حاد مع فرنسا ، ولم تكن بريطانيا مستعدة فى ذلك الوقت لمواجهة آثاره .. فانصرف مؤقتاً عن مصر وبقيت أمامه الجزيرتان ، واقتنع برأى الخبراء البريطانيين بأفضلية جزيرة قبرص على جزيرة كريت. فهى أقرب إلى مصر وبالتالى فهى تشرف على قناة السويس والإسكندرية ، وهى بمثابة «جبل طارق جديد» A New Gibraltar [٢] و«مفتاح غربى آسيا» [٣] The Key of Western Asia. وكان على سالزبورى أن يختلق المبررات للضغط على السلطان عبدالحميد الثانى ؛ كى يوافق على أن تحتل بريطانيا جزيرة قبرص احتلالاً «مؤقتاً» ببذل الوعود له بأن بريطانيا فى مؤتمر برلين المزمع عقده ستضع ثقلها السياسى، دفاعاً عن مصالح الدولة العثمانية ، وأنها ستتكفل بالدفاع عن أى هجوم روسى على إستانبول أو على الممتلكات العثمانية فى آسيا [٤] .

وقام أوستن هنرى لايارد Austen Henry Layard ، السفير البريطانى فى إستانبول

---

(1) Lady Gwendolen Cecil; Life of Rober Marquis of Salisbury. 4 vols., (1921-1932), vol. 2. p. 213; Salisbuy to Beacons-Bield, 21 st., March, 1878.

(2) Safwat M.M.; op. cit., p. 147.

(3) Grant A.J. & Harold Temperley; op. cit., p. 303.

(٤) كان على رأس المؤيدين لاحتلال جزيرة قبرص الكولونيل هوم Colonel Home ، أوفدته الحكومة البريطانية سنة ١٨٧٦ إلى إستانبول ليبحث أفضل الوسائل لتعزيز الدفاع عنها . ولما عاد من مهمته عين فى وزارة الحربية ، ووضع مذكرة إضافية استعرض فيها الثغور والسواحل والجزر والمراكز القائمة ، فى منطقة الشرق الأدنى ، والتى لها أهمية عسكرية بحيث تخدم المصالح البريطانية . وقد فضل عليها جزيرة قبرص لتكون قاعدة للحشود العسكرية البرية والبحرية . وقد نشرت هذه المذكرة فيما بعد فى :
Journal of Modern History. June, 1931, pp. 236-241.

بالضغط على السلطان عبدالحميد الثانى ، فى هذا الوقت العصيب بل وتهديده لإرغامه على قبول احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، وإلا عملت بريطانيا على انهيار إمبراطوريته The Disruption of His Empire ورضخ السلطان عبدالحميد لهذا التهديد . وتم فى اليوم الرابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ التوقيع على معاهدة، أطلق عليها اتفاقية التحالف الدفاعى Defensive Alliance بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، أجازت فيها الدولة الأولى لبريطانيا أن تحتل وأن تدير جزيرة قبرص فى مقابل تعهد بريطانيا بأن تشترك قواتها المسلحة مع القوات العثمانية فى الدفاع عن أراضى السلطان فى آسيا إذا احتفظت الروسيا بكل من باطوم، وأردهان ، وقارص ، أو إحداها ، وأرادت بعد ذلك أن تتوسع على حساب الأقاليم العثمانية فى آسيا ، وهى الأقاليم التى ستحددها معاهدة السلام النهائية (معاهدة برلين) (١) .

وباحتلال جزيرة قبرص ، حققت بريطانيا توسعاً استعمارياً على حساب الدولة العثمانية مستغلة قيام الأزمة العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ واستكملت سيطرتها على حوض البحر

---

(١) أبرم فى أول يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ملحق Une Annexe لهذه الاتفاقية ، جاء فيه أن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص وإدارتها لها موقوتان ببقاء الروسيا فى قارص وفى غيرها من الأقاليم فى أرمينية . فإذا ردت الروسيا هذه الأقاليم إلى الدولة العثمانية انسحبت القوات البريطانية من جزيرة قبرص . كما نص الملحق على قيام بريطانيا بدفع جزية سنوية للباب العالى حددت قيمتها ، وعلى وجود محكمة شرعية لمسلمى الجزيرة ، وعلى أن يكون لنظارة الأوقاف فى إستانبول «مأمور» فى الجزيرة يشرف - بالاشتراك مع «مأمور» تعينه بريطانيا - على إدارة الأملاك والعقارات والمساجد والمدارس والمكاتب والمقابر، التى تتبع الإدارة الدينية فى الجزيرة . كما تقرر فى ملحق الاتفاقية تخويل الباب العالى الحق فى أن يبيع أو يؤجر دون مانع الأملاك أو الأراضى وغيرها من العقارات ، التى هى أملاك أميرية أو أملاك سلطانية ولايدخل إيرادها ضمن إيراد الجزيرة . ونص الملحق أيضاً على تخويل السلطات البريطانية فى جزيرة قبرص الحق فى أن تشترى جبراً بأسعار مناسبة أراض ، تحتاج إليها للمنفعة العامة أو لأغراض أخرى وأراض غير مزروعة .

وفى ١٤ من أغسطس - آب - عام ١٨٧٨ ، أضيفت إلى الملحق السابق مادة ، أطلق عليها «مادة إضافية عن التشريع Additional Article on Legislation خول فيها سلطان الدولة العثمانية لملكة بريطانيا سلطات كاملة ، طالما كان الاحتلال البريطانى لجزيرة قبرص قائماً لإصدار قوانين وعقد اتفاقيات باسم الملكة نيابة عن حكومة الجزيرة لتنظيم العلاقات التجارية والقنصلية دون إخضاعها لرقابة الباب العالى .

وفى ٣ من فبراير - شباط - عام ١٨٧٩، أضيف إلى الملحق «تصريح عن الأرض Declaration on Land ، تقرر فيه تحديد مبلغ ثابت ذكرت قيمته تدفعه الحكومة البريطانية سنوياً للسلطان طوال فترة الاحتلال البريطانى ، ابتداء من بداية السنة المالية التالية ، على أن يدخل فى هذا المبلغ الثابت إيراد الأملاك والعقارات الأميرية والسلطانية ، بما فيها حصيلة كل من الطابو ، والمحلول ، والانتقال .

انظر نص اتفاقية ٤ من يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨، والإضافتين اللاحقتين فى :
Hurewitz J.C.; op. cit., vol. I, pp. 187-189.

وانظر مدلول كل من الطابو ، والمحلول ، والانتقال فى ثبت المصطلحات فى نهاية هذه الدراسة .

المتوسط من أقصى غربيه إلى أقصى شرقيه ، وأصبح لها فيه ثلاث قواعد عسكرية : بوغاز جبل طارق ، وجزيرة مالطة ، وجزيرة قبرص ؛ لتتخذ من هذه الجزيرة الأخيرة فى قابل الأيام نقطة وثوب إلى مصر بما فيها قناة السويس ، وتكون المحصلة النهائية هو ضمان سلامة المواصلات البريطانية البحرية إلى الهند عبر البحر المتوسط وقناة السويس .

ولاعبرة بما يقوله بعض المؤرخين والباحثين إن بريطانيا حين احتلت جزيرة قبرص، أرادت أن تحافظ على التوازن الدولى فى أوروبا أمام توسع الروسيا فى شرقى البلقان وأمام توسع النمسا والمجر فى غربى البلقان .. فهذا التفسير هو أقرب إلى التحليل السريع للأحداث السياسية وقت وقوعها عام ١٨٧٨ ، أو مايدخل تحت العلوم السياسية فى ذلك العام ، ولكنه بعيد كل البعد عن إعطاء صورة صحيحة عن أهداف التوسع البريطانى الاستعمارى فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر .

ولم تكن الأسباب التى ساقها لايارد السفير البريطانى للسلطان عبدالحميد أو التى ورد ذكرها فى إتفاقية جزيرة قبرص أسباباً جدية .. إنما كانت مجرد اختلاق ذرائع أو مبررات، استهدفت منها بريطانيا التغرير بالسلطان عبدالحميد ؛ فقد أثبتت الأحداث التى توالت بعد عقد الاتفاقية عدة حقائق ، نذكر من بينها :

أولاً : أن بريطانيا لم تساند الدولة العثمانية فى معظم جلسات مؤتمر برلين ، وإنما وقفت إلى جانب النمسا والمجر والشعوب المسيحية البلقانية وفارس على حساب الدولة العثمانية .

ثانياً : إن الروسيا لم تقم بهجوم بعد مؤتمر برلين على إستانبول أو غيرها من أملاك الدولة العثمانية ، بل إن حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ كانت أخر حرب بين الدولتين فى القرن التاسع عشر ، كما سبق أن ذكرنا، وانصرفت الروسيا عقب هذا المؤتمر إلى الاستعمار فى شمالى آسيا ووسطها وشرقيها ؛ حيث أخذت تصطدم بالشعوب الآسيوية الشرقية وباليابان التى بدأت فى الظهور على مسرح السياسة الآسيوية والعالمية ، كما أخذت تصطدم بالمصالح البريطانية والفرنسية فى الصين .

ثالثاً : إن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص لم يكن احتلالاً مؤقتاً ، كما نص على ذلك فى ملحق إتفاقية قبرص ، وإنما كان احتلالاً دائماً .

بقيت هذه الاتفاقية فى طى الكتمان، لم يعلم بها سوى المستشار بسمارك والكونت أندراسى مندوب النمسا ، ولم يعترضا عليها لتعهد سالزبورى بمساعدتهما فى تقرير احتلال النمسا والمجر للولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك . ولما اقترب مؤتمر برلين من نهايته فى ١٣ من يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ، وفى أحد الممرات الجانبية تراءى لسالزبورى وزير خارجية بريطانيا أن يخبر زميله وادنجتون وزير خارجية فرنسا فى ٧ من يوليو - تموز -

باتفاقية قبرص.. فثارت ثائرة الوزير الفرنسى ، وأبرق بهذا النبأ إلى باريس فهاج الرأى العام الفرنسى وهاجم الملكيون والجمهوريون والصحافة الفرنسية الاتفاقية هجوماً عنيفاً . وكان مما قيل فى هذا الصدد إن فرنسا قد لقيت فى برلين إذلالاً على يد بريطانيا ، لايقل عن إذلالها فى معركة سيدان على يد بروسيا ، وإن جزيرة قبرص تقف كالديدبان تحرس قناة السويس .

وأوضح وزير الخارجية الفرنسية بجلاء أن الحكومة الفرنسية لن توافق إطلاقاً على تلك الاتفاقية ؛ لأنها هزيمة للنظام الجمهورى الذى لم تتوطد دعائمه بعد فى فرنسا . وأنه ليس أمام الوفد الفرنسى سوى الانسحاب من المؤتمر . ولكن سالزبورى وبسمارك كانا مستعدين لاسترضاء الوزير الفرنسى الثائر، وتقديم عرض مغر لفرنسا فى مقابل احتلال بريطانيا لقبرص. ومما هو جدير بالذكر أن سالزبورى تعمد ألا يخبر أعضاء الوفد الإيطالى بالاتفاقية ، وتركهم يعرفونها من الصحف الأمر الذى زاد من استيائهم وإذلالهم .

رابعاً : خسائر الدولة فى إفريقية

(١) تونس

كان لمعاهدة برلين آثار بالغة الخطورة على ولايتين عربيتين خاضعتين للدولة العثمانية فى إفريقية ، هما : تونس ومصر .. كان معظم اهتمام فرنسا موجهاً إلى الاستيلاء على تونس ، سواء بضمها نهائياً إلى الممتلكات الفرنسية أو بإعلان الحماية عليها . وجاءت اتفاقية قبرص .. فجعلت من تونس موضوع الساعة فى فرنسا بحجة المحافظة على التوازن الدولى فى حوض البحر المتوسط ، وكانت مهمة لورد سالزبورى وزير الخارجية البريطانية ورئيسه لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة ورئيس الوفد البريطانى فى مؤتمر برلين شاقة وعسيرة . وكانت هذه المهمة ذات شقين : يتمثل الشق الأول فى تبديد مخاوف فرنسا من مشروعات بريطانيا التوسعية فى مصر وقناة السويس ، وكان هذا الشق يمثل قمة النفاق السياسى البريطانى.

أما الشق الثانى.. فيتلخص فى تقديم عرض مغر لفرنسا باحتلال تونس تعويضاً لها عن احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، وبذلك أصبح استيلاء أوروبا المتحضرة المسيحية عنوة على ممتلكات الدولة العثمانية الإسلامية وسيلة عملية وفعالة لتسوية المنازعات التى تنشأ بين الدول. وكان الباعث لبريطانيا على تقديم هذا العرض هو رغبتها فى استرضاء فرنسا ؛ حتى لاتنضم إلى المعسكر الروسى ، وقد دار الشق الأول من المباحثات فى برلين ، بينما بدأ الشق الثانى من المحادثات فى برلين وامتدت المحادثات إلى لندن عقب عودة الوفد البريطانى إليها .

وكانت المحادثات ضافية ، وأعن لورد سالزبورى لوزير الخارجية الفرنسية فى أثناء تواجدهما فى برلين أن بريطانيا رفضت احتلال مصر ، كما رفضت أن ترابط قواتها على

ضفاف قناة السويس ، ورفضت أيضاً أن تحتل الساحل الغربى للأناضول ، وأن هذا الرفض ينبثق عن رغبتها فى عدم إثارة مخاوف فرنسا أو شكوكها من بريطانيا .

وفى جلسة تالية وافق رئيس الوزارة البريطانية موافقة كلية على ماذكره له وزير خارجية فرنسا من أن بلاده كدولة من دول البحر المتوسط لها مصالح فى الأماكن المقدسة فى فلسطين ، ولها نفوذ على الموارنة الكاثوليك فى لبنان مستمد من التنظيم الموضوع لهذا الإقليم سنة ١٨٦١ ووافقت عليه الدول ، ولها مصالح مادية وأدبية فى مصر ، وهى لاتسمح بالمساس بهذه المصالح . وطالب بأن يكون لكل من فرنسا وبريطانيا نفوذ متساو فى وادى النيل .. نفوذ يقوم على احترام متبادل ومتواز لمصالحهما ، وأقر رئيس الوزارة البريطانية هذا المطلب كما وافق على وجهات النظر الفرنسية هذه .

ثم انتقل سالزبورى وزير خارجية بريطانيا إلى موضوع تونس .. فقال لوادنجتوون وزير الخارجية الفرنسية «خذوا تونس إذا شئتم ، ولن تعارضكم إنجلترا هناك وستحترم قراراتكم» وفى حديث لاحق أضاف وزير خارجية بريطانيا قائلاً «إنكم لاتستطيعون ترك قرطاجنة[1] فى أيدى المتبربرين» ، وقد أمن وزير الخارجية الفرنسية على هذه التصريحات الخطيرة التى وردت على لسان وزير خارجية بريطانيا . وقال إن مصير تونس أن تقع يوماً مابحكم قوة الأمور تحت النفوذ المباشر لفرنسا ، ولتكمل مجموع الممتلكات الفرنسية فى إفريقية «وإننا لن نسمح لأى دولة بأن تتواجد هناك . وسندفع بقوة السلاح كل محاولة من هذا القبيل . ولذلك فإنى أشكركم على التصريح الذى أدليتم به الآن ، وأعتبره عربون صداقة أو تعهداً على الوفاق الطيب الذى نريد تدعيمه بين بلدينا . وسأكون سعيداً بإبلاغه إلى حكومتى ... إن ما نتمسك به هو أن تكون الحماية التى نمارسها فى الواقع فى تونس حماية معترفاً بها رسمياً ، وأن يكون لنا مطلق الحرية فى بسط نفوذنا وترقية مصالحنا على أفضل وجه ، دون أن تعوقنا ادعاءات منافسة» .

"Prenez Tunis, si vous vovlez, m'a dit Lord Salisbury, l'Angleterre ne s'y opposera pas et respectera vos décisions. D'ailleurs, a-t-il ajouté dans un autre entretien, vous ne pouvez pas laisser Carthage aux mains des Barbares.

"Sans doute, ai-je répondu, La Tunisie est destimée par la force des choses à tomber un jour sous la domination directe de la France, et à compléter l'ensemble de nos possessions en Afrique, aussi bien nous ne permetrions à aucune Puissance de s'y établir, et nous repousserions par les armes toute tentative de ce genre. Je vous remercie donc de la déclaration que vous venez

(١) قرطاجنة الاسم القديم لتونس .

faire; je la considère comme un gage précieux de la bonne entente que nous désirons maintenir entre nos deux pays, et je serai heureux de la transmettre à mon Gouvernement.... Ce à quoi nous tenons, c'est que le protectorat de fait que nous exerçons dans ce pays soit formellement reconnu, et que nous ayons toute liberté d'y étendre notre influence et d'y développer nos intérêts de la façon qui conviendra le mieux, sans nous heurter a des prétensions rivales"(١)

وكان لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة البريطانية ، ومعه لورد سالزبورى وزير الخارجية، قد عادا من برلين وبلغاريا لندن فى اليوم السادس عشر من شهر يوليو – تموز – عام ١٨٧٨ ، واستقبلا استقبالاً حافلاً . وألقى رئيس الوزارة خطاباً نوه فيه بالعلاقات الطيبة الوطيدة التى تربط باريس بلندن ، وتنبأ بمستقبل زاهر لفرنسا كدولة من الدول العظمى فى العالم ، وقال فى خطابه إن بريطانيا تجنبت احتلال مصر ؛ لأنها تعلم أن هذا الاحتلال يثير سخط وشكوك فرنسا . وكان قد أقيم فى ذلك الوقت معرض فى باريس ، وكان من بين كبار زائريه ولى عهد بريطانيا ، وزادت هذه الزيارة من الروابط السياسية والاجتماعية بين الدولتين ، وأعلن ولى عهد بريطانيا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو – تموز – عام ١٨٧٨ موافقته على ذهاب فرنسا إلى تونس (٢) .

لهذا .. رأت الحكومة الفرنسية أن تنتهز فرصة هذا المناخ الصحى بينها وبين الحكومة البريطانية ، وغضت الطرف عن انتزاع بريطانيا جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، وقبلت «العرض» البريطانى بالاستيلاء على تونس بصفة الأخيرة ولاية عثمانية ، لاتستطيع الدولة العثمانية الدفاع عنها أمام القوات الفرنسية ، وهدأت ثائرة الرأى العام الفرنسى . وأخذت الصحافة الفرنسية وفى مقدمتها جريدة Les Débats تمجد بريطانيا وتنتحل لها الأعذار فى عقد اتفاقية قبرص ، وتحولت إلى مهاجمة الروسيا وانتقاد التقدم الروسى فى آسيا ، ووصفت الروسيا بأنها «دولة مستبدة استعمارية» ، وسرعان مانسى الشعب الفرنسى اتفاقية قبرص .

---

(١) تجد هذه النصوص وكذلك النصوص الأخرى ، التى ترد فى بقية هذا الفصل مذكورة فى المصدر الآتى :
Documents Diplomatiques Français. I ère Sèrie. t. 2., docs. nos. 331, 332, 333, 334, et 336.

ومذكورة أيضاً فى المرجعين التاليين :
Newton P.C. Lord; Life of Lord Lyons. 2 vols. London, 191. vol. 2, p. 139, pp. 155-156, 158 & 159.

Safwat M.M.; Tunis and the Great Powers. 1878-1801. Alexandria, 1943, p. 147, pp. 211-212 & 224.

(2) Safwat M.M.; op. cit., p. 227.

وكان بسمارك المستشار الألمانى يؤيد فرنسا فى استيلائها على تونس؛ كى توجه طاقاتها الحربية ونشاطها السياسى إلى ميادين الاستعمار خارج القارة الأوروبية ، ولاتفكر فى استعادة الألزاس واللورين من ألمانيا . وكان الحزب الجمهورى فى فرنسا قد عاد إلى الحكم فى نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٨٧٧ ، وعمل الجمهوريون على نبذ سياسة التقرب من الروسيا ، وسعوا لتوثيق علاقاتهم مع بريطانيا وتركيز اهتمامهم على مسائل البحر المتوسط وتحسين علاقاتهم مع ألمانيا ونبذ الرغبة فى الانتقام منها مؤقتاً ، كما رأوا أن من صالح فرنسا أن تعاود سياستها بالقيام بدور بارز فى السياسة الأوروبية بعد كارثة سيدان عام ١٨٧٠ ؛ حتى لاتفقد مركزها نهائياً كدولة عظمى .

وكانت المحصلة النهائية لهذه السياسة الجديدة أن استقر رأى الجمهوريين الفرنسيين على ضرورة إحراز نصر خارجى ، إذا أرادوا تثبيت مركزهم فى الداخل ؛ خاصة وأنه لفرنسا قوات مسلحة بعد أن أعادت بناءها ، وأنه فى الاستطاعة الاعتماد عليها فى ميادين الاستعمار . وقد أرتاح بسمارك لهذا الاتجاه الجديد فى السياسة الفرنسية ، ومن هنا جاء تأييده لفرنسا فى استيلائها على تونس بصفتها ولاية عثمانية وكتعويض لها عن خروجها من مؤتمر برلين دون أن تنال نصيباً من ممتلكات الدولة العثمانية . وكان مما صرح به المستشار الألمانى فى حديث مع سان ڤاليه Saint Valliet السفير الفرنسى فى برلين «أعتقد أن الكمثرى التونسية ناضجة . وقد حان لنا (أى للفرنسيين) قطافها . وإن وقاحة الباى كانت شمس شهر أغسطس – آب – لهذه الفاكهة الإفريقية التى يمكن أن تتعرض للعطب أو يسرقها آخر (يقصد إيطاليا) إذا تركتموها وقتاً طويلاً أكثر من اللازم على الشجرة» .

"Je crois que la poire tunisienne est mûre, et qu'il est temps pour nous de la cueillir. L'insolence du Bey a été le soleil d'août de ce fruit africain qui pourrait bien se gâter ou être volé par un autre si vous la laisser trop longtemps sur l'arbre".

وفى مناسبة أخرى صرح بسمارك بقوله إنه خير للإيطاليين أن ينصرفوا إلى معالجة متاعبهم ومصائبهم (١) .

---

(١) كان بسمارك يعلم جيداً أن إيطاليا تتطلع إلى تونس ، وكان يرى عند توزيع معظم ممتلكات الدولة العثمانية أسلاباً بين الدول قبيل مؤتمر برلين إعطاء طرابلس لإيطاليا ، إرضاء لها وكتعويض لها عن احتلال النمسا والمجر للولايتين العثمانيتين : البوسنة والهرسك ، وهو الاحتلال الذى أثار قلق إيطاليا ومخاوفها ، مع وجوب ترك تونس لفرنسا .

ولكن بسمارك غير رأيه فى سنتى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ؛ لأنه لم ترقه سياسة إيطاليا ، فهى فى نظره تقوم على المشاغبة والعجز والتردد ؛ إذ ساءه أن إيطاليا كانت تحاول التقرب من الروسيا ، وساءه أيضاً =

ورأت فرنسا أن تستفيد أيضاً من التشجيع الألمانى لها على الاستيلاء على تونس، ولكنها تحفظت فلم تذهب مع ألمانيا إلى الحد الذى وصلت إليه مع بريطانيا ؛ إذ لم تطلب منها أن تسجل فى وثيقة رسمية تصريحاً بموافقة برلين على ذهاب فرنسا إلى تونس كما فعلت مع بريطانيا . ويقول أحد الباحثين إن وادنجتون وزير الخارجية الفرنسية لم يشأ أن يتلقى المنحة الاستعمارية من يد ألمانيا العدوة التقليدية لفرنسا ؛ حتى لاتتخذ المعارضة فى فرنسا من مصدر هذا العرض وسيلة للطعن فى قيمته[1] .

وأخيراً اصطنعت الوزارة الفرنسية ، وكان يرأسها جيل فرى Jules Ferry ، مبرراً لغزو تونس . وجدير بالذكر أن العسكريين الفرنسيين فى الجزائر والمستوطنين الأوروبيين فيها كانوا قلقين من وجود دولة إسلامية مستقلة فى غرب الجزائر ، هى مراكش ، ونيابة إسلامية عثمانية فى شرقها هى تونس . ويتوجسون خيفة من أخطار إسلامية تهدد الجزائر ، لذلك كان العسكريون والمستوطنون فى الجزائر جد متحمسين لقيام فرنسا بغزو تونس[2] . وكانت الذريعة التى اختلقها جيل فرى هى حوادث الحدود ، وتتمثل فى تحركات قبائل الكرميين أو الكرومير Kroumirs التى تسكن الركن الشمالى الغربى من تونس . ولم تكن حوادث الحدود جديدة بل ترجع إلى ما يقرب من خمسين سنة خلت ، منذ أن احتلت فرنسا بلاد الجزائر عام ١٨٣٠ ، فقد هاجر عدد من الجزائريين ، وأقاموا فى مناطق الحدود الجزائرية التونسية يمنون أنفسهم بالعودة إلى الجزائر يوماً ما . وحرص جيل فرى على أن يعطى حملة تونس طابع الحملة التأديبية ، وأرسل إنذاراً مؤرخاً فى اليوم الرابع من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٨١ إلى محمد الصادق باى تونس سلمه إليه روستا Roustin القنصل الفرنسى العام . وجاء فى هذا الإنذار أن الحكومة الفرنسية قررت التدخل لتأديب قبائل الكرومير . وتأسيساً على ذلك.. فإن القوات الفرنسية الغازية قوات صديقة ، وذهب الإنذار الفرنسى فى استهزائه بالحكومة التونسية إلى حد أنه طالب بأن تتعاون القوات التونسية مع القوات الفرنسية فى أداء مهمتها .

=موقفها العدائى من صديقته النمسا ، إذ كان شطر كبير من الرأى العام الإيطالى يطالب باسترداد إقليم تورنتـــينو Terentino من النمسا ، وكانت الدوائر العليا فى الحكومة الإيطالية تؤيد هذا الاتجاه بل وتشجعه ؛ إذ كانت هذه الدوائر غير مستعدة لشراء صداقة النمسا ، فى مقابل ترك جزء من الوطن الإيطالى ، يجب أن يعود إلى إيطاليا الأم ؛ ولذا تخلى بسمارك وصديقته النمسا عن تعويض إيطاليا سواء بتونس أو طرابلس.

انظر :

دكتور محمد مصطفى صفوت ، مؤتمر برلين ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٨-٤٠ .

(١) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص١٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٩٧ .

اجتازت القوات الفرنسية حدود تونس فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٨١ ، ونزلت قوات أخرى فى ميناء بنزرت فى أول مايو – آيار – ووصلت فى اليوم الحادى عشر من الشهر ذاته إلى قصر الباى المعروف بقصر باردو Bardo ،على بعد عشرين كيلو متراً من تونس . وهناك لحق القنصل الفرنسى بقائد الحملة الجنرال بريار Brear ، ولم يكن القنصل قد غادر تونس باعتبار أن التدخل الفرنسى ليس حرباً رسمية ، بل هو مجرد عملية بوليسية . وكان الجنرال بريار يحمل معه نص المعاهدة التى وضعها رئيس الوزارة الفرنسية فقدمها إلى الباى؛ لتوقعيها بعد أن أعطاه مهلة خمس ساعات . وهدده الفرنسيون بخلعه عن العرش وتنصيب أخيه الطيب الذى اتفق معهم على التوقيع على المعاهدة ، إذا رفض الباى محمد الصادق توقيعها . وتحت الضغط وقع الباى معاهدة باردو فى اليوم الثانى عشر من شهر مايو – آيار – عام ١٨٨١ ، التى تعد أساس الحماية الفرنسية على تونس ، وإن لم يرد فيها لفظ «الحماية» بل نص فيها على أن الاحتلال العسكرى هو إحتلال مؤقت [١] ؛ ولذلك احتاج الفرنسيون إلى دعم مركزهم فى إدارة البلاد فى معاهدة أخرى ، هى معاهدة المرسى فى اليوم الثامن شهر يونيو – حزيران – عام ١٨٨٣ [٢] ، وقد استخدمت لفظة الحماية فيها لتحديد العلاقة بين فرنسا وتونس . وأصبح الباى لايملك إلا سلطة وهمية ؛ لأن المندوب السامى الفرنسى كان الحاكم الفعلى ، الذى يشرف على إدارة البلاد الداخلية ويتولى شئونها الخارجية .

احتلال مصـــر :

لم يكن ضياع تونس من الدولة العثمانية هو الأثر الوحيد لاتفاق بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى أثناء انعقاد مؤتمر برلين وبعده .. فإن الدولتين الاستعماريتين – بريطانيا وفرنسا – فى المحادثات التى سبقت ثم صحبت ولحقت مؤتمر برلين ، قد أكدتا تساوى نفوذهما فى مصر بحيث لم يكن للمصريين نفوذ فعلى فى بلادهم، وغدت سلطة الخديو إسماعيل سراباً . ولما حاول الأخير الاعتماد على نمو الوعى القومى المصرى وضمه إلى جانبه فى مواجهة التدخل الأوروبى المتزايد ، ثارت بريطانيا وفرنسا على سياسة اسماعيل وأيدتهما ألمانيا . وطلبت من السلطان عبدالحميد خلعه فى السنة التالية لمؤتمر برلين ، ونزل على رأى بريطانيا وفرنسا وألمانيا ، وأصدر بناء على قرار مجلس الوزراء العثمانى «إرادة» بخلع اسماعيل وتعيين ابنه توفيق خديوياً لمصر .

وطير الصدر الأعظم هذه الإرادة فى برقية وجيزة ، أرسلها إلى اسماعيل فى صبيحة يوم الخميس ٢٦ من شهر يونيو – حزيران – عام ١٨٩٧ ، كما أرسل فى الوقت ذاته برقية إلى

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ودكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص٦٤-٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص٦٦-٦٧ .

توفيق بإسناد منصب خديو مصر إليه . وكان هذا التصرف من الأخطاء السياسية الجسيمة، التى وقع فيها السلطان عبدالحميد الثانى ؛ إذ اعتقد أن التجاء الدول الكبرى إليه لعزل اسماعيل يكسبه نفوذاً كبيراً ، ولم يحسب حساباً لعواقب هذا التصرف .

حقيقة أنه لم يكن يعطف على الخديو إسماعيل ، كما لم يكن راضياً عن أسلوبه فى حكم مصر . وكان يعتبره مسئولاً عن الارتباكات المالية ، التى تعرضت لها الحكومة المصرية وعن التدخل الأوروبى السافر فى شئون البلاد . ولكن كان لاستجابته لطلب بريطانيا وفرنسا وألمانيا بعزل اسماعيل نتائج وخيمة ؛ إذ ارتسمت فى أذهان أوروبا عن عبدالحميد صورة الحاكم الذى يصدع بما يؤمر به . وانعكست هذه الصورة لدى الحكومات الأوروبية ؛ خاصة البلقانية التى أرادت الإخلال بقرارات مؤتمر برلين طمعاً فى مزيد من التوسع الإقليمى ، كما حدث عندما طالبت حكومة الجبل الأسود بضم ثغر دولسينيو Dulcigno إليها . وتحت تهديد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا بالتدخل الحربى ، اضطرت الدولة العثمانية إلى إجابة هذا الطلب التعسفى ، وسلمت الثغر إلى حكومة الجبل الأسود فى ٢٦ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٠ .

أما فى مصر .. فقد فقدت الحكومة المصرية هيبتها نهائياً ، وأصبح لبريطانيا وفرنسا من الناحية العملية حق خلع حكام مصر وتوليتهم . ولما تولى توفيق خديوية مصر سيطرت عليه بريطانيا وفرنسا ، وأدرك هذا الخديو ماتستطيع أن تفعله هاتان الدولتان .. فوافق على أن تعيدا نظام المراقبة الثنائية ، وأن تعملا على حماية مصالح دائنيهما بوضع قانون التصفية بحيث خصصت كل موارد مصر لخدمة مصالح الأجانب قبل كل شيء .

ولم تكتف الدولتان بذلك بل ساندتا الخديو فى مقاومة الحركة العرابية وفى كبت الشعور القومى ، وأيدتاه وتدخل الدولتين المسلح ثم تدخل بريطانيا الحربى المنفرد ، واحتلت مصر مدعية بأنها فعلت ذلك باسم الخديو توفيق ونيابة عنه وتأييداً لسلطته (١) ، وأعلنت أن احتلالها مؤقت وأنها ستجلو عن مصر حالماً تستطيع الحكومة البريطانية بوسائلها تثبيت سلطة الخديو وإعادة النظام العام بها ، والواقع أنه لم يكن فى مقدور الحكومة البريطانية فى سنة ١٨٨٢ أن تعلن الحماية السافرة على مصر أو أن تطلب إلى الدول الاعتراف بمثل هذه الحماية؛ فلجأت إلى بسط حماية مقنعة a veiled Protectorate إلى أجل غير مسمى ، ومارست فى ظلال هذا النظام سلطات واسعة لأحد لها(٢) ، وظفرت بسيطرة انفرادية على قناة السويس واعتبرتها شرياناً بريطانياً رئيسياً للمواصلات البريطانية بين أجزاء إمبراطوريتها . وغدا الإبقاء على نفوذها فى القناة ومصر ركناً رئيسياً فى سياستها .

---

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٦٠ .
(2) Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1, pp. 197-199.

وقد ارتاحت بريطانيا كل الارتياح لانفرادها باحتلال مصر دون مشاركة فرنسا لها ، لأنها أدركت أن تونس التى استولت عليها فرنسا تفوق كثيراً جزيرة قبرص من حيث ثرواتها المعدنية والزراعية والبشرية ، وخرجت بريطانيا من هذه المقارنة بين تونس وقبرص بأن القسمة بينها وفرنسا إنما هى قسمة ضيزى فى غير صالح بريطانيا ، فكان انفرادها باحتلال مصر خير تعويض لها .

وهكذا فرغ البريطانيون من احتلال مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ، وفرغ الفرنسيون من احتلال تونس فى العام السابق . وأصيبت الدولة العثمانية بضربتين متلاحقتين فى عامين متتاليين بفقد ولايتين عربيتين فى إفريقية ، ولم يبق لها فى شمال إفريقية سوى ولايتى برقة وطرابلس .

مطامع إيطاليا فى ولايتين عثمانيتين : تونس ومصر :

أما إيطاليا .. فإذا كانت قد خرجت من مؤتمر برلين نظيفة اليدين ، كما صرح كورتى Corti وزير خارجيتها .. فإنها خرجت أيضاً فارغة اليدين ، مما أثار سخط الرأى العام الإيطالى ، وكان يتطلع إلى أن يكون لإيطاليا نصيب فى ممتلكات الدولة العثمانية ، تقرره معاهدة برلين على غرار ماحصلت عليه الدول الأخرى . ورأى أن هذه النتيجة السلبية التى انتهى إليها المؤتمر بالنسبة لإيطاليا إنما هى إذلال لها ، وكان الإيطاليون يرنون بأبصارهم إلى الاستعمار بعد أن استقامت لهم الوحدة السياسية ، وأصبح الاستعمار من الأهداف الرئيسية لإيطاليا المتحدة . وكانت ترى فى تونس المجال الحيوى لها بحجة زيادة عدد السكان وحاجتها إلى الهجرة والتوسع . وكانت تونس أكثر البلاد إغراء للإيطاليين لأسباب جغرافية وتاريخية واقتصادية ؛ إذ لايفصل صقلية عن تونس إلا ممر مائى صغير ، وأن تونس هى امتداد طبيعى لإيطاليا . أما الأسباب التاريخية.. فقد كانت تونس أهم أقاليم الدولة الرومانية القديمة ، ومن المعروف أن الإيطاليين يعتبرون أنفسهم ورثة الرومان فى البحر المتوسط . وكانت الجالية الإيطالية فى تونس هى أكبر الجاليات الأجنبية عدداً تليها الجالية المالطية ثم الفرنسية . أما الأسباب الاقتصادية فإن اتصال البحارة وصيادى الأصداف الإيطاليين بتونس أقدم من غيرهم من الأوروبيين ، فهو يرجع إلى القرن السادس عشر . كما أن تونس تشتهر بثروات معدنية ، وبها أراض زراعية بقيت غير ذى زرع . وقد تأثرت تونس اجتماعياً بإيطاليا ؛ إذ دخلت فى لهجتها بعض الكلمات الإيطالية ، كما أن معظم مستشارى الحكومة التونسية من الأوروبيين فى أوائل القرن التاسع عشر كانوا من الإيطاليين ، وقد سبق أن ذكرنا فى هذه الدراسة أن إيطاليا حاولت الاستيلاء على تونس عقب كارثة سيدان سنة ١٨٧٠ .

وأمام ضغط الرأى العام الإيطالى، تخبطت الحكومة الإيطالية فى سياستها الاستعمارية،

فهى شديدة الرغبة فى تحقيق آمال الشعب الإيطالى فى مواكبة الدول الكبرى فى سياسة التوسع والاستعمار . ولكن الحكومة الإيطالية أدركت أن فرنسا متمسكة بالاستيلاء على تونس ، ولكنها لم تكن لديها قوات مسلحة تستطيع أن تتصدى بنجاح للقوات الفرنسية ، ومن ثم تطلعت بالطرق الدبلوماسية إلى تعيين وزير إيطالى فى الوزارة المصرية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية . وكانت قد تكونت فى مصر فى شهر أغسطس – آب – عام ١٨٧٨ وزارة برياسة نوبار باشا تضم وزيرين أجنبيين ، كان أحدهما إنجليزياً هو ريفرز ولسن Rivers Wilson ، وقد عين وزيراً للمالية ، وكان الآخر فرنسياً هو دى بلنيير de Blignières وقد عين وزيراً للأشغال .

وفوجىء باجت Paget السفير البريطانى فى روما ، واعترته الدهشة حين عرض عليه مافى Maffei وكيل وزارة الخارجية الإيطالية تعيين أحد الإيطاليين وزيراً فى الوزارة المصرية ، وقال له السفير إنه فى حيرة من إصرار الحكومة الإيطالية على هذا الطلب ، وإنه لايدرى المصالح الإيطالية الخاصة فى مصر ، والتى تخول لها حقاً أو ادعاء أقوى من حق أو ادعاء ألمانيا أو النمسا والمجر أو أى دولة أخرى حتى تكون إيطاليا ممثلة فى الوزارة المصرية بوزير إيطالى . وأوضح السفير البريطانى لوكيل الخارجية الإيطالية أن الحكومة البريطانية لن توافق على وضع مصر تحت نوع من الحماية الأجنبية ، أو إعطاء الحكومات المصرية طابعاً دولياً .

وقد أجابه وكيل الخارجية الإيطالية أن إيطاليا قد تلقت مؤخراً صدمة فى تونس ، وأن حرمانها من أى نصيب فى الترتيبات الجديدة فى مصر يكون إذلالاً آخر لها ، وقد جاء فى المذكرة التى بعث بها السفير البريطانى فى أول نوفمبر – تشرين أول – عام ١٨٧٨ إلى لورد سالزبورى وزير الخارجية البريطانية مايلى :

"I told m. Maffei (the Italian Under Secretary of State for Foreign Affairs) that I was at a loss to understand the persistence with which the Italian Government continue to pursue this object (the admission of an Italian into the Egyptain Cabinet). I was not aware, I said, what were the special interests Italy had in Egypt, which gave her better title or claim to be represented in the Egyptian Government than Austria-Hungary, Germany or any other Power. Her Majesty's Government, I said, would never consent to placing Egypt under a sort of foreign protectorate, nor to giving an international character to the Egyptian Government.

M. Maffei replied that Italy had lately received a check in Tunis, and her

exclusion from all share in the new arrangements in Egypt would be a further humiliation".(١)

ولما رأت الحكومة الإيطالية أن فرنسا بسطت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، وأن بريطانيا احتلت مصر سنة ١٨٨٢ ردت رداً عملياً على كلتا الدولتين انتقاماً منها وتشفياً فيها، فانضمت عام ١٨٨٢ إلى التحالف الثنائى ، الذى أبرم بين الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية عام ١٨٧٩ ، وبانضمام إيطاليا إليه أطلق عليه اسم التحالف الثلاثى . ولكن الحكومة الإيطالية اتبعت سياسة ذات وجهين ، وتقربت بعد سنوات ذات عدد من بريطانيا كى تساعدها على أخذ نصيبها من الممتلكات المصرية على الساحل الغربى للبحر الأحمر والساحل الشرقى لإفريقية ، بعد أن أخلت القوات المصرية السودان منذ عام ١٨٨٤ على النحو الذى بسطناه فى الفصل السابق . وكان ضياع تونس ثم مصر من الدولة العثمانية سبباً فى ازدياد ضعف هذه الدولة وهوانها .

مجموعة كوارث تنزل بالدولة فى مستهل حكم عبدالحميد :

على هذا النحو ، اقترنت بداية حكم السلطان عبدالحميد الثانى بمجموعة من الكوارث، نزلت بالدولة ، وحققت الدول الكبرى فى معاهدة برلين أطماعها على حساب الدولة العثمانية التى سارت بخطى سريعة نحو نهايتها المحتومة ، فالروسيا والنمسا والمجر وبريطانيا أخذت نصيبها من الأسلاب العثمانية فى أوروبا وآسيا والحوض الشرقى للبحر المتوسط ...أخذت كل منها ما راق لها أن تستولى عليه ، كما انفصلت غالبية الكيانات البلقانية السياسية انفصالاً تاماً عن الدولة ، وظلت بقية قليلة العدد من الكيانات الأخرى، يربطها رباط واهن من التبعية الاسمية والشكلية بالدولة . واتخذت الدول العظمى مع الشعوب البلقانية المسيحية الخطوة الكبرى فى سبيل تصفية الوجود العثمانى فى أوروبا وطرد العثمانيين منها تنفيذاً لآراء جلادستون ، وتطبيقاً لسياسة لورد سالزبورى وزير خارجية بريطانيا ، وتماشياً مع خطة قيصر الروسيا .

أكذوبة رئيس وزراء بريطانيا :

لقد صرح لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة البريطانية عقب وصوله إلى لندن قادماً من مؤتمر برلين قائلاً إنه عاد يحمل «السلام مع الشرف» (٢) Peace with honour ، وهى عبارة مضللة لاتستقيم مع قرارات مؤتمر برلين ؛ فالشرف لايقوم على تمزيق أوصال دولة إسلامية كبرى وتوزيع معظم ممتلكاتها على الدول الأوروبية الكبرى المسيحية والشعوب البلقانية المسيحية فى عصر كان يعد من أسوأ عهود الاستعمار ؛ فلايمكن اعتبار أواخر القرن التاسع

---

(1) Miller w.; England in Egypt, 1920., p. 28.

(٢) يلاحظ أن هذه العبارة بالذات قد وردت على لسان نيفل تشمبرلن Neville Chamberlain ، رئيس الوزارة البريطانية بعد ستين عاماً ، حين عاد إلى لندن بعد توقيع اتفاقية ميونيخ فى ليلة ٢٩-٣٠ من شهر=

عشر عصر التحرر . ولم يقف الأمر عند هذه الكوارث .. ففى أعقاب مؤتمر برلين واكبت فرنسا الدول العظمى فى سياستها فبسطت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، وتبعتها بريطانيا فى هذا السباق الاستعمارى المحموم ، ونجحت فى احتلال مصر فى السنة التالية .

وجدير بالذكر أن أوروبا لما تحالفت ضد الإمبراطور نابليون الأول ، وهزمته فى معركة واترلو (١٨ يونيو - حزيران - عام ١٨١٥) .. لم تفقد فرنسا من ممتلكاتها مافقدته الدولة العثمانية بعد حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ ، ولذلك فإن معاهدة برلين ١٨٧٨ تعد من أسوأ المعاهدات فى التاريخ العثمانى .

وكان من المنتظر أن تعطى أوروبا الدولة العثمانية فرصة استجمام لالتقاط أنفاسها وإعادة تنظيم شئونها ، ولكن الكوارث لم تنته بإبرام معاهدة برلين ، فقد توالت عليها الأزمات السياسية والحربية ، تثيرها الدول الأوروبية للقضاء على ماتبقى لها من ممتلكات ونفوذ ؛ فقوت الدول الأوروبية دعائم نفوذها ونظام امتيازاتها الأجنبية فى الدولة ، وسجلت نمو النفوذ القنصلى. وكان هذا النفوذ بمثابة سرطان استشرى فى جسم الدولة ، وعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسى أو اقتصادى أو تشريعى أو اجتماعى فى الدولة ، وأوغل بها سريعاً فى مرحلة الاحتضار ، وحرضت الدول الأوروبية العظمى الشعوب البلقانية المسيحية التى ظلت خاضعة للحكم العثمانى على تحريك الثورات ، وإشعال الحروب ابتغاء الانفصال عنها تحت ستار الشعار القديم وهو تحرير الشعوب المسيحية من حكم إسلامى متخلف .. وكان همها فى الواقع زوال الدولة النهائى .

* * *

=سبتمبر-أيلول - عام ١٩٣٨، واشترك معه فى التوقيع عليها هتلر ، وموسولينى ، ودالادييه رئيس وزراء فرنسا وقتذاك . وبمقتضاها تترك تشيكوسلوفاكيا عاجلاً لألمانيا أقاليم معينة ، تسكنها أغلبيات كبيرة من الألمان ، ويجرى فى أقاليم أخرى استفتاء تحت إشراف دولى ، كما يعهد إلى لجنة دولية تخطيط الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . واتفق الكبار الأربعة على وضع تسوية لمطالب المجر وبولندا من تشيكوسلوفاكيا فى خلال ثلاثة شهور، وعاد تشمبرلن إلى لندن وخاطب مواطنيه قائلاً : «لقد جلبت لكم السلام مع الشرف» ، ولكن ونستن تشرشل الذى كان يقف موقف المعارض لسياسة التهدئة رد عليه قائلاً. «لقد كان على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الحرب والعار ، ولقد اخترتا العار . ومع ذلك فستقحم الحرب نفسها عليهما» . وأذعنت تشيكوسلوفاكيا لهذه التسوية وعبر الجنود الألمان الحدود فى أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٣٨، وصحت نبوءة تشرشل بعد أحد عشر شهراً من اتفاقية ميونيخ ؛ إذ اشتعلت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر - أيلول - عام ١٩٣٩ .

انظر :

الفصول الثلاثة التى وضعها الأستاذان أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضبع فى نهاية الجزء الأخير الذى عرباه من كتاب فيشر بعنوان : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) . دار المعارف . القاهرة ؛ ١٩٥٠ وهذه الفصول الثلاثة هى الفصل الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون (ص ص٦٤١-٧٣٦) ، وقد استقينا المادة العلمية فى هذه الحاشية من ص٦٥٧ .

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

Professor of Modern History,

Head of the Department of History,

Faculty of Humanities,

Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume II

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

هذا الكتاب

دائمًا ماينظر إلى التاريخ باعتباره حافظة الوعى الإنسانى ، وحاوية نتاج هذا الوعى من سابق وحاضر ومستقبل الأمم والشعوب .. وفى هذه السلسلة ، التى تتكون من أربعة أجزاء متكاملة ، تحكى قصة الدولة العثمانية من منظور أنها دولة إسلامية لم تأخذ حقها من الإنصاف والعدل والرؤية الموضوعية الحيادية .. تأتى محاولة المؤلف الجادة والرائعة فى هذا التتبع التاريخى الدقيق ، فى طرح كل قضايا هذه الدولة ومتاعبها ونجاحاتها وإخفاقاتها .. تأتى هذه المحاولة من منظور أن التاريخ يفسر الإنسان للإنسان .. تتكامل هذه الأجزاء الأربعة لتشكل دافعًا منطقيًّا للقارئ لأن يعيد تشكيل ثوابته ومعارفه التاريخية ، على أساس من البحث والموضوعية ..

السلسلة جديرة بأن يقرأها كل متخصص فى الدرس التاريخى ، وكل غير متخصص راغب فى أن يعرف تاريخ أمته وعلاقتها بغيرها من الأمم .. لأن ماورد فى أجزائها الأربعة ، " فى ثلاثة وستين فصلاً كاملة تتجاوز ألفى صفحة " ، هو محاولة رائعة لوضع الأمور فى نصابها الصحيح ، تجعلنا أمام تاريخ غير مزيف ، غير مدفوع بهوى شخصى ، غير مدفوع بانحياز مسبق ..

الناشر